

مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق



كتاب

نصرة الثائر على المثل السائر

تأليف

صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي

(٦٩٦ – ٧٦٤هـ)

تحقيق

محمد علي سلطاني

مقدّمة

بقلم الدكتور رمضان عبد التوّاب

الأستاذ المساعد بكلية الآداب - جامعة عين شمس

ليس من شك في أنّ الغيرة على تراثنا العربي ، هي التي تدفع طائفة من شبابنا المثقف ، إلى اختيار نصّ من النصوص العربية القديمة ، التي كان لها أثر ظاهر في موكب الحضارة الإسلامية ، ومحاولة تحقيقه ، مهتدين في ذلك بما استقر عليه المهتمون بتحقيق التراث العربي ونشره ، من أصول وقواعد .

ولقد كان من رأيي دائما أن يبدأ الطالب حياة البحث العلمي ، لنيل درجة الماجستير في الآداب ، بتحقيق نص من النصوص القديمة ، ودراسته دراسة تبرز لنا أثره في معالم الحضارة الإسلامية ، في هذا الفرع أو ذاك ، من فروع المعرفة العربية ، فإن تحقيق نص من النصوص القديمة الأصيلة ، مما يجعل الطالب يتعرّف المكتبة العربية تعرّفا كبيرا ، بما يتطلبه تحقيق الكتاب الواحد من الرجوع إلى مصادر متعددة ومتنوّعة في الأدب واللغة والشعر والنحو والتاريخ والسير والتراجم وغير ذلك .

هذا إلى أن فن تحقيق النصوص ، يكسب الباحث بعد فترة من عمله ، ملكة النقد للنص الذي أمامه ، فإن الباحث مطالب بتحقيق النص الذي يستنبط منه نتائج معينة ، قبل أن يقدم على استنباط هذه النتائج ، وليس من اللازم أن يكون ذلك النص مخطوطا ، فكثير من الكتب المطبوعة التي بين أيدينا ، لا تفترق كثيرا عن المخطوطات ، إذ أن الذين تولوا طبعها ونشرها طائفة من الوراقين ، وبعض الأدعياء الذين لا يدرون عن فن تحقيق النصوص شيئا ، ولذلك جاءت هذه المطبوعات ، في كثير من الأحيان ، مليئة بالتصحيف والتحريف ، نصوصها مضطربة مشوّشة ، تبعد كثيرا عن الأصل الذي كتبه مؤلفوها .

ولقد ظنّ بعض أدعياء العلم ممن ليست لهم خبرة بأصول هذا الفن ، أن تحقيق النصوص ونشرها عمل هيّن سهل ، وما درى هؤلاء أن المحقق الأمين ، قد يقضي ليلة كاملة في الكشف عن صحة لفظة ، أو إقامة عبارة ، أو تخريج شاهد ، أو البحث عن علَم من الأعلام في كتب التراجم والطبقات .

وعلى الرغم من أن حقل تحقيق النصوص العربية ، ما يزال مليئا بالأدعياء ، وممن اتخذوا بضاعة التحقيق تجارة ، فإن الأمل معقود بطائفة من الباحثين النابهين، الذين عشقوا هذا الفن ، ووهبوا له حياتهم ، ورأوا في إحياء تراث العربية بعثا لهمة العرب ، وتذكيراً لهم بأمجاد أسلافهم ، ومآثر أجدادهم .

ومن هؤلاء الباحثين النابهين ، محقق هذا الكتاب ، أخي وصديقي وتلميذي النجيب السيد محمد علي سلطاني ، فهو من عشاق التراث العربي ، ولقد وضع يده على أثر من أنفس آثار عالم من كبار علماء العربية ، وهو هذا الكتاب « نصرة الثائر على المثل السائر » لصلاح الدين خليل بن آيبك الصفدي ، وقد رأى المحقق في هذا الكتاب بغيته ، في تجلية فترة كان النقاد والباحثون ، يعدّونها من عصور الانحطاط الأدبي في العربية ، فاستطاع بتحقيقه هذا الكتاب ودراسته له ، أن يبدد هذا الوهم الذي سيطر على العقول فترة من الزمن . ولقد وقف أمام نصه ، وقفة المتأني ، وسار في تحقيقه على المنهج العلمي لتحقيق النصوص ونشرها ، مراعيا الدقة والأمانة العلمية ، مخرّجا شواهده وأخباره المختلفة ، وقد رجع في كل هذا إلى طائفة أصيلة من المراجع العلمية القديمة .

والله سبحانه وتعالى أسأل أن ينفع به ، ويسدّد خطاه . ربّنا عليك توكّلنا وإليك أنبنا وإليك المصير .

بسم الله الرحمن الرحيم

« كتابنا هذا »

أما مُصنِّف الكتاب ، خليل بن آيبك الصفدي ، فيوشك أن يكون معروفا لدى سواد المثقفين ، وذلك لما شاع من كتبه ، وظهر منها ، وتداولته الأيدي . وقد كانت من بين أوائل المصنفات التي عُني بها في عصرنا الحديث ؛ أذكر منها « الوافي بالوفيات » و « الغيث المسجم » . وما وقفتُ عنده من ترجمته في المقدمة غناء عن ترديده مرة أخرى .

وأما كتابه هذا « نصرة الثائر على المثل السائر » فهو حلقة لا تُغفل ؛ وإن كان الظلّ الصفيق الذي ألقته عشرات الحقب على عصر المؤلف يحجبه عن العين ؛ ذلك لأن تناول الموضوع الذي يعالجه يقتضي البحث السّديد أن يتريّث عنده ؛ بل يستلزم الاهتمام به والعكوف عليه ؛ وإلا فإن النقص الشديد يعتور ذلك البحث ، ويصيب موضوعه باضطراب بيّن ، لا يزال به حتى يستدركه في تراث هذه الحقب المتكدسة التي غابت في ذلك الظلّ الصفيق .

وما زالت تقدات أستاذنا الجليل الدكتور شكري فيصل ، حفظه الله تعالى ، لنماذج من أدب هذا العصر ، وهو يزيح عنها تلك الأحجبة الغليظة حتى تتبدّى للعين في حُليّها ، التي راقت لأصحابها ، ويعرض لتلك الذخائر الذوقية والثقافية ، يحللها الى عناصرها الأولى ، فاذا هي تلك النماذج الحية النابضة بحياة زخّارة ، تترجم عن عصرها أجلى ترجمة ـ ما زالت تلك النقدات تحملني على أن أقبل على هذا الفن ، أستمد من عزيمة أستاذي الجليل العون وأهتدي بهديه ، حتى ظفرت أخيرا بهذا الكتاب ، اتخذته موضوع رسالتي لدرجة الماجستير ، فأكببت عليه بتلك الروح التي عوّدناها أستاذنا الجليل .

غير أن الكتاب يمتاز من دون تلك الكثرة ، من مصنفات عصره ، بموضوعه الذي تناول بحث النقد بالنقد نفسه ، وفي ذلك ما فيه من دلالة على الحياة النابضة ،

التي نفتقدها في تيار هذا العصر السياسي ، على نحو ما يصوره اصطلاح « عصر الانحطاط » لتلك الأحقاب الطوال • والحيوية التي تعنيها هي أن يستثير النقد نقداً ، يردّ عليه ، ويواجهه •

وإن زعم الزاعمون أنها حيوية المصنف فهي حجة ضعيفة ذلك لأن المصنف أحد أبناء عصره الذي يحيا معهم وبينهم • وليس من الضروري أن تكون حيوية هذا العصر على نحو ما نحب منه ، ولكن من الضروري أن تكون ترجمان العصر نفسه •

ولكن الصفدي في هذا الكتاب لم يقصّر عن شأو من تقدّمه من هؤلاء المعدودين في فن النقد ؛ لا في مادة بحثه ولا في أسلوبه ، فأما في مادة الموضوع فان أكثر نماذجه التي اعتمدها في مناقشته واستشهاده إنما هي النماذج المحتذاة في تقويم الأئمة من النقاد ، فهي من شعر مثل البحتري وأبي تمام والمتنبي ، ومن نثر الجاحظ وأضرابه • وأما في أسلوبه فيتبيّن في عبارته التي تخلّت عن نهج عصره في المماحكة اللفظية ، وعبودية الأداء السقيم ، ويتبيّن أيضا في استلهام الذوق السليم ، الذي نمّته التجربة والاستعداد القويم ، ويتبين أيضا في الجرأة على معايير زمانه من معارضة أئمة البيان في أيامه ، والاستشهاد بما لم يكن إلا مثالا ينظر إليه على أنه بعيد المرمى عسير البلوغ • ويتبين أيضا في نهجه الذي تقتضيه نزاهة النقد ؛ سوى فضائل أخرى تستوقف القارىء هنا وهناك ، تحمله على أن يعاود النظر فيما استقر عنده عن هذا العصر وما صدر عليه من أحكام شتى •

وأختم هذه الكلمة بأن أتوجه بالشكر العميق الذي لا تزال بواعثه تتكرر وتتجدد على الأيام إلى الأستاذ الفاضل الدكتور عبد القادر القط الذي بدأ رعايته لعملي هذا وأحاطه بفضله إلى النهاية ، وكذلك إلى الدكتور رمضان عبد التواب الذي أكرمني بمتابعة الطريق بروح متوثبة للعلم ، حريصة على مشاركة طلابه كل المشاركة ، وأثنّي بالشكر الجليل لأعضاء لجنة المناقشة ، فقد انتفعت كثيرا من ملاحظاتهم القيمة •

ولا بد من ترديد عاطر الثناء والاعتراف بالجميل للأستاذ رئيس مجمع اللغة العربية المبجل الدكتور حسني سبح ، الذي شرّفني بموافقته على أن يكون كتابي هذا درج مطبوعات المجمع ، فله الشكر الجميل ،

والحمد لله تعالى الذي منه العون والسّداد .

دمشق ٥ / من ذي الحجة / ١٣٩١

٣١/ من كانون الثاني/١٩٧١

محمد علي سلطاني

« المؤلف »

صلاح الدين الصفدي

هو خليل بن الامير عز الدين آيبك بن عبد الله الألبكي الصفدي ، صلاح الدين أبو الصفاء[1] . كان والده من أمراء المماليك ، وولد له خليل في صفد سنة ٦٩٦ هـ ، ونشأ نشأة عربية خالصة نظير غيره من أبناء المماليك ، وتمتع برغد العيش في ظل أبيه فوجدت مواهبه مجالها الفسيح لتتفتح وتعبر عن ذاتها ، فبدأ ميله إلى بعض الفنون « وتعانى صناعة الرسم فمهر فيها ، ثم حبب إليه الأدب فولع به ، وكتب الخط الجيد وشارك في الفنون [2] » .

« وذكر عن نفسه أن أباه لم يمكنه من الاشتغال حتى استوفى عشرين سنة ، فطلب بنفسه ، ونال الشعر الحسن ، ثم أكثر جدا من النظم والنثر والترسل والتواقيع [3] » .

وقد هيأه ولوعه بالرسم وتعلّقه به ، لأن يكون خطاطا بارعا ، كما أطلق هذا الولوع خياله وأغناه ليجيد التعبير بالتصوير في الشعر والنثر ، وهو في الشعر وسيلته الأصيلة .

وهكذا بدت طريق الصفدي واضحة متميزة ، مما سيظهر أثره كذلك واضحا متميزا في تحصيله واهتمامه وتآليفه .

لم يجد الصفدي في علماء بلده ما يرضي مواهبه ويشبع نهمه ، « وكانت له همة عالية في التحصيل [4] » . فرحل إلى دمشق يقرأ على علمائها وكانوا من أجلّ الرجال .

---

(١) النجوم الزاهرة ١١/١٩
(٢) الدرر الكامنة ٢/٨٧ .
(٣) المصدر السابق ، والبدر الطالع ١/٢٤٣ .
(٤) طبقات الشافعية للسبكي ٦/٩٤ .

فأخذ الأدب عن شهاب الدين محمود [١] ولازمه، وعن ابن نباته الشاعر [٢]، كما لازم فتح الدين بن سيد الناس [٣] وأخذ عنه المغازي والسير، وأخذ النحو عن أبي حيان النحوي [٤]، وأما عن القاضي بدر الدين بن جماعة [٥] فقد أخذ الفقه على المذهب الشافعي، وأخذ عن الحافظ المِزّي [٦]، وقرأ على الشيخ تقي الدين السُّبكي [٧]، كما أخذ التاريخ عن أبي عبد الله الذهبي [٨] حتى برع في الأدب نظما ونثرا وكتابة وجمعا • وقد أثّر اهتمامه البالغ بالأدب وتحصيله وما يتصل به بسبب على تحصيله لبقية العلوم، والتي لم تجد كذلك هوى من نفسه • فكأنما أدرك سوء تأثيرها في خيال الأديب وفي تعبيره الشعري، « فقرأ يسيراً من الفقه والأصلين [٩] » وكذلك « قرأ بنفسه شيئاً من الحديث [١٠] » حتى قال فيه صديقه

(١) شهاب الدين محمود بن سليمان متوفى بدمشق سنة ٧٢٥ هـ انظر الدرر الكامنة ٤/٣٢٤ .

(٢) ابن نباته الشاعر محمد بن محمد متوفى بمصر سنة ٧٦٨ هـ انظر المصدر السابق ٤/٣٣٩ .

(٣) فتح الدين بن سيد الناس اليعمري محمد بن محمد متوفى بالقاهرة سنة ٧٣٤هـ انظر الوافي بالوفيات ١/٢٨٩ .

(٤) أبو حيان النحوي محمد بن يوسف الأندلسي أثير الدين متوفى بالقاهرة سنة ٧٤٥ هـ، انظر شذرات الذهب ٦/١٤٥ .

(٥) بدر الدين بن جماعة محمد بن ابراهيم متوفى بمصر سنة ٧٣٣ هـ انظر البداية والنهاية ١٤/١٦٣ .

(٦) الحافظ المزي يوسف بن عبد الرحمن متوفى بدمشق سنة ٧٤٢ هـ انظر مفتاح السعادة ٢/٢٢٤ .

(٧) تقي الدين السبكي علي بن عبد الكافي توفي بالقاهرة سنة ٧٥٦ هـ انظر طبقات الشافعية ٦/١٤٦ .

(٨) ابو عبد الله شمس الدين الذهبي محمد بن احمد توفى بدمشق سنة ٧٤٨، (المصدر السابق ٥/٢١٦) .

(٩) مفتاح السعادة ١/٢١٠ .

(١٠) الدرر الكامنة ٢/٨٧ .

تاج الدين السُّبكي « ما صنَّف كتابا إلا وسألني فيه عما يحتاج اليه من فقهوحديث وأصول ونحو [١] » بينما يقول تاج الدين نفسه في مكان آخر . « وربما وقع لي شعر ركيك من نظم الصِّبيان فكتبه هو عني إذ ذاك وبه رغبت في الأدب [٢] » وقد أجمع شيوخه على تقديره والإعجاب به ، حتى إن بعضهم سمع عنه ، أمثال الذهبي وابن كثير والحسيني وغيرهم [٣] » .

وقد ذكره شيخه الذهبي في (المعجم المختص) فقال فيه : « الإمام العالم الأديب البليغ الأكمل شارك في الفضائل وساد في علم الرسائل وجمع وصنف ، سمع مني وسمعت منه وله تآليف ... والله يمدّه بتوفيقه [٤] » .

كما اعترفوا بموهبته في الأدب والنقد منذ أن كان يقرأ عليهم . يقول الصفدي في معرض حديثه عن شيخه ابن سيد النّاس « وكتبت له استدعاءً إجازتِه لي بما صورته بعد الحمدلة والصلاة ... (فكان مما أجابه به الشيخ) : وأذنتُ لك في إصلاح ما تعثر عليه من الزلل والوهم ، والخلل الصادر عن غفلة اعترت النّقل أو وهلة اعترضت الوهم ، فيما صدر عن قريحتي القريحة من النثر والنظم ، وفيما تراه من استبدال لفظ بغيره ، مما لعله أنجى من المرهوب أو أنجع في نيل المطلوب ، أو أجرى في سنن الفصاحة على الأسلوب [٥] » .

وقد شعر الصفدي في أخريات عمره بوجوب إتقان جوانب أخرى من العلوم التي لا تتم الثقافة إلا بها لا يكون المتعلم متعلما بدونها « فسمع بالآخرة من جماعة ، وقرأ على الشيخ الإمام جميع (شفاء السقام في زيارة خير الأنام) ... ولما أخرجتُ مختصري في الأصلين المسمى « جمع الجوامع » كتبه بخطه وصار يحضر الحلقة

---

(١) طبقات الشافعية ٦/٩٤ .
(٢) طبقات الشافعية ٦/٩٤ .
(٣) الدرر الكامنة ٢/٨٧ .
(٤) شذارات الذهب ٦/٢٠١ .
(٥) الوافي ١/٢٨٩ .

وهو يقرأ عليّ ويلذ له التقرير وسمعه كله عليّ، وربما شارك في فهم البعض منه• رحمه الله تعالى [١] » •

نشاطه الأدبي :

وكان من أنشط أدباء عصره ، كتب الكثير في التاريخ واللغة والأدب ، « وله الأشعار الفائقة والفنون المتنوعة [٢] » • ومن قوله : « وكتبت أزيد من ستمائة مجلد تصنيفا [٣] » « ولعل الذي كتبته في الإنشاء ضعفا ذلك [٤] » • كما أنه كثير الشعر غزيره وهو مبثوث في ثنايا كتبه ، « وقد أودع منه في شرح لامية العجم وغيرها ما يعرف به مقداره [٥] » •• « وديوان شعره مشهور بأيدي الناس وهو من المكثرين [٦] » •

مؤلفاته :

وتبعاً لما عرف به الصفدي من نشاط علمي وغزارة في الشعر فقد كثرت بالتالي كتبه فعد « في باب التأليف من المكثرين المجوِّدين [٧] » حتى قال ابن كثير إنه « كتب ما يقارب مائتين من المجلدات [٨] » أما الزركلي فقد ذكر أنه « كثير التصانيف الممتعة ، له زهاء مائتي مصنف [٩] » • ويتقدم ابن العماد الحنبلي ليقول : « ووقفت على ترجمة كتبها الصفدي لنفسه نحو كراسين ، ذكر فيها أحواله ومشايخه وأسماء مصنفاته• وهي نحو الخمسين مصنفا • منها ما أكمله ومها مالم يكمله[١٠]» •

---

(١) طبقات الشافعية ٦/٩٤ .
(٢) البداية والنهاية ١٤/٣٠٣
(٣) مفتاح السعادة ١/٢١٠
(٤) الدرر الكامنة ٢/٨٧ .
(٥) البدر الطالع ١/٢٤٣ .
(٦) النجوم الزاهرة ١١/١٩ .
(٧) كنوز الاجداد ٣٨٠
(٨) البداية والنهاية ١٤/٣٠٣ .
(٩) الاعلام ٢/٣٦٤ .
(١٠) شذرات الذهب ٦/٢٠١ .

هذا ما قيل ، أما ما وصل الينا فلم يزد على خمسة وأربعين اعتمدت في معرفتها على كتاب بروكلمان في « تاريخ الأدب العربي » مضيفا إلى قائمته ما لم يصل اليه خبره مما ورد عند غيره •

وهاك ثبتا أبجديا بكتبه هذه :

١) أعيان العصر وأعوان النصر ، جعله لتراجم مشاهير القرن الثامن الهجري من الرجال والنساء في ستة مجلدات • وقد أشار غالب من ترجم للصفدي إلى أنه أفرد هذا الكتاب من كتابه الوافي بالوفيات [1] ، ولا يزال الكتاب مخطوطا وقد ورد في كل من طبقات الشافعية ٦/٩٦ والدرر الكامنة ٢/٨٧ باسم « أعوان النصر في أعيان العصر » والنجوم الزاهرة ١١/١٩ والأعلام ٢/٣٦٤ والبدر الطالع ١/٢٤٣ وعند بروكلمان S II 23 GAL II 32 برلين ٩٨٦٤/٩٨٦٥ — القاهرة (ثاني) ٥/٣٥ وفي دار الكتب المصرية بالقاهرة تاريخ ١٠٩١ — ١٠٩٤ وأيا صوفيا ٣٩٦٢ ، ٩٦٣ ، ٩٦٤ ، ٢٩٧٠ وغير ذلك •

٢) اختراع الخراع • وهو شرح منصل لأشعار مع تعليقات في علوم اللغة والعروض ، ولم يرد إلا عند بروكلمان CAL - II 33, S II - 29 ليدن ٣٢١ وفي دار الكتب تيمورية ٢٠١ أدب •

٣) الأرب من غيث الأدب ولم يرد إلا في فهرس الخزانة التيمورية٣/١٧٧ دار الكتب المصرية سنة ١٩٤٨ وقدعثرت في مكتبة معهد الدراسات العربية العاليةبالقاهرة على نسخة مطبوعة (ب ١ — ١٩٦) بالمطبعة العثمانيــة سنة ١٨٩٧ ويغلب على الظن أنها مقتطفات من كتاب الصفدي • بينما أشار صاحب معجم المؤلفين ٤/١١٤ إلى أن كتاب الأرب من غيث الأدب هو نفسه « الغيث المسجم » ويؤكد هذامحتويات كتاب الأدب المشار إليه • كما أن في دار الكتب الظاهرية بدمشق نسخة خطية باسم « غيث الأدب المنسجم في شرح لامية العجم » (شعر ٢) وفي هدية العارفين ١/٣٥١ فهل هو المقصود في معجم المؤلفين ؟

(١) انظر البدر الطالع ١/٢٤٣ ، والدرر الكامنة ٢/٨٧ .

٤) ألحان السواجع من المبادي والمراجع ، مجلدان ، وهو رسائله إلى بعض معاصريه • مخطوط وقد ورد في الدرر الكامنة ٢/٨٧ والبدر الطالع ١/٢٤٣ والأعلام ٢/٣٦٤ وعند بروكلمان GAL - II - 32, S - II - 28 باسم ألحان السواجع من النادي والراجع ، برلين ٨٦٣١ ، باريس ٢٠٦٧ والمتحف البريطاني١٠١٦ وغير ذلك • وفي دار الكتب تيمورية ٤٢٦ ، ٤٦١ ، ٦٨٦ ، ١٢٦٢ أدب •

٥) تحفة ذوي الألباب فيمن حكم دمشق من الخلفاء والملوك والنواب مخطوط، وهو أرجوزة لكتاب ابن عساكر • وقد نشر صلاح الدين المنجد كتابا للصفدي باسم « أمراء دمشق في الإسلام » أرجوزة ، لعلها جزء من « تحفة ذوي الالباب » وأورده بروكلمان GAL - II - 32, S - II - 28 باريس ٥٨٢٧ وغيرها ومنه نسخة مصورة في دار الكتب المصرية ٢١٠٢ تاريخ •

٦) التذكرة : وهي مطوّل في الأدب والشعر تقع في ثلاثين مجلدا ، مرتب حسب الموضوعات ويقسم إلى أبواب في أنواع الفضائل والرذائل ، وفيه كثير من الفوائد التاريخية والاجتماعية وكثير أيضا من تراجم الشعراء والأدباء •

ومن المرجح أنه صنف التذكرة ليعود إليها عند الحاجة ، يقول صديقه تاج الدين السبكي « أعارني مرة من تذكرته مجلدا ، وكان يصنف كتابا في الوصف والتشبيه وينظر عليه التذكرة ، ويكتب على كل مجلد إذا نجز : نجز التشبيه منه [١] » • كما ورد في الأعلام ٢/٣٦٤ والكتاب مخطوط ذكره بروكلمان في GAL - II - 32 وقال : بعض اجزائها في جوتا ٢١٤٠ والمتحف البريطاني ٧٦٥ وغير ذلك وفي دار الكتب ــ تيمورية الجزء ٣٨ منها ٨٠٤ أدب • ونقول أدبية منها ١٠٣٢ أدب •

٧) تصحيح التصحيف وتحرير التحريف وهو مخطوط وقد ورد في معجم المؤلفين ٤/١١٤ وفي هدية العارفين ١/٣٥١ وهناك نسخة منه في دار الكتب المصرية بالقاهرة المكتبة الزكية ٣٧ لغة [٢] •

٨) تشنيف السمع بانسكاب الدّمع ، وورد كذلك باسم لذة السمع في صفات

(١) طبقات الشافعية ٦/٩٥ •
(٢) انظر «لحن العامة والتطور اللغوي» للدكتور رمضان عبد التواب ٢٦٨ ــ ٢٧٣ •

الدمع ، جمع فيه ما قاله الشعراء في الدمع ووصفه ، فبدأ بالبكاء منذ قول امرىء القيس فيه .٪ حتى جرى كالأنهار وطمى كالبحور في عصره ، مع مقدمة حسنة في النّقد . وهو مطبوع في القاهرة ١٣٢١ هـ .

٩) تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون (الجدية) صدّرها بترجمة مطولة لابن زيدون ومراسلاته ، مع انتقادات شعرية ونوادر تاريخية عن الملوك والقواد ، يليه الشرح . وهو مطبوع .

١٠) توشيح الترشيح . وقد أورده ابن حجر في الدرر الكامنة ٢/٨٧ فحسب.

١١) جلوة المذاكرة في خلوة المحاضرة وهو مخطوط . ورد في الدرر الكامنة ٢/٨٧ والأعلام ٢/٣٦٤ وفي دار الكتب ــ تيمورية ١٩٨ ، ١٦٨ أدب .

١٢) جر الذيل في وصف الخيل وهو مخطوط ورد في الدرر الكامنة ٢/٨٧ والبدر الطالع ١/٢٤٣ .

١٣) جنان الجناس . طبع في استانبول سنة ١٢٩٩ هـ ومنه نسخة موجزة بعنوان « نزهة الخلاص في علم الجناس » مخطوطة في برلين ٧٣٣٣ انظر بروكلمان GALS - II - 29

١٤) الحسن الصريح في مائة مليح . مجموعة اشعار في الغلمان ، وهو مخطوط منه نسخة في دار الكتب الظاهرية رقم عام ٥٦٥٧ وأورده بروكلمان في GAL - II - 32 المتحف البريطاني ١١١٢ وأيا صوفيا ٣١٧٧ وفي دار الكتب ــ تيمورية ٢٣٦ أدب .

١٥) حلي النواهد على ما في الصحاح من الشواهد ، وهو مخطوط ذكره البغدادي في هدية العارفين ١/٣٥١ .

١٦) ديوان الفصحاء وترجمان البلغاء .٪ وهو منتخات من الشعر والنثر ، ألفه للسلطان الأشرف الأيوبي . وهو مخطوط ، ويشير بروكلمان إلى أنه بخط المؤلف في فيينا ٣٨٩ .

١٧) الروض الناسم والثغر الباسم ، وهو مخطوط ورد في الدرر الكامنة ٢/٨٧ والأعلام ٢/٣٦٤ ويشير بروكلمان إلى أن منه نسخة في الأسكوريال ١٨٤٨ . انظر

١٨) رصف الزلال في وصف الهلاّل وهو مطبوع وورد عند بروكلمان باسم كشف الزلال وعند زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية (رشف الزلال) والرشف والرصف أكثر قبولا . كما يشير بروكلمان CAL - II - 33 إلى أن منه قصيدة الحصكفي في معاني كلمة الهلاّل . برلين ٧٠٦٤ .

١٩) وصف الرحيق في وصف الحريق . وهو مقامة لا يزال مخطوطا وقد أورده بروكلمان بعنوان « كشف الرحيق » وزيدان « رشف » وكلاهما أقرب الى حسن الأداء من « كشف » في الأسكوريال ٥٦٤ انظر بروكلمان CAL - II - 33

٢٠) رموز الشجرة النعمانية ، وهو مخطوط ورد في هدية العارفين ١/٣٥١ . وفي دار الكتب الظاهرية بدمشق ورد باسم « شرح الشجرة النعمانية في الدولة العثمانية » رقم ٨٧٣١ و ٦٢٣٢ و ٧٣٣٠ .

٢١) الشعور بالعور ، كتاب في الأدب فيه تراجم العور وأخبارهم وهو مخطوط ذكره بروكلمان في CAL - II - 32 برلين ٩٨٦٧ ومنه نسخة مصورة في دار الكتب المصرية (١٨٣٤ ، ١٢١٥ تاريخ) .

٢٢) صرف العين عن صرف العين في وصف العين . وهو مخطوط ورد في طبقات الشافعية ٦/٩٦ وهدية العارفين ١/٣٥١ وقال بروكلمان إن بعض اوراقه بخط الصفدي انظر CAL - II - 33 في برلين ٣٨٠٦ .

٢٣) طوق الحمامة ، مختصر شرح قصيدة ابن عبدون لابن بدرون وقد أورده بروكلمان في كتابه

٢٤) طرد السبع عن سرد السبع ، وقد ورد في هدية العارفين ١/٣٥١ وعند بروكلمان CAL - S - II - 29 في كوبروللي ١٣٣٧ .

٢٥) العرف الندي في شرح قصيدة ابن الوردي وهو مخطوط ، في دار الكتب الظاهرية بدمشق رقم عام ٥٨١٩ .

٢٦) عبرة اللبيب بعثرة الكئيب وهو عند بروكلمان «عبرة اللبيب بمصرع الكئيب

أو (المقامة الآيبكية) في كتابه CAL - S - II - 29 الفاتح ٤٠٢٧ وفي دار الكتب المصرية تيمورية (٤٨٤ و ١٢٧٠ أدب) •

٢٧) الغيث المسجم في شرح لامية العجم ، أثبت فيه تمكنه من علوم العربية ، وقد أورد فيه شيئاً من المجون وفيه فوائد تاريخية هامة ، طبع في مجلدين •

٢٨) غوامض الصحاح في اللغة •

٢٩) فض الختام عن التورية والاستخدام ، مخطوط ورد في الدرر الكامنة ٢/٨٧ والبدر الطالع ١/٢٤٣ وعند بروكلمان في CAL-II-33,S-II29 في الأسكوريال ٢١٩ ، وكوبريللي ١٣٥١ وغير ذلك ومنه نسخة مصورة في معهد المخطوطات في الجامعة العربية بلاغه ٤٨ وكذلك في دار الكتب المصرية ــ ٢٤٠ ، ٢٤١ والمكتبة الأزهرية ٢٦١ ، ٦٧٨٨ •

٣٠) قهر الوجوه العابسة بذكر نسب الجراكسة • مطبوع •

٣١) القصيدة اللامية عند بروكلمان CAL - S - II - 29 في برلين ٧٩٧٢ •

٣٢) قصيدة تائيه • ليبزج ٤٧٥ في بروكلمان CAL - S - II - 29

٣٣) قصيدة ، برلين ٧٨٦٠ CAL - II - 33

٣٤) كشف الحال في وصف الخال • مجموعـــة شعرية ، وهو مخطوط ورد في الدرر الكامنة ٢/٨٧ والبدر الطالع ١/٢٤٣ وعند بروكلمان CAL - II - 33 في هافانا ٢٩٣ ومنه نسخة في دار الكتب الظاهرية بدمشق رقم عام ٦٩٢٧ وفي دار الكتب المصرية تيمورية ١٠٥٢ أدب •

٣٥) كشف السر المبهم في لزوم مالا يلزم ، وهو مخطوط منه نسخة في دار الكتب الظاهرية بدمشق رقم ٧١٥١ •

٣٦) الكشف والتنبيه على الوصف والتشبيه وهو مخطوط وورد بعنوان التنبيه على التشبيه في الدرر الكامنة ٢/٨٧ وبعنوان الوصف والتشبيه في طبقات الشافعية ٦/٩٦ •

٣٧) لوعة الشاكي ودمعة الباكي وهو مطبوع ، طبع حجر بمصر سنة ١٢٧٤ وفي استامبول سنة ١٣٠١ .

٣٨) منشآت الصفدي ، مجموعة مقالات ورسائل وتواقيع وتقارير رسمية . وهي عند بروكلمان CAL II 32,S II 28 في القاهرة (أول) ٤/٣٣٤ وموشح جوتا ٢٦ CAL - II - 33 وفي دار الكتب المصرية تيمورية (٤١١ أدب) باسم قانون الترسل .

٣٩) المنتقى من المجاراة والمجازاة ، وهو مخطوط وورد في الدرر الكامنة ٢/٨٧ باسم المجاراة والمجازاة في ماجريات الشعراء ، وهو عند بروكلمان CAL-S II - 29 في طوب قبوسراي ٢٦١٧ .

٤٠) المحاورة الصلاحية في الأحاجي الاصطلاحية . بروكلمان GAL - S II - 29 في الأسكوريال ٤٣٢ .

٤١) نكت الهميان في نكت العميان . تراجم فضلاء العميان وأخبارهم ، وهو منسق ويتحلى بمقدمة حسنة في موضوعه . مطبوع .

٤٢) نفوذ السهم فيما وقع فيه الجوهري من الوهم ، في اللغة وهو مخطوط ورد في هدية العارفين ١/٣٥١ .

٤٣) نجد الفلاح في مختصر الصحاح ، وهو مخطوط في اللغة أيضا ورد في هدية العارفين ١/٣٥١ .

٤٤) نصرة الثائر على المثل السائر . وقد ذكره بروكلمان في GAL - II - 33 في القاهرة (اول) ٤/٩٩ = (ثان) ٣/٤١٣ كما ذكره في CAL - II - 29 والنسخ في برلين ١٠٧٣ و ٣٣٩٥ وليدن ٣١٩ والقاهرة (ثان) ٣/٤١٣ وكوبريللي ١٤٠٥ وطوب قبو سراي ٢٤٣٩ وفيض الله ١٧٦٧ .

٤٥) الهول المعجب في القول الموجب . عند بروكلمان GAL - S II - 29 في القاهرة (ثان) ٢/٢٢٨ ودار الكتب المصرية مصورات ١٩٦٤ (٤٣٥ بلاغة) .

٤٦) الوافي بالوفيات • ولعله أكبر المعاجم التاريخيةالمعروفة من نوعه « جمع فيه تراجم الأعيان ونجباء الزمان ممن وقع عليه اختياره • فلا يغادر أحداً من أعيان الصحابة والتابعين والملوك والأمراء والقضاة والعمال والقراء والمحدثين والفقهاء والمشايخ والصلحاء والأولياء ولنحاة والأدباء والشعراء والأطباء والحكماء وأصحاب النحل والبدع والآراء وأعيان كل فن ممن اشتهر أو أتقن إلا ذكره •

وذكر كلّ مَن فتح فتحا يسره ، أو خيراً قرره ، أو جوداً أرسله ، أو رأيا أعمله أو حسنة أسداها ، أو سيئة أبداها ، أو بدعة سنّها وزخرفها ، أو كتاباً وضعه ، أوتأليفاً جمعه ، أو شعراً نظمه ، أو نثراً أحكمه • فازداد النفع به للمحدث والأديب [١] •

دخل الكتاب في ثلاثين مجلداً[٢] وفيه نحو أربعة عشر ألف ترجمة ، وساعده على الظفر بالمواد اللازمة له ، تنقله في ربوع مصر والشام ، وخزائنُ الكتب يومئذ موفورة ، والملوك وأهل الخير من العلماء والأعيان يمدون المدارس والجوامع وغيرها بالكتب ويوقفونها لوجه الله سعياً إلى الخير لهم وللناس — حتى استطاع أن يقدم لنا أعلام ثمانية قرون من رجال الإسلام • « ومقدمة هذا الكتاب العظيم من أمتع ما كتب مؤرخ ، تدل على سعة اطلاعه ، وسمو أدبه ، وعلى تدقيقه واستقصاءاته[٣] » •

وقد طبعت هذه المقدمة في المجلة الآسيوية الفرنسية ١٩١١ — ١٩١٢ ونشرت في كتاب على حدة [٤] • وقد افتتحه فيمن اسمه محمد فبدأ بالرسول عليه الصلاة والسلام ، وثنى بمن اسمه محمد من الأعيان ثم عاد فساق التراجم على حروف المعجم بأسلوب مرسل رقيق ، ومن موجبات الأسف أن هـذا الكتاب النفيس ، لا يوجد كاملاً في مكان واحد ، وربما يتيسر جمع نسخة كاملة من الأجزاء المتفرقة في المكاتب المختلفة •

---

(١) انظر كشف الظنون ٢/١٠٤١
(٢) معظمها مخطوط وقد ذكرها بروكلمان في CAL II 32, S II 28
(٣) كنوز الأجداد — محمد كرد علي ٣٨٠ وما بعدها .
(٤) تاريخ الأدب العربي — زيدان ٣/١٧٤ .

هذا ما وصل إلينا من كتب الصفدي ، وهي ليست كل ما ألفه كما رأيت . وإن نظرة إلى هذه المؤلفات وموضوعاتها تدلنا بوضوح على مدى ولوع الصفدي بالأدب شعره ونثره شرحاً ونقداً ، إضافة إلى إتقانه للتراجم وفن كتابتها . من ذلك ما أورده في كتابه الوافي بعد أن أشار إلى أخذه ذلك عن قاضي القضاة تاج الدين السبكي . فقال : « يشترط في المؤرخ الصدق، وإذا نقل يعتمد اللفظ دون المعنى ، وأن لا يكون ذلك الذي نقله أخذه في المذاكرة وكتبه بعد ذلك ، وأن يسمي المنقول عنه » . فهذه شروط أربعة فيما ينقله .

ويشترط فيه أيضاً لما يترجمه من عند نفسه ، ولما عساه يطول في التراجم من النقول ويقصر ، أن يكون عارفاً بحال صاحب الترجمة علماً وديناً وغيرهما من الصفات، وهذا عزيز جداً وأن يكون حسن العبارة عارفاً بمدلولات الألفاظ ، وأن يكون حسن التصور حتى يتصور حال ترجمته جميع حال ذلك الشخص ، ويعبر عنه بعبارة لا تزيد عليه ولا تنقص عنه . وأن لا يغلبه الهوى ، فيخيل إليه هواه الإطناب في مدح من يحبه ، والتقصير في غيره بل إما أن يكون مجرداً عن الهوى ، وهو عزيز ، وإما أن يكون عنده من العدل ما يقهر به هواه ، ويسلك طريق الإنصاف . فهذه أربعة شروط أخرى ، ولك أن تجعلها خمسة ، لأن حسن تصوره ، وعلمه قد لا يحصل معهما الاستحضار حين التصنيف ، فيجعل حضور التصور زائداً على حسن التصور والعلم . فهي تسعة شروط في المؤرخ ، وأصعبها الاطلاع على حال الشخص في العلم ، فإنه يحتاج إلى المشاركة في علمه ، والقرب منه ، حتى يعرف مرتبته [١] .

وهكذا فقد أحسن الصفدي صنعاً حين نأى بموهبته وذاكرته عن التعمق في أبحاث المنطق والعلوم العقلية ، فطلبها يسيراً واندفع مع ميله الأدبي ينهل ويعل ، فلقد كان هذا الإحساس بتأثير هذه العلوم يعيش في نفسه حتى غدا ملاحظة تجد لها في كل يوم دليلاً إلى أن عبر عن هذه الفكرة فيما بعد في كتابه الغيث [٢] المسجم حين قال : « وكل من عانى النظم وغلب عليه فن من الفنون مال به إلى ذلك الفن وغلبت

---

(١) الوافي بالوفيات ٤٦/١ .
(٢) الغيث المسجم ١٢٤/١ .

عليه قواعده واستعمله في مقاصده الشعرية وتخيلات معانيه وظهر على ما يرويه اصطلاح ذلك الفن وأحكامه .

ألا ترى إلى أبي الفتح البستي ومقاطيعه المشهورة في الآداب والحكم كيف غلب عليها ألفاظ المنجمين ..» .

وانطلق الصفدي مع رأيه هذا يغذيه بالأدلة والشواهد وقد حفل بها شعر عصره حتى أقنع قارئه بأنه غير متجن ولا متمحل فيما ذهب إليه . وبذلك صان الصفدي ذوقه ومنح مؤلفاته أصالة ترقى بها عن أن تكون مجرد نسخ وتصنيف ، بل إن وجوده فيها واضح بارز يخضعها لذوقه ويسيرها بحسّه ويبدو وجوده وصائب نظراته بخاصة في مقدمات كتبه ، كما تتناثر في تضاعيفها .

كل هذا جعله مؤلفاً أصيلاً يأتي في طليعة من كتب في الأدب والنقد في عصره . لذلك لا نغلو ، فإذا عددناه مثلاً ممتازاً لما كان عليه فن الأدب في تلك الفترة من عمر الأدب العربي الوسيط كما تنسحب هذه القيمة لكتبه إلى ما ألّفه في التراجم وخاصة في كتابه « الوافي بالوفيات » دعت العلامة كرينكو ليقول « إنا نجد في كتاب الوافي تراجم كثيرة ، نحاول عبثا الظفر بمثلها في الكتب التي تماثل الوافي بموضوعها. والفهرس التام لأسماء الأشخاص الذين وردت تراجمهم في الأجزاء المعروفة من هذا الكتاب يتألف منها مجلد ضخم (١) » .

إضافة إلى ما اتبعه الصفدي في ذكر الأسماء على ترتيب حروف الهجاء تسهيلا للاهتداء إلى ترجمتها في خضم هذا الكتاب الكبير ، فإنه كان يذكر في آخر ترجمة كل اسم من الأعلام الذين اشتهروا بألقاب أو كنى ، فيشير إلى أماكن تراجمهم من الكتاب وبأي اسم ترجم لهم فيه . وقد اقتبس الزركلي هذه الطريقة حديثا وسلكها في « أعلامه » .

أخلاقــه :

لم يجمع المؤرخون على أمر إجماعهم على الإشادة بما تحلّى به الصفدي من خلق جميل وخصال حميدة فأحبه كل من عرفه .

(١) من كنوز الاجداد ـ كرد علي ص ٣٨٠ .

فقد وصفه ابن حجر بانه «كان محببا إلى الناس ، حسن المعاشرة ، جميل المودة» وأورد فيه قول الحسيني وهو أحد شيوخه بأنه «كان إليه المنتهى في مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم ، وأنه ، « من بقايا الرؤساء الأخيار كما قال ابن سعد[١] » ، حتى إن تاج الدين السبكي وهو يصغره بثلاثين سنة ، شعر بصداقة تربطه بالصفدي حين كان يتردد إلى والده تقي الدين ليأخذ عنه « ولم يزل مصاحبا لي إلى أن قضى نحبه» ودفعه حبه للصفدي إلى أن يقدم له المساعدة لدى الحكام حين أضحى قاضيا ليأخذ مكانه في مناصب الدولة . كما كان من حسن خلقه أنه كان عطر السمعة طيب الذكر في كل ماتولاه من مناصب رغم ما كان يصيب أمثاله من المصادرة والاتهام .

قد لمسنا جانبا من حسن خلقه في تواضعه العلمي حين عاد إلى تحصيل ما فاته من الفقه والأصول بعد أن كبرت سنّه وأضحى له المقام المبجل المرموق في مجتمعه فعاد ليقرأ « على الشيخ الإمام جميع شفاء السقام في زيارة خير الأنام» وكان أكثر من هذا عودته ليحضر حلقة صديقه تاج الدين ويقرأ عليه كتابه « جمع الجوامع » ويكتبه بخطه .

كما وصلت بينه وبين أصدقائه مكاتبات أدبية وودية يلفها الشوق والحنين كلما فرقت بينهم أسباب النوى . وقد ذكر تاج الدين في طبقاته طرفا من هذه المكاتبات[٢] .

وكم من مجلسِ علم وأدب ضمه وأصدقاءه من القضاة والأدباء ، يتداولون مسائل علمية أو أدبيةٍ بروح الود والمحبة . وقد نقل إلينا ابن كثير جانبا من هذه المجالس سنة ٧٦٣ فقال دعيت إلى بستان الشيخ العلامة كمال الدين الشريشي شيخ الشافعية ، وحضر جماعة من الأعيان منهم الشيخ العلامة شمس الدين ابن الموصلي الشافعي « والشيخ الإمام العلامة صلاح الدين الصفدي وكيل بيت المال والشيخ... واحضروا نيفا وأربعين مجلدا من كتاب المنتهى في اللغة للتميمي البرمكي وقف الناصرية ... [٣] » .

---

(١) الدرر الكامنة ٢/٨٧ .

(٢) طبقات الشافعية ٦/٩٤ .

(٣) البداية والنهاية ١٤/٢٩٥ ـ ٢٩٦ سنة ٧٦٣ .

كما كان من دلائل حبه للناس وابتعاده عما يسيء إليهم أنه في كل ما ترجم وأرخ لم يستهدف لغضب المترجم له ولا أثار حفائظ الملوك والأمراء ، ولم يكن ذلك على حساب الحقيقة بل لعدم اعتنائه كثيرا بتاريخ السياسة أو تدوين وقائع الملوك .

ويبدو أن ما حمدناه فيه من لين العريكة وايثاره محبة الناس سيترك للمجتمع تأثيرا واضحا في أحكامه النقدية عند تصديه لذلك مما سيأتي في حينه إن شاء الله .

أعماله :

كان أول عمل تولاه الصفدي بعد أن كملت أدواته هو كتابة الدرج في ديوان الإنشاء في صفد . إذ أن ديوان الانشاء كان يتألف من ناظر الديوان ويسمى كذلك كاتب السر ، وتحته كتاب الدست وعددهم أربعة ، ويسمون كذلك الموقعين لأنه يحق لأحدهم التوقيع على الكتب الواردة في غياب ناظر الديوان ، ويأتي بعد ذلك كتّاب الدرج ويغلب أن يكونوا أربعة كذلك[1] .

ثم نقل إلى القاهرة للعمل نفسه كاتبا للدرج في ديوان الإنشاء هناك . ولكنه بطبيعة الحال وهو في حاضرة البلاد أسمى مكانة منه في أي جزء من أجزاء الدولة ، ويبدو أن المقام طال به في القاهرة الذي استمر في عمله حتى حوالي سنة ٧٦٠ وكان قد بلغ الصفدي الرابعة والستين من عمره .

وهنا يتقدم اليه صديقه الحميم تاج الدين السبكي وهو قاضي قضاة الشام ليحدثنا بقوله « وقد ساعدته آخر عمره ، فولي كتابة الدّست بدمشق ، ثم ساعدته فولي كتابة السر [2] بحلب يتولى بعدها أبو الصفا ، كتابة السر أو ناظر ديوان الإنشاء بالرحبة» ثم يتقدم تاج الدين ليقول : «ثم ساعدته فحضر إلى دمشق على وكالة بيت المال وكتابة الدست » « وكان لايلي نظر بيت المال إلا من هو من ذوي العدالات المبرزة[3] » .

(١) انظر البداية والنهاية ٢٧٥/١٤ .

(٢) هو صاحب ديوان الانشاء ويسمى كذلك كاتب السر (خطط المقريزي٣٦٧/٣) .

(٣) خطط المقريزي ٣٦٥/٣ .

وهكذا تسلّم الصفدي في نهاية عمره منصبين كبيرين من مناصب الدولة المدنية وكان ذلك قبل وفاته بعامين أي سنة ٧٦٢ [١] .

وثقل سمعه في آخر حياته « وكان قد تصدى للإفادة بالجامع ، وقد سمع منه من أشياخه الذهبي وابن كثير والحسيني وغيرهم [٢] » كما استمر قائما على عمله الرسمي في منصبيه المذكورين إلى أن مات بالطاعون في دمشق ليلة عاشر شوال سنة ٧٦٤ هـ .



(١) البداية والنهاية ٢٧٥/١٤ .

(٢) الدرر الكامنة ٨٧/٢ .

خطوات التحقيق

أ– المخطوطة

– صاحبها ومكانته العلمية
– مكانة هذه المخطوطة بين مؤلفاته
– موضوعها
– منزلتها في عصرها
– أهميتها بين كتب النقد العربية

ب – نسخ المخطوطة

١ – النسخة الأم
– وصفها
– صحة نسبتها إلى الصفدي
– هل هي بخطه حقا ؟
– تاريخ تأليفها
– هل هي نهائية أم كانت مسودة ؟
– صحة عنوانها .

٢ – النسخة المساعدة
– وصفها
– مزاياها

٣ – بقية النسخ
٤ – تحقيق النص
٥ – الصعوبات

جـ – فهارس الكتاب

١ ــ المخطوطة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

أتناول في بحثي هذا واحدا من كتب تراثنا في النقد الأدبي ، وَسم بـ « نصرة الثائر على المثل السائر » لمؤلفه صلاح الدين خليل بن آيبك الصفدي • أحد كبار أدباء القرن الثامن الهجري وكتابه المعروفين • وقد ترك لنا المئين[١] من الكتب والمصنفات في الأدب والنقد والتراجم ، ومن منّا لايعرف فضله في سِفْره الجليل « الوافي بالوفيات » •

ولقد كان من أسباب اختياري لهذا الكتاب من مؤلفات الصفدي ، كونه يتفرد منها بالإبانة عن أصالة مؤلفه وإبداعه ، وهو ما تتوق للعثور عليه في تلك العصور •

وقد رمى الصفدي من تأليف « نصرته » إلى نقد ما أخذه على ابن الأثير في « المثل السائر » فكان كتابه ــ كما يشير اسمه ــ ردفا لكتاب ألفه ابن أبي الحديد في نقد المثل السائر ونقضه جعله « الفلك الدائر على المثل السائر » • فقد أحدث هذا « المثل » في عصره جلبة كان فيها أشبه بحجر أُلقى في بركة راكدة ، نجم عنها عدد من المؤلفات، أعادت إلى الذاكرة ما أحدثه من قبل إبداع الطائيين ، وما أسفر عنه خلاف الأدباء حول المتنبي وشعره •

ولم نعرف من هذه الكتب التي ولدها المثل السائر سوى ما أخبرنا به صاحب « كشف الظنون » • فكانت كما تدل عنواناتها يستدعي بعضها الآخر ويدفعه إلى الظهور فجاءت على التوالي كما وردت في كشف الظنون :

١ ــ « الروض الزاهر في محاسن المثل السائر[٢] » لبعضهم وهو ــ كما يقول عنوانه ــ معجب « بالمثل » منافح عنه ، مقر بمحاسنه وفضله •

---

(١) البداية والنهاية ٣٠٣/١٤ .

(٢) كشف الظنون ٣٧٥/٢ .

٢ — « الفلك الدائر على المثل السائر »(١) وهو كتاب ابن أبي الحديد المشار إليه قبلا .

٣ ـ « نشر المثل السائر وطي الفلك الدائر » (٢)لأبي القاسم محمود بن الحسين الركن السنجاري (٣) المتوفى عام ٦٤٠ هـ . وقد أشار الصفدي إلى هذا الكتاب في « نصرة الثائر » (٤) . كما ترجم لصاحبه في سطور قليلة ، أفادت بأن أبا القاسم هذا قرأ على ضياء الدين ابن الأثير . وقد حان الوقت للرد عن شيخه ، وإعادة سهام « المواخذة » ثانية إلى فلكها الدائر . فقال عند سماعه « بفلك » ابن أبي الحديد :

لقد أتى بارداً ثقيلاً ولم يرث ذاك من بعيد
فهو كما قد علمت شيء أشهر ما كان في الحديد

٤ — « قطع الدابر عن الفلك الدائر » (٥) لعبد العزيز بن عيسى .

٥ — « نزهة الناظر في المثل السائر (٦)» لأبي العباس أحمد بن محمد الدنيسري المعروف بابن العطار الشاعر (٧) المتوفى في القاهرة سنة ٧٩٤ هـ .

٦ ـ « نزهة الناظر من المثل السائر (٧) » لنجم الدين ابن اللبّودي (٨) المتوفى

(١) كشف الظنون ٢/٣٧٥
(٢) المصدر السابق ٢/٣٧٥ ، ٦٠٠ .
(٣) ترجمته في هدية العارفين ٢/٤٠٥ ، ومعجم المؤلفين ١٢/١٥٩ وفيه وفاته سنة ٦٥٠ هـ .
(٤) ص ٤/أ .
(٥) كشف الظنون ٢/٣٧٥ ـ ٣٧٦ ولم أعثر على ترجمة لصاحبه .
(٦) المصدر السابق ٢/٥٩٧
(٧) المصدر السابق .
(٨) هو يحيى اللبودي الطبيب الأديب ، ولد بحلب ونشأ بدمشق ثم كان فيها ناظرا على الديوان ـ انظر عيون الانباء ٢/١٨٥ ، وكشف الظنون ٢٩٠ و ٣٨٢ و ٨٧٣ وغيرها ، وهدية العارفين ٢/٥٢٤ ، ومعجم المؤلفين ١٣/٢١١ وفيه وفاته بعد سنة ٦٦١

بدمشق سنة ٦٧٠ هـ . كما اختصره جماعة منهم ابن العسّال [١] ويزعم صاحب كشف الظنون ٢/٣٧٥ بأن أبا منصور موهوب بن أبي طاهر الجواليقي قد شرح المثل السائر ، وهذا توهم منه ، فأبو منصور من وفيات سنة ٥٤٠ وله شرح أدب الكاتب لابن قتيبة [٢] .

٧ — ثم يأتي كتابنا هذا « نصرة الثائر على المثل السائر [٣] » .

ولم أعثر على أي من هذه الكتب فيما عدا كتابي الصفدي وابن أبي الحديد « كما أن الصفدي لم يتحدث عن غير « الفلك الدائر » وهذا لايعني أنه لم يعلم بوجودها ، فلقد رأيناه يشير إلى أحدها . وسبب ذلك عنده ، هو وقوفها جميعا إلى جانب المثل السائر تقرظه وترفع لواءه ، فوجد ضالته في ابن أبي الحديد يدعم فلكه ويؤكد اتجاهه .

ويغلب أن يبقى كتاب الصفدي بعد هذا واحداً من أبرز ما ألف حول المثل السائر وذلك بما غلب عليه من الروح الفنية ، واعتماد النصوص الأدبية .

ولا غرابة ، وقد عُرف صاحبه بشعره ونثره ، يعينه في هذا ذوق نام لم يفسده ما كان يثقل المثقفين من أدباء عصره من علوم يتعين عليهم إتقانها والإحاطة بها ، وفيها المنطق والعلوم الشرعية بفروعها المتحددة . فلقد أتيح للصفدي أن يساير ميوله الفطرية وموهبته الأدبية منذ نعومة أظفاره « فتعانى صناعة الرسم فمهر فيها ، ثم حبب إليه الأدب فولع به » [٤] كما كان في إشباع هواياته متفرغا ، يعينه ما كان عليه أبوه من جاه وثراء . وقد « ذكر عن نفسه أن أباه لم يمكنه من الاشتغال حتى استوفى عشرين سنة ، وطلب بنفسه ، فأخذ عن الشهاب محمود ... [٥] » .

ويحتل كتاب الصفدي هذا مكانه بين قافلة كتب النقد التي تصلح مرآة لعصورها ،

---

(١) عروس الأفراح ١/٣٠ .
(٢) انظر هدنة العارفين ٢/٤٨٣ ، ومعجم المؤلفين ١٣/٥٣ ، وبغية الوعاة ٢/٣٠٨ .
(٣) المصدر السابق .
(٤) الدرر الكامنة ٢/٨٧ .
(٥) البدر الطالع ١/٢٤٣ .

فيعطي صورة وافية عن الأدب وأصحابه ، أذواقهم ، طرائقهم ، مثلهم الأدبية ... وبالتالي صورة عن الحياة العامة على تعدد جوانبها . إذ من الثابت لدينا حتى الآن ، أن كتاب « المثل السائر » في أوائل القرن السابع هو آخر حلقات السلسلة في كتب النقد العربية قبل العصر الحديث ، يجفّ بعده مداد التأليف في هذا الميدان كما يبدو ، إلى أن يأتي الصفدي ، بكتابه « نصرة الثائر » حوالي منتصف القرن الثامن فكان هذا الكتاب بروحه الشّفيفة ، ومنهجه السليم وما يبدو من ذوق صاحبه،أكمل مصدر نستشف خلاله مناهج النقد ومجمل مسائله وأحواله في تلك العصور المعتمة من تاريخ الأدب العربي .

ومما يجدر ذكره أن ماجاء به الصفدي هنا من نظرات في الأدب ونقده وتذوقه لم يزد عما سبقه إليه أسلافه في عصور الأدب الزاهرة ، إلا أن أهميته البالغة تبرز في أخذه بيد النقد الأدبي من وهدة البلاغة وقواعدها ومماحكاتها التي تردى إليها، والسير به في الطريق الصحيح بين حدائق الأدب ورياضه الغضة .

وإذا عمدنا هنا إلى اقتضاب العبارة ، فسيكون للكلام عن النقد في كتاب الصفدي مجال واف بعدُ إن شاء الله (١) .

(١) وهي الدراسة التي قمت بها للكتاب ، وعساي أنشرها عما قريب .

ب ـ نسخ المخطوطة

لقد اجتمع إلي من نسخ المخطوطة :

١ ـ **النسخة الأم** : وهي التي رمزت إليها بالحرف (م) ، وردت إلى من المكتبة التيمورية بالقاهرة ـ دار الكتب المصرية (بلاغة ٢٨٣) قوامها ١٣٨ لوحة وتضم الصفحة حوالي سبعة عشر سطراً ينتظم في كل منها اثنتا عشرة كلمة تقريبا . وقد كتبت بخط نسخي جميل ، وهي تامة الأوراق إلا من خروم أصابت أطراف عدد منها بفعل الرطوبة وتقادم العهد مما سبب كذلك ضياع الصفحة المؤتمنة على سطور المقدمة مما ستمدنا به النسخة المساعدة . وجاء على الصفحة الأولى عبارة تقول « هذه النسخة بخط المؤلف ـ رحمه الله تعالى » ورحت أجمع الأدلة لأتوثق من صحة هذه العبارة ، فأسلمني ذلك إلى تساؤل جديد حول نسبة الكتاب إلى الصفدي فصفحة الغلاف تصرح بنسبته إليه فهل كان له حقا؟.

اعتقدت ذلك مستندا إلى الأدلة الآتية :

١ ـ إن عنوان هذا الكتاب ورد في كتب من ترجم للصفدي منهم :

أ ـ ابن تغري بردي في الجزء الثاني من كتابه (المنهل الصافي[1]) مخطوط بدار الكتب المصرية ، وقد نقلت لنا هذه الصفحات ترجمة طويلة للصفدي ورد فيها أسماء مؤلفاته وكان منها (نصرة الثائر على المثل السائر) .

ب ـ كما أورده صاحب كشف الظنون (٢/٣٧٥) في معرض حديثه عن الكتب التي ألفت حول المثل السائر وكذلك فعل البغدادي في هدية العارفين (١/٣٥١) وكلهم ذكر أن للصفدي نسبة هذا الكتاب .

٢ ـ الإشارات العديدة المبثوثة في « نصرة الثائر » التي يذكر الصفدي فيها بعض مؤلفاته الأخرى « كالوافي بالوفيات » على الصفحة ٥٢/ب و « التذكرة »

---

(١) رقم (١١١٣ ـ تاريخ) الورقة ٦٥ ـ ٧٢ .

على الصفحة ١٣/ب و « جنان الجناس » على الصفحة ٣٩/ب و « فض الختام عن التورية والاستخدام » على الصفحة ١١٣/ب •

٣ – كما أشار الصفدي كذلك إلى « نصرة الثائر ••» في كتابه « الغيث المسجم » (١/١٨٠) بقوله « ••• وقد عاب ضياء الدين بن الأثير هذا الفصل في « المثل السائر » وأجبت عنه في كتابي المسمى « بنصرة الثائر على المثل السائر »•

ونعود ثانية وقد ثبت لدينا أن الكتاب للصفدي إلى العبارة القائلة بأن هذه النسخة بخط المؤلف ، لنؤكد صحتها بما يلي :

١ – تنفرد هذه النسخة دون أخواتها الموجودة لدي بما تحفل به من الحواشي المستدركة في معظم صفحاتها وكلها داخلة في صلب النص ومحالة عليه بعناية وبالرسم نفسه ، مما يثبت أنها بخطه وليس بالناسخ لها •

٢ – مطابقة النسخة مع خط المؤلف الصفدي في جزء من مخطوطة « الوافي» في دار الكتب الظاهرية بدمشق ، والتي تبدو صورتها إلى جوار هذا الكلام ، وعليها تصريح المحقق العلامة عبد العزيز الميمني الراجكوتي يؤكد فبه بأن هذا هو خط الصلاح الصفدي دون ريب ، وتبدو المطابقة تامة بين الخطين في كتابة الكلمات ورسم الحروف وأشكالها •

تاريخ التأليف : وبذا غدا من المستطاع تحديد تاريخ تأليف الكتاب على التقريب بعد أن عرفنا أن كتابه « الوافي » على سبيل المثال ظهر قبله إلى الوجود •

فقد جاء على هامش الصفحة ج من جزء الوافي الأول قول المحقق :

« ورأيت في آخر الجزء المذكور بخط قاضي القضاة تاج الدين السّبكي ما صورته :

« قرأت من هذا المجلد ترجمة الإمام عماد الدين الكاتب رحمه الله بكمالها على مؤلفه سيدنا الشيخ الإمام البارع ••• (إلى قوله) وصحّ في يوم الأحد ثامن عشر شعبان المكرم سنة ٧٤٨ » •

فإذا أخذنا بأن الصفدي عمد إلى تأليف كتابه النصرة بعد الوافي مباشرة ، فيكون تاريخ تأليف « نصرة الثائر » حوالي سنة ٧٥٠ هـ .

هل هي نهائية : وقد افترضت أن تكون هذه النسخة هي مسودة الكتاب انطلاقا مما يأتي :

١ — ما قاله المؤلف صراحة في سطوره الأولى من أن « هذه الكراريس مسودة هذا الكتاب ، لم أر أن أذهبها وأعدمها الوجود لانه قد ينتفع بها .. » فهل كتبها ليذهبها لو لم يكن قد ثنّى عليها بالتبييض في نسخة جديدة لديه .

٢ — ما فاضت به الصفحات الغالبة من الحواشي مما يدل على أن اضافات كثيرة في نفس المؤلف كانت لا تزال في طريقها إلى النص .

ولكن كل استقصاء في هذا الأمر لم يسفر عن العثور على « طبعة أخرى » أحدث منها .

كما أننا لن نؤخذ بقول الصفدي الآنف الذكر متوسلين بما يأتي :

١ — جمال الخط ، وخلو الصفحات تماما من أي شطب ، خصوصا وهو يكتب بالحبر ولا بد فيه من الشطب أو الحك عند إجراء أي تغيير عليه أو تعديل فيه . مما يشعر بأنه كتبها عن مسودة سابقة .

٢ — وجود الحواشي نفسها ، فهي دليل عودة المؤلف اليها بعد الفراغ منها . وقد كشف عن هذا عند الحديث عن رسالة ابن زيادة البغدادي بقوله « .. ولم يحضرني عند تعليق هذا الفصل كلام ابن زيادة ، ولعلي أظفر به فيما بعد فأثبته في الحاشية ..[1] » . وقد أثبته فيما بعد كما وعد .

وهكذا عاد الى كتابه ، فملأ الفراغات ، وأجاب عن التساؤلات [2] ، وفاض عنده القول فملأ الحواشي ، كما بقي في ثنايا الكتاب فراغات أخرى[3] تنتظر منه العودة اليها لو تيسر له ذلك . ولكنه لم يعد وبقيت النسخة التي بين أيدينا هي النسخة

(١) نصرة الثائر ١٣/ب .
(٢) نصرة الثائر ٤/ب وعلى هامشها قوله : (مطلب ولادة ابن أبي الحديد) .
(٣) نصرة الثائر ٨٩/ب وغيرها .

المنقحة والنهائية للكتاب . وبقيت كذلك هي النسخة الأم المعتمدة في اخراج نصه الأخير .

٣ ـ استكماله للمخطوطة كل شكلياتها ، من مقدمات وخواتيم وأدعية .. ثم قدمها الى المنتجعين في سطوره الأخيرة فقال : « اذا اتفق للكاتب أو الشاعر مراجعة المثل السائر والفلك الدائر وهذه الأوراق ، فلامرية في أن ذلك يفيده فوائد جمة[(١)] » .

العنوان : أما صحة العنوان المذكور لنص الكتاب فيثبت لدينا من :

١ ـ أن الصفدي ينصر ابن أبي الحديد فعلا في نقده للمثل السائر ، وهو يصرح بذلك مشيراً إلى كتاب ابن أبي الحديد « الفلك الدائر على المثل السائر » ومعارضته لابن الأثير وأنه ـ أي الصفدي ـ سيتناول من المسائل ما غفل عنه ابن أبي الحديد أو مما لم يوفّ القول فيه مبينا ذلك بقوله :

« فلما وقفت على الفلك الدائر ، وجدته قد أغفل كثيرا ، وأخذ قليلا وترك أثيرا [(٢)] » .

٢ ـ كما أن الصفدي ذكر هذا العنوان في عبارة صريحة في ثنايا الكتاب نفسه فقال :

« وقد جمعت ما عثرت عليه من هفوات ابن الأثير في هذه الأوراق .. وسميت ذلك نصرة الثائر على المثل السائر .. [(٣)] » .

فليس من ريب بعد هذا كله في أن هذا النص من مؤلفات الصفدي ، هو صاحب العنوان المذكور وبعد أن رأينا وروده في كتب المؤرخين أمثال ابن تغري بردي وغيره .

ملاحظات : وقبل أن أطوي صفحة الحديث عن نسخة المؤلف هذه : أرى الإشارة

---

(١) نصرة الثائر ١٣٩/أ .

(٢) نصرة الثائر ٣/أ .

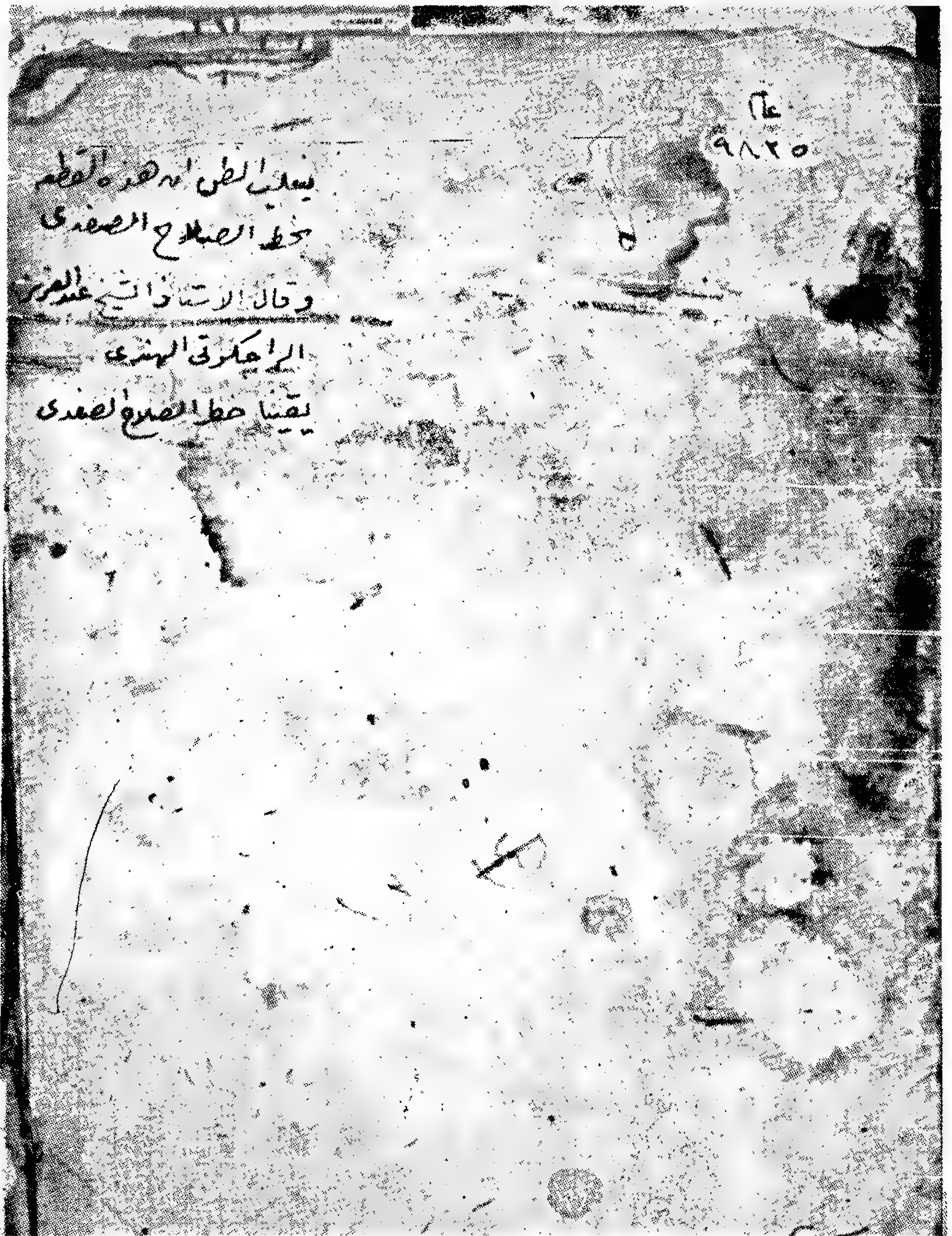
(٣) نصرة الثائر ٦/أ .



اللـوح الأول من النسـخة الأم التي رمز لها بحرف « م »

~~اللوح قبل الاول من النسخة [illegible] التي رمز لها [illegible]~~

نموذج من خط الصفدي بعبارة منه صريحة



اللوح الغلاف من « الوافي بالوفيات » عليه عبارة الأستاذ العلامة الميمني
تفيد بأن النسخة بخط الصفدي

بخط [illegible] الرحمن ابن هذه [illegible] بخط الصلاح الصفدي

عام - ٩٨٢٥ ١١

ولقد تعسفت البلاد وما جنى عدم بلغت حزونها وسهولها

الحزم [illegible] على من الحدثان

ونثرت اردية الدجى وطويتها والعيش من وجيفها وذميلها

الوجيف والذميل ضربان من السير

شامت بروق سحائب [illegible] ضروب الدهر بين سيولها

عرف المصادر قبل جمع [illegible] ومواقع الدهمات قبل طلولها

ومن شعر ابي الفضل بن [illegible] الهاشمي اولها

[illegible] بطول من [illegible] ومن [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

وسكنت عند الوداع فاشرقت اشراقه من عارض مصقول

يقال [illegible] العارض اي [illegible] الفم [illegible]

اتذكر يوم تصقل عارضيها بفرع [illegible] سقي البشام

قيل يعني به الاسنان وما بعد الثنايا والثنايا [illegible] العارض وقيل العارض الناب والضرس الذي يليه وقيل العارض ما بين الثنية الى الضرس قال ابن مقبل

لوح من مخطوط « الوافي بالوفيات » وهو نموذج من خط الصفدي

وبأعلاه عبارة الأستاذ العلامة الميمني تفيد ذلك

الى عدد من الظواهر المتعلقة برسم الصفدي لبعض الحروف فيها مما كان يغلب بالتالي على كتابة ذلك العصر . من ذلك :

- قصر الممدود إذا ختم به العبارة كقوله (الخيلا ، البلغا ، لتسنا) .
- إغفال وضع نقطتي التاء المربوطة في نهاية السجعة ، دون أن يلتزم بذلك في النص كله كقوله (النادره .. البادره) .
- اطراد تسهيله للهمزة المتوسطة كقوله (الفلك الداير على المثل الساير) رغم إشارته الى أن الهمز أفصح [(١)] .
- وضعه ثلاث نقاط مثلثة تحت السين المهملة أحيانا ، فالتزم بذلك عند كتابته أمثال (الحسد ، الأسد ، البسط ، حسناته) وغادره في قوله :(بنفسه ، جنسه ، النفوس) وذلك دون قاعدة ثابتة .
- ثم كان في خاتمة هذه الملاحظات أن يعمد الصفدي الى وضع ألف عمودية صغيرة مع ميل قليل الى الجهة اليمنى تحت الحرف المكسور دون اطراد لهذا في كل الحروف المكسورة . فكتب مثلا (وجر رداء الكبر والخيلاء مخيطا بإبر الحسد) فالتزم بذلك مع كاف الكبر وخاء مخيطا دون الحروف المكسورة الأخرى كهمزة (إبر) مثلا التي اكتفى معها بحركة الكسر المعروفة .

٢ ـ النسخة المساعدة :

وصفها : هي نسخة المكتبة السليمانية (استانبول ١٤٠٥) ورمزت لها بالحرف (ب) وقد قام بنسخها عبد الرحيم بن عبد الرحمن العباسي ، صاحب « معاهد التنصيص » وتم فراغه من نسخها سنة ٩٣٦ هـ ، وهي نسخة تامة ، وخطها كذلك نسخي متقن جميل .

---

(١) نصرة الثائر ٤٧/أ .

وقد بوأتها مرتبة النسخة المساعدة المتممة للنسخة الأم اعتمادا الى مزاياها الآتيـــة :

١ ــ إنه نسخها بتكليف من أحد ملوك عصره • كما يصرح بذلك في سطور دعاء الخاتمة بقوله : « •• وتعم بركتهما من رُقم هذا الكتـــاب بأمره الشريف ••• ويبقى سعده كاسمه مسعود المطالع •• وولده المؤيد مهديا رشيدا » مما يجعل النسخة أدعى الى الصحة والإتقان •

٢ ــ منزلة صاحبها العلمية المعروفة ، وممارسته للتأليف والكتابة ، مما يجعله أقدر على احترام الكلمة ورعاية المعنى •

٣ ــ ما تميز به العباسي في نسخه من أمانة علمية محمودة ، يشير إليها قوله على الصفحة الأخيرة :

« ولم آل جهدا في المقابلة ، الا ما زاغ عنه البصر والله أعلم » ممـــا يؤكد يقظته وحرصه على سلامة النص بحرفيته •

٤ ــ كونها أقرب النسخ الى عصر المؤلف وزمنه ، مما يتيح لها أن تنهل النص من ينابيعه الأولى ، مما صرح به العباسي على صفحته الأخيرة أيضا بقوله: « هذا آخر ما وجد بخط المصنّف رحمه الله تعالى » • ولا نرتاب في صحة هذه العبارة استنادا الى ما أسلفنا من سطور •

٥ ــ وأخيرا فان هذه النسخة كاملة النص ، وفيها من النص الأصلي ما غفلت عنه بقية النسخ التي سيرد حديثها مما جعلها بمزاياها هذه ، إضافة الى إتقانها وجودة خطها ، نسخة موثوقة مساعدة للنسخة (م) •

٣ ــــ بقية النسخ :

ــ النسخة الثالثة : نسخة (استانبول فيض الله ١٧٦٧) رمزت لها بالحرف (ف) • وقد تم نسخها سنة ١٠١٥ هـ من قبل سلامة بن موسى البجري• خطها عادي مقروء •

- النسخة الرابعة : نسخة (ليدن ـ هولندا ٣١٩) ورمزت لها بالحرف (ل)• وقام بنسخها يوسف معتوق الخوجا تاج الدين البعلبكي سنة ١٠٣١ هـ وخطها عادي مقروء •

- النسخة الخامسة : نسخة (برلين ١٠٧٣) ورمزت لها بالحرف (ن) • تم نسخها سنة ١٠٩٣ هـ خطها رقعي مقروء ، ولم يصرح ناسخها باسمه ، كما أنه لم يتورع عن التعليقات الجريئة على هوامش النسخة تصل أحيانا حد الاقذاع والشتم كقوله معلقا على بيت المعري :

ولو أن السحاب همى بعقل •••

« قبح الله المعري ، فهذه الأبيات من خبائثه المعروفة » وليس في تعليقاته ما هو جدير بالاهتمام أو العناية الخاصة • وخطها كذلك عادي مقروء •

- النسخة السادسة (دار الكتب المصرية ١٦٠ بلاغة) ورمزت لها بالحرف (د) • قام بنسخها محمد الدهشوري ، وقد فرغ منها سنة ١١٣٢ هـ • ويبدو من أخطائه الكثيرة في النسخ والتحوير والإغفال أنه ضعيف الثقافة، إضافة الى رداءة الخط •

- النسخة السابعة : نسخة (مكتبة البلدية بالاسكندرية) ورمزت لها بالحرف (س) تم نسخها سنة ١٢٤٧ هـ بقلم عادي •

وهناك نسخة ثامنة في دار الكتب المصرية (٢٠٠ بلاغة) ضربت عنها صفحا لنقصها الكبير ، واضطراب نسخها وضعف ناسخها في رداءة خطها •

٤ ـ تحقيق النص :

لقد كانت النسخة الأم هي المصدر الأساسي للنص ، ولا يبرز دور النسخة المساعدة (ب) الا حين أصل مواضع الخروم ، محيطا ما أنقله عنها بمعترضتين لأتوثق من صحة ذلك عند المقابلة مع النسخ الأخرى فيما بعد •

وأجد من واجبي ابداء الملاحظات التالية :

١ ــ لقد كان النقص في النسخة (م) قليلا نسبيا ، ربما لا يزيد في عموم المخطوطة مجتمعا على الصفحتين •

٢ ــ لم يقع اختلاف يذكر بين النسخة (م) والنسخة (ب) في بقية النص الا ما ندر كأن يسهو العباسي عن نقل عبارة (رحمه الله تعالى) مثلا ، أو حين أضاف من عنده عبارة (أو كما قال ••) عند نسخه قول ابن عميرة الكاتب الاندلسي • وهي على أية حال دليل ورع وأمانة في النقل والإيراد •

٣ ــ إذا اختلفت الرواية في النسخة (ب) عنها في بقية النسخ ، كنت أثبت ما أرجحه ، واتفق أن الرجحان كان الى جانب العباسي دائما •

٥ ــ الصعوبات :

إذا جاز لي الحديث عما اعترضني من صعوبات في تحقيق هذه المخطوطة قلت : إن أبرزها ما تعلق بالأشعار وتخريجها ، فلقد بث الصفدي في ثنايا كتابه ما أناف على ألف شاهد شعري ، موزعة على مائة وسبعين شاعرا ، ينتسب الكثير منهم الى عصور متأخرة تثير أمامنا صعوبة الحصول على دواوينهم مطبوعة أو مخطوطة • فهذه عصور لا تزال أغلب آثارها تغط تحت ركام السنين المتطاولة في غلالة الظلام ، بسبب ازورار المحققين عن الالتفات اليها ، أو اعتبارها جديرة بجهودهم • لكنني لم آل جهدا في تفتيش بطون الأمهات من المجموعات الشعرية • من أمثال الخريدة والدمية أو وفيات الأعيان وفواتها وكثير من أمثالها ، حتى لم يستعص على الكشف منها الا المقل المغمور من أصحابها ، لأقدم بين يدي قراء الأدب كتاب الصفدي هذا في نصه الأخير ، آملا أن يكون في عملي ما يرضي الله والحقيقة • والله الموفق •

المحقق

كتاب
نصرة الثائر على المثل السائر
صلاح الدين خليل بن آيبك الصفدي
٦٩٦ - ٧٦٤ هـ

مقـدمة المؤلف

هذه الكراريس مسودة هذا الكتاب ، لم أر أن أذهبها وأعدمها الوجود لانه قـد ينتفع بها . فلا ينكر الواقف عليها حواشيها المخرجة .

وما احلى قول القاضي الفاضل رحمه الله : والمسودات للاقوال كالأحشاء للاجنة، والحجور للاطفال ، ان خرج منها ما لم تنضجه الأرحام لم يبلغ التمام وان فطم قبـل بلوغ أشد الفطام ، ربما كان عرضة للسقام . وما جعلت الا ليستبد بها صاحبها ، لأنها ثياب بذلة الخاطر ، تارة يخلع الثياب فيكون عريانا ، وتارة يأخذ معول قلمـه فينقب من كلام الناس جدرانا (١/ب) .

بسم الله الرحمن الرحيم

عفـوك اللهم

الحمد الله الذي فطر عقول البشر متغايرة ، وجعل النفوس برأيها على نقطة الرضى دائرة ، وزين لها أعمالها حتى توهمت أنها في الأمثال السائرة .

أحمده على نعمه التي أوضحت ما أبهم وألبس ، وأبدت نار الهدى التي لـم تكن بسوى أنامل الذوق تـُقبس ، وراضت جواد الانتقاد الذي اذا أمَّ غاية لم يثن عنانه ولم يحبس . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يسجَع بها حمام اللّسان من اليقين على أراكه ، وتنجي قائلها من الوقوع في حبائل الشرك وأشراكه، وتكون له ذخيرة اذا عدم سكونه بعد حراكه . وأشهد أن محمداً سيدنا وعبده الذي عصمه الله من الخطأ في القول والعمل ، وحرس به سرح الفصاحة ولولاه لاختلط المرعى بالهمل ، وآتاه من جوامع الكلم ما لم تطمح إليه عين أمنية ولم تطمع فيه يد أمل ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين هابتهم الأساود وخافتهم الأسود ، وتجانست أفعالهم فما منهم إلا من يجول ويجود ، ويسوس ويسود ، وتبرأت شيمهم من النقائص فلم يكن فيهم مختال ولا متكبر ولا حسود ، صلاة تتبسَّم عن ثغرها شفةُ الفجر في لعَس الظلام ، ويتلثم بنورها وجهُ البدر في عُرس التمام .

وبعـد :

فإن كتاب «المثل السائر» للصاحب ضياء الدين بن أثير الجزيرة ، عامله الله بلطفه، وسامحه بما هزت به نسمات الخيلاء من غصن عِطفه ، من الكتب التي خفقت لـه في الاشتهار عذَبات أوراقه ، وسعى القلم في خدمته على رأسه اذا سعى الخادم على ساقه . واشتهر بين أهل الإنشاء اشتهار الليل بالكتمان والنهار بالإفشاء ، لا بل اشتهار بني عـُذرة في الحبّ بتحرق الأحشاء (٢/أ) ، وأولع به أهل الأدب في الآفاق ولع الكريم بالإنفاق ، لا بل ولع الرقباء بالعشّاق .

إلاّ أن واضعه رحمه الله ، وان جمع فيه بين العلم والعمل ، وسجع فيه بين الثقيل والرمل ، وتوهم أن بَدْر فضله قد تمّ وكمل ، وتخيل أن جيد الإنشاء بعده قد

عطل ، وفنه قد خمل ، قد أذهب حسناته النادرة ، بتوالي سيئاته البادرة ، وأضاع تلك الزهرات الفذة ، في قفار الدعاوى التي لا يجد فيها السالك لذة ، وطال على الناس بعد هلاله سوادُ ليله ، ورفضوا مواقع طلّه لغثاء سيله . ونعم فإنه :

ما الجزع أهلٌ أن تَرددَ نظرةٌ فيــه وتَثنى نحــوه الأعناقُ [1]

لأنه أفنى ذلك البسط في الإعجاب بنفسه والإطراء ، وأطال في الغض من أبناء جنسه والازدراء ، وظن أنّ الله قد حرّم الفصاحة على من يأتي من بعده ، وأنّ الذين من قبله إمّا شيخٌ قد خرف في هرمه ، وإمّا طفل يعبث في مهده . وجر رداء الكبر والخيلاء مخيطا بإبر الحسد ، وبالغ في ذلك مبالغة أبي زبيد الطائي [2] في وصف الأسد [3] . ووصف نفسه ولا وصفَ امرىء القيس [4] لأفراسه ، ومدحها ولا مدحَ أبي نواس [5] سلافة كاسه ، وكرر ذلك فغثى النفوس بذلك الغث ، وزاد حتى رثى القلق ثوب الصبر لمّا رَثّ .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « احذروا ثلاثا : الحرص فإنه أخرج آدم من الجنة ، والكبر فانه حطّ إبليس عن مرتبته ، والحسد فإنه دعا ابن آدم الى قتل أخيه » [6] (٢/ب) .

---

(١) الفيث المسجم ٢٢٧/٢ غير منسوب .

(٢) هو المنذر بن حرملة ، شاعر معمر من طيء (ت حوالي ٦٢ هـ) انظر الشعر والشعراء ٣٠١/١ ، وإرشاد الاريب ١٠٧/٤ ــ ١١٥ ، وخزانة الادب للبغدادي ١٥٥/٢ .

(٣) انظر وصفه للاسد في شعراء النصرانية ص ٦٧ وما بعدها .

(٤) امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي ، الشاعر الجاهلي المعروف (ت ٨٠ ق هـ) انظر الشعر والشعراء ١٠٥/١ .

(٥) هو الحسن بن هانىء بن عبد الأول ، الشاعر العباسي المشهور ، ولد في الأهواز واتصل بالخلفاء (ت ١٩٨ هـ) وفيات الأعيان ١٣٥/١ ، وانظر أوصافه في الخمرة في زهر الآداب ١٥٢/٢ وما بعدها .

(٦) الجامع الصغير ١٠٥ وفيه « اياكم والكبر فان ابليس حمله الكبر على أن لا يسجد لآدم ، واياكم والحرص فان آدم حمله الحرص على أن أكل من الشجرة ، واياكم والحسد فان ابني آدم انما قتل احدهما صاحبه حسدا فهو أصل كل خطيئة.

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النارُ الحطب » [١] ويقال : إنه أول ذنب عُصِيَ الله به في السماء والأرض . وقال النبي صلى الله عليه وسلم حاكيا عن الله عز وجل : « الكبرياء ردائي فمن نازعَنيه أدخلتُه النار [٢] » . وقال جعفر بن محمد [٣] : علم الله أن الذنب للمؤمن خير من العُجْب، ولولا ذلك ما ابتُلي مؤمن بذنب .

وقال بعض الحكماء : البَليّة التي لا يُؤجر المرء عليها العُجْب ، والنِّعمة التي لا يُحسد عليها التواضع .

ومما قيل : لا شيءَ أكتمُ للمحاسن من التِّيه والعُجْب .

هذا إلى مافي الكتاب من فَلَتات عديدة ، واختيارات غير موفقة ولا سديدة، ونصر باطلٍ ، وتحلية عاطلٍ ، وترجيح ما ضعُف ووهى ، وتوهينِ ما تحرَّروانتهى .

مَساوٍ لو قُسِمْنَ على الغواني   لمــا أُمهِرْنَ إلا بالطَّلاقِ [٤]

وكنت أقف على أطلالها عند المراجعة ناديا ، وأعثر في أذيالها حين المطالعة غالبا ، وأتأوَّه لانفراد تلك اللآلىء في سلوك السَّبَج [٥] ، وأستطيل سواد لياليه والصبُح من محاسنه ما أسفر ولا انبلج .

---

(١) انظر الجامع الصغير ١٤٠ وفيه « اياكم والحسد فان الحسد .. » عن سنن أبي داود . ورياض الصالحين ٥٦ وفيه « أو قال : العشب » .

(٢) مجمع الزوائد للهيثمي ١/٩٩ وفيه « ان الله عز وجل يقول : العز ازاري والكبرياء ردائي فمن نازعني فيهما عذبته » .

(٣) جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين الملقب بالصادق . أخذ عنه أبو حنيفة ومالك (ت بالمدينة ١٤٨ هـ) انظر وفيات الأعيان ١/١٠٥ ، وحلية الأولياء ٣/١٩٢ ، وصفة الصفوة ٢/٩٤ .

(٤) البيت لأبي تمام من أبيات يهجو فيها الأعمش في ديوانه دار المعارف ١٩٦٥ ص ٤٠٧ وفيه : لما جهزن ، وورد كذلك في رسالة ابن زيدون الهزلية .

(٥) السبج : خرز أسود . انظر لسان العرب مادة (سبج) .

وبلغني ما وضعه عزّ الدين بن أبي الحديد [١] رحمه الله على الكتاب من المؤاخذة ، وأنه استصرخت به تلك الظلامات عائذة . فلما وقفتُ على « الفلك الدائر » وجدته قد أغفل كثيرا ، وأخذ قليلا وترك أثيرا . فأحببتُ بعد ذلك أن ألتقط ما غادره ، وأتتبّع شاذّه ونادره .

وعليّ أن أقضي صلاتي بعدما فاتت إذا لم أقضِها في وقتها (٣/أ)

على أنني بعد ابن أبي الحديد كمن جاء بعد اجتحاف سيل ، وأصبح بعد قاطف النّهار حاطب ليل . فإن هذا الرجل له تصانيف تدلّ على تمكنه واطلاعه ، وسداد مَراميه عندمَدّ باعه ، وريه من الفنون وقيامه بها واضطلاعه . منها تعليقتان على « المحصل والمحصول » [٢] للإمام فخر الدين [٣] وتعليقة ثالثة على « الأربعين » لفخر الدين ، ونظم « فصيح ثعلب » نظما جيدا في يوم وليلة،وهذا « الفلك الدائر» علقه في ثلاثة عشر يوما مع أشغال ديوانه .

وكتب إليه أخوه موفق الدين ابن أبي الحديد لما وضع « الفلك الدائر » :

المثلُ السائر يا سيدي صنفتَ فيه الفلكَ الدائرا
لكنّ هذا فلكٌ دائرٌ أصبحتَ فيه المثل السائرا [٤]

ووضع على « نهج البلاغة » شرحا في ستة عشر مجلدا ، وناهيك بمن يتصدّى

---

(١) عبد الحميد هبة الله من أعيان المعتزلة ، خدم في ديوان الإنشاء ببغداد حتى توفي سنة ٦٥٦ هـ انظر فوات الوفيات ٥١٩/١ ، والبداية والنهاية ١٩٩/١٣ .

(٢) وهما كتابان « محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين » وهو مطبوع بمصر سنة ١٣٢٣ هـ و « المحصول في علم الأصول » مخطوط انظر مفتاح السعادة ٤٤٧/١ ، والأعلام ٢٣٠/٧ .

(٣) فخر الدين الرازي هو محمد بن عمر الإمام المفسر قرشي النسب ولد في الري أقبل الناس على كتبه في حياته (ت ٦٠٦ هـ) انظر طبقات الشافعية ٣٣/٥ ، ووفيات الأعيان ٤٧٤/١ ، ومفتاح السعادة ٤٤٥/١ ــ ٤٥١ .

(٤) في فوات الوفيات ٥١٩/١ ، وذيل مرآة الزمان ٦٥/١ .

« لنهج البلاغة » ويشرحه ، ويأتي على ما يتعلق به من كل علم : أصولاوفقها وعربية وتاريخا وأسماء رجال وغير ذلك . ومن وقف على هذا الشرح ، علم أنه قلّ من يدخل معه ذلك الصرح ، أو يسام معه في مثل هذا السرح، وحسبك بمن واخَذالإمام فخر الدين وأورد عليه . ووجدت له أبياتا أولها :

وحقِكَ لو أدخلْتني النارَ قلت لل | لذين بها قد كنتُ ممن يحبهُ
وأفنيتُ عمري في دقيق علومه | وما بغيتي إلاّ رضاه وقربه
هبوني مُسيئاً أو ْتَغَ الحلمَ جهلُه | وأوبقه دون البرية ذنبه
أما يقتضي شرعُ التكرم عفوَه | أيحسُن أن يُنسى هواهُ وحبه(٣/ب)
أما ردّزيغ ابنِ الخطيبِ وشكَّه | وتمويهَه في الدّين اذ جلّ خطبه
أما كان ينوي الحق فيما يقوله | ألم تنصر التوحيدَ والعدلَ كتبه(١)

فقلت أنا رادا عليه في وزنه ورويّه :

علمنا بهذا القول أنك آخذ | بقولِ اعتزالٍ جل في الدين خطبه
فتزعم أن الله في الحشر ما يُرى | وذاك اعتقاد سوف يُرديك غبُّه
وتنفي صفاتِ الله وهي قديمةٌ | وقد أثبَتَتْها عن إلهك كتبه
وتعتقد القرآن خلقاً ومُحدَثا | وذلك داء عزّ في الناس طِبه
وتُثبت للعبدِ الضعيف مشيئةً | يكون بها ما لم يقدرْه ربُّهُ
وأشياءَ من هذي الفضائح جمةً | فأيكما داعي الضلال وحزبه ؟
ومن ذا الذي أضحى قريبا من الهدى | وحامى عن الدين الحنيفيِ ذَبُّه
وما ضر فخرَ الدين قولٌ نظمْتَهُ | وفيه شَنَاع مفرط إذ تَسُبه
وقد كان ذا نورٍ يقود إلى الهدى | إذا طلعتْ في حِندسِ الشك شهبه

---

(١) فوات الوفيات ٥١٩/١ والأبيات فيه سبعة . جاء في ثالثها « هبوني مسيئا أوضع العلم جهله » وفي الخامس « اذعز خطبه » والبيت السابع هو :
وغاية صدق الصب أن يعذب الأسى | إذا كان من يهوى عليه يصبه

ولو كنتَ تعطي حقَ نفسك قدرَه لأخمدْتَ جمراً بالمُحال تَشَبُّهُ
وما أنت من أقرانه يوم مَعرَكٍ ولا لك يوما بالامام تَشَبُّه [١]

ونقلت من خط الحافظ اليغموري[٢] قال : أنشدني الإمام ركن الدين أبو القاسم[٣] لنفسه في عز الدين بن أبي الحديد وقد صنّف « الفلك الدائر على المثل السائر » :

لقد أتى باردا ثقيلا ولم يَرِثْ ذاك من بعيدِ
فهو كما قد علمْتَ شيء أشهرُ ما كان في الحديدِ

وصنف كتابا يرد فيه على ابن أبي الحديد وسماه : « نشر المثل السائر وطيّ الفلك الدائر »[٤] قلت : هذا ركن الدين أبو القاسم ، هو محمود بن الحسين ابن الإمام أرشد الدين الأصبهاني الأصل السنجاري المولد . كان حنفيا يعرف المذهب والأصولين والخلاف والأدب ، قرأ على السيف [٥] الآمدي وعلى ضياء الدين ابن الأثير ، وبطّل خرقة الفقهاء وتزيّي بزيّ الأجناد ، وتوفي بدمشق في سادس شهر رمضان سنة خمسين وستمائة ، ودفن بسفح قاسيون . ومولده في سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة . وقال في انتقاله إلى الجندية أبياتا منها :

فانظر أخا العقل إلى حِرفةٍ منها هربنا للوغى الجحفلِ
لو لم تكن أنحسَ ما في الورى لم ترضَ عنها بالردَى الاعجلِ (٤/أ)

(١) فوات الوافيات ١/٥٢٠ . وجاءت رواية السابع منها «وجاءعن الدين الحنيفي ذبه» .
(٢) الحافظ اليغموري جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن أحمد أديب شاعر توفي سنة ٦٧٣ هـ . انظر النجوم الزاهرة ٧/٢٤٧ ، والسلوك للمقريزي ١/٦١٩ ونور القبس المختصر من المقتبس لليغموري نفسه .
(٣) ركن الدين أبو القاسم سبقت ترجمته .
(٤) في (م) : نشر الفلك الدائر .. وهو سهو من الصفدي .
(٥) في الأصل « سيف » وهو سبق قلم . انظر الإحكام في أصول الأحكام ، وتاريخ الخلفاء للسيوطي ٧٠٨ ، والبداية والنهاية ١٣/٩٨ (ت بدمشق سنة ٦٣١ هـ) .

وكنت أنا في وقت قد كتبت على «المحصل» للإمام فخر الدين الرازي أبياتا يحسن هنا ذكرها وهي :

علمُ الأصول بفخر الدين منتصرٌ به تَصولُ بإعجاب وإعجازِ
أضحَتْ به السُّنّةُ الغراءُ واضحةً قد استقامت لمختار ومجتازِ
له مباحثُ كم قد أحرقت شُبَهًا بشُهْبِها فمن الزاري على الرازي !

وأنشدني من لفظه شيخنا الإمام الحافظ أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف[1] بالديار المصرية سنة ثمان وعشرين وسبعمائة قال : أنشدنا شيخنا النسابة حافظ المشرق والمغرب شرف الدين أبو محمد عبد المؤمن بن خلف بن أبي الحسن الدمياطي [2] يوم الاربعاء الخامس عشر من جمادى الآخرة سنة ثمانين وستمائة بالقاهرة بقراءتي عليه قال : أنشدنا الشيخ العالم الصاحب عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن محمد بن حسين بن أبي الحديد المعتزلي ببغداد، ومولده بالمدائن مستهل ذي الحجة[3] سنة ست وثمانين وخمسمائة لنفسه :

لولا ثلاثٌ لم أخَفْ صرعتي ليست كما قال فتى العبدِ
أن أنصر التوحيدَ والعدلَ في كل مكان باذلا جهدي
وأن أناجي اللهَ مستمتعا بخلوةٍ أحلى من الشهدِ (٤/ب)
وأن أتيه الدهرَ كِبْرا على كل لئيمٍ أصعرِ الخد
لذاك أهوى لافتاةٍ ولا خمرٍ ولا ذي مَيعَة نَهدِ [4]

---

(١) هو أبو حيان النحوي الأندلسي الغرناطي ، من كبار العلماء بالعربية والتفسير والحديث (ت بالقاهرة سنة ٧٤٥ هـ) . انظر الدرر الكامنة ٣٠٢/٤ ، وبغية الوعاة ٢٨٠/١ وما بعدها ونكت الهميان ٢٨٠ .

(٢) حافظ للحديث من أكابر الشافعية (ت بالقاهرة ٧٠٥ هـ) انظر طبقات الشافعية ١٠٢/٤ ، وفوات الوفيات ٣٧/٢ ، وشذرات الذهب ١٢/٦ .

(٣) « مطلب مولد ابن أبي الحديد سنة ٥٨٦» عبارة للصفدي كانت على الهامش أعلاه .

(٤) في الغيث المسجم ٩١/٢ وفي فوات الوفيات ٥٢٠/١ . وقد ورد خامسها :

كذاك لا أهوى فتاة ولا خمرا ولا ذا ميعة نهد

قول ابن أبي الحديد هنا : لولا ثلاث .. البيت ، إشارة إلى قول طرفة[١] بن العبد :

فلولا ثلاثٌ هنّ من لذّة الفتى ... وجدِك لم أحفل متى قام عوّدي
فمنهن سبقي العاذلات بشَربة ... كميت متى ما تُعْل بالماء تزبدِ
وكري ، إذا نادى المضاف ، مجنبا ... كسيد الغضا ، نبّهته ، المتوردِ
وتقصيرُ يوم الدَّجن والدجنُ معجِب ... ببهكنة تحت الخباء المعمَّد

ومن شعر ابن أبي الحديد قصيدة بائية من جملة مدائحه في علي بن أبي[٢] طالب رضي الله عنه :

ألا إن نهجَ المجد أبيضُ ملحوبُ ... على أنه جمُّ المسالك مرهوبُ
هو العسل الماذيّ يشتاره امرؤ ... بَغاه وأطراف الرماح اليعاسيبُ
ذُقِ الموتَ إن شئت العلا واطعم الردى ... فنيلُ الأماني بالمنيّة مكسوب
خُضِ الحتفَ تأمنْ خطةَ الخسف انما ... يبوح ضِرام الخطب والخطب مشبوب
ألم تخبَرِ الأخبارَ عن فتح خيبر ... ففيها لذي اللب الملِبِ أعاجيبُ
وفوزُ عليٍ بالعلا فوزُها به ... فكلٌ إلى كلٍ مضافٌ ومنسوبُ (٥/أ)
حصونٌ حَصانُ الفرج حيث تبرجتْ ... وما كلُ مُمتطِ الجزارة مركوب
تناط عليها للنجوم قلائد ... وتسفل عنها للغمام أهاضيب

(١) طرفة بن العبد الشاعر الجاهلي . قتل وهو ابن عشرين عاما على خلاف سنة ٦٠ ق هـ انظر الشعر والشعراء ١٨٥/١ ، ومعاهد التنصيص ٣٦٤/١ وخزانة البغدادي ٤١٤/١ ــ ٤١٧ . والأبيات من معلقته . وورد البيت الأول في ديوانه ص ٤٣ « ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى » وكذا في العقد الفريد ٤٨٣/٣ والمعلقات العشر ص ٨١ وفي المعلقات السبع . كما ورد في البيت الرابع قوله « تحت الطراف المعمد » في ديوانه وفي المعلقات السبع . وورد البيت الثاني في المعلقات السبع « فمنهن سبق العاذلات » .

(٢) هو أبو الحسن رابع الخلفاء الراشدين ، وابن عم النبي صلى الله عليه وسلم وصهره كان خطيبا عالما بالقضاء (ت ٤٠ هـ) جمعت خطبه وأقواله في « نهج البلاغة » انظر الإصابة ٢٦٩/٤ ــ ٢٧١ ، ومقاتل الطالبيين ١٤ .

منهــا :

وأرعنُ مــوارُ العنــان يمــورهــا فلم يُغنِ عنهــا جرُّ مَجْرٍ وتلبيبُ
فللخطب عنهــا والصروفِ صوارفٌ كمــا كــان عنهــا للنــوائب تنكيب

منها

نهــارُ سيوفٍ في دُجى ليلِ عِثْيَرٍ فأبيضُ وضــاحٌ وأســودُ غِربيبُ
ينــوح عليها نــوْحَ قارونَ يوشَعٌ ويُذري عليهــا دمعَ يوسفَ يعقوبُ
بهــا من زماجيــرِ الرجــالِ صواعق ومن صــوب آذيِّ الــدماء شــآبيب

منها

يمــجّ مَنونا سيفُــه وسنــانُه ويُلهب ناراً غمــده والأنابيب (١)

ومن مدائحه في علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، قصيدة أولها :

عــن ريقهــا يتحــدّث المســواكُ أَرَجاً فهــل شجرُ الأراكِ أراكُ
ولطرفهــا خَنَثُ الجبانِ فإن رنت باللحظِ فهي الضيغمُ الفتــاك
شركُ القلوب ولم أخَلْ من قبلهــا أن القلوبَ تَصيــدُها الأشــراك

منها

يا وجهَهــا المصقول مــاءُ شبابــه ما الحتفُ لــولا طــرفُك الفتاكُ
أم هل أتاكَ حديثُ وقفتهــا ضحى وقلوبنا بشبا الفــراق تشــاك

---

(١) القصائد السبع العلويات ص ٢ « قال يذكر فتح خيبر ، وهي تسعة وتسعون بيتا » وورد البيت الأول فيها :
ألا ان نجد المجد أبيض ملحوب ولكنــه جــم المهالــك مرهــوب
وجاء في البيت الثاني : « يعاسيب » وفي الثامن : « يناط ... ويسفل » .
وجاء في البيت التاسع :
وأرعن مــوار الــم بمورها فلم يغن عنها جر مجر وتكتيب
وورد في العاشر : « كما كان عنها للنواكب تنكيب » .
وفي البيت الثاني عشر : « ينوح عليها نوح هارون يوشع » .

لا شيء أقطعُ من نوى الأحباب أو سيفِ الوصيِّ كلاهما سفاكُ[١]

وهاتان القصيدتان طويلتان ، اختصرت منهما ما اختصرت ، واقتصرت على ما اقتصرت ، طلبا للدلالة على فضله ، ومضاءِ سِنانه ونَصله . ولكن أدّته موادُّه الغزيرة إلى أن (٥/ب) اعتزل وتشيع ، وأهمل جانب السنة وضيَّع . وله نثر أجاد فيه بعضَ جَوْدَه ، ولم يكن كنَظمه الذي رفع هضبَه ووطّد طَوْده . وقد ساق شيئا منه في « الفلك الدائر » [٢] ، ونثر ابن الأثير أقعد منه عند أولى البصائر ، ولو حذفه كان خيرا من إثباته ، وأمنع له من عَجْم سهمه وغَمز قناته .

فأي قوادم ينهض بها من جاء بعد هذا المتكلم ، وأي سيف يَفري فريه وهو متثلّم ، والمعتزلة فرسان المباحث ، وممن توفرت لهم الهمم على الجدل وطاوعَتْها الدّواعي والبواعث . ولكن :

قد يدركُ المجدَ الفتى ولباسُه خلق وجيبُ قميصه مرقوعُ[٣]

وقد ترك الأول للآخر أكثر مما جاء به ، وتفاوتت الأذهان في انتقاد مها الحسن وكواعبه ، وأعقب العقل سحابه لما انجلت انجلى بصوب سحائبه .

---

(١) في فوات الوفيات ١/٥٢١ ، وورد في البيت الثاني :
ولطرفها خنث الجبان فإن رنت باللحظ فهو الضيغم الفتاك
وهذا تشويه للموقف الموصوف .
وجاء في البيت الخامس « أم هل أتاك حديث وقفتنا ضحى » وفي السادس « لا شيء أفظع من نوى الأحباب أو » — ووردت الأبيات في « القصائد السبع العلويات » ص ٤٨ في وصف النبي صلى الله عليه وسلم . وقد جاء في البيت الأول « فهل شجر الكباء أراك » .
وورد البيت الرابع :
يا وجهها المسفوك ماء شبابه ما الحتف لولا طرفك السفاك
وجاء في البيت الخامس « حديث وقفتنا ضحى » وفي السادس « كلاهما فتاك »

(٢) انظر الفلك الدائر في المثل السائر ٤/٩٧ — ١٧٢ .

(٣) البيت لابن هرمة في طبقات ابن المعتز ٢١ وفيه « قد يدرك الشرف الفتى ورداؤه » والعقد الفريد ٦/١٩٩ ، وهو غير منسوب في تمام المتون للصفدي الورقة ٣ ، والغيث المسجم ٢/٤٠٥ طبعة الاسكندرية .

وما عقِمتْ أمُ الندى بعد حاتِمٍ لهـا كلَّ يـوم في البرية مولودُ(١)

وقد جمعت ما عثرت عليه من هفوات ابن الأثير في هذه الأوراق ، وضربت عليها هذا الفسطاط ومددت هذه الأرواق ، وسردْتـها على الترتيب ، وسقتها على ذلك التبويب • وسميت ذلك « نصرة الثائر على المثل السائر » واخترت هذه التسمية له شارة وإشارة ، لأن الثائر لغة هو الذي لا يبقي على شيء حتى يدرك ثاره • وإذا ناقشته في بحث أَوْرده ، ونافسته في صالح أفسده ، لا أكاد أخلي ذلك الموطن من محاسن أرباب هذا الفن الذين عابهم ، وتـردد الى مواقف ذمهم وانتابهم • خصوصا القاضي (٢) الفاضل رحمه الله تعالى • فإنه قد عارضه في بعض ما أنشاه ، وعاب عليه ما دبّجه ووشّاه •

وقال السهـا للشمس أنتِ خفيـةٌ وقال الدُّجى يا صبحُ لونُكَ حائلُ(٣)(٦/أ)

والسيف مشهور بغير حمائل ، والصبح مشهود بغير دلائـل • وأين مقاصد الفاضل وبعد مرماه ، واختلاسه المعاني بلطف مَغزاه وخفيّ مَسراه • هيهاتَ فإن بينهما من الفرق ، ما بين ذل القدم وعز الفرق • ولطف ذلك لا يخفى عـلى ذوق الكاتب الماهر ، وحسن معانيه في الباطن أضعاف كلامه في الظاهر •

---

(١) البيت للغزي في مخطوطة ديوانه من قصيدة أولها :
وكيف يخـاف الدهـر من كان مملقـا وجـود علاء الدولة القـرم موجود
وورد غير منسوب في الغيث المسجم ٢/٤٠٥ طبعة الاسكندرية .

(٢) هو عبد الرحيم بن علي اللّخمي البيساني . وزير من أئمة الكتاب في عصـر صلاح الدين (ت بالقاهرة سنة ٥٩٦ هـ) انظر خريدة القصر قسم شعـراء مصر ١/٣٥ ، والنجوم الزاهرة ٦/١٥٦ ، ووفيات الأعيان ١/٢٨٤ .

(٣) البيت للمعري في سقط الزند ١٥٩ من لاميته :
الا في سبيـل المجـد ما أنا فاعـل عفـاف واقـدام وحـزم ونائـل

ولله درُّ ابن سناء (١) الملك إذ يقول ــ على أن غالب ديوانه فيه ــ :

شهــــد الكاملــون بالفضل للفــا ضل أو كــاد يشهــد المولــودُ
وَعَدَ الدهرُ أن يجودَ على الخلـ ـقِ ولكنْ بمثلــه لا يجود (٢)

وابن قلاقس (٣) اذ يقول أيضا فيه من جملة أبيات :

وأسكــرنا بيــــانا دام حــتى عجبنــا كيف حَــذَّرْنا المُــداما
معــان يقعــد الفصحــاءُ عنهـــا وتسمعهــا خــواطرَهم قيــاما
يتيمــاتٌ تَصدَّقُ في عُــلاه مقــالةَ من دعــاه أبا اليتــامى (٤)

وأما ابن الساعاتي (٥) فأكثر فيه المدح • من ذلك :

مــا من يقيس اليــه خلقــا مثلَه إلا كمن قاس الوِهاد إلى الــذُّرى
فإذا تقــدم في العـــلاء مفــاخــرا عــرف السِماكُ محلَه فتأخرا (٦)

---

(١) هبة الله بن جعفر . شاعر من النبلاء ، كتب في ديوان الإنشاء بمصر وتوفى فيها سنة ٦٠٨ هـ انظر وفيات الأعيان ١٨٨/٢ ، والخريدة ــ قسم شعراء مصر ٦٤/١ ، وشذرات الذهب ٣٥/٥ .

(٢) والبيتان في ديوانه ص ١٩١ من قصيدة قالها يمدح القاضي الفاضل ويهنئه بعيد النحر . مطلعها :

عــادني من هــوى الأحبــة عيــد فلباسي فيــه غـــرام جــديد

(٣) أبو الفتح نصر الله بن عبد الله اللخمي الإسكندري . صحب الحافظ السِّلفي ومدحه بشعره (ت بعيذاب سنــة ٥٦٧ هـ) انظر إرشــاد الأريب ٢١١/٧ والخريدة قسم شعراء مصر ١٤٥/١

(٤) والأبيات في ديوانه ص ٩٦ من قصيدة يمدح بها القاضي الفاضل مطلعها :

طرحنــا فــوق غاربهــا الزمامــا فأسلمهــا العــرار الى الخزامى

وجاء في البيت الثاني « معان تجلس الفصحاء عنها » .

(٥) علي بن محمد بن رستم بن هردوز . شاعر مشهور ، خراساني الاصل . ولد بدمشق وتوفى بالقاهرة سنة ٦٠٤ انظر وفيات الأعيان ٣٦٢/١ .

(٦) البيتان في ديوانه ٢٢٠/٢ من قصيدة يمدح بها القاضي الفاضل سنة ٥٨٢ هـ .

وقد تصدى الناس لابن الأثير كونه ناقض الفاضل ، ورُمي من ألسنتهم وأقلامهم بمَشق سيوف المَناظر ، ورشق سهام المَناضل .

فـلا تجزعَنْ من سُنّة أنت سرتَها فأول راضي سُنّةٍ من يسيرها [(١)]

وليس هذا موطن الثناء على القاضي الفاضل ، وسوف تقف عليه ، وتدلك نفحات طيبه إذا انتهيت إليه .

ومن هنا أجرد عن ساعد المؤاخذة ، وأبرى السهام التي أظنها في الغرض نافذة . وعلى الله قصد السبيل ، هو حسبي ونعم الوكيل .

[الابتداء بالحمدلة]

قال ابن الأثير ــ سامحه الله تعالى ــ : « نسأل الله أن يبلغ بنا من الحمد ما هو أهله ، وأن يعلمنا من البيان ما تقصر عنه مزية النطق وفضله ، وحكمة الخطاب وفصله » [(٢)] (٦/ب) .

أقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل كلام لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أجذم » [(٣)] فلو قال : الحمد لله لكان أفضل . وربما عيب ذلك على الزمخشري [(٤)]

---

(١) البيت لخالد بن زهير الهذلي . ورد في شرح أشعار الهذليين ٢١٣/١ كما ورد منسوبا في لسان العرب مادة (سير وسنن) وفي الشعر والشعراء ٦٣٧ ، ونوادر المخطوطات ٢٧٢ ، والصحاح (سير) وجاء على هامش المخطوطتين بالاصل « راضٍ سنةً » .

(٢) المثل السائر ٣٥/١ « نسأل الله ربنا .. مزية الفضل وأصله .. » .

(٣) في الجامع الصغير ٩٤ عن سنن أبي داوود ، وفي رياض الصالحين ٤٩٨ : « وكل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أقطع » .

(٤) جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي . معتزلي من ائمة العلم باللغة والتفسير توفى بجرجانية سنة ٥٣٨ هـ . انظر وفيات الاعيان ٨١/٢ ، وإرشاد الأريب ١٤٧/٧ ، ومفتاح السعادة ٤٣١/١ .

في أول « المفصل » كونه قال : الله أحمد . وعلى الحريري (١) كونه قال (٢) : اللهم إنا نحمدك . لأنهما ما افتتحا كلامهما بالحمد . والأولى الأخذ بما جاء عن الله تعالى، فإنّه لا مقام للعبد أشرف من الصلاة لأنها عبادة . حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أقرب مايكون العبد من ربّه وهو ساجد(٣) » . والفاتحة التي هي أم الكتاب والعمدة في الصلاة ، إنما افتتحت ببسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين . وقد قال سهل بن هارون (٤) : حق على كلّ ذي مقالة أن يبدأ فيها بحمد الله قبل استفتاحها ، كما بدىء بالنعمة قبل استحقاقها . واستعمل ابن الأثير رحمه الله تعالى ذلك في توقيع كتبه فقال : كل كلام لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أجذم (٥) . وقد أورد ابن أبي الحديد على ابن الأثير فيما سأله في هذه السجعة ما فيه مَقْنَع ، فليؤخذ ذلك من « الفلك الدائر » (٦) .

وأما السَّجعة الثانية ، فما أدري معنى قوله « تقصر عنه مزية النطق » ، فأي شيء يعلمه حتى تقصر عنه مزية النطق ؟ إن أراد بذلك لطف المعاني التي هي أرواح الألفاظ فمتى قصر النطق عن معنى لم تبرزه النفس كاملا ؟ وإن أراد بذلك الأشياء التي تكون على تراكيب الألفاظ من الطلاوة والرّونق فذلك غير البيان لأن البيان إيضاح المعاني وإبداؤها واظهارها ، وذلك الذي أردته من الحسن واللطف

---

(١) الحريري هو القاسم بن علي بن محمد صاحب المقامات . له ديوان شعر (ت بالبصرة سنة ٥١٦ هـ) انظر وفيات الأعيان ٤١٩/١ ، وخزانة البغدادي ١١٧/٣ ومعاهد التنصيص ٧٢/٣ . وعبارته في شرح الشريشي ١٠/١

(٢) في أول مقاماته .

(٣) في شرح مختصر الجامع الصغير ٨٧/١ . والرواية فيه « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء » .

(٤) سهل بن هارون بن رامنوي الدستميساني . فارسي الأصل ، شديد العصبية على العرب ، تقدم عند الرشيد وتسلم خزانة الحكمة للمأمون (ت ٢١٥ هـ) انظر الفهرست ص ١٨٠ .

(٥) المثل السائر ٢٩٥/١ .

(٦) في المثل السائر ٣٥/٤ .

اللذين يكونان في بعض الكلام ، فذلك غير البيان . وهو كالملاحة التي لا يعقل لها معنى ولا يُعبَّر عنه . كما قيل :

شيء بــه فُتِــن الورى غــير الذي يُدعى الجمال ولست أدري ما هو

ويقال : مع المحبوب شيء آخر غير حسنه هو الذي يشفع له الى القلوب . ألا ترى أن بعض الصور مفردات أعضائها نهاية في الحسن ، وليس لها ذلك المعنى الذي لغيرها . وكذا قيل في التّرياق ، إنه بعد التركيب يفيض الله عليه خاصة لم تكن في قوة أجزائه حالة الإفراد . والهيئة الاجتماعية لها معنى غير الحالة التي تكون لأفرادها ولا شك أن لكلام الفصحاء في حالة التركيب خواصّ لا يمكن التعبير عن ذلك الحسن الموجودة فيها . ولهذا أفتى الفقهاء (٧/أ) فيمن بدل ترتيب الفاتحة، وقلب بعض الآيات إلى موضع بعض أنه لا تصحّ صلاته ، لأنه يبطل إعجاز القرآن العظيم ، وهو سياقته على هذا النمط الغريب ، وتأليفه على هذا النظم العجيب . وهنا بحث بين الأشعري والمعتزلي، أضربت عنه طلبا للاختصار . فإن كان ابن الأثير سأل هذه الخاصة ، فهذه الخاصة لا يطلق عليها لفظ البيان . وإذا كان الأمر كذا ، فقد ثبت أن معنى هذه السجعة غير مفهوم . وقد ناقشه ابن أبي الحديد في قوله (النطق) وما الذي أراد به فليؤخذ من كتابه [١] .

قال : « وعلى آله وصحبه ، الذين منهم من سبق وبدر ، ومنهم من صابر وصبر ، ومنهم من آوى ونصر [٢] » . أقول : لو قال : ومنهم من هاجر ونصر لكان أحسن من وجهين : أحدهما أنه يحصل له الموازنة والترصيع بين هاجر وصابر ، وثانيهما أنه يتناول المهاجرين والأنصار من الصحابة رضوان الله عليهم ، فإنّهم مقدّمون على الأنصار ، وعلى قوله لا ذكر للمهاجرين ، فإن من الأنصار من سبق غيره إلى الإيمان .

فإن قيل : قوله صابر وصبر المعنى واحد ، قلت : اتبع لفظ القرآن في قوله

(١) في المثل السائر ٤/٣٦ .

(٢) في المثل السائر ١/٣٥ .

تعالى : « اصبروا وصابروا » • فإن الصبر غير المصابرة ، لأن المصابرة مفاعلة ، وهي مقابلة الفعل من الآخر بمثله • وكأن ذلك زيادة على الصبر الذي يطيقه الإنسان •

[عجز الحريري عن إنشاء ما طلب منه في الديوان]

قال وقد ذكر الحريري صاحب المقامات رحمه الله تعالى ، وأنه صدر عنه مثل هذا الكتاب ، ولمّا استُكتِب في الديوان أُفحم • وساق الحكاية المشهورة • ثم قال : « وهذا مما يُعجَب منه، وسئلت عن هذا فقلت : لا عجب ، لأن المقامات مدارها جميعها على حكاية تخرج إلى مخلص ، وأما المكاتبات فإنها بحر لا ساحل له ، لأن المعاني فيها تتجدّد بتجدّد حوادث الأيام ، وهي متجددة على عدد الأنفاس، ألا ترى أنه إذا كتب[1] الكاتب المفلق عن (٧/ب) دولة من الدول الواسعة التي يكون لسلطانها سيف مشهور وسعي مذكور ، ومكث على ذلك برهة يسيرة لا تبلغ عشر سنين ، فإنه يدوّن عنه من المكاتبات ما يزيد على عشرة أجزاء ، كل جزء منها أكبر من المقامات حجما ، ثم إذا غُربلت خلص منها النصف [2] » •

أقول : أما عجب الناس من واقعة الحريري فهي موضع العجب في بادىء الرأي • لأنّ من يصدر عنه مثل هذا الكتاب الذي لا نظير له في بابه ، وهو في الآداب :

شمسٌ ضحاها هلالٌ ليلتها   دُرٌّ تقاصيرها زَبَرْجَدُها [3]

ثم يتوقف في كتاب يطلب منه فإن ذلك غريب • وأما إذا فكر الإنسان ، وعلم أن الإنشاء من باب الفتوح على الإنسان ، لم يكن ذلك بعجيب • لأن الله تعالى قد

---

(١) في : م ، ومتن ب « خطب » والتصحيح مستدرك في هامش (ب) .

(٢) المثل السائر ١/٤٢ والعبارة فيه « وسئلت عن ذلك .. تتجدد فيها .. أكبر من مقامات الحريري لأنه اذا كتب في كل يوم كتابا واحدا ، اجتمع من كتبه أكثر من هذه العدة المشار اليها ، واذا نخلت وغربلت واختير الاجود منها ــ اذ كلها جيدة ــ فيخلص منها النصف » .

(٣) في « الغيث المسجم » ٢/١٤٥ غير منسوب .

يفتح بذلك في وقت دون وقت . وقدعدّ الشيخ محيي الدين[1] بن عربي النظم وحسن الكتابة من الفتوح ، وما يزال الناس كذلك تارة يفتح عليهم وتارة لم يفتح . والحريري في ذلك الوقت لم يفتح عليه .

على أن الحريري في وقت عمل المقامات كان في بيته مُخلّى ونفسه ، يصوغ ويكسر ويهدم ويبني فإذا نبَا بِهِ مقام تحوّل الى غيره ، وإذا تقاعس عليه معنى تركه وجذب ما هو أسلس قيادا منه . وقد ذكر أن مسوّدات المقامات كانت حمل جمل . وذلك أمر غير جلوسه في الديوان وأول قدومه ، وهو بين جماعة من أرباب الفن ، ويُقترح عليه معنى لا محيد له عنه ، ولا فسحة له في مضيقه ، ولا نجاة له من زلله ، ولم يكن قد استعدّ له ، لا جرم أنه أُفحِم وتوقّف وتنفـ عـُثنونه .

وليس يُعابُ المرءُ في جبن يومه إذا عُرفتْ منه الشجاعةُ بالأمسِ[2]

ولعل ابن الأثير سامحه فيما أورده من كلامه في « المثل » و « الوشي المرقوم » و « المعاني المبتدعة » وغير ذلك من نسبة المقامات . فإنه حكى عن نفسه في « المثل السائر » أنه كان يتلو القرآن العظيم ، فإذا مرتْ به الآية الكريمة ولمح فيها معنى يُناسب أن يكون في كذا ، (٨/أ) بنى عليه كتابا أو فصلا وأثبته . أو كما قال . وغالب ما أَثبتَه إنما هو معارضات عارض بها كتب القاضي الفاضل وأبا اسحاق الصابي[3] وهذا من باب عمل المقامات وهو في بيته يطالع على ما يعمله ويتروّى ويمحو ويثبت .

---

(١) محيي الدين بن عربي هو محمد بن علي أبو بكر الحاتمي الطائي الأندلسي الفيلسوف المعروف . جال في البلاد واستقر في دمشق وتوفي فيها سنة ٦٣٨ هـ . انظر جامع كرامات الأولياء ١/١١٨ ، وشذرات الذهب ٥/١٩٠ ، وفوات الوفيات ٢/٤٧٨ .

(٢) البيت لأوس بن حجر في ديوانه ق ٢٥/٧ ص ٥٢ .

(٣) أبو إسحاق الصابي هو ابراهيم بن هلال . مترسّل بليغ شاعر . كان صُلبا في دين الصابئة (ت قبل سنة ٣٨٠ هـ) انظر الفهرست ص ١٩٩ .

وتوهموا اللعبَ الوغى ، والطعنُ في الـ هيجاء غيرُ الطعن في الميدانِ [١]

وأما قوله : إن الكاتب يظهر عنه في المدة التي ذكرها عشرة أجزاء كل جزء أكبر حجما من المقامات وإذا غُربلت ونُقحت كانت خمسا ، فهذا تعصّب ودعوى لا يقوم عليها برهان ، أو جهل بلغ الغاية . وأي ترسّل لكاتب تقدّم عصره والى الآن يُجمع له مِن ترسّله مجلدة واحدة تكون كالمقامات يتداولها الناس ، ويتعاطَون كؤوسها ، ويتمثلون بأبياتها وأسجاعها ، ويكررون عليها من أولها إلى آخرها ، ويبحثون عن عوراتها ، وينقبون عن مساوئها ، فلا يجدون فيها مغمزا ، ولا يقعون فيهـا على مطعن . بل تصفو على السبك ، وتجود على الاستعمال .

ويزيـدها مَرُّ الليالي جِدةً وتقـادمُ الأيام حُسنَ شبابِ [٢]

على أن ابن الخشّاب[٣] رد عليه أليفاظا[٤] يسيرة وأجابه المسعودي [٥]عنهـا وابن الخشاب أصاب في القليل من القليل ، وتعنت في كثير القليل . وكذلك ابن

---

(١) شرح ديوان المتنبي للبرقوقي ٣٩١/٤ ، من قصيدة قالها يمدح سيف الدولة منصرفه من بلد الروم سنة ٣٤٥ هـ مطلعها :

الرأي قبـل شجاعـة الشجعان هو أول وهي المحـل الثـاني

(٢) البيت لأبي تمام في ديوانه بشرح التبريزي ـ عبده عزام ١٩٦٤ ، ٩١/١ من قصيدة قالها يمدح مالك بن طوق التغلبي . كما ورد في « الغيث المسجم » ٤٧/١ غير منسوب ، وفي نهاية الأرب ١١٧/٨ وفيه (ويزيده) .

(٣) ابن الخشاب هو عبد الله بن أحمد ، كان عالما بالعربية وعلوم الدّين ، وقف كتبه على أهل العلم قبيل وفاته في بغداد سنة ٥٦٧ هـ من كتبه « نقد المقـامات الحريرية » انظر بغية الوعاة ٢٩/٢ ، وانباه الرواة ٩٩/٢ ، ووفيات الأعيان ٢٦٧/١ .

(٤) هو سهو من المؤلف والصواب (لفيظات) إذ نصغر المفرد ونجمعه على التأنيث .

(٥) المسعودي هو محمد بن عبد الرحمن الخراساني ، فقيه شافعي أديب ، كـان معلم الملك الأفضل ابن صلاح الدين . له « شرح المقامات الحريرية » توفي في دمشق سنة ٥٨٤ هـ انظر وفيات الأعيان ٥٢٠/١ ، وارشاد الأريب ٢٠/٧ .

برّي (١) وضع عليها نكتا يسيرة •

وناهيك بكتاب اشتهر ، وضرب به المثل ، وأصبح إحدى الأثافي في علم الأدب ، وأصبحت ألفاظه ومعانيه حجة ، ونقلتْ بها النسخ عدد حروفها •

وسار مسيرَ الشمسِ في كل موضعٍ وهبّ هبوبَ الريح في البر والبحرِ

وما رأيت ولا سمعت بمن أخذ جزءا من ترسّل ، وقرأه على شيخ وحفظه وطلب به (٨/ب) الرواية وعلق عليه حواشي لغة وإعراب ومعان • وقد وضع الناس الشروح المبسوطة على المقامات مثل المسعودي فإن له عليها شرحين، والمطرّز (٢) وابن الأنباري (٣) وأبي البقاء (٤) وغيرهم ولقد رأيت بعضهم يزعم أنها رموز في الكيمياء ، ويحكى أن الفرنج يقرؤونها على ملوكهم بلسانهم ويصورونها ويتنادمون بحكاياتها •

وما ذاك إلا أن هذا الكتاب أحد مظاهره تلك الحكايات المضحكة ، والوقائع التي إذا شرع الإنسان في الوقوف عليها ، تطلعت نفسه إلى ما تنتهي إليه ، وتشوّفتْ نفسه إلى الوقوف على آخر تلك القصة • هذا إلى مافيها من الحكم والأمثال التي تشاكل كتاب « كلية ودمنة » وإلى ما فيها من أنواع الأدب وفنونه المختلفة وأساليبه المتنوعة •

---

(١) ابن بري هو عبد الله بن بري من علماء العربية النابهين من كتبه (الرد على ابن الخشاب) توفي بمصر سنة ٥٨٢ هـ انظر وفيات الأعيان ٢٦٨/١ ، وبغية الوعاة ٣٤/٢ ، وخزانة البغدادي ٥٢٩/٢ .

(٢) هو ناصر بن عبد السيد بن علي بن المطرز المشهور بالمطرزي له شرح المقامات (ت ٦١٠ هـ) انظر بغية الوعاة ٣١١/٢ .

(٣) هو ابو البركات ابن الأنباري وله تفسير غريب المقامات الحريرية . انظر بغية الوعاة ٨٧/٢ .

(٤) أبو البقاء هو عبد الله بن الحسين العكبري البغدادي . عالم باللغة والأدب (ت ببغداد سنة ٦١٦ هـ) . انظر وفيات الأعيان ٢٦٦/١ ، وبغية الوعاة ٣٨/٢ ونكت الهيمان ١٧٨ .

حكى لي الشيخ فتح الدين محمد بن[١] سيِّدِ النّاس عن والده أبي عمرو عن أبيه أبي بكر قال : قلنا لابن عَميرة[٢] كاتب الأندلس : لأي شيء ماتصنع مثل المقامات ؟ فقال : أما الألفاظ فما أغلب عنها ، وأما تلك الأكاذيب التي تكذبها فما أُحسن أن أضع مثلها •

وسمعت القاضي شهاب الدين[٣] محمودا رحمه الله تعالى حين قراءة هذا الكتاب عليه يحكي أن القاضي الفاضل رحمه الله تعالى أراد معارضتها ، وصنع ثلاث عشرة مقامة عارض كلّ فصل بمثله حتى جاء إلى قول الحريري في المقامة الرابعة عشرة : « اعلموا يا مآل الآمل وثمال الأرامل ، أنني ِمن سرَوات القبائـــل ، وسَريّات العقائل • لم يزل أهلي وبعلي يحلون الصدر ، ويسيرون القلب ، ويمطون الظهر ، ويولون اليد • فلما أردى الدّهرُ الأعضاد ، وفجَعَ بالجوارح الأجساد ، وانقلب ظهرا لبِطن ، نبا النّاظر ، وجفا الحاجب وذهبت (٩/أ) العينوفقدت الراحة ، وصلد الزّند ، ووهَت اليَمين ، وبانت المرافق ، ولم يبق لنا ثَنِيّة ولا ناب • فمذ اغبر العيش الأخضر ، وازورّ المحبوب الأصفر ، اسودّ يومي الأبيض ، وابيضّ فودي الأسود ، حتى رثى لي العدوُّ الأزرق ، فحبذا الموت الأحمر[٤] » •

---

(١) ابن سيد الناس هو محمد بن محمد بن محمد بن محمد . مؤرخ عالم بالأدب (ت بالقاهرة سنة ٧٣٤ هـ) انظر فوات الوفيات ٢/٣٤٤ ، وطبقات الشافعية ٦/٢٩ ، والنجوم الزاهرة ٩/٣٠٣ .

(٢) ابن عميرة هو احمد بن عبد الله أبو المطرف المخزومي . ولد في جزيرة شقر وقيل ببلنسية بالأندلس واشتهر فيها بالكتابة والشعر (ت في تونس سنة ٦٥٨ هـ) انظر بغية الوعاة ١/٣١٩ ، والإحاطة في أخبار غرناطة ١/١٧٩ .

(٣) شهاب الدين بن سليمان بن فهد . أديب كبير استمر في دواوين الإنشاء نحو خمسين عاما (ت بدمشق سنة ٧٢٥ هـ) . انظر الدرر الكامنة ٤/٣٢٤ ، وفوات الوفيات ٢/٥٦٤ ، والدارس ٢/٢٣٦ .

(٤) هو سهو فالمقامة هي الثالثة عشرة (البغدادية) « شرح المقامات » ٢/٤٠ وما بعدها . وجاءت الرواية فيه « أني من .. ويمطون .. بالجوارح الأكباد .. ووهنت .. وضاع اليسار وبانت .. » .

فقال الفاضل : « من أين يأتي الإنسان بفصل يعارض هذا ؟ » ثم إنه قطع ما كان عمله من المقامات ولم يظهر • أو كما قال • وناهيك بمن يقول مثلُ القاضي الفاضل في حقّه مثلَ هذا ، ويعترف له بالعجز •

وأما أنا فكلما قرأت هذا الفصل وذكرته ، أجد له نشوة كنَشوة الرّاح ، وبَهجة ولا بَهجة الساري بطلعة الصباح • وفي أي ترسل تجد نظير هـذا الفصل الذي له هذه الخفة والطلاوة ، ولم تـروّجه الأسجاع ؟ •

وقد ظلم المقامات مَن جعلها مِن باب التّرسّل ، والترسل جزء منها • بل هي كتاب علم في بابه ، وبلاغة الرجل تـعلم من ذكره لشيء في غالب مقاماته بالمدح والذمّ • وهذا هو البلاغة ، أن تصف الشيء ثم تذمه ، أو بذم ثم تمدحه ، كما فعل في مقامة[1] الدّينار ، والتي[2] فاضل فيها بين كتابة الإنشاء والحساب ، والتي[3] ذكر فيها البِكرَ والثيّب والزّواج والعزبة وغير ذلك •

وفصاحته تـعلم من أخذه الأمثال السائرة وضمها إلى سجعة أحسن منهـا • كقوله : « أعطيت القوس باريها وأنزلت الدار بانيها » [4] وقوله : « تخلصت قايبة من قوب وبرىء براءة الذئب من دم ابن يعقوب »[5] • وقوله : « وهل ضاعت عـدّتنا عـدّة عرقوب أو بقيت حاجة في نفس يعقوب »[6] وقوله : « فلما دل شعاعه على شمسه ، ونمَّ عنوانه بسّر طِرسه[7] وقوله : «فبقيت أحيَرَ من ضَبّ وأذهَل من صَبّ»[8] وقوله : « أنحَلُ من قلَم وأقحَل من جلم » [9] وقوله : « لو كان

(١) وهي المقامة الثالثة (الدينارية) « شرح المقامات للشريشي » ١/٦٥ .
(٢) وهي المقامة الثانية والعشرون (الفراتية) المصدر السابق ٢/١٨٤ .
(٣) وهي المقامة الثالثة والأربعون (البكرية) المصدر السابق ٤/١١٨ .
(٤) شرح المقامات « المقامة السادسة ١/١١٦ ــ ١١٧ والرواية » .. وأسكنت ..
(٥) « شرح المقامات » المقامة العاشرة ١/٢٠٤ » .. قائبة (أي انفصلت البيضة من الفرخ . مثل يضرب للافتراق بعد الصحبة) .
(٦) «شرح المقامات » المقامة الرابعة عشرة ٢/٥٦ « .. أو هل بقيت .» .
(٧) « شرح المقامات » المقامة الخامسة عشرة ٢/٥٩ .
(٨) « شرح المقامات » المقامة الخامسة عشرة ٢/٦١ ــ ٦٢ .
(٩) « شرح المقامات » المقامة السابعة عشرة ٢/٩٢ (أي : أيبس من مقص) .

في عصاي سير ولغيمي مطير [١] » وقوله : « طويته على غَرِّه ، وصنت شَغاه عن فَرِّه[٢]» وقوله : « إنكما فرقدا سماءٍ وكزندين في وعاء [٣] وقوله « ليعلم أن ريحه لاقت إعصارا وجَدْوله صادف تيّارا » [٤] وقوله « مأرب لا حفاوة ومشرب (٩/ب) لم يبق له عندي طلاوة»[٥] وقوله : « المكنة زورة طيف ، والفرصة مزنة صيف [٦] » وقوله : «أبعدُ مِن ردّ أمس الدابر ، والميّت الغابر[٧]»وقوله:«ماأطول طِيَلَك وأهول حِيَلَك » [٨] وقوله : « وكان يوما أطول من ظل القناة ، وأحرّ من دمع المِقلاة[٩] » وقوله : فأخذ يلدغ ويَصي ، ويتقح ولا يستحيي [١٠] » وقوله : « أين مدب صِبابك ، ومن أين مهبّ صَباك » [١١] وقوله : « قد وجدت فاغتبط واستكرمت فارتبط » [١٢] وقوله : « ما ذهب مِن مالك ما وعظك ، ولا أجرم إليك من أيقظك[١٣]» وقوله «إنك حُمت على رَكِيّة بَكيَّة، وتعرّضت لخليّةخليّة»[١٤]

---

(١) «شرح المقامات » المقامة العشرون ١٦٢/٢ — ١٦٤ .
(٢) « شرح المقامات » المقامة العشرون ١٦٥/٢ (أي سترت عليه طريقته الملتزمةمن الحيل ، وحفظت عيبه عن كشفه . والفر : كسور الثوب بسبب الطي) .
(٣) « شرح المقامات » المقامة الثالثة والعشرون ٢٤٠/٢ .
(٤) شرح المقامات ، المقامة الثالثة والعشرون ٢٤٦/٢ .
(٥) المصدر السابق المقامة الرابعة والعشرون ٢٣/٣ . والرواية فيه « .. لم يبق له عندي حلاوة » .
(٦) المصدر السابق المقامة الخامسة والعشرون ٣٢/٣ .
(٧) المصدر السابق ٣٨/٣ .
(٨) المصدر السابق ٤٧/٣ .
(٩) شرح المقامات للشريشي ٦٤/٣ .
(١٠) المصدر السابق ٧٠/٣ والرواية فيه « ويصي .. ولا يستحي » وهي الوجه .
(١١) المصدر السابق ١٢١/٣ .
(١٢) المصدر السابق ١٧٦/٣ المقامة الثالثة والثلاثون (التفليسية) .
(١٣) المصدر السابق ١٩٣/٣ .
(١٤) المصدر السابق المقامة الثالثة والثلاثون ١٧٦/٣ (أي : انك حللت على بئر قليلة الماء ، وتعرضت لخلية فارغة) .

وقوله : « ماكل سَوداء ، تَمْرة ، ولا كل صَهباء خمرة » (١) وقوله : « كمن يبغي بَيْض الأنوق ، ويطلب الطيران من النّوق » (٢) وقوله : « أتعلم أمك البضاع وظئرك الإرضاع » (٣) وقوله : « فلما رأينا نارهم الحُباحب ، وخُبْرَهم كسَراب السَّباسِب » (٤) وقوله : «إني لأطوع من حذائك، وأوفق من غذائك » (٥) وفيها من هذا النوع كثير أضربتُ عنه خوف الإطالة .

وما تناهيتُ في بثي محاسنَه   إلا وأكثرُ مما قلتُ ما أدعُ

[ثقافة الكاتب]

قال : فإذا ركّب اللهُ في الإنسان طبعا قابلا لهذا ، فيفتقر إلى ثمانية أنواع من الآلات (٦) ثم سرَدها .

أقول : أما الكاتب فيحتاج إلى حفظ الكتاب العزيز وإدمان تلاوته ، ليكون دائرا على لسانه ، جاريا على فكرته ، ممثّلا بين عيني ذاكرته لينفق مِن سَعته ، وإلى معرفة اللّغة والنحو وإدمان الإعراب ليلا ونهارا ، حتى يصير له ذلك ملكة جيدة ، والتصريف والمعاني والبيان والبديع والعروض والقافية والأحكام السّلطانية — كما ذكر في كتابه — وشيء من التفسير ، وشيء من الأحاديث مثل كتاب «الشهاب» أو كتاب«النجم» للأُقليشي (٧) ، والآثار المنقولة عن الصَّحابة رضوان الله

---

(١) المصدر السابق المقامة السادسة والثلاثون ٣/٢١٥ .
(٢) المصدر السابق المقامة السابعة والثلاثون ٣/٢٢٧ .
(٣) المصدر السابق المقامة السابعة والثلاثون ٣/٢٣٠ .
(٤) المصدر السابق المقمة التاسعة والثلاثون ٤/٢٤ (كناية عن البخل) .
(٥) المصدر السابق المقامة الثالثة والأربعون ٤/١٢٢ .
(٦) المثل السائر ١/٤٣ « .. الله تعالى .. .. لهذا الفن ، فإنه يفتقر حينئذ .. » .
(٧) الاقليشي هو احمد بن معد التجيبي أبو العباس . عالم بالحديث توفي بمصر سنة ٥٥٠ هـ . انظر نفح الطيب ١/٦٣٥، وانباه الرواة ١/١٣٦ . وكتابه (النجم) مطبوع بمصر سنة ١٣٠٢ هـ ويبدو مما جاء في مقدمته للمؤلف أن كتاب (الشهاب) ليس له ، بدليل قوله : « .. وسميته كتاب النجم من كلام سيد العرب والعجم .. وأسرد الحديث مستوعبا للفظ كما وقع في الأمهات . فإن واضع (الشهاب) رحمه الله — ربما أخذ من الحديث كلمة أو كلمات على ما بينته وفصلته في كتاب (ضياء الألباب) الموضوع في شرح الشهاب .. » .

عليهم (١٠/أ) وما دار بين الخلفاء الراشدين وعمّالهم، وما دار بين علي ومعاوية[١] رضي الله عنهما من المحاورات، وتواقيع الخلفاء والوزراء والكتاب، وأمثال العرب، وحفظ جانب جيد من شعر العرب والمخضرمين والمحدثين وفحول المتأخرين، وحفظ جيد الحماسة ومختار المفضليات، وبعض قصائد «منتهى الطلب» [٢] جمع ابن ميمون، وما أمكن من التاريخ وأسماء الرجال والحساب، ومراجعات أمهات كتب الأدب، مثل الأغاني والعقد والبيان والتبيين والذخيرة وزهر الآداب وأمالي القالي [٣] والكامل للمبرّد [٤] وتذكرة ابن حمدون [٥] وحفظ جانب جيد

---

(١) معاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة الأموية في الشام (ت ٦٠ هـ) انظر الإصابة ٦/١١٢ تر ٨٠٦٣ .

(٢) (منتهى الطلب من أشعار العرب) لمحمد بن المبارك بين ميمون ، من رجال القرن السادس .

(٣) أبو علي القالي إسماعيل بن القاسم بن عيذون . تعلّم ببغداد ودخل قرطبة سنة ٣٢٨ هـ وبها توفي سنة ٣٥٦ هـ ، انظر وفيات الأعيان ١/٧٤ .

(٤) المبرد ، هو محمد بن يزيد الثمالي الأزدي أبو العباس . احد أئمة الأدب (ت ببغداد ٢٨٥ هـ) بغية الوعاة ١/٢٦٩ ، ووفيات الأعيان ١/٤٩٥ .

(٥) ابن حمدون هو محمد بن الحسن بهاء الدين البغدادي . صنف التذكرة في الأدب والتاريخ . توفي في حبس المستنجد بالله العباسي ٥٦٢ هـ . انظر فوات الوفيات ٢/٣٧٧ ، والنجوم الزاهرة ٥/٣٧٤ . والتذكرة مصنف يقع في خمسين بابا ، وقد طبعت مكتبة الخانجي بعض أبوابها سنة ١٣٤٥ ــ ١٩٢٧ .
الصفحة (ز) من مقدمة الطبعة المذكورة . كما أن بعض اجزائها في فهرس المخطوطات المصورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة تصنيف فؤاد سيد ١/٤٣٥ .

من المقامات والخطب النباتية[١] ، وبعض شعر المتنبي[٢] وأبي تمام[٣] والبحتري[٤] وسقط الزند وغير ذلك • وقد اخترت أنا من شعر هؤلاء الشعراء الأربعة في مجلدة لطيفة[٥] ، والوقوف على ترسل الكتاب ومراعاة ما قصدوه في كلّ فن : من التّهاني والتعازي والفتوحات ووصايا تقاليدهم وتواقيعهم وأوامرهم ونواهيهم [فيها][٦] ، وافتتاحات أدعيتهم في كلّ ما يتشعب من طرق الكتابة وكيفية البداءات والمراجعات في الهدايا والشفاعات والأوصاف وكتب الإخوان وما يجري هذا المجرى • وهذا باب لا يغلق له مصراع ولا ينعقد على حصره إجماع •

وعلى الجملة ، فالكاتب يحتاج إلى كلّ شيء ، ولولا أنه لا يلزمه تحقيق كل فن لقلت إنه الّذي يعرف الوجود على ماهو عليه • وهيهات •

نعم الناس متفاوتون في ذلك وهم على طبقات : فمنهم من تسنَّم الدّرجات ، ومنهم من لا نهض من الدّركات ، وما بين ذلك • ولا بدّ من المشاركة مهما أمكن ، ولو أنه [٧] معرفة لمصطلح لكل صاحب فن ، وإذا كمّل موادّه أو قارب الإكمال ، فمعرفة مصطلح الديوان في المكاتبات من معرفة الألقاب والنعوت وما يجري هذا المجرى • فإن هذا معرفته مع المبشرة في أقل من جمعة يتصوره ويدريه ، وهو ممّا لم يتقرر قاعدته ، لأنه يختلف باختلاف كلّ زمان وأهله • وهذا لاعبرة به ، فإنه أسهل ما يعرفه •

---

(١) نسبة إلى ابن نباته الخطيب . وهو عبد الرحيم بن محمد صاحب الخطب المنبرية . اجتمع بالمتنبي في خدمة سيف الدولة (ت بحلب سنة ٣٧٤ هـ) انظر وفيات الأعيان ١/٢٧٣ والخطب مطبوعة بمصر للمرة الرابعة ١٣٧٠ — ١٩٥١ م .

(٢) المتنبي هو أحمد بن الحسين الجعفي الكوفي الكندي أبو الطيب الشاعر (ت ٣٥٤ هـ) انظر وفيات الأعيان ١/٣٦ .

(٣) ابو تمام هو حبيب بن أوس الطائي الشاعر الأديب (ت بالموصل سنة ٢٣١ هـ) انظر وفيات الأعيان ١/١٢١ ، وأخبار أبي تمام للصولي .

(٤) البحتري هو الوليد بن عبيد الطائي أبو عبادة الشاعر المعروف . اتصل بالخلفاء (ت بمنبج سنة ٢٨٤ هـ) . انظر وفيات الأعيان ٢/١٧٥ .

(٥) لعله (ديوان الفصحاء) من كتب الصفدي .

(٦) زيادة لازمة في ب .

(٧) أي حتى لو اقتصر اطلاع الأديب على مصطلحات العلم أو الفن .

[هل تضر مخالفة النحو في معنى]

قال وقد ذكر النحو : « إذا نظرنا إلى ضروبه وأقسامه ، وجدنا أكثرها غير محتاج إليه في (١٠/ب) إفهام المعاني . ألا ترى أنك لو أمرت رجلا بالقيام فقلت : قوم بإثبات الواو ولم تجزم لما اختل من فهم ذلك شيء . وكذلك الشرط والفضلات كلها تجري هذا المجرى من الحال والتمييز والاستثناء [١] » وساق أشياء من هذه الأنواع .

أقول : ما يورد مثل هذا إلا عوام الناس ومن لم يتلبس بالمعرفة، ومن لم يرح رائحة العلم . ألم يعلم أنه إذا صدر عن مترسل كتاب لم يجزم أفعال أمره ولا شروطه وجوابها ، ولم يرفع فاعله وينصب فضلاته ، ولا راعى شيئا من قواعد إعرابه التي هي ظاهرة ، ولا حافظ على شيء من الإعراب ألبتة ، كان ذلك ضحكة للمغفلين فضلا عن العقلاء . وحينئذ فقد استوى العلماء والجهال .

وقد كتب عمر [٢] رضي الله عنه الى أبي موسى الأشعري [٣] : « أما بعد فتفقهوا في السنة وتعلموا العربية » وكان عبد الله [٤] بن عمر رضي الله عنهما يضرب ولده على اللحن .

---

(١) المثل السائر ١/٤٤ « .. ضرورته وأقسامه المدونة .. لو قلت : إن تقوم أقوم ولم تجزم لكان المعنى مفهوما .. كالحال .. » .

(٢) عمر بن الخطاب بن نفيل أبو حفص ثاني الخلفاء الراشدين (ت سنة ٢٣ هـ) انظر الإصابة ت ٥٧٣٨ .

(٣) أبو موسى الأشعري ، عبد الله بن قيس قحطاني من بني الأشعر ، صحابي من الشجعان الولاة (ت ٤٤ هـ) انظر الإصابة تر ٤٨٨٩ .

(٤) عبد الله بن عمر بن الخطاب . صحابي هاجر مع أبيه وشهد فتح مكة . أفتى في الإسلام ٦٠ سنة (ت سنة ٧٣هـ) انظر الإصابة ت ٤٨٢٥ .

وقال عبد الملك[(١)] : « اللحن في الكلام أقبح من آثار الجُدَري في الوجه»[(٢)] . ورأى أبو الأسود[(٣)] الدؤلي أعدالاً للتجار مكتوب عليها « لأبو فلان » . فقال : « سبحان الله يلحنون ويربحون »[(٤)] . ويقال : مَن أحبَّ أن يجد الكبر في نفسه فليتعلم العربية .

ألم يعلم أن بعضهم استدل على أن النحو فرض كفاية إن لم يقل إنه فرض عين ، وذهب بعضهم إلى أن الله تعالى لا يقبل الدعاء إذا لم يكن مُعربا . وقال الشيخ تقي الدين ابن الصلاح[(٥)] : « أخشى على مَن تعاطى الحديث ولم يدر النحو، أن يدخل في قوله صلى الله عليه وسلم : « من كذَب علي متعمدا ، فليتبوأ مقعده من النار »[(٦)] .

ثم إنه استثنى أشياء من ذلك لا تعرف إلا بالإعراب . فأقول :

إنه لا يتوصل إلى معرفة الغامض إلا بعد معرفة الواضح ، ومَن لم يعرف البيّن لم يعرف العَويص ، لينتقل في التفهم من الأدنى إلى الأعلى .

قال الخليل [(٧)] بن أحمد رحمه الله : « لا يصل أحد من النحو إلى ما يحتاج

---

(١) عبد الملك بن مروان من أعاظم خلفاء بني أمية ، واسع العلم،توفي في دمشق سنة ٨٦ هـ انظر فوات الوفيات ٢/٣١ .

(٢) انظر العقد الفريد ٢/٤٧٨ ، والبيان والتبين ٢/٢١٦ وينسب هذا القول إلى مسلمة بن عبد الملك في عيون الأخبار ٢/١٥٨ .

(٣) - أبو الأسود الدؤلي هو ظالم بن عمرو الكناني واضع علم النحو . له ديوان شعر (ت بالبصرة سنة ٦٩ هـ) انظر الاصابة تر ٤٣٢٢ ، وانباه الرواة ١/١٣ .

(٤) في عيون الأخبار ٢/١٥٩ « دخل أعرابي السوق فسمعهم يلحنون ، فقال : سبحان الله يلحنون ويربحون ، ونحن لانلحن ولا نربح » .

(٥) ابن الصلاح هو عثمان بن عبد الرحمن تقي الدين (ت ٦٤٣ هـ) انظر وفيات الأعيان ١/٣١٢ ، وطبقات الشافعية ٥/١٣٧ .

(٦) الحديث الشريف في « مختصر الجامع الصغير » ٢/٣١٤ .

(٧) الخليل بن أحمد بن عمرو الفراهيدي الأزدي ، واضع علم العروض (ت سنة ١٧٠ هـ) انظر وفيات الأعيان ١/١٧٢ ، وانباه الرواة ١/٣٤١ وقد وردت عبارة الخليل في « الوافي بالوفيات » ١/٦ .

إليه الا بتعلّم ما لا يحتاج إليه ، فقال أبو عمر [١] : « إن كان لا يوصل إلى ما يحتاج اليه الا بما لا يحتاج اليه ، فقد صار مالا يحتاج إليه محتاجا إليه » • وكل علم بهذه المثابة فيه الجَلي والغامض في الفقه ، فإن مسائله الغامضة في الحيض والتَّيمّم والفرائض ، وما في الجبر والمقابلة ، ومسائل الدّور في الطّلاق وغير ذلك • وكما في المنطق فإن غوامضه في الأقيسة والمختلطات والمغالط وغير ذلك • وكما في علم الكلام من إثبات الجوهر الفرد ، وأن العرض لا يبقى زمانين ، وأن المعدوم ليس بشيء • وما يتوصل الإنسان الى معرفة هذه المسائل العويصة الا بعد مقدمات يفهمها من المسائل الواضحة ، وما رأيت من يورد مثل هذا غير العوام ، أو من يجهل هذا الفن •

[هل يقدح اللحن في حسن الكلام]

قال بعد أن ساق شيئا من نَظْم أبي نواس وأبي تمام (١١/أ) وأبي الطيّب ولحنهم : « إن اللحن لم يكن قادحا في حسن الكلام » [٢] •

أقول : ما بقي بعد هذا إلا أن يقول : إن مراعاة الإعراب علّة موجبة لقبح الكلام أتراه ما سمع بقولهم : النَّحو في الكلام كالملح في الطعام • وقد ذهب بعضهم الى أن الإعراب انما سُمي إعرابا لأن العُرُب في قوله تعالى : « عُرُبا أترابا » هنّ المتحببات الى أزواجهن ، فكأن من أعرب كلامه تحبَّب الى مخاطبه • أقول : معنى تحبّبه كونه ذكر أمارات تدل على معانيه • فانه اذا أراد التعجب قال : ما أحسنَ زيدا ، ولو ترك الإعراب وقال : ما أحسنْ زيدْ بسكون النون والدّال ، لا لتبسَ الفَهم على المخاطب وبقي في حيرة : هل هو مستفهم أو متعجب أو مخبر • فلما نصب النّون والدال عُلم أنه يَتعجَّب • واذا قال : ما أحسنُ زيدٍ برفع النون وكسْر الدّال عُلم أنه يَستفهم • واذا قال ما أحسنَ زيدٌ بنصب النون ورفع الدال علم أنه مُخبر بنفي الإحسان عنه • واذا أراح المتكلم مَن يخاطبه من الفكرة والحيرة بالإعراب ، فقد تَحبَّب اليه •

---

(١) هو ابو عمر الجرمي البصري . انظر طبقات اللغويين والنحويين ٥٩ و ٧٦ .

(٢) المثل السائر ١/٥٥ وفيه : « ولهذا لم يكن اللحن قادحا .. » .

وقد قال (.....) (١) « لا قدر لِلحّان ولو بلغ يا فوخُه عنان السماء » وأنا فما أنكر أن لُطف التَّركيب وسهولة الكلام أمر آخر وراء النحو . هذا معلوم ولكن المُشاحّة في تَعسُّفِه وتَعنُّتِه .

[حول لون البقرة في الآية (صفراء فاقع لونها)]

قال : « وكان فاوضني بعض الفقهاء في قوله تعالى في سورة البقرة : « صفراء فاقع لونها » (٢) ، ان لون البقرة كان أسود » (٣) . وأخذ في الشّناع على ذلك والاستدلال على أن اللون أصفر .

أقول : من المعلوم أنَ الأرجح هو أنّ اللون كان أصفر ، لكونه مؤكدا بفاقع. كما يؤكدأسود بحالك وحانك، وأبيض بيقق ولهق، وأحمر بقان (١١/ب) وذريحي وأخضر بناضر ومُدْهام ، وأصفر بناصع وفاقع ووارس ، وأزرق بخطباني ، وأرمك برذاني . ولكن اذا ورد التفسير وثبت النقل بشيء ، فما يمكن غير قبوله والعمل به في موضعه من غير أن يتعدى به ذلك الموضع . هذا اذا خالف قاعدة ، وإن أمكن ترجيحه رُجِّح ، كما رجح هذا بعضهم بقوله تعالى : « إنها تَرمي بشررٍ كالقَصْر كأنّه جِمالات صُفْر » (٤) . أي جمال سود تضرب الى الصُّفرة . قالوا : والنار سوداء مظلمة .

[التأدب في الحديث عن العظماء]

قال عند ذكر وقائع العرَب : « ومن ذلك أنّه ورد عن عمر بن الخطاب أنه استدعى أبا موسى الأشعري ومن يليه من العمال ، وكان منهم الرّبيع (٥) بن زياد

(١) بياض في الاصل بمقدار كلمتين .
(٢) سورة البقرة ٦٨/٢ .
(٣) المثل السائر ٦٠/١ « ... وقال ان لون البقرة ... » .
(٤) سورة المرسلات ٣٢/٧٧ ، ٣٣ .
(٥) الربيع بن زياد الحارثي من بني الريان . أمير فاتح أدرك عصر النبوة . توفي في إمارته سنة ٥٣ هـ . الإصابة ٥٠٤/١ ، والكامل لابن الأثير ١٩٥/٣ .

الحارثي ، فمضى الى يرفأ ، مولى عمر ، وسأله عما يروج عنده وينفق عليه ، فأشار الى خشونة العيش . فمضى ولبس جبّة صوف وعمامة دكناء وخفّا مطابقا وحضر بين يديه في جملة العمال . فصوّب عمر نظره وصعّده فلم يقع الا عليه ، فأدناه وسأله عن حاله ثم أوصى أبا موسى الأشعري به [(١)] » .

ثم قال ابن الأثير : « وقد استعملت أنا هذا في تقليد لبعض الملوك من ديوان الخلافة ، فقلت : واذا استعنت على عملك بأحد ، فاضرب عليه بالأرصاد ، ولا ترض بما عرفته من مبدأ حاله ، فإن الأحوال تتنقل تنقل الأجساد ، وإياك أن تخدع بصلاح الظاهر كما خدع عمر بن الخطاب بالرّبيع بن زياد » [(٢)] .

أقول : قوله كما خدع عمر ، في هذا القول إساءة أدب على عمر رضي الله عنه من نسبته الى أنه خدع ، وفي هذا شبهة لصاحب التقليد ، فانه يقول في نفسه : واذا كان مثل عمر خدع ، فما ظني بنفسي ، فيقع منه الإهمال . والادب في مثل هذا أحسن ، ودفع الانخداع عنه أليق . ألا ترى (١٢/أ) الى قوله تعالى حاكيا عن يوسف عليه السلام : « من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي [(٣)] » ، فنسب ما وقع بينهم الى الشيطان تأدبا مع إخوته عليهم السلام . واذا خُدع مثل عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع تحرزه وشدته في الدّين ، فما يُظن بغيره .

وقال المغيرة [(٤)] بن شعبة : « ما رأيت أحدا أحزم من عمر . كان والله له فضل يمنعه أن يجزع ، وعقل يمنعه أن يُخدع » .

---

(١) المثل السائر ٦٤/١ « .. عمر بن الخطاب رضي الله عنه .. يرفأ .. وعمامة وسماء .. » .

(٢) المثل السائر ٦٥/١ « .. وإذا استعنت بأحد على عملك .. تنتقل بنقل .. » .

(٣) سورة يوسف ٩٩/١٢ .

(٤) المغيرة بن شعبة الثقفي أسلم سنة ٥ هـ شهد الفتوح وكان من عمال عمر وعثمان . الإصابة تر ٨١٨١ ، وأسد الغابة ٤٠٦/٤ .

قال أبو بكر [١] الخرائطي : « رحم الله عمر ما كان أنظرَه بنور الله في ذات الله وأفرَسه . كان والله كما قال الشاعر :

بَصيرٌ بأعقـابِ الأمورِ برأيه كأنّ له في اليوم عيناً إلى غدِ [٢]

وقد نُقل عن أبي العباس أحمدبن عبد الله بن الحطيئه أنه كان يقول : « أُدرجت سعادة الإسلام في أكفان عمر بن الخطاب » .

وما أحسن قول الشاعر :

حُججي عليكَ إذا خلوتُ كثيرةٌ وإذا حضرتَ فإننـي مخصـومُ
لا أستطيع أقـول أنتَ ظلمتني الله يعلمُ أَنّني مظـلومُ [٣]

فانظر الى أدب هذا الشاعر وتلطّفه مع محبوبه وإجلاله له .

وكان الأحسن أن لو قال : وإذا استعنت على عملك بأحد ، فلا تثق منه بلمع السَّراب، واكشف بيد إرصادك عن وجه سيرته حجاب النّقاب ، وتيقّظ لأموره فلا ترض بالظاهر العامر وتنسى الباطن الخراب ، وتخيل من مكره ما تحيّل به الربيعُ بن زياد على عمر بن الخطاب . فإن نسبة الحيلة الى الربيـع أحسن في الأدب من نسبة الخدع الى عمر رضي الله عنه .

[إنكار النافب بالناصر على السلطان صلاح الدين]

قال : «وجدت لابن زيادة البغدادي كتابا كتبه الى الملك الناصر صلاح الدين[٤]

(١) هو محمد بن جعفر السامرائي . فاضل من حفاظ الحديث (ت سنة ٣٢٧ هـ) انظر شذرات الذهب ٣٠٩/٢ ، وارشاد الأريب ٤٦٤/٦ .

(٢) ورد في الفخري لابن الطقطقي طبعة ١٩٢٣ ص ٦٥ وفيه :

عليـم بأعقـاب الامور كأنمـا يخاطبـه من كـل أمر عواقبـه

(٣) البيتان في الغيث المسجم ١٥٧/١ و ٩٤/٢ . وجاء في عجز الثاني (والله)بالواو .

(٤) صلاح الدين الأيوبي . يوسف بن أيوب بن شاذي . صاحب « حطين » (ت سنة ٥٨٩ هـ) انظر النجوم الزاهرة ٣/٦ ــ ٦٣ .

يشتمل على أمور أُنكرتْ عليه من ديوان الخلافة . من ذلك أنه تلقّب بالناصر وذلك لقب أمير المؤمنين » [١] .

ثم إن ابن الأثير استصلح الكتاب وقال : « لم أجد فيه مغمزا إلا في هذا الفصل الذي يتضمن حديث اللّقب ، فإنه لم يأت فيه بكلام يناسب باقي الفصول المذكورة ، بل أتى بكلام فيه غَثاثة كقوله : ما يستصلحه المولى على العبد حرام » [٢] وشيء من هذا النسَق .

ثم إن ابن الأثير رحمه الله ذكر ما أنشأه في هذا المعنى لنفسه فقال : « قد عُلم أن للأنبياء والخلفاء خصائص يختصون بها على حُكم الانفراد ، وليس لأحد من الناس أن يشاركهم فيها مشاركة الأنداد . وقد أجرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك في أشياء نصّ عليها بحكمه ، من جملتها أنه نهى غيره أن يجمع بين كنيته واسمه، وهذا مسوغ لأمير المؤمنين أن يختص بأمر يكون به مشهورا (١٢/ب) وعلى غيره محظورا » [٣] .

وساق باقي السجع وليس فيه زبدة فأثبته . أقول :

قبل الخوض معه أقدم الفرق بين الاسم والكنية واللقب [٤] .

وذلك أن العلم الدّال على شخص معيّن إن كان مصدّراً بأب كأبي بكر وأبي حفص ، أو بأُم كأُم كلثوم وأم البنين وأُم المؤمنين فهو الكنية. وإن أشعر برفع المُسمى كماء السماء وذي رعين وذي النورين وذات النّطاقين وذي الجناحين ، ويدخل في هذا ألقاب الخلفاء بني أمية وبني العباس ، كالهادي والمهدي والرشيد والأمين

---

(١) المثل السائر ٦٧/١ . والنص فيه « وكذلك وجدت لابن زيادة البغدادي .. يوسف المقدم ذكره في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وضمنه فصولا تشتمل .. فمن تلك الأمور التي أنكرت عليه أنه تلقب بالملك الناصر ، وذلك اللقب هو لأمير المؤمنين خاصة » .

(٢) المثل ٦٨/١ « ... فهو على عبده حرام » .

(٣) المثل السائر ٦٨/١ « .. وبين اسمه .. » .

(٤) كما عقد لذلك فصلا في كتابه الوافي ٣٣/١ هـ ـ ريتر .

والمأمون ، ويدخل فيه مصطلح الناس ، من شمس الدين وبدر الدين ونجم الدين وغير ذلك من ألقاب أهل الكتاب كشمس الدولة وتاج الملك . أو يشعر بضعة المسمى كقفة وبطة والأقيشر والأحوص فهذا هو اللقب . وإن كان للدلالة على ذات المسمى وتعيينه ، كزيد وعمرو وبكر وخالد فهذا هو الاسم .

وإذا تقرر هذا ، فالنبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا تجمعوا بين اسمي وكنيتي[(١)] » مراده لا يقال لأحد من أمته محمد أبو القاسم . أما الناصر والعاضد والقادر والمستنصر وما أشبه ذلك فليس ذلك بكنية ولا اسم على ما تقرر .

على أن الفقهاء اختلفوا في التكني بأبي القاسم على ثلاثة مذاهب :

فذهب الشافعي [(٢)] رحمه الله ومن وافقه الى أنه لا يحل لأحد أن يكتني به سواء كان اسمه محمداً أو غيره .

وذهب مالك [(٣)] رحمه الله الى أنه يجوز التكني به لمن اسمه محمد ولغيره . وذهب بعضهم الى أنه يجوز لمن لم يكن اسمه محمداً ولا يجوز لمن اسمه محمد .

قال الرافعي [(٤)] : يشبه هذا الثالث أن يكون أصح ، لأن الناس ما زالوا يكتنون به في جميع الأعصار ولا إنكار .

قال الشيخ محيي الدين النووي[(٥)] رحمه الله : « وهذا الذي قاله صاحب

---

(١) الحديث الشريف في « مجمع الزوائد للهيثمي » ٤٨/٨ .

(٢) الإمام الشافعي هو محمد بن إدريس بن العباس الهاشمي القرشي . أحد الأئمة الاربعة (ت بمصر سنة ٢٠٤ هـ) ، انظر طبقات الشافعية ١٨٥/١ .

(٣) مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري ، أحد الأئمة الأربعة (ت بالمدينة سنة ١٧٩ هـ) انظر وفيات الاعيان ٤٣٩/١ .

(٤) الرافعي عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم . فقيه من كبار الشافعية (ت سنة ٦٢٣ هـ) انظر طبقات الشافعية ١١٩/٥ .

(٥) النووي يحيى بن شرف بن مري . علامة بالفقه والحديث (ت سنة ٦٧٦ هـ) . أنظر طبقات الشافعية ١٦٥/٥ ، والنجوم الزاهرة ٢٧٨/٧ .

هذا المذهب ، فيه مخالفة لظاهر الحديث . وأما إطباق الناس على فعله مع أن في المكتنين به من الأئمة الأعلام وأهل الحَل والعَقد والذين يقتدى بهم في الدين ، ففيه تقوية لمذهب مالك رحمه الله في جوازه مطلقا . ويكونون قد فهموا النهي مختصا بحياته صلى الله عليه وسلم ، لما هو مشهور من سبب النهي في اكتناء اليهود بأبي القاسم ومناداتهم يا أبا القاسم طلبا للايذاء . وهذا المعنى قد زال » انتهى .

قلت : وممن تكنّى بأبي القاسم محمد بن الحنفية [١] . يقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلي رضي الله عنه « سيولد لك بعدي غلام وقد نحلته اسمي وكنيتي ولا يحلّ لأحد بعده » [٢] .

ومحمد بن أبي بكر [٣] ، ومحمد بن طلحة [٤] ، ومحمد بن سعد بن أبي وقاص [٥] ، ومحمد بن عبد الرحمن [٦] بن عوف ومحمد بن جعفر(٧) بن أبي طالب،

---

(١) ابن الحنفية محمد بن علي بن أبي طالب . زعم بعضهم أنه المهدي (ت بالمدينة سنة ٨١ هـ) ، انظر حلية الأولياء ٣/١٧٤ .

(٢) الحديث الشريف . جاء في « جامع الأصول » ١/٢٨٠ « محمد بن الحنفية عن أبيه علي بن أبي طالب رضي الله عنهما قال : « قلت يا رسول الله ، أرأيت ان ولد لي بعدك ولد ، أسميه باسمك وأكنيه بكنيتك ؟ قال نعم » . أخرجه أبو داوود رحمه الله .

(٣) محمد بن أبي بكر الصديق ، نشأ في حجر علي بن أبي طالب . ثم ولاه مصر فقتل بعد خمسة أشهر سنة ٣٨ هـ انظر الكامل في التاريخ ٣/١٧٧ .

(٤) محمد بن طلحة بن عبيد الله القرشي ، صحابي قتل يوم الجمل سنة ٣٦ هـ انظر الإصابة تر ٧٧٨٣ ، والوافي بالوفيات ٣/١٧٤ .

(٥) محمد بن سعد بن أبي وقاص القرشي . قائد من أشراف الدولة في العصر المرواني خرج على عبد الملك فقتله الحجاج سنة ٨٣ هـ ، انظر الوافي بالوفيات ٣/٨٨ .

(٦) محمد بن عبد الرحمن بن عوف أبوه أحد العشرة المبشرين ، وأحد الستة اصحاب الشورى انظر الإصابة تر ٥١٧١ .

(٧) محمد بن جعفر بن أبي طالب . صحابي ولد بأرض الحبشة . قتل في صفين سنة ٣٧ هـ . انظر الإصابة ٧٧٦٦ ، ومقاتل الطالبيين ١١ .

ومحمد بن حاطب [١] بن أبي بلتعة ، ومحمد بن الأشعث [٢] بن قيس .

وسمعت بخواص الأنبياء: أما النبي صلى الله عليه وسلم فخواصه معلومة شرعاً. منها : وجوب الضحى والضحية والوتر والتهجد والسواك وتخيير الزوجة في الإقامة معه أو الفراق ، وتحريم الخط والشعر وإمساك الكارهة من الزوجات ، والفرار من العدوّ في الحرب ، وأن لا يغمد السلاح بعد إشهاره حتى ينال به من العدو ، وإباحة الوصال ، والخمس وصفي المغنم ، ودخول مكة حلالا ، وجعل تركته صدقة غير موروثة ، والنكاح بلفظ الهبة من الزوجة بلا مهر وبلا وليّ ولا شهود ، وفي الإحرام والتزوج بأكثر من (١٣/أ) اربع ، ومن آثرها حرّم على الزوج نكاحها ولزمه طلاقها ، وحرمة زوجاته بعد وفاته على الأمة فلا يحلّ نكاحهن لأحد . وأما من عداهم من سائر أمتهم فما لأحد منهم خاصة يمتاز بها من حيث الشرع .

فانظر الى ابن الأثير رحمه الله ، لم يطابق بين الإنكار والاستشهاد ، ولو أجاب الملك الناصر عن ذلك وقال : إن الخادم ما جمع بين كنية أمير المؤمنين وبين اسمه ولا انفردتُ بواحدة منهما ، فما وجه الإنكار علي ، لكان له أن يقول ذلك .

على أن الملك الناصر رحمه الله تعالى ما تسمى بهذا اللقب والناصر في بني العباس خليفة ، وإنما العاضد [٣] من خلفاء الفاطميين بمصر لما استوزره في سنة اربع وستين وخمسمائة لقبه بهذا اللقب وكان الخليفة ببغداد اذ ذاك المستضيء [٤] بالله .

---

(١) محمد بن حاطب بن أبي بلتعة اللخمي . والده صحابي بعثه الرسول عليه السلام الى المقوقس صاحب الإسكندرية (ت سنة ٣٠ هـ) انظر الاصابة ٣٠٠/١ .

(٢) محمد بن الأشعث بن قيس الكندي . قائد من أصحاب مصعب بن الزبير (ت سنة ٦٧ هـ) انظر الإصابة تر ٨٥٠٤ .

(٣) العاضد ، هو آخر الخلفاء الفاطميين ، إذ انتهى أمرهم على يد صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٧ هـ . أنظر تاريخ الخلفاء للسيوطي .

(٤) المستضيء بالله هو الحسن بن يوسف المستنجد بالله العباسي ، في أيامه زالت الدولة الفاطمية (ت سنة ٥٧٥ هـ) انظر فوات الوفيات ٢٦٩/١ .

[رسالة ابن زيادة البغدادي]

وأما قول ابن زيادة : وكل ما يستصلحه المولى على العبد حرام ، فإنه مناسب ، ولعله أتى به في صورة أحسن من هذه ، وجاء في أثناء كلامه مطبوعا ، ولم يَذكر ابنُ الأثير ما أتى به ليُعلم حسنه من قبحه ، ولم يحضرني عند تعليق هذا الفصل كلام ابن زيادة ، ولعلي أظفر به فيما بعد فأثبته في الحاشية .

وقفت على كلام ابن زيادة فيما بعد ، فكان ما ختم به فصل الإنكار على اللقب: « ومن العجب أن أمير المؤمنين يخاطبه من سمة الملك بما لم يكن له ، ويزاحم هو فيما هو لغيره . ومن الحكم الرائقة في وجيز الكلام ، والذي يصلح للمولى على العبد حرام » انتهى .

قلت : وهذه السجعة بيت شعر من أبيات كتبها عمرو بن مسعدة [1] الى المأمون [2] مع فرس أهداه إليه وهو أدهم بغُرَّة :

يا إماما لا يدانيـــ ـــه إذا عُـد إمامُ
قـد بعثنـا بجـوادٍ مثلـه ليس يُـرامُ
وجهـه صبحٌ ولكنْ سـائر الجسم ظلام
والذي يصلح ... البيت [3]

وقد أجاب القاضي الفاضل رحمه الله عن كتاب ابن زيادة جوابا مطولا ، ولكنه حاسَنَ فيه وما خاشَن وكاثَر وما كاشَر . ثم إن القاضي محيي الدين [4] بن

---

(١) هو عمرو بن مسعدة بن سعد كاتب المأمون انظر معجم الشعراء للمرزباني ص ٣٣ .

(٢) المأمون . عبد الله بن هارون الرشيد العباسي . أتم ما بدأ به المنصور من ترجمة كتب العلم والفلسفة (ت سنة ٢١٨ هـ) ، انظر تاريخ بغداد ١٨٣/١٠

(٣) وردت الأبيات في معجم الشعراء ص ٣٣ ، ومعجم الأدباء ١٣٠/١٦ وهي عندهما سبعة .

(٤) محيي الدين بن عبد الظاهر ، هو عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان . قاض أديب مؤرخ وله شعر (ت بمصر سنة ٦٩٢ هـ) . انظر فوات الوفيات ٤٥١/١ – ٤٦٣ .

عبد الظاهر رحمه الله تعالى ، أملى جوابا على الكتاب المذكور على لسان صلاح الدين طوّل فيه الى الغاية ، مع أنه نافس فيه وناقش ، وقاسَر فيه وقاشر .

وللقاضي الفاضل رحمه الله عذر ظاهر في ذلك الوقت عن المداهنة ، لعظم منصب الخلافة ذلك الزمان . ولعمري إن هذا الكتاب ، فتّ في عضد الملك الناصر وغضّ منه ، وامتنع الناس الأعيان الذين لهم سورة في غير بلاده أن يقولوا إلا السلطان صلاح الدين دون الملك الناصر ، لإنكار الخليفة ذلك . ولعل هذا الأمر باق الى هذا الزمان ، فإنه لا يقال إلا السلطان صلاح الدين في الغالب .

وهذان الجوابان قد أثبتّهما في الجزء الثالث عشر من «التذكرة» التي جمعتها (١٣/ب)

[البلاغة والفصاحة]

قال في الفصل الثامن في الفصاحة والبلاغة عند ذكر البلاغة ، بعد أن قرّر أن البلاغة للمعاني والفصاحة للألفاظ : « البلاغة شاملة للالفاظ والمعاني ، وهي أخصّ من الفصاحة ، كالإنسان من الحيوان . فكل إنسان حيوان وليس كل حيوان إنسانا . وكذلك يقال : كل كلام بليغ فصيح ، وليس كل كلام فصيح بليغاه ويفرق بينها وبين الفصاحة من وجه آخر غير الخاص والعام ، وهو أنها لا تكون إلا في اللفظ والمعنى بشرط التركيب ، فإن اللفظة الواحدة لا يطلق عليها اسم البلاغة ، ويطلق عليها اسم الفصاحة ، إذ يوجد فيها الوصف المختص بالفصاحة وهو الحسن. وأما البلاغة فلا يوجد فيها لخلوها من لمعنى المفيد الذي ينتظم كلاما [١].

أقول : قد ادّعى أنّ هذا الفارق الثاني غير الأول ، وهو هو بعينه ومينه . فإنه أراد أولاً ، كلّ كلام فصيح يطلق عليه أنه بليغ ولا ينعكس . ومعنى هذا ، إذا قلنا : قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل فإن هذا الكلام بليغ باعتبار أنّ معناه بلغ في صوغ تركيبه الى حدّ له توفية بتمام المراد . وفصيح باعتبار بيان مفرداته وحسنها وعذوبتها في السمع . وإذا فككنا هذا التركيب وأخذنا كل فرد من

---

(١) المثل السائر ١١٨/١ . وفيه « .. ويفرق بينهما .. وأما وصف البلاغة فلا يوجد فيها ... » .

ألفاظه ، كان كلّ فرد فصيحا ، ولا يكون بليغا لعدم التركيب في المعنى • فكانت الفصاحة أعمّ من البلاغة لأنها وجدت في الإفراد والتركيب ، وكانت البلاغة أخص لكونها لا تتناول الا المركب فقط • فحيث وجدت البلاغة مع عذوبة الألفاظ وجدت الفصاحة ولا ينعكس • فصحّ أنّ البلاغة كالإنسانية في خصوصها ، والفصاحة كالحيوانية في عمومها • وهذا المعنى موجود بعينه في الفارق الثاني الذي أبداه • فإنه قال : « إن البلاغة لا تكون إلا في اللفظ والمعنى بشرط التركيب •• الى آخره» فتأمل كلامه يظهر لك ما قلته •

[تحديد معنى البلاغة والفصاحة]

والذي أقوله أنا : هو أنّ بين البلاغة والفصاحة ، عموماً من وجه وخصوصاً من وجه • بيان ذلك : أما عموم البلاغة ، فلأنها تتناول الكلام الفصيح أعني الحسن المبين ، وغيرَ الفصيح أعني الغريب الوحشي • وعموم الفصاحة ، فلأنها تتناول الألفاظ العذبة الحسنة ، مفردة ومركبة • وأما خصوص البلاغة ، فلأنها لا تتناول إلا الألفاظ المركبة فقط ، وخصوص الفصاحة ، فلأنها لا تتناول إلا الألفاظ العذبة المستعملة فقط • فثبت أنّ بين البلاغة والفصاحة عموما من وجه ، وخصوصا من وجه • ومثل هذا لا يتنبه له ابن الأثير •

[أقسام علم البيان]

قال في هذا الفصل : « وأما أقسام علم البيان من الفصاحة والبلاغة ، فليست كذلك لأنها استنبطت بالنظر وقضيّة العقل من غير واضع اللغة ، ولم يفتقر فيها الى التوقيف ، بل أُخذت ألفاظ ومعان على هيئة (١٤/أ) مخصوصة وحكم لها العقل بمزية الحسن لا يشاركها فيها غيرها • فإن كل عارف بأسرار الكلام من أي لغة كانت من اللغات ، يعلم أن إخراج المعاني في ألفاظ حسنة رائقة يلذها السمع ولا ينبو عنها

الطبع ، خير من إخراجها في ألفاظ قبيحة مستكرهة ينبو عنها السمع • ولو أراد واضع اللغة خلاف ذلك ما قلدناه » (١) •

أقول : قد ادّعى أنّ ذلك عقل صرف • فإن أراد بالبيان الذي اصطَلح عليه أرباب البلاغة ، وهو أحد أقسام علم البلاغة الذي يطلق على معرفة الحقيقة والمجاز والتشبيه والاستعارة والكناية ، فإن من المجاز ما هو لغوي كالصلاة ، استعملها الشارع في هذه الهيئة المخصوصة المشتملة على القيام والقراءة والركوع والسجود والذكر والسلام والدعاء • وهي في أصل اللغة إنما تطلق على الدعاء الذي هو جزء هذه الهيئة فسماها باسم جزئها ، فقد توقفت معرفة هذا المجاز على حقيقته ، وتلك الحقيقة لا تُعرف إلاّ بالنقل لاَ بالعقل ، والمُتوقف على المُتوقَف على معرفة الشيء مُتوقّف على ذلك الشيء •

[الاستعارة والكناية]

وأما الاستعارة ، فاختلف علماء البيان ، هل هي مجاز لغوي أو عقلي • فذهب الأكثرون الى أنها مجاز لغوي خلافا لصاحب « المفتاح » (٢) فإنه ذهب الى أنهاعقلية• ودليل الأكثرين أنك اذا قلت : عندي أسد شاكي السلاح ، وأنت تريد الرجل الشجاع ، كان لفظ الأسد عند التحقيق مستعملا في غير ما وضع له ، لأنك تفهم أنه عنده رجل شبهه بالأسد • وإنما حذف أداة التشبيه مبالغة ، والألف والسين والدال فَهْمُ معناها متوقف على النقل •

وأما الكناية فمن أقسامها قسم يتوقف على النقل • كقول الشاعر (١٤/ب) :

أخو لخم أعارك منه ثوبا ... هنيئا بالقميص المستجدِ
أراد أبوكَ أمكَ حين زُفت ... فلم يوجد لأمك بنتُ سعدِ
وقد ألقى كساءَ أبي عَبيد ... عليك فصرتَ أكسى أهلِ نجدِ

---

(١) المثل السائر ١/ ١٢٠ « وأما علم البيان .. فليس كذلك لأنه استنبط بالنظر .. التوقيف منه .. بمزية من الحسن .. لما قلدناه » .

(٢) هو السكاكي . يوسف بن أبي بكر محمد . عالم بالعربية والأدب . من أبرز كتبه « مفتاح العلوم » توفي بخوارزم سنة ٦٢٦ هـ . انظر إرشاد الأريب٧/ ٣٠٦ ومفتاح السعادة ١/ ١٦٣ .

أراني الله عينَك في الجُعَبّى وعينَك عينَ بشار بن بُرد[١]

فإنّ الشاعر أراد بأخي لخم جذاما ، وببنت سعد عُذرةَ ، وبأبي عبيد الأبرصَ[٢] ، وبعين بشار[٣] العمى .

وقول محمد بن عبدون[٤] في خمر عادت خلاًّ :

ألا في سبيلِ اللّهوِ كأسُ مُدامةٍ أتتنا بطعم عهدُه غيرُ ثابتِ
حكتْ بنتَ بسطام بن قيسٍ صبيحةً وراحتْ كجسمِ الشَّنفرى بعد ثابت

أراد ببنت بسطام صهباء ، وبجسم الشَّنفرى[٥] قوله :

فاسقنيها ياسوادَ بنَ عمرو إن جسمي بعد خِلي لَخَلٌّ[٦]

---

(١) وردت في الغيث المسجم غير منسوبة . وجاء في عجز الأخير (مثل بدل عين) .

(٢) هو عبيد بن الأبرص الأزدي من مضر . عاصر امرأ القيس ، وفد على النعمان في يوم بؤسه فقتله نحو ٢٥ ق هـ . انظر الشعر والشعراء ٨٤ ، وخزانة البغدادي ١/٣٢٣ .

(٣) بشار بن برد الشاعر المعروف . ولد أعمى ، أتهم بالزندقة فمات ضربا بالسياط سنة ١٦٧ هـ وقد جاوز التسعين . انظر وفيات الأعيان ٣/١٩ .

(٤) محمد بن عبدون الوراق السوسي انظر الوافي بالوفيات ٣/٢٠٥ . وبيتاه في الغيث المسجم ٢/٢١٦ . وورد صدر الثاني « أتت بنت بسطام بن قيس عشية » .

(٥) الشنفري هو عمرو بن مالك الأزدي . شاعر جاهلي يماني ، صاحب لامية العرب ، من الخلعاء العدائين توفي نحو ٧٠ ق هـ . انظر الأغاني ٢١/١٣٤ — ١٤٣ ، وخزانة البغدادي ١٦ — ١٨ .

(٦) بيت الشَّنفرى في « شرح الحماسة » للمرزوقي ٢/٨٣٩ منسوب لتأبط شرا من قصيدة مطلعها :

ان بالشعب الذي دون سَلْعٍ لقتيلا دمه ما يُطَلْ

وفي « سمط اللآلي » ص ٩١٩ جاء قوله : « اختلف في هذا الشعر ، فقيل إنه =

وقول الآخر :

ويدعي الشربَ في كأس وفي قدح وأم عنتــرةَ العبسيِ تكفيــهِ

أي تكفيه زبيبة لأنها [اسم] [(١)] أم عنترة العبسى •

ولولا النقل لما علم من هذه الكنايات شيء ، وليس للعقل هنا مجال • فقد اتضح أنّ بعض البيان نقلي •

وإن أراد بالبيان علم المعاني الذي هو ما يُعرف به تتبُّــع خواصّ تراكيب الكلِم ، من أحوال الإسناد الخبري ، وأحوال المسند إليه ، وأحوال المسند ، والفصل والوصل ، والإيجاز والإطناب وأحوال الطلَب ، فأكثر ذلك تتوقف معرفته على النقل ، إذ المُسند والمسند إليه هما المبتدأ والخبر ، وأحوال كل منهما متنوعة ، من تقديم وتأخير لكل منهما وتعريفهما وتنكيرهما ، وحذف هذا تارة وذلك أخرى ، ومجيء المسند إليه تارة اسما وتارة فعلا إما ماضيا وإما مضارعا • ولولا خوف الإطالة لضربت أمثلة ذلك ، ولكنها معلومة من النحو • وجميع ذلك الأصلُ فيه ماورد به النقل •

وهذا هو جُلّ علم المعاني • فقد ثبت أنّ البيان ليس بعقلي كما ادعاه ابــن

= لابن أخت تأبّط شرا خفاف بن نفيله يرثي خاله وكانت هذيل قتلته ، وقيل إنه للشنفرى ، وقيل إنه لخلَف الأحمر وقد نسب الى تأبط شرا . . .» .
أما « العقد الفريد » ٣/٢٩٨ فقد نسبها إلى ابن أخت تأبط شرا « يرثي خاله تأبط شرا الفهمي وكانت هذيل قتلته » .
وفي « طبقات ابن المعتز » ص ١٤٧ ما يلي : « وقال دعبل : قال لي خلف الأحمر وقد تجارينا في شعر تأبط شرا وذكرنا قوله : « إن بالشعب الذي دون سلع . . » أنا والله قلتها ولم يقلها تأبط شرا .
وفي الغيث المسجم ٢/٢١٦ نسبة إلى الشنفرى . وجاءت رواية البيت :

فاسقنيهــــا أبا سواد بن عمرو إن جسمي من بعد خالي لخل

وورد في خزانة ابن حجة ص ٤١ للشّنفرى . وفي عجزه « بعد خالي » .

(١) زيادة من (ب) وهي ساقطة في الأصل .

الأثير ، بل بعضه عقلي وبعضه نقلي • على أنّه قد أورد الناس على علم المعاني فقالوا : إن كان بديهيا لم يُحتج إلى تعلمه وتدوينه ، وذِكره مستغنى عنه ، وإن كان كسبيا افتقر إلى علم آخر ، ودار أو تسلسل • وما أفضى إلى ذلك فهو باطل •

وأجيب بأنه ليس الكل بديهيا فيلزم (١٥/أ) ذلك • بل البعض بديهي يدرك بالذوق السليم والذهن المستقيم ، والبعض كسبي يؤخذ بالنقل •

ولما كان الناس على ثلاث طبقات : الأولى أصحاب الطبع السليم وهم العرب الخلّص الذين يوردون الكلام بسجيّتهم موارده ، فهؤلاء مستغنون عن تعلمه لأنه لهم جبلة وفطرة • والطبقة الثانية الجفاة أصحاب الفظاظة والطباع النافرة الذين لا شعور لهم بمعاني الكلام ، ولا استعداد لهم لتحصيل ذلك ، فهؤلاء أيضا مستغنون عن تعلمه ، فإنه لا فائدة لهم فيه • والطبقة الثالثة هم المتوسطون ، بين هؤلاء وبين هؤلاء ، قد يصيبون تارة في أفكارهم وقد يخطئون • فهؤلاء هم الذين وضعت لهم هذه الآلة • فإذا راعوا قوانينها المدونة ، وحدودها المقررة ، كانوا أبعد عن الخطأ • وحينئذ لا تستغني هذه الطبقة عن تعلم هذه الآلة •

[تعليلات النحاة]

قال في هذا الفصل أيضا : « والذي تكلفه النحاة من التعليلات واهٍ لا يثبت على محك النظر » (١) •

أقول : قد أجابه ابن أبي الحديد في «الفلك الدائر» (٢) عن ذلك • ولكنما أنضج القول معه ، ويحتاج إلى بقية تذنيب • وهو أن يقال له : ما كأنك نظرت في هذا

(١) المثل السائر ١/١٢٠ والعبارة فيه : « ..هذه الأدلة واهية لا تثبت على محك الجدل ... » .

(٢) في المثل السائر ٤/٩٢ •

العلم حق النظر ورأيت ما ذكره ابن السَّراج [١] والرُّماني [٢] وأبو علي [٣] والسِّيرافي [٤] ومن بعدهم مثل : ابن جني [٥] وما أتى به في كتاب « الخصائص » و « سر الصناعة » وابن الانباري [٦] في « أسرار العربية » وغير ذلك من حسن التعليل لأحكام النحو ، والمناسبات التي أبدوها وإن كان في البعض تسامح لما أنهم التزموا بتعليل كل ما ورد عن العرب • وكما التزم أبو علي في « الحجة » بتعليل القراءات السبع ، وابن جني في « المحتسب » في تعليل القراءات الشاذة وليس كل ذلك ما يطابق قواعد النحو في الظاهر أكثر من قراءة أبي عمرو [٧] رحمه الله تعالى ، لأنه كان أقعدهم بالنحو • ولهذا شنَّع النحاة على ابن عامر [٨]

---

(١) ابن السراج هو محمد بن السري بن سهل ابو بكر . أحد ائمة الأدب والعربية (ت ٣١٦ هـ) انظر طبقات النحويين واللغويين ص ١٢٢ ، ووفيات الأعيان ٣٠٥/١ .

(٢) الرماني هو علي بن عيسى أبو الحسن . باحث معتزلي مفسر من كبار النحاة (ت ٣٨٤ هـ) انظر بغية الوعاة ١٨٠/٢ ، ووفيات الأعيان ٣٣١/١ .

(٣) أبو علي الفارسي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار . أحد الأئمة في علم العربية . أقام مدة عند سيف الدولة (ت ٣٧٧ هـ) . انظر انباه الرواة ٢٧٣/١ . وكتابه الحجة طبع الجزء الأول منه حتى الآن .

(٤) السيّرافي الحسن عبد الله أبو سعيد . نحوي معتزلي عالم بالأدب (ت ٣٦٨ هـ) انظر وفيات الأعيان ١٣٠/١ .

(٥) عثمان بن جني الموصلي أبو الفتح . من أئمة الأدب والنحو (ت ٣٩٢ هـ) . انظر ارشاد الأديب ١٥/٥ ــ ٣٢ ، ويتيمة الدهر ٧٧/١ .
وكتبه : الخصائص وسر صناعة الإعراب مطبوعان أما المحتسب فالمطبوع منه الجزء الأول والثاني حتى الآن .

(٦) ابن الأنباري . عبد الرحمن بن محمد أبو البركات . من علماء اللغة والأدب (ت ٥٧٧ هـ) انظر بغية الوعاة ٨٦/٢ ، ووفيات الأعيان ٢٧٩/١ . وكتابه أسرار العربية مطبوع .

(٧) أبو عمرو بن العلاء . زبان بن عمار من أئمة اللغة والأدب وأحد القراء السبعة (ت ١٥٤ هـ) انظر وفيات الأعيان ٣٨٦/١ .

(٨) ابن عامر، عبد الله بن عامر ابو عمران الشامي ، أحد القراء السبعة (ت بدمشق ١١٨ هـ) انظر تهذيب التهذيب ٢٧٤/٥ ، وميزان الاعتدال ٥١/٢ .

رحمه الله في قراءته المشهورة قوله تعالى « وكذلك زُين لكثير من المشركين قتلُ أولادَهم شركائهم » • بتغيير زين لما لم يسمَّ فاعله ، ورفع قتل مفعول له ، ونصب الدال من أولادهم على أنه مفعول المصدر الذي هو قتل ، وجر شركائهم لأنه فاعل المصدر وجره على الإضافة ، ولا يضاف المصدر إلا إلى فاعله •

فقد فصل ابن عامر بين المصدر وفاعله المضاف إليه ، وهو غير ما قرره النحاة • وأفرطوا في الشّناع عليه ، وهو جائز • وقد جاء عن العرب كثيرا في شعرهم ، واستشهد له الشيخ جمال الدين[1] بن مالك رحمه الله في «شرح الكافية» (١٥/ب) بشواهد عديدة ومنعَ الخصمُ بأن هذا الباب جائز في ضرورة الشعر ، وليس في القرآن ضرورة • وانتصر الكواشي[2] لابن عمر في « تفسيره » وأيد هذه القراءة•

وهذا شأن الفقهاء ، أكثر تعليلاتهم لما ورد في أحكام الشرع الشريف في غاية الحسن والقوة ، وفي بعض ذلك تسامح • كمن أراد تعليل بعض مناسك الحج فإنه ليس بقوي قوة غيره • والغزالي[3] في « الإحياء » تكلم في هذا كلاما حسنا ،وكذلك شأن المتكلمين ، فإن بعض أدلتهم لا تبلغ القوة فيما أتوا به • من حدوث العالَم والنّفس وإثبات الوحدانية وعدم الجهة • فقد تجيء معهم مسائل قليلة أدلتها عليلة لا تبلغ في القطع والجزم وإلزام الخصم مبلغ تلك• ولولا ذلك لما وقع في النحو خلاف بين البصريين والكوفيين ، ولا بين أصحاب المذاهب في الفروع ، كالأئمة الأربعة ومن عداهم من الفقهاء التابعين وأصحاب الظاهر رضي الله عنهم اجمعين ، ولا بين

(١) جمال الدين . محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الجياني . أحد الأئمة في علوم العربية (ت بدمشق سنة ٦٧٢ هـ) من كتبه « الألفية » في النحو انظر الوافي بالوفيات ٣٥٩/٣ ، وبغية الوعاة ١٢٠/١ وكتابه شرح الكافية مطبوع .

(٢) الكواشي . أحمد بن يوسف بن الحسن أبو العباس الموصلي ، عالم بالتفسير من فقهاء الشافعية (ت سنة ٦٨٠ هـ) انظر النجوم الزاهرة ٣٤٨/٧ ، ونكت الهميان ١١٦ .

(٣) هو محمد بن محمد أبو حامد الطوسي . فيلسوف متصوف ، حجة الاسلام (ت ٥٠٥ هـ) انظر طبقات الشافعية ١٠١/٤ ، ووفيات الأعيان ٤٦٣/١ . وكتابه إحياء علوم الدين مطبوع .

المتكلمين في أصول الدين من الأشاعرة والمعتزلة والإمامية والخوارج والحَشَوية . وكأنه نظر إلى قول ابن فارس [1] صاحب « المجمل » :

مرت بنا هيفاء مجدولة تركية تُعزى لتركي
ترنو بطرف فاتن فاتر أضعفَ من حجة نحوي [2]

ألم يعلم أن الشعر والخطابة يروج فيهما أدنى شبهة ، وتضيء فيهما أقل لمعة . وقول الشاعر هنا إنما هو بالنسبة إلى الأمور الضرورية ، كتنافي الضدّين ، وأن الواحد نصف الاثنين ، وأن الجسم الواحد لا يشغل الحيزين معا في وقت واحد وما أشبه ذلك ، على أن من الناس من أنكر هذه البديهيات وطعن في صحتها واعترف بالحسيات . ومن الناس من أنكر الحسيات وطعن فيها وجزم بالبديهيات . ومن الناس من طعن فيهما وأنكر الحسيات والبديهيات وهم السوفسطائية .

حُكي أن صالح[3] بن عبد القدوس مات له ولد فمضى إليه أبو الهذيل [4] ومعه النظام[5] وهو غلام حدث ، فرأى من جزعه فقال له : لا أعلم لجزعك وجها

---

(١) أحمد بن فارس أبو الحسين الرازي ، كان إماما في علوم شتى وخصوصا اللغة . وله شعر (ت بالري ٣٩٠ هـ) .

(٢) وبيتاه في وفيات الأعيان ٢٥١/١ ، ومعجم الأدباء ٨٧/٤ ، والنجوم الزاهرة ٢١٣/٤ وبغية الوعاة ٣٥٢/١ ، ويتيمة الدهر ٤٠٦/٣ ، والبداية والنهاية ٣٣٥/١١ ، وشذرات الذهب ١٣٣/٣ .

(٣) صالح بن عبد القدوس بن عبد الله . شاعر حكيم كان متكلما يعظ بالبصرة . اتهم بالزندقة وقتل سنة ١٦٠ هـ ، انظر فوات الوفيات ٣٩١/١ ، ونكت الهميان ١٧١ .

(٤) أبو الهذيل العلاف محمد بن الهذيل بن عبد الله ، من أئمة المعتزلة (ت ٢٣٥هـ) انظر وفيات الأعيان ٤٨٠/١ ، ونكت الهميان ٢٧٧ .

(٥) النظام هو إبراهيم بن سيار أبو إسحق البصري . من أئمة المعتزلة ، شاعر أديب بليغ (ت ٢٣١ هـ) انظر خطط المقريزي ٣٤٦/١ ، والنجوم الزاهرة ٢٣٤/٢ .

إذ كان الناس عندك كالزرع ! فقال صالح : يا أبا الهذيل ، إنما أجزع عليه لأنه لم يقرأ كتاب « الشكوك » فقال وما هو ؟ قال : كتاب وضعته ، من قرأه شك فيما كان حتى يتوهم أنه لم يكن ، وفيما لم يكن حتى يظن أنه قد كان • فقال له النّظام : فشك أنت في ابنك أنه لم يمت وإن كان مات واعمل على أنّه عاش الى أن قرأ الكتاب وان كان ما عاش إلى أن قرأه • فبُهت صالح وحُصِر (١٦/أ) •

وإذا كان الأمر وَصَل في المكابرة إلى هذا الحد ، فما ظنّك بمن يعلل رفع الفاعل ونصب المفعول وعمل (لم) الجزم و (ان) جزم الشرط والجزاء وغير ذلك • وباب الجدل مفتوح لكل من أراد أن يمنع شيئا • ولهذا يقال : إذا ناظرت المعتزلي في مسألة الرؤية الزم جانب المنع ، ومن أراد أن ينكر شيئا أنكره وأتعب خصمه ، فلا يستطيع أن يقهره •

وليس يصحُّ في الأفهام شيءٌ إذا احتاجَ النهارُ إلى دليلِ[1]

نعم اذا لزم خصمك الحق وقصدَه ظفرت منه بالمُراد ، وجذبته بعد العناد إلى الصواب سلس القياد وإذا كان مُتعنِّتا أو جاهلا أو جاحدا ، فإنما تضرب في حديد بارد[2] وقد ضيعت نفخك في الرماد •

وما يقوم لأهلِ الحبِ بينةٌ على بياض صباحٍ أو سواد دُجا

ويابن الأثير : إن كانت تعليلات النحاة واهية لم تثبت على محك النظر ، فماذا الذي يثبت على محك النظر من تعليلات أصحاب المعاني وهي ما هي؟أكثر مايستندون إليه شبه خطابية لا يقطع بها • ولو عورضوا فيها وقفوا في الكثير منها •

وكان الشيخ تقي الدين[3] بن دقيق العيد رحمه الله تعالى يقول : علم المعاني

---

(١) البيت للمتنبي في شرح ديوانه ــ للبرقوقي ــ ٢٦٦/٣ . وهو أحد أبيات قالها في مجلس سيف الدولة يردّ على بعض الحاضرين .

(٢) انظر مجمع الأمثال (طبعة ١٩٥٩) ١٢٥/١ حرف التاء ــ وكتاب الأمثال لزيد بن رفاعه ص ٥١ .

(٣) تقي الدين بن دقيق العيد . محمد بن علي بن وهب أبو الفتح . قاض من اكابر العلماء (ت سنة ٧٠٢ هـ) انظر الدرر الكامنة ٩١/٤ ، وفوات الوفيات ٤٨٤/٢ .

والبيان إلى الآن بعدُ ما أنضجته الطبيعة . حكى لي ذلك عنه الشيخ فتح الدين ابن سيّد النّاس بالديار المصرية في سنة ثمان وعشرين وسبعمائة ، فإنه تلميذه الخاص به .

وما أشك أنّ الكثير من الحجج النحوية أقوى وأقطع وأقرب إلى الجزم من الكثير من حجج أرباب المعاني ، بل ما بينهما صيغة أفعل . فأتِ في ذلك بحجةقاطعة :

أو فَدَعِ الأشياءَ مستورةً وادخلْ بنا في النسبِ الواسعِ[(١)]

[ما يشترك فيه الكاتب والشاعر]

قال في الفصل التاسع في أركان الكتابة : « إن الكاتب من أجاد المطلع والمقطَع ، أو يكون مبنيا على مقصد الكتاب » . ثم قال : « وهذا يشترك فيه الكاتب والشاعر » [(٢)] .

أقول : هذا فيه تسامح ، فإن الشاعر في كل وقت ما يفتتح قصيدته بما يدل على مقصوده . فإن من مدح يطلب الإرفاد والإعانة بمال أو مركوب أو شفاعة أو طلب ولاية ، ثم صدّر تلك القصيدة بغزل يصف فيه محبوبه ، أو وصف هوى أو غُربة أو شوق أو مسير ، كيف يتأتى له ذلك ؟ . نعم إذا كان مدحا مجردا بلا غزل لاق به ذلك ، وأكثر ما يكون المدح مجردا من الغزل إذا كان في واقعة تجدّدت للممدوح فيهنئه الشاعر إما بولاية منصب أو بظفره بعدوٍّ أو بمولود أو بسلامة من حادثة

---

(١) البيت من مقطوعة قدّم لها السيوطي في تاريخ الخلفاء بأنّ « العزيز بالله ابن المعز في أول ولايته ، صعد المنبر يوم الجمعة فوجد هناك ورقة فيها هذه الأبيات :

انـا سمعنا نسبا منكرا يتلى على المنبر في الجامع
ان كنت فيما تدعي صادقا فاذكر أبا بعد الأب السابع
وان ترد تحقيق ما قلته فانسب لنا نفسك كالطائع
أو فدع الانساب مستورة وادخل بنا في النسب الواسع
فـان أنساب بني هاشم يقصر عنها طمع الطامـع

وكذا وردت الأبيات في « الغيث المسجم ١/١٣٤ » عدا البيت الأخير .

(٢) المثل السائر ١/١٢١ « ... وهذا الركن يشترك فيه ... » .

أصابته أو هناء بعافية أو بتثيف أو غير ذلك (١٦/ب) من مجددات الوقائع• ولولا خوف الإطالة ذكرت الشواهد على ذلك •

وأما الكاتب فإنه إن كتب إلى من هو دونه أو مساويه أو أرفع منه ، بحيث أنه تمكن مخاطبته بالدعاء ، فيحتاج إلى أن يكون الدعاء مناسبا لما يتضمنه الكتاب من شوق أو وحشة أو هدية أو استهداء أو شفاعة أو سؤال أمر أو شكر أو هناء أو عزاء أو ما هو بحسب الحال • وهذا النوع إنما حافظ عليه المتأخرون من الكتاب خصوصا في التقاليد والتواقيع فإنهم راعوا ذلك • ولولا خوف الإطالة لأوردت من ذلك جملة كافية •

على أنّ هذا لا يحتاج أهل هذا العصر إلى التنبيه عليه ، لأن هذا الأمر قد اشتهر بين كتابه •• وقد بقي هو الغاية المطلوبة من الكاتب • حتى إنه ليقال : افتتح تقليده أو توقيعه أو كتابه بكَيْتَ وكيت • ويَذكرُ اسم صاحب التقليد في أول السجعة ، أو يُنَبِه على معنى ما اشتمل عليه الكتاب • فمنهم السابق ومنهم المقصّر • وقد يتفق في غالب الأوقات اسم المكتوب له والوظيفة ، فينبه الكاتب على المعنى • ألا ترى ما أحسن قول (••••) [١] وقد كتب تقليدا بولاية العهد للسلطان الملك الأشرف [٢] صلاح الدين فقال : « الحمد لله الذي جعل الملك الأشرف صلاح الدين » • فما استعار له شيئا • واتفق لي مثل هذا في توقيع كتبته لقاضي القضاة الحنفية عماد الدين علي بتدريس المدرسة القايمازية[٣] فقلت : « الحمد لله الذي جعل عماد الدين عليا » فما استعرت له شيئا • وهذا كثير الاتفاق •

---

(١) بياض في الأصل بمقدار اربع كلمات وجاء في البداية والنهاية ٣٣١/١٤ أن كاتب الاسرار في تلك الفترة هو محمد بن محيي الدين بن عبد الظاهر .

(٢) الملك الأشرف هو السلطان خليل بن قلاوون صلاح الدين تولى الملك سنة ٦٨٩ هـ واغتيل سنة ٦٩٣ هـ . تم على يديه تطهير البلاد من الصليبيين . انظر فوات الوفيات ٣٠٠/١ .

(٣) نسبة إلى بانيها أحد أمراء المماليك قايماز بن عبد الله الزيني (ت ٥٩٥ هـ).

وقول القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر وقد كتب تقليدا بولاية العهد للسلطان الملك الصالح علاء الدين علي عن والده السلطان الملك المنصور فقال : « الحمد لله الذي شرف سرير الملك بعليه ، وحاطه منه بوصيه ، وعضد منصوره بولاية عهد مهدية » وقول القاضي علاء الدين[1] بن عبد الظاهر رحمه الله تعالى في تقليد كتبه لركن الدين[2] (١٧/أ) بيبرس المظفر ، عندما تملك عن مولانا أمير المؤمنين أبي الربيع سليمان أدام الله أيمه فافتتحه بأن قال : « انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم » .

وكتب فخر الدين[3] بن لقمان عن الملك السعيد[4] بن الملك الظاهر[5] رحمهما الله تعالى تقليدا بوزارة برهان الدين السنجاري ، افتتحه بقوله تعالى : « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم »[6] . وفي هذه اللمعة كفاية . ولكن قد ظهر أولا أن الشاعر لا يلزمه ما يلزم الكاتب من مراعاة المطالع .

[كيف يستفيد الكاتب المنشىء من التراث الأدبي]

قال في الفصل العاشر في الطريق إلى تعلم الكتابة : « الثاني أن يمزج كتابة المتقدمين بما يستجده لنفسه من زيادة حسنة : إما في تحسين ألفاظ أو تحسين معان»

---

(١) علاء الدين بن عبد الظاهر . علي بن محمد بن عبد الظاهر . فاضل من القضاة (ت ٧١٧ هـ) انظر شذرات الذهب ٤٦/٦ .

(٢) بيبرس المظفر ركن الدين من سلاطين المماليك (ت ٧٠٩ هـ) انظر النجوم الزاهرة ٢٣٢/٨ ـ ٢٧٦ .

(٣) فخر الدين بن لقمان هو إبراهيم بن لقمان بن احمد . وزير من الكتاب ، وهو الذي حبس في داره لويس التاسع ملك فرنسا سنة ٦٤٨ هـ (ت ٦٩٣ هـ) انظر النجوم الزاهرة ٣٦٦/٦ ، والبداية والنهاية ٣٣٧/١٣ .

(٤) الملك السعيد هو محمد بركة ابن الملك الظاهر بيبرس من ملوك دولة المماليك خلع ومات في الكرك سنة ٦٧٨ هـ ، انظر النجوم الزاهرة ٢٥٩/٧ .

(٥) الملك الظاهر بيبرس صاحب الفتوحات والآثار توفي في دمشق سنة ٦٧٦ هـ ، انظر فوات الوفيات ١٥٩/١ ، والنجوم الزاهرة ٩٤/٧ .

(٦) سورة النساء ١٧٤/٤ .

ثم قال : « إلا أنّ هذه الطريق مستوعِرة جدا ، ولا يستطيعها إلا من رزقه الله لسانا هجّاماً وخاطرا رقّاما ، وقد سهلت لي صِعابها وذللّت فِجاجها ، وكنت أشح بإظهار ذلك لما عانيت في نيله من العناء »[١] .

أقول : وقد سلك هو طريقا والقاضي الفاضل طريقا :

عاجوا إلى تلفي وعُجْتُ الى الرِضى شتانَ بين طريقهم وطريقي

فإن القاضي رحمه الله ، أذهل لما أسهل ، وابن الأثير سامحه الله أحزن لما أحزن ، على أن ابن الأثير أكثر ما جاء به في طريقه : حلّ المنظوم ، وتضمين الأمثال . وليس هو بأبي هذه العذرة ، ولا ناظم تلك الشذرة . وأين كلامه من كلام الوزير أبي الوليد[٢] ابن زيدون : ومن وقف على ترسّله ، علم حسن توصله إلى هذا الفن ولطف توسله . لا سيما رسالته التي كتبها على لسان ولادة[٣] بنت المستكفي إلى الوزير أبي عامر ابن عبدوس ، والرسالة التي كتبها إلى ابن جَهور[٤] (١٧/ب) يستعطفه بها . فإنه أتى في هاتين الرسالتين بالغرائب والعجائب ، وضمنهما من الأمثال والوقائع وحل الأبيات ما زاد ، وضوّع ندّه في كل نادٍ ، لأنه حشر فيهما فنادى ، ونظم لآلىء ذلك توأما وفُرادى فجاءت كل رسالة .

يحركُ أعطافَ المعالي سماعُها وتبعثُ أطرابَ النُهى وتهيِّجُ

وهناك يُعلم قدر هذا الرجل في اطلاعه ، وبسط ظلّه وغاية ارتفاعه . حتى قيل :

---

(١) المثل السائر ١٢٦/١ « ... يستجيده .. أو في تحسين .. رزقه الله تعالى .. وقد سهلت لك صعابها وذللت فجاجها .. لما عانيت من نيله .. » .

(٢) ابن زيدون هو أحمد بن عبد الله الوزير الكاتب الشاعر المعروف ، صاحب ولادة (ت ٤٦٣ هـ) . انظر وفيات الأعيان ٤٣/١ ، وقلائد العقيان ٧٠ . ورسالتاه المشهورتان مطبوعتان .

(٣) ولادة بنت المستكفي بالله الأموي ، الشاعرة الأندلسية المشهورة بأخبارها مع الوزير ابن زيدون (ت ٤٨٤ هـ) انظر نفح الطيب ٣٣٦/٥ .

(٤) ابن جَهور بن محمد بن جهور أبو الحزم ، تولى أمر قرطبة سنة ٤٢٢ هـ عرف بحزمه (ت ٤٣٥ هـ) انظر مطمح الأنفس ص ١٦ .

إن نثره أشبه منه بالمنظوم •

وقد نثر ابن خلف [(١)] الحماسة وزاد عليها في مجلدة وسمها بـ « المنثور البهائي » [(٢)] وادعى فيه أنه هو الذي ابتدع حل المنظوم [(٣)] ، كما أنّ الخليل بن أحمد اخترع العروض •

وأما ابن الأثير ، فإنه أكثر من الحلّ ، وأتى فيه بما حرم وما حل ، وزاد من رقمه في بروده ، وبالغ من نظمه في عقوده •

والخدُّ بهجته بخالٍ واحد وتقلُّ فيه بكثرةِ الخيلانِ

وأتى فيه بالسمين والغثّ ، وما جاء فيه بجديد إلا وقرنه بالرثّ • وحلّ المنظوم إنما هو نوع واحد ، وقسم لو فقد ما كان عليه واجد ، وما لم تكن فيه خفة تروجه ، وحلاوة تقرنه بالسمع وتزوجه ، لم يعلق بالسمع قرطه ، ولم يجاز بالقبول شرطه • وما أُمثّله إلا بعقد نثرت حباته ، وروض صوّحت زهراته • فأي حسن لقريض خانه وزنه ، وأي نضارة لروض جفاه مُزنه • اللهم الا أن يكون المنشىء سليم الفطرة ، قويم الفكرة ، يستدرك على الناظم ما فاته ، ويرهف صارمه ويثقف قناته ، إما باحتراز ما لم يحد عنه ، أو الإتيان بملائم لم يتمكن لضيق الوزن منه ، أو باختصار ما (١٨/أ) يقوم المعنى بدونه ، أو بزيادة زهر غصونه ، أو بجودة سبكه ، أو بإتقان حبكه • وهنا تظهر القدرة المتمكنة ، وتكون أدلة الفصاحة بيّنه •

فليس لوصلِ من يُدعى فيأتي عذوبةُ وصلِ من يُدعى فيأبى

وأما القاضي الفاضل رحمه الله ، فإنه سلك طريقا غريبة ، وأظهر فنونا عجيبة ،

---

(١) ابن خلف هو علي بن محمد بن خلف . من جلة الكتاب والرؤساء . نثر كتاب الحماسة لبهاء الدولة (ت ٤١٤ هـ) انظر فوات الوفيات ١٥٠/٢ .

(٢) مخطوط في كوبرولي (١٢٩٨) استانبول ، انظر بروكلمان GAL S II 910

(٣) لا صحة لادعاء ابن خلف لو ثبت عنه فللآمدي صاحب الموازنة المتوفى بالبصرة سنة ٣٧٠ هـ كتاب بعنوان نثر المنظوم . انظر معجم الأدباء ٨٥/٨ ، وانباه الرواة ٢٨٥/١ .

زعم بعضهم أنه كان جلّ اعتماده على حفظ كلام ابن أبي[١] الشخباء ، وأنه كان يستحضر أكثر كلامه ، وبعضهم زعم أنه اعتمد على كلام ابن أبي الخصال[٢] ، وبعضهم زعم انه اعتمد على كلام البديع[٣] وهيهات ، ليس في كلام واحد منهم تلك النشوة ، ولا لمتكلم غيره تلك الخطوة في نيل الحظوة ، ولا لمترسل حسنه الذي شقّ قلوب الرجال إن لم يقطع أيدي النسوة . بينما هو يخاطبك بالكلام ، إذا به قد عاطاك كؤوس المدام ، وبينا هو يناوح مهبك ، إذا به قد سحر لبّك ، وبينا هو يتكلم مثل الناس على العادة ، إذا به قد سرد الكواكب الوقادة ، وبينا هو قد ألفتك ظهره ، إذا به قد أدار لك المحيا ، وبينا هو يسايرك في الثّرى ، اذا به قد تبختر عند الثريا .

فإن كان من دُرٍ فما الدُرُّ هكذا وإن كان سِحراً ان ذا لعجيبُ

وها أنا أورد هنا من كلامه نبذة تكون لباقيه عنوانا ، وفلذة تكون بينه وبين غيره ميزانا ، من ذلك كتاب كتبه في وصف كتا بكتبه موفق الدين خالد[٤] بن مهذب الدين القيسراني بذهب وهو :

« وقف الخادم على ما دبجته أنامل الحضرة التي إذا صاب سحابها روّض لساعته ، وإذا عدمت حقيقة السَّحَر فهي التي نفثها بيانه في روع يراعته ، فانتقل من الاستحسان إلى التسبيح لأن حروفه شذور السُّبح ، وخلص التفضيل من

---

(١) ابن أبي الشخباء هو الحسن بن عبد الصمد العسقلاني . كان القاضي الفاضل يحفظ أكثر خطبه ورسائله . وله شعر (ت بالقاهرة سنة ٤٨٢ هـ) انظر الأعلام ٢/٢١٠ .

(٢) ابن أبي الخصال محمد بن مسعود الغافقي . أندلسي يلقب بذي الوزارتين (ت ٥٤٠ هـ) انظر قلائد العقيان ١٧٥ ــ ١٨١ ، وبغية الوعاة ١/٢٤٣ .

(٣) البديع هو طراد بن علي بن عبد العزيز أبو فراس . برع في النظم والنثر (ت بمصر ٥٢٤ هـ) انظر فوات الوفيات ١/٤١٣ ، وإرشاد الأديب ١٢/١٩ .

(٤) موفق الدين القيسراني هو خالد بن محمد بن نصر . وزير من أعيان الكتاب . وزر بدمشق لنور الدين (ت ٥٨٨ هـ) . انظر البداية والنهاية ١٤/٣١ .

الترجيح بأول ما صافح الطرف من الطُّرَف واللمح من المُلَح • فتناول منها جنة قد زخرفت بنار ، وليلة قد وشّحت بنهار ، وروضة قد سقيت بأنهار عُقار ، وغصون أقلام قد فتحت بنوّار نضار ، وعارض ذهب قد أذيب (١٨/ب) يكاد سَنا برقه يذهب بالأبصار • فتعالى مَن أَلان لداود عليه السلام الحديد ولها الذّهب ، وأيقظ بهجدّ هذه الصناعة بعد أن نام بين الأنام فهبّ ، وأعلمَ الناسَ أنّ القلم في يد ابن البواب (١) للضّرب لا للطّرَب ، وأن قيمة كل منها ومنه ما به في هذه الصناعة كُتب ، وحلاّها بتمام البدور وأعطاه ما أعطى أباه هلالا من المَحاق ، وأخّر زمانها وقدّم زمانه ورزقها السّبق وحرمه اللحاق •

فمن ألفات ألفت الهمزات غصونها حمائم ، ومن لام ألفات بعدها يحسدها المحب على عناق قدودها النواعم ، ومن صادات نقعَت غُلل العيون الصّوادي والقلوب الحوائم ، ومن واوات ذكرت بما في جنّة الأصداغ من العطفات ، ومن ميمات دنت الأفواه من ثغورها لتنال جنى الرّشفات ، ومن سينات كأنّها التأشير في تلك الثغور ، ومن دالات دالاّت على الطاعة لكاتبها بانحناء الظهور ، ومن جيمات كالمناسر تصيد القلوب التي تخفق لروعات الاستحسان كالطيور ، وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ، وخالد فيها خالد ، وتحيته فيها المحامد ، ويده تضرب في ذهَب ذائب والخلق تضرب في حديد بارد • فهي اليد التي تنظم تيجان الملوك بدرّها ، وتظهر آية الكرم على قراطيسها بما تظهره من تبرها • وما كنت قبل يدها أحسب أن سحابا تمطر نضارا ، ولا أن ماء يستمد نارا ، ولا أنّ أقلامها سيوف قد سفكت دم المال فأجرته أنهارا ، ولا قبل لحظها أنّ الشفق لا يشفق من طلوع الفجر ، ولا أن لون الوَصل ينفض على لون الهَجر ، ولا أن الليل يتشبث بعِطف البرق فلا يَريم ، ولا أن ذهَب الأصيل يجري به سوادُ الليل البَهيم ، ولا أن يداً كريمة تدّعي من آيات قلمها ومعجزات كرمها أنّ الجُلمود بها يفارق الجُمود ، وأنّ

(١) ابن البواب • هو علي بن هلال أبو الحسن • خطاط مشهور هذب طريقة ابن مقلة (ت ببغداد سنة ٤٢٣ هـ) انظر وفيات الأعيان ٣٤٥/١ ، ومفتاح السعادة ٧٧/١ •

البراعة تسير فرقدها على الظمأ فيشافه منهل النضارة المورود ، وما كانت خطوط الفضلاء إلا تجربة بين يدي تحريرها الآن ، ولا أقلامها إلا حطبا أوقدته على الذهب فذاب لها و"لان" ، ولا يحسب الخط إلا يحسب بيدها فغيرت له أثواب الحداد (١٩/أ) وجلت عرائس حروفه مضمخة الأجساد بالجساد ، وأطلعت إنسان عين الإحسان بدليل كونه لم يلمح إلا في سواد ، وسجد له والسجود فرضه لأنه دون التيجان ، وقبله والتقبيل حقه لأن الجنان يحاور منه حور الجنان ، وكيف لا يتفضل جوهره بأن يتفصل ، وتقابل حروفها بأن تقبل ، وقد كتب الناس باليد وكتب بالعين ، وحصل الناس من هذه الصناعة بعد حرب حنين على خفي حنين ، وفازت بما أظهرت من نروتها للنظار من النضار ، وصحت لها الكيمياء ، لأنه كتب بشطر دينار سطرا بألف دينار ، وأن له في نهارها بل في أنهارها سبحا طويلا ، وأنها على خفة وزنها وقلة أسطرها لتكلف من الشكر عبئا ثقيلا ، وكيف لا يخف ميزان الثناء على أنهار حجته بذائب ذهب ، وكيف يضل وفد الشكر وقد هدته بذوائب لهب ، وقد نشره وطواه حتى كاد أن يخلفه ، وأسام فيه ناظر لا يسأمه ، فكان آخر ما تأمله أول ما رمقه ، ومأسى لافتنائه يعبد مذهبه على حرف أو على ورقه ، وورده إذ يتقسى ورده فازداد عطشا على كثرة العل والنهل ، وأعشاه إذ أغشاه وكثرة النور تعشى ناظر المقل » .

ومن ذلك ما وصف به الخيام من جملة كتاب وهو :

« أما الخيام فقد بليت وصارت أمشاجا ، ورقت فخالطت كأس الغمام مزاجا ، ولقيت معنا الشدة وكانت شدتنا أن رأينا بها انفراجا . ففيها من السماء رقاع ، وكأنما أخذها في شق الثياب سماع ، وإذا هبت الرياح فهي بتقدمها وتأخرها في نزع حثيث ، ونزغ من الشيطان خبيث ، طلقتنا وهي بعد في حبالنا ، وطعنت وهي (١٩/ب) بعد في عقالنا ، إن أرسلت الريح آية ظلت أعناقها لها خاضعة ، وإن قعدنا فيها فعلى قارعة الطريق وهي قاعدة على طريق القارعة ، وإن وقعت ليلا فما لوقعتها الخافضة رافعة . بها للدهر جراح الإبر لا تقطبها ، ومنها على الدهر أطلال تصدقها العين تارة وتكذبها ، وقد فرجت سماؤها وانشقت ، وأذنت لربها وحقت . لم يبق في

أديمها بشرة تعاتب ، ولا في صبرها مُسكة تجاذب • كأنها وأخواتها إذا هبّت الرياح المجرمون رأوا العذاب ، وتقطعت بهم الأسباب ، بحيث ترى حِماها نافضا ، والعارض قد دخل عليها على الحقيقة عارضا ، فعمُدها الأغصان هزّها البارحُ ، وشرائطها الشّرار أطارَه القادح ، وأما إذا نشأت السحائب فسلّت سيوف برقها، وسلسلت سيول وَدْقِها ، فإنها أمام تلك السيوف جرحى ، ووراء تلك السّيول طرحى • تودّ ماود ابنُ نوح يومَ لا عاصمَ ، وتراها كبَطٍّ الماء ونحن بين غريق وعائم • نضربُها في كلّ يوم فوق الحَد ، ونأخذها في المصيف بحرب حرٍّ وفي الشتاء ببرد برد » •

ومن ذلك كتاب أصدره من بعرين (١) ، وهو : « المستقر ببعرين ، حيث أخرجت السماء أثقالها وفتحت من عزاليها أقفالها ، وركضت خيل الرُّعود لابسة من الغَيم جلالها ، وثوب الليل بماء الغمام غسيل ، وشبح الظلام بسيف البرق قتيل ، وغراب الأفق في الجو باز ، إلا أنّه في قوس قزح ناز ، وكأن عقارب الظلماء بالثلج أفاع ، فليكن ليل قرينتها ليل السليم ، وكأن مواقع الرعد قعاقع حَلي الغَواني فهو لا (٢٠/أ) يَنام ولا يُنيم ، وكأنّ الصباح قد ذاب في الليل قِطرا ، وكأنّ البرق لما ساوى الغمام بين صدفي الليل والنهار قد قال آتوني أفرغ عليه قِطرا ، وقد ابتل جناح الليل المُغدِف فما يطير ، وأبطأ حمام الصبح خلاف ما نحاه في رسالة نَوحْ فما يَسير ، والرياح وقد أعصَفت فقصفت عيدان نجدْ ورَتمها ، وخيولُها قد ركضها السّحاب فكان البرق تحجيلها ورثَمها •

فأما الخيام التي قد نضِجت جلودها بإيقاد الشمس واسودّت ، ثم نضحَت بدموع الغمام فتراخت أجفانها بعدما اشتدت • فما هي إلاّ أعين سال منها بالدّموع كحلُها ، وخيول دُهْم حلّ عنها بالرياح من الأطناب شكلها ، ولا يزال الخصام بينها وبين الأهوية إلى أن تشق الثياب من حربها كما شقّها السحاب من طربها ،

---

(١) قال ياقوت « بعرين بوزن خمسين ، بُليد بين حمص والساحل . هكذا تلفظ به العامة وهو خطأ وإنما هو بارين . انظر معجم البلدان ١/٤٥٢ (بعاث) .

ونحن ندأب في عقد ظُنُبها ، لندخل في عقد حَسَبها . وهيهات سلبت في البيكار أشباحها ، وخرجت بالرياح أرواحها . فالشمس إن طلعت ألقى الشرق جامات تقرّ على العيان ، لا دنانير أبي الطّيب التي تفر من البنان . ومالاذت بجانبها الرياح ، وأبت على الأطناب من إرسالها في عنان الجماح ، إلا أشبهت قطاة غرّها شرك وقد علِق الجناحُ ، وفذاة هزّها درك وقد أبت البراح .

وقد زادت السّيول إلى أن صارت هذه الخيام عليها فواقع ، وهمهم الرعد قاريا فاستقلّت قيامها بين ساجد وراكع . وأنا فيها كعثمان[1] في داره ، والخَطْب قد أخذ في حِصاره . فلا يزال نَبْل الوبل مغرّقا ، ولا أزال على نفسي من السّيل مُخندِقا . وقد رجعنا إلى النشأة (٢٠/ب) الأولى فعُدنا في هذا الماء علَقا . ولا كفران لله فإني ملقى على طرق الطّوارِق ، ملقاً ماشاب العيشَ مِن فراق يشوب بالشّيْب المَفارق . وما كنت أخشى أن ينقلني الدّهر مِن درجة مَجانيه المقتطفة ، إلى مدرجة مَجاريه المُجتحَفه ، ولن يرى أعجب منّي مُمحلا وأنا أشكو الغُدران الغادِرة ، ومُجدِبا أتظلّم مِن ظلمات الليالي الماطرة . وقبح الله بعرين ، وإن استَجَنّ أسد الإسلام منها بِعَرين ، وأنا بريء منها بعدد رمل يَبْرين .

ومن ذلك : « وتلك الجهة وإن كانت غربية ، فإن الغرب مستودَع الأنوار ، وكنز دينار الشّمس ومصَبُّ أنهار النهار » .

ومن ذلك : « وبالجملة ، إن كانت البلاغة دينـا فقد ألحـد من لا يوحّده وإن كانت سيفا فقد تعرّض للحدّ من لا يتقلّده ، وإن كانت فِراشاً فقد نُفي عن ظهر البلاغة مالا يلده » .

ومن ذلك : « فلو ملكتم الدّهر لامتطيتم لياليه أداهِمَ ، وتقلدتم أيامه صوارِمَ ، ووهبتم شموسَه وبدورَه دنانير ودراهِمَ ، وأيامكم أعراس وكأنّه

(١) عثمان بن عفان بن أبي العاص . ثالث الخلفاء الراشدين (ت ٣٥ هـ) ، الكامل حوادث سنة ٣٥ هـ وهو يشير هنا إلى حادث مقتله رضي الله عنه .

ما تمَّ على الأموال فيها مآتم ، والجود في أيديكم خاتِم ونفسُ حاتم [1] في نقش ذلك الخاتم » .

ومن ذلك : « فَرَوّح الله تلك الرُّوح ، وفتح لهــا أبواب الجنّة فهي آخر ما كانت ترجوه مِن الفتوح » .

ومن ذلك في شكر صنيعه : « والله إن صنيعته كالشمس وضوحا لا أجحدها ، ولو جاز أن تعبد الشمس في دين الله لكنت أعبدها ، فإنها شمس ما ألقت يدا في كافر ، ولا وضعت يداً إلا في شاكر » .

ومن ذلك: «ولو بلغ القول مني إلى السَّمع لما بلغ إلى القلب، ولو رأيت سيفه (٢١/أ) خَضيباً من مقره في صدري لما استشعرت الحرب ، ولو صمم على الضَّرب لحركته حتى يصير من الضَرَب لامن الضَرْب » .

ومن ذلك : « والقلوب طيبة ، والغيوث صَيِّبة ، وقد صار على عطف كلّ زرع منهــا جَبيرة تتبرج وعــلى أُذن كلّ قرِط منها لؤلؤة تترجرج » .

ومن ذلك : « فلا عدمت تلك الأنفاس من النفائس ، وتلك العقائل العرائس ، وتلك الجواهر التي تسرني أن تفضح عرضي ، وتلك السهام التي هي والله غرضي» .

ومن ذلك : « ووثقنا بنجح الطلب ، وأمسكنا بقرون حماة فحصلنا على حلب حلب » .

ومن ذلك في ذكر النيل « يتدافع تياره دافعا في صدر الجدب بيد الخصب ، وترضع أمهات خلجه حتى أبناؤها بالعصف والأب » .

ومن ذلك : « والمهامه قد نشرت ماملأها من ملاء السراب وَزخَرَ فيها ما ولد لغير رشده على فراش السحاب » .

---

(١) هو حاتم بن عبد الله الطائي القحطاني . أبو عدي . فارس شاعر جواد من أهل نجد (ت ٤٦ ق هـ) انظر الشعر والشعراء ٢٤١/١ ، وخزانة البغدادي ٤٩٤/١

ومن ذلك : « وإن يصفح عنه الصفح الجميل المألوف من هذا البيت ، فبصفحهم أمضى الله حدّهم ، وبعفوهم أنجح الله جهدهم ، وباتّباعهم لأبيهم رحمه الله عليه أعلى الله سبحانه جَدّهم » .

ومن ذلك : « والله بيننا وبين البَيْن ، فما أكثر فضوله ودخوله بين المحبَّيْن» .

ومن ذلك : « وقد وصل كتابه الكريم جوابا بل ثوابا عن كتابي العافي ، وأسفر بشر صفحة بِره المخفي وكل بشر لا إخفاء معه فهو بِشْر" الحافي » .

ومن ذلك : « والقصائد أنا مترقّب وصولها بأي خطّ اتفق ، فعربيتها لا تغولها عُجمة النّاقل ، ونور حقّها يُعرف من ظلمة الباطل ، وما يضر محاسن سَحْبان[1] أن تجري على لسان باقل[2] » .

ومن ذلك : « سعداً لا يُصوِّح منه مَرْبعه الأخضر ، أمناً لا يَحزُنه الفزَعُ الأكبرَ ، مطاعاً بنفاذ تَصريفه (٢١/ب) الأبيض والأسمر ، محبوب القلم حتى لو عاداه السَّيف لقيل له إنّ شانئك هو الأبتر » .

ومن ذلك : « ولا أعدمني تفضله الذي تفض له صحائف الوُدّ ، وتُفاض عليه طرائف الحمد ، وعهده الذي جمع إلى بقاء الآس نضارة الوَرد ، وإلى رُواء الروض رِيّ الوِرْد » .

ومن ذلك : « وإلى أن تنجلي عنا هذه الغمره ، وإلى أن تجف مناديل العيون فإنها كانت بالدموع عصره » .

ومن ذلك : « وفدّاه بأوليائه وإخوانه ، ولا كرامة لأعدائه ولا نعمة لحُسَّده ، وأبقى على الدهر سؤدده الذي أجار بنيه من سوءِ دَدِه » .

---

(١) سحبان بن زفر الوائلي ، خطيب يضرب به المثل في البيان ، أسلم زمن النبي صلى الله عليه وسلم ولم يلقه (ت ٥٤ هـ) . انظر خزانة البغدادي ٣٤٧/٤ .

(٢) باقل هو من بني قيس بن ثعلبة الإيادي ، جاهلي يضرب بعيته المثل . مجهول الولادة والوفاة . انظر الاشتقاق لابن دريد ٢٧٤ .

ومن ذلك : « ورد من سيدنا كتابان شرحا الصدر وسرّا السّر وسرّيا الهَم ، ولقياني بالفتح ولقيتُهما بالضمّ » .

ومن ذلك : « ورد المثال الشريف من الديوان العزيز ، فأبى له الضّلالَ نوره ، وأناله الهدى والهدوّ إسفاره وسفورُه ، وجلا وجلَه مَلأَ أمَلَهُ حبورُه وحبيرُه ، وما عَدَتْ أن غَدَتْ جنّته وجريره جَنّته وحريرُه ، وراض طرف طَرْفه في روضٍ أُنُفٍ أَنِفَ أن يعبّر عنه إلا عبيرُه ، وحلاّ عنه الآثام وأحلّه الدرجاتِ العُلا فهو سِوارُه وسُورُه وسَريرُه » .

ومن ذلك : « قسمَ فعدلَ ، وأجزلَ فأفضلَ ، وبلّغَ فلم يكن في بَلاغ بِلاغ ، وفتّح زهراً ما كان مثله مما يطول اليه باع باغ ، فلِلّه هو مِن كتاب ولِله قلمه ، فهذا أورَد ما ساغ ، وهذا قلّد ما صاغ » .

ومن ذلك : « فأما الكتاب الى غريم الجمال فالله يجمع المال على الجمال ويريحه من اتفاق هاتين السّجعتين حتى يكون الجمال الجمّ المال » .

ومن ذلك : « والفضل بيد الله يؤتيه أهله ، وقد زاده منه فلا عَدِمَ فضلَه، فما يجاريه مُجار إلا حُمّق وكان في طريقِ السَّيل بَقْلَه » .

ومن ذلك (٢٢/أ) « كل لفظة موصولة بأنّة ، وفي كل قلب من حزنه نار وفي كل دار من فضله جنة » .

ومن ذلك : « فما وصلت الى مكان العافية منه ، الا وقد امتُقعتُ واقتُطعت وقلت بقية السلف الوُضّاح ، وسحاب الفضل حوشي أن يَضْعُفُ حتى يكاد يرفعه من قام بالراح » .

ومن ذلك : « وأغناه بحراسة لفظه عن احتراسه ، وأغنى الملك عن إعمال سهمه بقرطاسه » .

ومن ذلك : « وأدام سيادتَه على أهله ، وأعاذَه بخِصب رَحْله منمَحَلّ مَحْله ، ولا عدمنا مِن لفظه ما يشهد أنه الشّهْد حقاً لا نِحلَة نَحلِه ولا نَحِيلة نَخْلِه » .

ومن ذلك : « وأهلَكَ كل عدوٍ له وأذلّه ، وجعل الحياة قذى وأذى لــه ، ووقفْت منهما على البلاغة المَسرودة المَوضونة ، والجواهر الثمينــة المَكنونة ، والثمراتِ التي اجتناها من شجرة البلاغة الطَّيبة ، ومِن النّاس مَن يَجتنى مِن الشَّجرة الملعونة » .

ومن ذلك : « هو ذلك الفرْعُ الذي سقاه حتى التفَّ في وَرقه ، وخطر في سُندسِه وإستَبْرَقِه ، وشافَه منــهُ بياضَ الفَجْرِ بعــدما كان لا يَظفَر بأَزْرَقِه » .

ومن ذلك : « وبات الناسَ بالحِصْن مُطيفين والنّيرانُ بهم مُطيفة وعليهم مُشتملة ، وعذَبَاتُ ألسنتِها على وجهه مُسْدَلة ومِن خلفه مُسبَلة ، ولفحاتُها جهَنَّمية وقودُها الناس والحِجارة ، والبَلاء يُنادي طبريّة إياكِ أعني واسمَعي يا جــارة [1] » .

ومن ذلك : « ولا زالت الملوكُ ببابه وقوفا ، والأقدارُ له سيوفاً . والخلقُ له في دار الدُّنيا ضيوفا ، ودَيْنُ دِين الحَق يعلمُ الناسُ إذا جَرّدَ لتقاضيه سُيوفا أَن سَيُوفَى » (٢٢/ب) .

أقول : كيف رأيت هذه الدُّرر المتسقة والمحاسن المتفقة ؟ هل أتى غيره بهذا النَّمط ، أو ظفِرتَ بهذه النُّكت في ذخائر الكُتّاب قطّ :

هذا كلامٌ عن الأملاكِ محتجِبٌ فلا تُذِلْهُ بإكثارٍ على السُّوَقِ [2]

---

(١) المثل شطر من بيتين لسهل بن مالك الفزاري هما :

يا أخت خير البدو والحضارة كيف ترين في فتى فـزاره

اصبح يهوى حرة معطــاره إياك اعني واسمعي يا جاره

انظر القصة في الفاخر ص ١٥٨ ــ ١٥٩ ، ومجمع الأمثال ١/٦٦ ــ ٦٧ .

(٢) البيت في « تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون » للصلاح الصفدي الورقة ٣ وقد نسبه للمعري . انظر البيت في تعريف القدماء بأبي العلاء السفر الاول ص ٢٤٤ وفيه « هذا قريض » .

وسوف يرد له في أثناء هذا الكتاب ما تدور عليه كؤوسه ، وتشرق شموسه .

[الصفدي ينتقد ابن الأثير في بعض من إنشائه]

وأما قول ابن الأثير رحمه الله في هذا الفصل الذي قدمته : « إلا مَن ملكه لسانا هجّاماً وخاطرا رقّاماً » .

فأقول : ما أدري ما أقوله في هذا ، أي مناسبة بين هجّام ورقام : ثم إن استعارة الرَّقم للخاطر بعيدة ، وإنما الرَّقم لليد حقيقة وللقلم مجاز . وما معنى اللسان الهجّام ، ولو قال لسانا قوّالا ، وخاطرا جوالا ، أو لسانا حادّ الغَرْب ، وجَنانا لا يَهاب الحرب ، أو لسانا نظّاما ، وبَنانا رقّاما ، أو ما أشبه ذلك لكان أحسن .

قال في هذا الفصل : « ومن وقف على ما ذكرته علم أنّي لم آت شيئا فَرِيّا ، وأن الله قد جعل تحت خاطري مِن بنات الأفكار سَرِيّا [(١)] » .

أقول إنه هنا في مقام تعظيم لِما أتى به في فن الكتابة من حل المنظوم والآيات الكريمة ، فقوله : شيئا فريّا ينافي هذا المقام ، لأن الفَري العظيم أو الشيء المختلق المصنوع ، فإذا قال : ما أتيت شيئا عظيما ، أو شيئا مختلقا مصنوعا ، لم يكن ذلك مناسبا .

وأما السَّري فإنه النّهر الصغير ، ومن ذهب الى أنه عيسى عليه السلام ، بمعنى أنه واحد مِن سراة الناس ، فانه غلط منه [(٢)] .

قال لبيد [(٣)] يصف حُمر الوحش :

---

(١) المثل السائر ١٢٧/١ .

(٢) انظر تفسير الرازي (مفاتيح الغيب) ٥٢٧/٥ ـ ٥٢٨ ، وتفسير الطبري ٦٩/١٦ ومجمع البيان في تفسير القرآن ٢٥/١٦ .

(٣) لبيد بن ربيعة ابو عقيل العامري . أحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية، ويُعدّ من الصحابة (ت ٤١ هـ) انظر الشعر والشعراء ٢٧٤/١ .

فتوَسَّطا عُرْضَ السَّريِّ وصدَّعا مسجورةً متجاورا قلاّمُها (١)

فالسَّري : النهر الصغير • والمسجورة : صفة للعين المملوءة •

وما أحسن قول أبي المقدام الخزاعي من جملة قصيدته المشهورة في اللّغز :

وسَرِيّاً رأيتُه وسْط قوم ماكثاً ما يريدُ عنهمْ زوالا

تشرب الخمرُ دونه وسقَوْه حين دارت رَحاهمُ أبوالا

السَّريّ : هو النهر الصغير وعليه سياق الكلام • وسياق الآية الكريمة يدل على بُطلان قول من قال هو كناية عن عيسى عليه السلام لأنه تعالى قال : « وكلي واشرَبي » أي كلي من الرُّطَب الجني ، واشربي من النهر • واذا ثبَت هذا فما أدري ما معنى قوله « تحت خواطري من بنات الأفكار سريا » فان أراد الذي ذهب اليه مَن زعم السري هو عيسى عليه السلام ، فكان ينبغي له أن يقول سريّات لأنه صفة لبنات ، وإن كان المراد النهر فلا معنى له •

ولو قال : علم أني امتلأت من ذلك رِيّاً ، وأن الله قد جَعل تحت فكري من هذا النوع سريّا (٢) •

قال أيضا بعد ذلك : « والذي يعلمها منهم يرضى بالحواشي والأطراف ، ويقنع من لآلئها بمعرفة ما في الأصداف (٣) » •

أقول : ما أدري معنى هذه القرينة الثانية ما هو ؟ فإنه ما في الأصداف إلا اللؤلؤ ولو قال : ويترك اللآلىء ويضم الأصداف ، لكان أحسن •

قال : « ولو استخرج منها ما استخرجت ، واستنتج منها ما استنتجت لهامَ بها في كلّ واد ، وتزود الى سلوك طريقها كل زاد (٤)» •

(١) بيته من معلقته . ومطلعها :

عفت الديار محلها فمقامها بمنى تأبد غولها فرجامها

المعلقات العشر ص ١٠٠ .

(٢) أغفل الصفدي جواب لو سهوا . وهو هنا غير جائز .

(٣) المثل السائر ١/١٢٧ .

(٤) المثل السائر ١/١٢٧ « ... واستنتج ما استنتجت ... » .

أقول : هذه السجعة الأخيرة محلولة باردة لا معنى تحتها . ولو قال : لهام بها في كل واد ، وارتفع لها في مَظهَر الربا وانخفض في مضمر الوهاد ، لكان أحسن .

[ادعاء ابن الأثير الإبداع في رسالة له في ذم الشيب]

قال في هذا الفصل : [١] « ومن ذلك ما ذكرته في فصل من كتاب يتضمن ذم الشَّيب فقلت :

« والعيش كلّ العيش في سِنّ الحَداثةِ ، وما يأتي بعدها فلا يدعى إلا بسِنّ الغَثاثة ، وليس بعد الأربعين من مصيفٍ للذّة ولا مَربع ، وهي نهاية القوةالصالحة من الطبائع الأربع(٢٣/ب)فإذاتجاوزها المرءأشفت ثمارعمرهعلى خَرْصِها ، وصارت زيادته كزيادة التصغير تدل على نقصها ، ويصبح بعد ذلك وهو يُدعى أباً بعدَ أن كان يُدعى ابنا ، ويتقمص من المشيب ثوبا لا يجتر ذيله خيلاء ولا يُزهى به حسنا . وإن قيل ان أحسن الثياب شعارا البياض قيل : إلا هذا الثوب فإنه مستثنى ، ويكفيه من الفظاعة أنه ينظر الأحباب اليه نظر القالِ ، ولولا أن الخمود بعده لما استعير له لفظ الاشتعال . ومِن الناس مَن يُدلس لونه بصبغة الخِضاب ، وليس ذلك إلا حداداً على فقد الشباب ، وهو في فعله هذا كاذب ولا يخفى أُنسُ الصدق مِن وحشة الكِذاب . وخِداع النفس أن تَسلو عن بِئره المعطلة وقصره المَشيد ، ويحسّنلها الخروج في ثوب مرقع وهي تراه بعين الثوب الجديد « ثم قال » وبعض هذا مأخوذ من شعر ابن الرومي [٢] . وهو قوله :

رأيتُ خِضابَ المرءِ بعد مشيبه حِداداً على شرْخِ الشبيبةِ يَلبسُ[٣]

غير أن في هذا الفصل معاني كثيرة لا توجدَ في كلام آخر [٤]» .

---

(١) المثل السائر ١/١٣٩ .

(٢) ابن الرومي هو علي بن العباس بن جرجيس الشاعر البغدادي المعروف توفى مسموما سنة ٢٨٣ هـ ــ انظر معجم الشعراء ص ١٤٥ .

(٣) البيت في ديوان ابن الرومي ص ٣٩٧ من مقطوعة في الخضاب . وجاء في شطره الأول « عند مشيبه » .

(٤) المثل السائر ١/١٣٩ وما بعدها . والنص فيه : « ... التي هي زيادة تدل على نقصها ، واصبح بعد ذلك يُدعى ابا .. وتقمص ثوبا من المشيب لا يجر ثوبه ... شعار البياض .. أن ينظر .. نظر القتال .. انس الصادق .. كثيرة لطيفة .. » .

أقول : قد ادعى انه ابتكر ما فيه هذا الفصل من المعاني ، وأنا أذكر أبياتا تدل على أخذ كلامه منها .

قال أبو الطيب :

آلةُ العيشِ صحةٌ وشبابٌ فإذا وَلّيا عن المرء ولّى (١)

وقال التّهامي (٢) أيضا :

وَطَرِي مِن الدُّنيا الشبابُ ورَوْقُه فإذا انقضى فقد انقضتْ أوطاري (٣)

وقال ابن أبي حصينة (٤) :

كأنّ الفتى يَرقى من العيش سُلّما إلى أن يجوزَ الأربعينَ وينحطُّ (٥)

---

(١) البيت في شرح الديوان للبرقوقي ٣/٣١١ من قصيدة قالها يعزي سيف الدولة بأخته الصغرى سنة ٣٤٤ هـ .

(٢) التهامي هو علي بن محمد بن نهد . أبو الحسن ، شاعر مشهور من أهل تهامة (ت بمصر سنة ٤١٦ هـ) . انظر وفيات الأعيان ١/٣٥٧ .

(٣) وبيته في ديوانه ص ٣١ من قصيدة قالها يرثي ابنا له . مطلعها :

حكمُ المنيةِ في البريةِ جارِ ما هذه الدنيا بدارِ قرارِ

(٤) ابن أبي حصينه السلمي الحسن بن عبد الله أبو الفتح . شاعر من الأمراء ، ولد ونشأ في معرة النعمان (ت ٤٥٧ هـ) . انظر فوات الوفيات ١/٢٣٩ ، وإرشاد الأريب ٤/٦٤ .

(٥) بيته في ديوانه ١/١٠ من قصيدة قالها يمدح صالح بن مرداس وأنشدها بالرافقة سنة ٤٣٣ هـ مطلعها :

لأيةِ حال حكّموا فيك فاشتطوا وما ذاك إلا حين عممك الوَخْط

ورواية البيت فيه :

كأن الفتى يَرقى من العمر سلما الى أن يجوز الأربعين فينحط

وقال سبط (١) التّعاويذي :

وعلوُ السنِ قد كـ ... سـّ ... ـر بالشيبِ نشاطي
كيف سمَوُّه عُـواً وهـو أخْذٌ في انحطاطِ (٢)

وقال أبو الطيب في معنى ان زيادة التصغير نقص :

وكان ابنا عدو كاثراه له يائيْ حروفِ أُنيسيان(٣) (٢٤/أ)

وما أحسن قول ابن قلاقس :

في أمر توقيعي وأمري سيرةٌ أعيت على الفَطِنِ الفصيحِ الألْسَنِ
حكمت زيادتُه عليه بنقصِهِ كالضيفِ لما ازداد نونَ الضَّيْفَنِ (٤)

وقال أبو الطيب :

متى لحظَتْ بياضَ الشَّيبِ عيني فقد رأت انتقاصي في ازديادي(٥)

وقال ابنُ صردر (٦) :

---

(١) سبط ابن التعاويذي ، هو محمد بن عبيد الله أبو الفتح . شاعر من أهل بغداد (٥٨٣ هـ) انظر نكت الهميان ص ٢٥٩ ، والنجوم الزاهرة ١٠٥/٦ .

(٢) وبيتاه في ديوانه ص ٢٥٧ من مقطوعة مطلعها :

لوت الستون عودي وحنا الدهر شطاطي

وفي ريحانة الألبا ٣١٥/١ .

(٣) شرح الديوان ٥٠١/٤ من قصيدة قالها يمدح عضد الدولة وولديه ، ويذكر طريقه بشعب بَوان . مطلعها :

مغاني الشِعب طِيبا في المغاني بمنزلةِ الربيعِ من الزّمانِ

(٤) لم اعثر على البيتين في ديوانه (طبعة الجوائب ، بعناية خليل مطران سنة ١٩٠٥) .

(٥) شرح الديوان ٩٠/٢ ، وجاء شطره الثاني « فقد وجدته منها في السواد » .

(٦) ابن صرّدُر ، وهو علي بن الحسن بن علي البغدادي ابو منصور . شاعر من الكتاب (ت ٤٦٥ هـ) انظر وفيات الأعيان ٣٥٩/١ .

لم أبكِ أن حَلَّ المشيبُ وإنما أبكي لأنْ يتقاربَ الميعادُ
شَعَرُ الفتى أوراقُه فإذا ذوى جفَّتْ على آثارِه الأعوادُ (١)

وقال ابن عبد ربه (٢) :

وإذا دعَوْتَكَ عمَّهنَّ فإنه نسبٌ يزيدك عندَهُن خَبالا (٣)

وقال أبو الطيب :

أبعدْ بعِدتَ بياضاً لا بياضَ له لأنتَ أسودُ فيعيني من الظُّلَمِ (٤)

وقال الغزي (٥) :

أوهنَتْ زهرةَ الحياة وأذوتْ زهرةَ العيشِ زهرةٌ في القَذالِ
كادَ يخفى عليَّ قبل اشتعال الـ.. ..رأس أن الخمود في الاشتعالِ (٦)

قال : « ومن هذا المعنى قولي أيضا : وهو أخذ المكارم من سمائها وأرضها ، وقام بنقلها في الناس وفرضها ، وتحلّى بأسماء الشهور حتى أصبح بعضها حاسداً

(١) البيتان في ديوان ابن صردر ص ٣١٦ . وورد في البيت الأول قوله :
« أن رحل الشباب » وهو الأصوب .
(٢) ابن عبد ربه . أحمد بن محمد أبو عمر . صاحب العقد الفريد ، شاعر من أهل قرطبه (ت ٣٢٨ هـ) انظر وفيات الأعيان ٢٢٩/١ ، واليتيمة ٣٦٠/١ و ٤١٢ .
(٣) وبيته في معجم الأدباء (الحاشية) ٢١٢/٤ . وعند ابن خلكان ٢٣٢/١ وهو في العقد ٤٨٢/٥ غير منسوب والبيت في الحقيقة للأخطل في ديوانه ٤٣ . وقد ورد بدون نسبة في اللسان (قطع) ١٥٠/١٠ ، والإقناع للصاحب بن عباد ٢٨، والمعيار للشنتريني ٤٦ .
(٤) شرح الديوان للبرقوقي ١٩٤/٤ . من قصيدة قالها في صباه . مطلعها :
ضيف ألم برأسي غير محتشم والسيف أحسن فعلا منه في اللمم
(٥) الغزي هو إبراهيم بن عثمان بن محمد . أبو إسحاق ، شاعر مجيد من أهل غزة (ت بخراسان سنة ٥٢٤ هـ) انظر وفيات الأعيان ١٢٠/١ .
(٦) وبيتاه في مخطوطة ديوانه . وجاء في البيت الأول قوله :
« أذهبت زهرة الحياة » .

ببعضها • فالمحرَّم للعائذ بحرمه ، وصفر للطامع في مسعاة قدمه ، وربيع لرائد نواله، ورجب لأقوال عذّاله • وهذا مأخوذ من قول الفرزدق [١] (٢٤/ب) •

يداكَ يدٌ ربيعُ الناس فيها   وفي الأخرى الشهورُ من الحرام [٢]

وقد قال الشعراء في ذلك كثيرا ، ولكنني أنا تصرّفت تصرفا لم يتصرفه أحد غيري [٣] •

أقول : أي تصرف ، وما نكّر شيئا إلا وتعرف • وقد استعمل الناس أسماء الشهور فجاؤوا بها عذبة حلوة متمكنة • كقول القائل [٤] في بخيل :

تحلّى بأسماءِ الشهورِ فكَفّهُ   جُمادى وما ضمّت عليه المحرمُ

وقال الآخر فأحسن كل الإحسان •

وشادن مبتسم عن حَبَبْ   مورَّدِ الخدِ مليح الشنبْ
يلومني العاذلُ في حبه   وما درى شعبانُ أني رجبْ [٥]

كانت العرب تسمى شعبان العاذلَ ، قبل الإسلام ، ورجبَ الأصمَّ •

وما أحسن قول القاضي الفاضل رحمه الله : « تولى الله تحقيق مقصده ، وترويق مَوْرِده ، وتشييد مباني أسعده ، وتخليد مغاني سؤدده ، حتى تنتظم مواهب

---

(١) الفرزدق هو همام بن غالب التميمي ابو فراس الشاعر المعروف ، عظيم الأثر في اللغة (ت ١١٠ هـ) انظر طبقات الفحول لابن سلام ص ٧٥ ، والأغاني ٣٢٤/٩ .

(٢) والبيت في ديوانه ٢٩٤/٢ من قصيدة قالها يمدح هشام بن عبد الملك مطلعها :

الستم عائجين بنا لعنّا   نرى العرصات أو أثر الخيام

(٣) المثل السائر ١٤١/١ « .. أيضا قولي .. وتحلى ببعض .. في سعادة .. من المحرم .. الا أني انا تصرفت في هذا المعنى تصرفا لم يتصرف فيه .. » .

(٤) القائل هو الغزي . ورد في مخطوطة ديوانه من قصيدة . وجاء في الشطر الاول منه « تسمى بأسماء الشهور » كما ورد في الخريدة قسم شعراء الشام ٦/١ ، وكذلك في حاشية معجم الأدباء ١٠٣/٦ ، ٣٣٨/١ ، وفيها جميعا ورد غير منسوب إلا في حاشية الخريدة .

(٥) البيتان في « الغيث المسجم » ٢١٥/٢ .

الله لديه مثنى وفرادى ، ويلبس أمن رجب في شعبان وخصب ربيع في جمادى » .

وقوله أيضا : « فهو الماء إلا أنه الزلال ، والسحر إلا أنه الحلال ، والوَرد النضر إلا أنه بعيد العهد من المَلال ، وأيام الوقوف عليه أيام أعياد بين طهارة رمضان وخصب شوال » . وقوله أيضا ويعود إلى ذكر كتابه : « فسجد لمحرابه وسلم ، وحسب سطوره مباسم تتبسم ، ووقف عليه وقوف المحب على الطلل يكلمه ولا يتكلم ، وهطل جفنه وقد كان جمادى بدمعه وقد كان على خدّه المحرم » .

وقول ابن سناء الملك :

نشيطةُ حسْنِ القدِ والخدِ والحُلى فلِمْ زعموا أنَّ المليحةَ مِكسالُ
أَظَلّ على نُسْكي بهاجَهْلُ صبوتي فيا رمضانُ قد أَظَلّكَ شوالُ[1]

(٢٥/أ)

وأما استعمال أسماء الشهور موراة ، فمن أحسنها قول القاضي محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر :

إياكُمْ ان تُنكِروا جعفراً ذاك الخياليَّ وأصحابَهْ
فنيلُ مصرٍ كم له جعفرٌ مُخَيَّل يخرج في بابَهْ

ما أصنع هذين البيتين وألطف هذا التخيل .

وقول ابن قزل[2] :

---

(١) ديوان ابن سناء الملك ص ٦٢٧ من قصيدة قالها يمدح الملك الكامل ابن الملك العادل . مطلعها :

على خاطري يا شغله منك أشغال وفي ناظري يا نوره منك تمثال

وجاءت رواية البيت الثاني :

اظل على نسكي بها جهل صبوتي فيا رمضانا قد أظلك شوال

(٢) ابن قزل هو علي بن عمر بن قزل سيف الدين ، شاعر من أمراء التركمان ، كان مشد الدواوين بدمشق (ت ٦٥٦ هـ) انظر فوات الوفيات ١٢٨/٢ .
وشد الدواوين : أن يكون متوليها رفيقا للوزير متحدثا في استخلاص الاموال وما في معنى ذلك « انظر صبح الأعشى ٢٢/٤ » .

قد ضجرنا من مدء تل العثجول ... وكرهنا سماعَ قالٍ وقيلِ
ومن المحنة التي نحن فيها ... حر تموز آبَ في أيلول

وقول أسعد بن مماتي[١] :

قد نفثَ السحرَ السَحَرْ ... وأشبه الزهرَ الزَهَرْ
وبلَّ كافورُ الندى ... ثياب أوراقِ الشجرْ
والعندليب مذْ رأى ... مُحرَّمَ الروض صَفَرْ

وقول السرّاج[٢] الورّاق من أبيات :

وأراد اطفاءَ السرا ... ج بها فضاعفت التهابَهْ
وحوى بها طوبى فصا ... ر حديثنا في الناس بابَهْ

وقول ابن الساعاتي :

لِيوسفُ يوسفٌ إن أَزْمَةٌ عرضتْ ... يَخْشىفيرْجى وفي أحكامه عُمَرُ
كلُ الشهور ربيعٌ من فواضله ... حيث الخزائنُ من أموالهصفر[٣]

[مناقشة مثال لابن الأثير]

قال : « ومن ذلك ما ذكرته في استصلاح مودة » وساق الفصل وفي آخره : « والصبر خير ما استعمل في جفاء الإخوان ، والماء إذا جرى في مكان ثم انحرف عنه فلا بد وأن يعود إلى ذلك المكان »[٤] .

أقول : ما أدري ما معنى هذا . فإن الماء إذا انحرف عن مكان ، إنما ينحرف

---

(١) أسعد بن مماتي هو أسعد بن مهذب بن مينا ابو المكارم . وزير اديب شاعر كان ناظر الدواوين بمصر (ت سنة ٦٠٦ هـ) انظر الخريدة قسم شعراء مصر ١٠٠/١ ، ومعجم الأدباء ٢٤٤/٢ .

(٢) سراج الدين الوراق . عمر بن محمد أبو حفص . شاعر اشتغل بالكتابة ، ديوانه كبير اختار منه الصفدي « لمع السراج » (ت سنة ٦٩٥ هـ) انظر فوات الوفيات ٢١٣/٢ .

(٣) البيتان لا وجود لهما في ديوان ابن الساعاتي .

(٤) المثل السائر ١٤٨/١ « ... أن يعود ... » .

باستفال الموضع الذي انحرف إليه (٢٥/ب) عن الموضع الذي انحرف عنه . إما بأخدود يحفر ، أو بتهدم من نفس الأرض . وحينئذ يرجع الماء القهقرى وينعطف عن المرتفع ، وينحدر إلى المنخفض . هذا الذي يفهم من لفظة انحرف الماء . ومتى كان الأمر كذلك فلا يعود الماء إليه ، اللهم إلا أن يدعي أن مدد الماء يقوى دفعه فيزيد إلى أن يعلو المنخفض ، ولم يجد له حيزا يشغله غير ذلك الذي انحرف عنه . وهذا غير مفهوم من مجرد كلامه .

ولو قال : « فإن الغيث إن أقلع صوبه عن مكان ، فلا بد وأن يعود في وقت إلى ذلك المكان » . أو « فإن الماء إذا جفا موضع جريته في وقت ، فلا بد أن ينعطف على ذلك المكان » . أو « إذا قطعت سقياه عن مكان » أو ما ناسب ذلك ، غير لفظة « انحرف » .

وما أحلى قول القاضي الفاضل : « وقد يعود الماء إلى مشرعه ، والكوكب إلى مطلعه » .

وما أحسن قول القائل في معنى قول ابن الأثير :

سأصبرُ صبرَ الحُرِ من غير قدرةٍ على الصبرِ لكنْ من طريقِ التَجَمُّلِ
لعلك يوما أن تَرِدَّكَ رحمةٌ عليَّ فتلقاني بوجه التفضلِ

[مناقشة مثال آخر لابن الأثير]

قال : « ومن ذلك ما ذكرته في وصف الخمر وهو : الخمر لا تفي لذة إسكارها بتنعيص خمارها ، فهي خرقاء البنان ، بذيئة اللسان ، وتأنيثها يدلك أنها من ناقصات العقول والأديان . وقد عُرف منها سُنّةُ الجَوْر في أحكامها ، ولولا ذلك لما استثأرت من الرؤوس بجناية أقدامها . وهذا أحسن من قول الشاعر وأغرب وألطف؛ لأنه قال :

ذكرتْ حقائدَها القديمةَ اذ غدتْ زمناً تُداسُ بأرجلِ العُصّارِ
لانتْ لهم حتى انتشَوْا وتمكنتْ منهم فصاحت فيهمُ بالثارِ (١)

(١) المثل السائر ١/١٥٠ « .. إلا بتنغيص .. خرقاء البيان » وجاء في البيتين « وهنا تداس ، فتحكمت فيهم فنادت فيهم بالثار » .

أقول : أما إضافة البنان واللسان والعقل والدين إلى الخمر ، فإنه من الغريب وأغرب من ذلك أن جعل للرؤوس أقداما ، وأغرب من هذين كونه يدّعي (٢٦/أ) أن كلامه ألطف وأحسن وأغرب من قول الشاعر ، والفرق مثل الصباح ظاهر . وكأنه أراد أنّ يَدَ مُعاقِرِها خرقاءُ ، ولسانه بذيء ، وعقله ودينه ناقصان ولو نسب ذلك [إلى] [1] النُدمان في ذمّ الخمر لكان قادحا فيها . وإنّما [2] إضافة الجوارح والعقل والدين اليها فغير جائز إلا بتأويل بعيد إلى الغاية .

وما أحسن قول أبي تمام :

خرقاءُ يلعبُ بالعقولِ حَبابُها كتلاعب الأفعالِ بالأسماءِ [3]

وقول القائل :

وَصَفَ المُدامةَ شاربوها أَنها تَحوي السرورَ وتطرد الهمّا
صدقوا هفَتْ بعقولِهم وبدينِهم أرأيتَ عادمَ دَيْنٍ مُغْتَما

وقول ابن سناء الملك :

عروسُكُمْ يا أيها الشَرْبُ طالقٌ وإن فَتَنَتْ من حسنها كلَّ مُجْتَلي
دفعت لها مالي وعقلي مُعجَّلا فقالت وجناتُ النعيم مؤجلي [4]

(١) ساقطة في الأصل واستدركت من : « ب » .

(٢) في : م ، ب « وإنما » وفي هامش ب « لعله وأما » .

(٣) ديوان أبي تمام ٣٣/١ من قصيدة قالها يمدح محمد بن حسان الضبي ومطلعها :

قَدْكَ اتئِب أربَيْت في الغُلَواءِ كم تعذلون وأنتم سجرائي

وجاء في عجزه « كتلعب الأفعال » .

(٤) ديوان ابن سناء الملك ٥٧٧ . والبيتان فيه لا ثالث لهما . وجاء في صدر الثاني « دفعت لها عقلي ومالي » — أما في الخريدة ٩٦/١ فقد ورد في البيت الثاني : « دفعت لها عقلي وديني مقدما » .

قيل : إن سليمان (١) بن عبد الملك ناول نُصيبا (٢) قَدحا • فقال • يا أمير المؤمنين ، إنما وصلت إليك بعقلي فإن رأيت أن لا تفرّق بين عقلي وبيني فعلت (٣)

[وقول] (٤) السّرّاج الوراق •

شؤم أم الخبائث الخمر شوم ٌ جاوز الحد فاستمع ما يُعَدُّ
فلها في الدِنانِ حبس ٌ وللرا ووق صَلْب ٌ وللمُعاقِرِ جَلْدُ

وأما قوله : « فاستثأرت من الرؤوس بجناية أقدامها » • الضمير لا يخلو : إما أن يعود إليها أو إلى الرؤوس وكلاهما غير جائز •

وما أحسن قول ابن زُهر (٥) إلا شبيلي :

وموسّدين على الأكف خدودَهم قد غالهم في السُّكْر ما قد غالني
ما زلتُ أسقيهمْ وأشرب فَضلَهم حتى سكِرتُ ونالهمْ ما نالني
والكأس تعلمُ كيف تأخذُ ثارَها إني أملت إناءها فأمالني (٦)

وقال أبو تمام من قصيدة :

إذا اليد نالتها بوِترٍ توقّرتْ على ضغنها حتى استقادت من الرِجلِ

---

(١) سليمان بن عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي ، حاول فتح القسطنطينية (ت ٩٩ هـ) انظر الطبري ٥/٢٧٢ و ٣٠٤ .

(٢) نصيب بن رباح مولى عبد العزيز بن مروان ، شاعر مقدم في النسيب والمديح (ت ١٠٨ هـ) انظر الأغاني ١/٣٢٤ ـ ٣٢٧ .

(٣) انظر تفصيل الخبر في العقد الفريد ٦/٣٣٩ .

(٤) زيادة يقتضيها السياق .

(٥) ابن زُهر الإشبيلي . واسمه محمد بن عبد الملك بن زهر الإيادي أبو بكر أخذ الطب عن أبيه وعرف بالحفيد ابن زهر . ترك مؤلفات طبيّة وله شعر رقيق وموشحات (ت ٥٩٥ هـ) انظر المغرب ١/٢٦٦ .

(٦) وأبياته في معجم الأدباء ١٨/٢٢٥ . وجاء البيت الثالث « والخمر تعلم حين تأخذ ثارها » .

وتَصْرع ساقيها بإنصاف شَرْبِها وصرعُهمُ بالجَوْر في صورةالعدل[1]

وأما قوله : « وتأنيثها يدلك أنها من ناقصات العقول والأديان » . ما أحسن ما استعمل المتنبي هذا في وصف الدنيا فقال :

شِيَمُ الغانياتِ فيها فما أد ري لذا أَنَّث اسمَها الناسُ أم لا[2]

قال : « ومن ذلك ما ذكرته في الحث على الاغتراب وهو : لولا التغرب ما ارتقت بنات الأصداف إلى شرف الأعناق ، ولا ارتقى تراب الأحجار (٢٦/ب) الى نور الأحداق » ثم قال : « وكذلكقولي في هذا المعنىوهو: في الانتقال تنويهلخاملالأقدار ولولا ذلك لم يُكْسَ الهلالُ حلة الإبدار ، والمَنْدَلُ الرَّطب حطب في أوطانه ، والمسك دمٌ في سُرَرِ غِزلانه ، ولولا فراق السَّهم وَتَره لم يحظ بفضل الإصابة، ولولا فراق الوَشيج مَنبِتَه لم يتحلّ بعِزّ البَنانِ ولا شَرف الذّؤابة .

وهذا الفصل فصل من القول فيمعناه، ومما لميتسن للخواطر ابتناء مبناه . فمنه ماهو مأخوذ من الشعر ، ومنه ما سنَح به الخاطر على غير مِثال وهو يشهد لنفسه[3] » .

---

(١) البيتان في ديوانه (د . عبد الحميد يونس ص ٣٥٨) .
وفيه البيت الثاني « فتصرعهم بالجور » . ووردا في « شرح المشكل من شعر أبي تمام » الورقة ٦٦ .
وأما في «طبقات ابن المعتز» ص ٤١٦ فقد جاء قوله وابن أبي طاهرهوالقائل:

إذا اليد نالتها بضغن توقرت على ضغنها ثم استقادت من الرجل

وتابع قوله : « وقد روي هذا البيت في قصيدة لأبيتمام،والبيتلابن أبي طاهر».

(٢) شرح الديوان للبرقوقي ٣١٣/٣ من قصيدة قالها يُعزّي سيف الدولة بأخته الصغرى وأنشدها سنة ٣٤٤ مطلعها :

ان يكن صبرُ ذي الرزية فضلا تكن الأفضلَ الأعزَ الأجلّا

وجاء في روايته « فلا أدري .. » .

(٣) المثل السائر ١٥٧/١ « .. لما ارتقت ... الإبدار .. بعز اللسان .. مما لم ينبش للخواطر .. » . وهذا في رواية المثل بادي الخطأ .

أقول : قوله ارتقت أولا ، وارتقى ثانيا فيه عي لتكراره • ولو قال في أحدهما ما اتصل أو ما سما أو غير ذلك لكان أحسن • وكذا ابتناء مبناه. ومثل هذا يعاب في الكلام • وقد عيب على الصاحب [١] بن عباد قوله :

أُشَبِّبُ لكنْ بالمعالي أُشببُ وأنسُبُ لكنْ بالمفاخرِ أنسُبُ
وبي صبوةٌ لكنْ الى حضرةِ العُلا وبي ظمأٌ لكنْ من العزِ أشربُ [٢]

وسميت القصيدة اللاكِنّية لكثرة تَرداد « لكن » فيها •

وكل هذه المعاني تداولها الشعراء وأكثروا منها • من ذلك قول ابن صُرَّدُر :

قلقلْ ركابَكَ في الفَلا ودعِ الغواني للقصورْ
لولا التغربُ ما ارتقى دُرُّ البحورِ إلى النحورْ [٣]

وقول سِبط التعاويذي :

قالوا انتزْح وتغربْ تكتسبْ شرفاً فالدُرُ ماعَزَّ حتى فارقَ الصَدفا [٤]

وقول ابن قلاقس :

سافرْ إذا حاولْتَ قدْرا سارَ الهلالُ فصار بدرا
والماءُ يكسِبُ ما جرى طيبا ويخبُثُ ما استقرا
وبنقلةِ الدررِ النفيسةِ بُدِّلَتْ بالبَحرِ نَحرْا [٥]

وابن قلاقس وابن الأثير رحمهما الله تعالى من أهل عصر واحد • فإن ابن قلاقس

---

(١) الصاحب بن عباد هو إسماعيل بن عباد الطالقاني . وزير أديب واسع العلم (ت بالري ٣٨٥ هـ) . أنظر وفيات الأعيان ٢١٦/٢ .
(٢) وبيتاه في ديوانه ١٩١ ، وفي الغيث المسجم ١١٥/١ .
(٣) ديوان ابن صردر ص ٢١٠ .
(٤) ديوان التعاويذي ص ٢٩٣ من قصيدة يمدح بها ابن رئيس الرؤساء سنة ٥٥٧هـ مطلعها : لم يبق فيك لمشتاق إذا وقفا إلا ادكار رسومٍ تبعث الأسفا
(٥) في « الغيث المسجم » ٥٠/٢ .

توفي سنة سبع وستين (٢٧/أ) وخمسمائة [١] . وابن الأثير توفي سنة سبع وثلاثين وستمائة ومولد ابن قلاقس سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ، ومولد ابن الأثير سنة ثمان وخمسين وخمسمائة . فعمرُّ ابن الأثير أكثر .

وقول ابن الساعاتي وهو مِن أهل عصره :

وكنْ غانيا عن كــلِ أرض بأختهــا ... وإن حــلّ مغناها كـ واعبُ عِينُ

فلولا فراقُ الدُّرِ أصدافَ بحرهِ ... لأنكره نَحــرٌ وصدَّ جبــينُ [٢]

وقول القائل : [٣] .

الأسدُ لولا فراقُ الغابِ ما افترستْ ... والسهمُ لولا فراقُ القوسِ لم يُصبِ

والتِّبــر كالتُّرب ملقى في مواطنه ... والعودُ في أرضه نوعٌ من الحطبِ [٤]

وقول أبي العلاء المعري :

والسمهريةُ ليس يَشْرُفُ قــدرُها ... حتى يسافرَ لَدْنُها عــن غابهِ [٥]

وقلت أنا من هذه المادة :

سافرْ تنلْ عزا فما مسكُ الورى ... إلا دمــاً في سُرةِ الغـزلانِ

والرمحُ لمــا فارق الوطــنَ اغتدى ... بذؤابــةٍ خفقتْ وتاجِ سنانِ [٦]

---

(١) في « م » : وستمائة والصواب من « ب » وانظــر إرشاد الأديب ٢١١/٧ ، وابن خلكان ١٥٦/٢ والدليل على هذا أيضا قوله بعد ذلك : فعمر ابن الأثير أكثر.

(٢) في الغيث المسجم ٦٨/٢ .

(٣) القائل هو الإمام الشافعي .

(٤) وبيتاه في ديوانه (سيد الأهل ١٩٦٦) ص ١٣ ووردا غير منسوبين في الغيث المسجم ٦٨/٢ .

(٥) البيت في تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٢٣٨ .

(٦) في الغيث المسجم ٦٩/٢ وفي عجز أولهما « إلا دمٌ ». وهو الصواب لوجود «إلاّ» .

وقلت أيضا :

سافر تنــل رُتَبَ المفاخرِ والعُلا كالــدُرّ سارَ فصارَ في التيجانِ
وكذا هلالُ الأفْقِ لو ترك السُرى ما فارقتْهُ معرّةُ النقصانِ (٢٧/ب)[1]

قال : « ومن ذلك ما ذكرته في ذمّ الدنيا وهو : أنكاد الدنيا مشوبة بالأشياء التي جُبِلت النفوسُ على حبّها ، وكل ما تستلذه الأبدان من مآكلها فإنه يضرها من جهة طبها ، ولهذا تذمم من منفعة الهليلج ومضرة اللوزينج . وأعجب من ذلك أنه لا ينتفع الإنسان بشيء من لذتها إلا ضرته من جهة ثوابه، فهو كالذي ينتفع باصطلاء النار وهي محرقة لأثوابه . وقد ضرب لذلك مثل من الأمثال ، وقيل إن كلّ ما ينفع الكبد مضر بالطحال [2] » .

أقول : انظر إلى هذه الركة والعامية ، ألا تراه أشبه شيء بكلام العجائز قوابل النساء إذا أخذن يعظن ويضربن الأمثال ، أكذا توصف الدنيا في حالة الذم : أتراه ما سمع بشيء من كلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه إذا قال له رجل : صِف لنا الدنيا فقال : « ما أصف من دارٍ أولها عناء ، وآخرها فناء ، حلالها حساب وحرامها عذاب ، من استغنى فيها فتن ومن افتقر حزن»[3] ولا بشيء من بعض أقوال الحكماء فيها كقول بعضهم : « الدنيا أمل بين يديك ، وأَجل مُطلّ عليك ، وشيطان فتّان ، وأماني جرّارة العنان ، تدعوك فتستجيب ، وترجوها فتخيب [4] » .

أما سمع بزهديات أبي نواس التي منها :

وما الناسُ إلا هالكٌ وابن هالكٍ وذو نسبٍ في الهالكين عريقِ ــ

---

(١) في الغيث المسجم ٢/ ٦٩ .

(٢) المثل السائر ١/ ١٦٣ وفيه :« .. ولهذا يذمم من منفعة . . بشيء من لذاتها . . » .

(٣) انظر العقد الفريد ٣/ ١٧٢ .

(٤) المصدر السابق .

إذا امتحنَ الدنيــا لبيبٌ تكشفتْ   له عن عدوٍ في ثيــاب صديقِ [١]

حتى إن الرشيد ــ أو المأمون ــ قال : « لو وَصفَتْ الدنيا نفسَها ، ما وصفت بأكثر من قول أبي نواس[٢] • أما سمع بشيء من أقوال أبي العتاهية [٣] ، وصالح ابن عبد القدّوس ومحمود الورّاق[٤] ، ومَن (٢٨/أ) تعرض لذمها من الشعراء كالمتنبي وأبي تمـام وغيرهمـا •• أمـا سمـع بقول الزمخشري « تَحَلّـين لهم ثم تَمرين ، وتَحَلـين لهم ثم تَمُرين » • الأول من الحـلاوة والمـرارة ، والثاني من الحلول والمرور • أما وقف على رسائل المعري في ذم الدنيا • أليس يقول في بعض رسائلة : « فلو كانت الدنيا عروسا لطلقت ولكنها أمٌ أملقت ،يُحبُّها ولدُها على العقوق ، وتصدُّهم عن إدراك الحقوق ، مالنا ومالك أمّ دَفْرَ أما أما يقنعك هلاك الوفر : أعييتني بأَشُر ، فكيف بدُرْدُر • سؤتني غانية ، فكيف بكِ عَجوزا فانية ، وهيهاتَ ما أصابك الهرمَ ولا البَرَم ، وإنما ذلك لأبنائك الذين شربوا من إنائك ••• » وهي طويلة أتى فيها على ذكر مَنْ دَرَج من أعيان الأمم • وهي من الرسائل الطنانات •

ويقول ابن الشبل[٥] البغدادي •

إنما نحن بين ظُفر ونـابٍ   مـن خطوب أسودُهن ضِراءُ
تتمنى وفي المُنى قِصرُ العمـ   ـر فنغدو كمـا نُسَرُّ نِساءُ
صحةُ المرء للسَّقام طـريقٌ   وطريـقُ الفنـاء هذا البقـاء

(١) ديوان أبي نواس ٤٦٥ وفيه :

أرى كل حي هـالكا وابن هـالك   وذا نسب في الهـالكين عـريق

(٢) القائل هو المأمون . انظر شذرات الذهب ١/٣٤٥ .

(٣) ابو العتاهية واسمه إسماعيل بن القاسم الشاعر المعروف ، مكثر سريع الخاطر (ت ببغداد سنة ٢١١ هـ) انظر الشعر والشعراء ٢/٧٩١ ، والأغاني ٤/١ .

(٤) محمود بن حسن الوراق أكثر شعره في المواعظ والحكم (ت حوالي ٢٢٥ هـ) انظر حماسة ابن الشجري ١٤١ ، وفوات الوفيات ٢/٥٦٢ .

(٥) ابن الشبل البغدادي واسمه محمد بن الحسين . شاعر حكيـم له ديوان (ت ٤٧٣ هـ) انظر الوافي بالوفيات ٣/١١ ، وكشف الظنون ٧٦٦ .

بالذي نغتذي نموت ونحيا أقتـل الدّاء للنفوس الـدواء
ما لقينـا من غـَدْرِ دنيـا فلا كا نت ولا كان أخـْذُهـا والعطـاءُ
صَلَفٌ تحتَ راعـد وسَراب كَرَعَتْ منـه مومِسٌ خرقاءُ
راجـعٌ جودهـا عليهـا فمهما يَهَبُ الصبحُ يستَردُّ المَساءُ
وقليـلا ما تصحب المهجةُ الجسـ مَ ففيم الشقـا وفيم العنـاءُ
قبح الله لذةً لشقـانا نالهـا الأمهـاتُ والآبـاءُ
نحن لولا الوجـودُ لم نألم الفقـ د فإيجـادنا علينـا بـلاءُ (١)

دع كل ذا . أما وقف على الخُطَب النباتية ورأى كلامه فيها ويحذو حذوه (٢٨/ب) ويتلو تلوه حتى يقول : الهليلج واللوزينج والكبد والطحال . والناس يذكرون مثل هذا ، ولكن يدرجونه في عبارة تكون مفحلة لها وقع في النفس .

قال : « ومن ذلك ما ذكرته في الزهد وهو : الناس في الدنيا للساعة الراهنة ، كما أن النفوس ليست فيها بقاطنة » (٢) .

أقول : ما أدري معنى التشبيه هنا ما هو .. ووجه العلاقة في ذلك . فإن قوله : كما ، الكاف للتشبيه ولا نسبة بين : انهم أبناء الساعة الراهنة ، وبين أنهم يزولون . ولو حذف لفظة « كما » لاستقام المعنى ، لأنه يعود : والنفوس فيها ليست بقاطنة.

ألا ترى أن بعض الناس عاب على أبي الطيب قوله :

لَبَسَ الثلوجُ بهـا عليّ مسالكي فكأنها ببياضهـا سوداءُ

---

(١) أبياته في الغيث المسجم ٢٨/٢ ، وفي فوات الوفيات ٣٩٤/٢ ، وفي الوافي ١٢/٣ من قصيدة مطلعها :

غـاية الحزن والسرور انقضاء ما لحيٍ من بعد ميتٍ بقاءُ

وجاء في البيت الرابع « بالذي نقتدي » وفي السادس «كرعت فيه» وفي السابع « تهب الصبحَ » .

(٢) المثل السائر ١٦٣/١ .. أبناء الساعة الراهنة ، وكما ... » .

وكذا الكريمُ إذا أقامَ ببلدةٍ سال النُّضارُ بهـا وقام الماءُ [١]

وقال : بأي شيء شبه إقامة الكريم وما تقدمه ما يناسب ذلك : والجـواب عن ذلك : انه لما قال إن الثلوج سدت المسالك عليه فرجعت ببياضها سوداء • شبه ذلك بالحالة التي تكون للكريم أنه يسيل به جامد النُّضار ويجمد مائع المـاء • فهذا الاتضاد كذاك • وهذا الموطن مما يسأل عنه مِن شعر المتنبي •

قال في آخر هذا الفصل : «وغاية مطلوب الإنسان أن يـُمَدَّ له في عمره ، ويـُمْلى له في امتداد أثره • أما تعميره فيعترضه المشيب الذي هو عدم في وجود ، وهو أخو الموت في كل شي إلا في سكنى اللحود ، والجوارح التي يدرك بها الشهوات تـُرى وكلٌ منها قد تحول ، وأصبح كالطَّلل الدَّارس الذي ليس عنده من مُعوَّل• فلا ليلى بليلي ولا النوار ، ولا الأسماع الأسماع ولا الأبصار الأبصار [٢] » •

أقول : وهذا من ذلك النمط في الركة والسماجة ، خصوصا هذا الأخير : لايخفى على (٢٩/أ) من كان عنده أدنى نباهة ويسير ذوق انحلال هذه الألفاظ وسقوطها • وكأنه أراد أن يحذو حذو أبي تمام حيث قال :

لا أَنْتِ أنتِ ولا الدّيارُ ديارُ جفَّ الهوى وتقضَّتِ الأوطارُ [٣]

ولكن أين الثرى من الثّريا ، ويا بعد ما بين القفا والمحيا • ومن النصف الثاني تعلم فائدة التكرار في النصف الأول •

---

(١) شرح الديوان للبرقوقي ٢١/١ من قصيدة قالها يمدح هارون الأوراجي الكاتب مطلعها :

أَمِنَ ازديارَكِ في الدجى الرقباءُ إذ حيثُ أنتِ من الظلام ضياءُ

(٢) المثل السائر « ... مطلوب الإنسان منها .. في مدة عمره .. في امتداد كثره .. فالجوارح التي يدرك بها الشهوات ترى .. ولا النوار بالنوار .. ولا الاسماع أسماع ولا الأبصار أبصار » .

(٣) ديوان أبي تمام ــ عزام ١٦٦/٢ . والبيت مطلع قصيدة قالها يمدح أبا سعيد الثّغري وجاء الشطر الثاني « خف الهوى وتولّت الأوطار » .

ومن العجيب أنه قال في النوع الرابع في توكيد الضميرين ، وقد أورد قول أبي الطيب :

قَبيلٌ أنتَ أنتَ وأنتَ منهمْ وجَدُّكَ بشرٌ الملكُ الهمامُ [1]

« لم أورده اختيارا له ، وإنما مثّلت به ليعلم توكيد المنفصل بالمنفصل . وإلا فالبيت ليس بالمرْضيّ لأنّ سبْكه سبْكٌ عارٍ من الحسن [2] » .

أقول : فليت شعري ـ أي طلاوة على قوله هو : أما أبو تمام فإنه خاطب نفسه كالمنكر ما كان منه في شغفه بتلك الديار التي وقف عليها بعد سلوّه وتقضي أوطاره. وحقّ له أن يقول : لا أنت ذاك الذي كنت أولا ؛ ولا هذه الديار تلك التي كانت أولا . يعني كأن نفسه أصبحت غير تلك والديار بدلت بصفة أخرى .

وما أحسن قول الحظيري [3] الوراق :

تركتُكَ فامضِ إلى مَن تحبُّ ففعلُكَ بردَّ نارَ الجوى
وقَبَّحكَ الغدر في ناظريَّ وغودر عودُ الهوى قد ذوى
وصرتُ أراكَ بعينِ السلوِّ وكنت أراك بعين الهوى

ومن المعلوم أن العين ما تغيرت في ذاتها ، ولا كانت ثمّ عين وبدلت غيرها . إنما السلو (٢٩/ب) أوجب أن يُريَه بعين القبح ، والحب أوجب أن يريه بعين الحسن.

(١) شرح البرقوقي ٤/٢٥٥ من قصيدة يمدح بها المغيث العِجلي : مطلعها :

فؤاد ما تسليه المدام وعمر مثل ما تهب اللئام

(٢) المثل السائر ٢/١٩٨ « وهذا البيت لم أمثل به اختياراً له واستجادة ... ليعلم مكان توكيد .. ليس من المرضى .. » .

(٣) الحظيري الوراق ، واسمه سعد بن علي بن القاسم الأنصاري . أديب من اهل بغداد . له ديوان شعر (ت ٥٩٨ هـ) انظر وفيات الأعيان ٦/١١٩ .

ومن هذا قول (... [١]) .

وعينُ الرضى عن كلِ عيبٍ كليلةٌ كما أن عينَ السُخطِ تبدي المساويا

وهذا دائر على ألسنة الناس . يقولون في مَن يتغيَّر عليهم منه صفة من الصفات : كأنه راح وجاء غيره . وهذا من أبي تمام في غاية الحسن في بابه .

وأما قول أبي الطيب ، فتحتَه من المعنى ما يكسوه حسنا فائقا ، لأن هذا من أمدح ما يكون للقبيلة التي ذكرها ، لأنه قال : قبيلة أنت منهم ، وأنت أنت ، معناه : فيا لها من قبيلة لأنك أنت منهم وأنت ذاك العظيم . فأخَّر المعطوف عليه عن المعطوف كقولــه :

... ... عليكِ ورحمةُ الله السلامُ [٢] .

وقدره الشيخ تاج [٣] الدين الكنـدي تقديرا آخر ، وهذا أحسن مع الضرورة التي فيه وكأن ابن الأثير رحمه الله ، لمح معنى الأبيات التي وردت لبعض شعراء « الذخيرة » لابن بسَّام [٤] وهي :

---

(١) لم يرد بعده اسم القائل والبيت لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر في عيون الأخبار ٧٦/٣ من قصيدة مطلعها :

رايتُ فضيــلاً كان شيئا ملفقا فكشفَه التمحيصُ حتى بدا ليــا

والرواية عنده :

فعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكــن عين السخط تبدي المســاويا

وورد كذلك في الكامل للمبرد ٢١٢/١ . وورد منسوبا إلى المتنبي في التمثيــل والمحاضرة للثعالبي ص ١٣٠ استنادا من المحقق إلى واحدة من نسخ المخطوطة لديه . والصواب أنه لعبد الله بن معاوية كما تشير الادلة .

(٢) عجز بيت للأحوص ، وصدره « الا يا نخلة من ذات عرق » انظر خزانة الأدب للبغدادي ١٩٢/١ ، والخصائص ٣٨٦/٢ ، وشرح شواهد المغني ٢٦٣ ، وأمالي الزجاجي ٨١ وأمالي ابن الشجري ١٨٠/١ .

(٣) تاج الــدين الكنــدي واسمــه زيــن بن الحسن بن زيد الحمــيري . اديب من الكتاب الشعراء العلماء (ت بدمشق ٦١٣ هـ) وفيات الأعيان ٥٢/٦ .

(٤) ابن بسام . علي بن بسام الأندلسي . ابو الحسن . أديب من الكتاب الوزراء (ت ٥٤٢ هـ) انظر الذخيرة مقدمة الجزء الأول، والمغرب (دار المعارف) ٤١٧/١ .

أصبحتْ رِمةً تَزايلَ عنها فصلها الجوهريُّ والعَرَضيُّ
وتلاشى كيانُها الحيوانيُ وأوْدى بيانُها المنطقيُّ
وقوى عقلِه الثلاثُ تلاشتْ إن ذا كلَّه لأمرٌ خفيُّ
والحواسُ الخمسُ التي كُنَّ فيه ولإدراكِهِنَّ فعلٌ وِحيُّ
ذهبتْ تلكمُ الصفاتُ جميعاً ومُحالٌ أن يذهبَ الأزليُ [1]

فأراد أن يأتي بهذا المعنى فأفسده ، وهدم ما جاء به هذا الشاعر وشيده . وبعض الناس يدعي أن هذه الأبيات للرئيس أبي [2] علي بن سينا ، وابن بسام أثبتها في « الذخيرة » لبعض المغاربة . ولكن قصيدة الرئيس في النفس التي أولها :

هبطتْ اليكَ من المحلِ الأرفعِ ورقاءُ ذاتُ تعزُّزٍ وتمنعِ

في غاية الحسن ، وما لأحد مثلها في بابها ، وشهرتها تمنع من سردها . وقد اعتنى بها الفضلاء وخمّسوها وشرحوها .

وما أحسن قوله وقد ذكرها عند الموت :

وكأنها برقٌ تألّقَ بالحِمى ثم انطوى فكأنه لم يَلْمَعِ

[نماذج من إنشاء ابن الأثير والنقاش حولها]

قال : « ومن ذلك ما ذكرته في وصف كلام بالفصاحة ، وهو فصل من كتاب فقلت :

« وله البيان الذي يفض من نسَق الفريد (٣٠/أ) ولا تخْلَقُ نضرة لباسه

---

(١) ليست موجودة فيما طبع من الكتاب حتى الآن .

(٢) ابن سينا هو الحسين بن عبد الله الفيلسوف صاحب التصانيف في الطب والطبيعة والفلسفة . تقلد الوزارة في همذان وله شعر (ت ٤٢٨ هـ) انظر وفيات الأعيان ٥/٥ والبيت مطلع قصيدته في النفس .

الجديد ، وهو فوق الكلام المَجيد ، ودون القرآن المَجيد [١] » .

أقول : ما رأينا مَن مَدَحَ كلاما ولا قرّظه بمثل هذا . وفي أفانين المديح وضروب الثناء عن ذلك مندوحة ، ألا تَرى أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم سيد ولد آدم . ومع هذا فما سمعت أحدا مدح آخر فقا له : أنت دون النبي عليه السلام . لأن لفظة دون وأقل وتحت ما تستعمل في جانب الممدوح . وكلام الله تعالى قد تقرر وثبت أنه ليس في قدرة البشر أن يأتوا بسورة منه ، فكل كلام دونه .

فقوله : كلام دون القرآن المجيد لا معنى تحته لأنه من باب تحصيل الحاصل . ومثل هذا عند الشيخ جمال الدين بن مالك ومن تابعه ، لا يطلق عليه كلاما لأنه ما أفاد فائدة تامة لم تكن عند المخاطب كقولك : السماء فوق الأرض لأنه معلوم عند كل أحد . فإن قلت : أراد بذلك الأدب . قلت ما ضاق المجال عليه ، ولا حصَرهضيق المقام إلى هذا حتى يحتاج أن يأتي بما يحترز فيه . وما أوقعه في ذلك إلا لفظة المجيد والمجيد وطلب الجناس .

قال : « وإذا اختصروا صفة قال : إنه يستميل سمع الطروب ، ويستخفّ وقار القلوب ويتمثل آيات بيضا من غير ضم إلى الجيوب ، ويَرى في الأرض غير لاغب إذا مسّ غيره فترة اللغوب » [٢] .

أقول : إذا كان يستميل سمع الطروب ، فما في هذا كبير مدح ، وذلك أن صيغة فعول مبالغة فيمن يطرب . ولا يقال طروب إلا لمن يميل لأدنى لذة ، ويتحرك لأقل نغمة . مثل : أكول وشروب لكثير الأكل والشرب لما يمر به . وإذا كان الذي يميل إلى الطرب ويتكرر ذلك منه ، يطرب لهذا الكلام فما في هذا مزية توجب مدحه ، ولهذا قيل : المستعد للشيء يكفيه أدنى سبب ، وإنما المدح أن يقال : يستميل من لا يرتاح للطرب . كما قال في الثانية : « ويستخف وقار القلوب » .

---

(١) المثل السائر ١٦٦/١ « ... الذي يغض منه .. ولا يخلق .. فوق كلام .. ».

(٢) المثل السائر ١٦٦/١ « .. ويستحق وقار القلوب .. آيات بيضاء .. وأن يرى في الأرض .. » ورواية المثل مرجوحة كما هو واضح .

فإن هذا هو المعهود في المدح • فإن قلت : هذا يرد على البحتري في قوله : (٣٠/ب)

مُستميـلٌ سمعَ الطروب المُعَنّى عن أغانيِّ مَعْبَدٍ [١] وعَقيدِ [٢]

قلت : هذا مما يؤيد ما قلته ، لأنه قال : يستميل سمع الطروب المعنى عن سماع معبـد وعقيـد اللذين هما أصل الغنـاء • وإذا كان يلفت من هو بهذه الصفة عن لذته إلى سماعه ، كان ذلك مدحا فهو من باب يستخف الحليم ويُصبي النّاسك • وما خلص هذا للبحتري إلا بقوله : عن أغاني مَعبَد • ولو قال ابن الأثير : يستميل الطروب عن أغانيه بفصاحته ، لما أوردت عليه هذا الإيراد • وهذا الذي قلته هـو المعهود في المدح •

أَلا ترى قول النابغة [٣] الذبياني :

لو أنهـا عرضت لأشمَطَ راهـبٍ عَبَدَ الإلـهَ صـرورة متعبـدِ
لـرنا لبهجتهـا وحسنِ حديثِهـا ولَخالَهُ رَشَدَاً وإن لم يَرْشُدِ [٤]

وقول امرىء القيس :

إلى مثلهـا يرنو الحليمُ صَبابـةً إذا ما اسبكَرّتْ بين دِرْعٍ ومِجْوَلِ [٥]

(١) معبد بن وهب أبو عباد المدني . نابغة الغناء العربي في العصر الأموي (ت١٢٦ هـ) انظر الأغاني ٣٦/١ ــ ٥٩ .

(٢) ديوان البحتري (دار المعارف) ص ٦٣٧/١ من قصيدة يمدح بها محمد بـن عبد الملك الزيات مطلعها :

بعضَ هذا العتاب والتفنيدِ ليس ذمُّ لوفـاء بالمحمود

(٣) النابغة الذبياني واسمه زياد بن معاوية أبو أمامه .. الشاعر المعروف كان الشعراء يحكمونه في سوق عكاظ (ت حوالي ١٨ ق هـ) انظر الأغاني ٣/١١ .

(٤) وبيتاه في ديوانه ص ٥٤ .

(٥) ديوان امرىء القيس ص ١٨ والبيت من معلقته ، ومطلعها :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقطِ اللوى بـين الدَخول فحَومَلِ

وكذا في المعلقات السبع ص ٢٦ ، والمعلقات العشر ص ٦٩ .

وما أحسن قول كشاجم(١) في عَوّادة ، من أبيات :

دارتْ ملاويه فيه فاختلفتْ   مثلَ اختلافِ اليَدين شبّكتا
لو حرّكتْه وراءَ منهزمٍ   على بريدٍ لعاجَ والتفتا (٢)

وقلت أنا :

جَسَّتْ مثاني عودِها بأناملٍ   عبثتْ بلبٍّ الخاشعِ المتورعِ
وشَدَتْ فلو شاءت عذوبةُ لفظِها   عَطَفَتْ عِنانَ البارقِ المتسرعِ
وعجبْتُ من ريح الصَّبا إذ لم تقفْ   طربا ولكنْ ما لها أذنٌ تعي

وأما قوله : « ويرى في الأرض غير لاغب » ، ما سمعت بمن مدح الكلام الفصيح بمثل هذا ، والكلام لا يوصف بإعياء ولا لغوب . ولكن هذا من باب إضافة العقل والدين والجوارح للخمر في الفصل الذي تقدم . أتراه ما علم أن اللغوب من صفات الأجسام ولواحقها عند الحركة وإدمانها ، فإن الكلام لا يتعب وإنما التعب لجارحة من تكلم به ، والكتاب لا يَتْعب وإنما يتعب الكاتب الذي خطّه .

وما أحسن قول القائل :

إذا أخذَ القرطاس أوْدَعَ طِرْسَه   خميلةَ زهر أو قِلادةَ جوهرِ (٣١/أ)
حَمى كلَّ فِكرٍ عن عِراكِ رَوِيّهِ   وحَطّ عن الأقلامِ ثِقلَ التفكرِ

---

(١) كشاجم هو محمود بن الحسين بن السندي بن شاهك أبو الفتح شاعر من كتاب الإنشاء . وكان من شعراء سيف الدولة (ت.٣٦٠ هـ) انظر الدّيارات ١٦٧–١٧٠، وشذرات الذهب ٣٧/٣ .

(٢) بيتاه في ديوانه ص ١٧ من قصيدة مطلعها :

جاءت بعودٍ كأنَّ نغمته   صوتُ فتاةٍ تشكو فراقَ فتى

ورد في البيت الأول « .. فاختلفت   مثل اختلاف الكفين .. ».

وفي البيت الثاني « على بريد العجلاء لالتفتا » .
وكذلك في الديارات للشابشتي ١٦٨ وجاء عنده في عجز الثاني « لعاج » كما رواها الصفدي .

فإن كان ابن الأثير أراد الكاتب الذي صدر عنه هذا الكتاب الذي وصفه ، فليس في سياق الكلام ما يدل عليه •

وقد عاب الوحيد [(١)] على أبي الطيب قوله :

كلُّ السيوفِ إذا طالَ الضِرابُ بها يَمَسُّها غيرَ سيفِ الدولةِ السأمُ [(٢)]

وقال : « السأم لا يلحق السيوف إلاأن يكون جاء به استعارة في موضع كلال الحد»

قال : « ولما وقفت عليه قلت : سبحان مَن أعطى سيدنا فلم يبخل ، وخصه بنبوة البيان إلا أنّه لم يُرْسَل ، ولولا أنّ الوحي قد سُدّ بابه لقيل هذا كتاب مُنزَل ، ولقد خار الله لأولي الفصاحة إذ لم يحيوا إلى عصره ، ولم يُبلَوا بداء الحسد الذي يَصليهم بتوقد جمره ، ولئن سلموا من ذلك فما سلِمت أقوالُهم من أقواله التي محَتْها محوَ المِداد ، وقد كانت باقية من بعده فلما أتى صارت كما صاروا إلى الألحاد [(٣)] » •

أقول : في هذا من اساءة الأدب ما فيه ، وللانسان عن مثل هذا المدح مندوحة تخرجه من هذه المضائق •

وقوله : « وخصه بنبوة البيان إلا أنه لم يرسل » مأخوذ من قول أبي العلاء المعري :

لولا انقطاعُ الوحي بعد محمدٍ قلنا محمدُ من أبيه بديلُ

---

(١) الوحيد هو سعد بن محمد المعروف بالوحيد البغدادي ، أديب له « شرح ديوان المتنبي » (ت ٣٨٥ هـ) . انظر إرشاد الأديب ٤/٢٣٣ ، وبغية الوعاة ١/٥٨٠ .

(٢) شرح الديوان ـ البرقوقي . ٤/١٦٧ من قصيدة أنشدها سيف الدولة سنة ٣٤٥ وهي آخر ما أنشد بحلب . مطلعها :

عُقبى اليمينِ على عُقبى الوغى ندمُ ماذا يزيدُكَ في إقدامكَ القَسَمُ

(٣) المثل السائر ١/١٦٦ « .. ولقد خاره الله ... ولم يبتلوا بداء الحسد ... وقد كانت باقيــة من بعدهم .. » .

هو مثله في الفضلِ إلا أنهُ ... لم يأتِهِ برسالةٍ جبريلُ [١]

وقد كَفَرَ قائل مثل هذا .

قال : « وإنّ لكلمهِ طعما يُعرف مذاقه من بين الكلام ، وخفة الأرواح معلومة من بين ثقل الأجسام ، فلو لم يعرف بطعمه عرف بوسمه ، والصبح لا يُتمارى في إسفاره ، ولا يفتقر إلى دليل على أنواره . وقد علم أن العرق يعرف بغصنه ، وأن القول يعرف بلحنه [٢] » .

أقول : قوله : « وإن لكلمه طعما يعرف مذاقه من بين الكلام » ، ما أحسن ما أجاب به ابنُ عميرة [٣] ابنَ [٤] الأبّار عن كتاب بعثه إليه ، فجاء من جملة الجواب :

« فمهلا أيها الموفي على علمه(٣١/ب)النافث بسحرقلمه، أتظن منزلتك في البلاغة تخفى ومَهْيَعُها لا حِبٌ . ومنزِعُها بالعقول لاعِب . أتسفل وقد ترفعتَ، أو تخفى وقد تلفعت . عَرَفناك يا سَوْدَه ، وشهرت حلّة عُطارد[٥] بالملاحة والجَوْده .

وقوله : « والصبح لا يتمارى في إسفاره ، السجعتين . مأخوذ من قول أبي الطيب:

وليس يَصحُ في الأفهامِ شيءٌ ... إذا احتاجَ النهارُ إلى دليلِ [٦]

(١) سقط الزند ص ١٤٢ من قصيدة قالها في رجل من العلويين . مطلعها :
ليت التحمل عن ذراك حلول ... والسير عن حلب اليك رحيل

(٢) المثل السائر ١٦٧/١ « وإن للكلمة طعما .. فلو لم نعرفه بطعمه عرفناه ... على اشراق انواره » .

(٣) تقدمت ترجمته ص ٦٠ .

(٤) ابن الأبار هو محمد بن عبد الله القضاعي أبو عبد الله من أعيان المؤرخين وله شعر . قتل في تونس سنة ٦٥٨ هـ . أنظر الوافي بالوفيات ٣٥٥/٣ .

(٥) عطارد بن حاجب بن زارزة خطيب من سراة بني تميم . قيل إنه وفد على كسرى في الجاهلية فساه حلة ديباج (ت نحو ٢٠ هـ) انظر الإصابة تر ٥٥٦٨ .

(٦) شرح البرقوقي ٢٦٦/٣ .

ومن قول الغزي :

فلا تَبْغِ برهانا على مَكْرُماتِهِ طِلابُكَ برهاناً على الصبحِ باردُ(١)

وقوله : « وقد علم أن العرق يعرف بغصنه » مأخوذ من قول أبي الطيب :

أفعالــه نسب لو لم يقل معهـا جَدّى الخَصيبُ عرفنا العرق بالغصن(٢)

على أن المتنبي أخذه من البحتري حيث يقول :

لستُ أعتدُّ للفتى نسبـاً ما لم يكنْ في فَعـالِهِ نَسَبُهْ (٣)

ومن قول ابن الرومي :

كدأبِ عليٍ في المواطِنِ جَدِّهِ أبي حسنٍ والغصنُ من حيث يخرجُ(٤)

وقد نقلت أنا هذا المعنى إلى الغزل ، فقلت في مليح رأيته في طاقة :

رأيتُ في طاقةٍ كالبدرِ وجهَ فتى فقلتُ مِنْ تحتِ هذا البانةُ النَضِرَهْ

قالوا حكمْتَ وماأبصرْتَ قامتَهُ فقلتُ : إني عرفتُ الغُصنَ بالثَمَره

---

(١) مخطوطة ديوان الغزي الورقة ١١٣ من قصيدة مطلعها :

لعـلَ خيالاً من أميمـةَ عائـدُ فيظفـر بالعنقاءِ في النومِ صائدُ

(٢) شرح البرقوقي ٤/٠٤٤ من قصيدة يمدح بها الخطيب الخصيبي وهو يتقلد القضاء بأنطاكية . مطلعها .

أفاضلُ الناسِ أغراضٌ لذا الزمنِ يخلومن الهم أخلاهمْ من الفِطَنِ

(٣) ديوان البحتري (دار المعارف) ١/٢٧٩ من قصيدة قالها يمدح أبا العباس ابن بسطام . مطلعها :

من قائلٌ للزمـانِ ما أرَبُهْ في خُلُقٍ منـه قد خلا عَجَبُـهْ

ورواية الديوان للبيت :

ولست أعتد للفتى حسبـا حتى يَرى في فعـالِهِ حَسَبَهْ

(٤) ديوان ابن الرومي ص٢٢٦ . من قصيدة قالها يرثي أبا الحسين يحيى بن عمر بن حسين بن زيد بن علي . وبها عرف تشيعه . مطلعها :

أمامك فانظر أيَ نهجَيْك تنهجُ طريقـان شتى مستقيمٌ وأعوجُ

وجاء في الشطر الأول : « في المواطن قبله » .

قال : « ونفائس هذه العقود لا تبرزها إلا أنفاسه ، فدُررُها (٣٢/أ) لفظه ، وسلوكها قِرطاسه » ثم قال « ومن هذا الباب قولي أيضا وهو ألفاظ كخَفق البُنود وزأر الأسود ، ومعان تدل بإرهافها أنها هي السيوف وأنّ قلوبا نمتها هي الغمود، فيخالُها المتأمّل حَوْمة طعان أو حلبة رهان » [١] .

أقول : ما طبق في هذا المفصل على المفصل ، فإنه شبهها بخفق البنود وزأر الأسود . فأي مدخل في هذين لحلبة الرّهان فيما بعد ولم يتقدم للخيل ذكر . والتناسب أن يقول : حومة طعان ، وغيل ليوث، وجلاد فرسان . ومثل هذه الأوصاف لاتكون في شيء من الكلام ، إلا أن يوصف بذلك كلام فيه تهديد وتقريع أو إرهاب عدو أو ما جرى مجراه .

ألا ترى ما أحسن قول البحتري :

عِتابٌ بأطرافِ القوافي كأنهُ عتابٌ بأطرافِ القنا المتكَسرِ [٢]

ولا بأس بإيراد شيء من كلام القاضي الفاضل رحمه الله في وصف المراسلات الواردة ، لتعلم أيها الواقف على هذه الأوراق كيف يكون التقريظ .

فمن ذلك قوله : « وصلني كتابه فوصلني منه ما وصلني ، وعرفت من بلاغته ما جهلني ، وشربت من بحر كلامه ما شربني وأكلني ، وعلوت به قدرا على أنّه عن صهوةالكلام استنزلني . فإنها بدائع ، ماسِرُّ البلاغة قبلهابذائع، ووقائعخاطرصَفَت صفاتها فهي التي رقته وروّقته الوقائع ، وغرائب سهلت وجزلت فتارة أقول جرأة نبع وتارة أقول جرية نابع . قد ضُمِّن الدرّ إلا أنه كما قال أبو الطيب كلم، وأحيى حيَّ الشوق إلا أنه كما قال أبو تمام لو مات من شغله بالبَين ما علم . ففديت يدها وقد مدت ظلا مِن الخط كاد (٣٢/ب) يُقصِّر ظلاً من الحَظ ، ولله قلمُها الذي طال وأناف فما كأنه تحيفه القطُّ قطّ » .

---

(١) المثل السائر ١٦٧/١ « .. لا يبرزها الا انفاسه .. أو زارالأسود .. » .

(٢) ديوان البحتري (دار المعارف) ٨٩٠/٢ من قصيدة له يمدح إبراهيم بن الحسن ابن سهل لما ردّ عليه غلامه نسيما . مطلعها :

فداؤك نفسي دون رهطي ومعشري ومَبْداي من عَلْوِ الشامِ ومَحْضَري

وفيه « طعان بأطراف القنا .. » .

وقوله : « وما أحسبُ الأقلام جُعلت ساجدة إلا لأن طِرسه مِحراب ، ولا أنها سميت خُرساً إلا قبل أن ينفُث سيدنا في رُوعها رائع هذا الصواب ، ولا أنها اضطجعت في دويّها إلا ليبعثها ما ينفخ فيها من رُوحِه في مرقدها ، ولا سُوِّدت رؤوسها إلا لأنها أعلام عباسية تناولتها الحضرة بيدها ، لا جرم أنها تحمي الحمى ، وتسفك دما وتحقن دما وتتشح بهايده عنانا ، ويرسلها فيعلم الفرسان أنّ في الكتّاب فرسانا ، ويقوم الخطباء بما كتبت فتعلم الألسنة أنّ في الأيدي كما في الأفواه لسانا ، ولقد عجبت من هذه الأقلام تُحزُّ ألسنتُها قَطْعاً فتنطق فصيحه ، وتجدع أنوفها بَرْياً فتخرج صحيحة ، وتُجْلى مليحه . وما هي إلا آية في يد سيدنا البيضاء مُوسَوِيّه ، وما مادتها في الفصاحة إلا عَلَوية ولولا الغلو لقال عَلْويه » .

وقوله : « ولو ادّعى سحرُ البيان أنه يقضي أيسر حقوقه ، ويثمر ما يجب من شكر فروعه وعروقه ، لكنت أفضحُ باطلَ سحره ، وأذيقه وبال أمره ، وأصلب الخواطر السحارة على جذوع الأقلام ، وأعقد ألسنتها كما تعقد السحرة الألسن عن الكلام » .

وقوله : « كتاب كريمي من حيث نسبته إليه ، كليمي من حيث نسبته إلى اليد لبيضاء من يديه ، مسيحي من حيث أنه أحيِي موات الأنس ، محمدي من حيث كاد يكون بما نفثه في رُوعي روح القدس ، فلا عدمت مخاطبته التي تخلع على الأيام يوم العيد ، وعلى الليالي ليلة العرس . فأبقاه الله لِلسان العربي فلولاه كان مَزويا (٣٣/أ) لا مرويا ، مَدحورا لا مَدخورا ، ولولاه لحالت أحرفه عن حالاتِها ، وأبت الفصاحة أن تكون قوائم الأحرف من آلاتها . فكانت تقعد ألِفُه القائمة ، وتموتُ باؤه النائمة ، ويزيد حَنْي ظهر داله حتى يلحق بالرّغام خدها ويغضّ ، وحتى تَدْرَد أسنان سِنه فلا يبقى لها ناجذٌ عليه تَعض » .

وقوله : « وقف عليه والشكر عن المنعم به غير واقف بل وقف ، واستمطر منه صوب الغمام فما انقطع له ولا كفّ وَكف ، ورأى بنيان تبيانٍ لو رأته المُجارون لأتي بنيانهم من القواعد فخرّ عليهم السّقف ، فلله هو من بليغ إن قال فالقول عنده

أكثر يوم البين من ماء الطرف ، وإن رام القولَ غيرُه فهو أقل عنده يوم الحسين[1] من ماء الطّفّ » .

وقوله في جواب كتاب للشيخ تاج الدين الكِندي : « وظننته وحقق الله فيه الظّنّ وقد ارتقى الأسباب وأخذ اللفظَ من القطر والقرطاسَ من السحاب ، وآمنت بصحة رقيّه ، وتبينت التقاطه للنجوم حين أوردها في بارع اللفظ ونقيّه ، وقلت للجماعة : كلام التاج تاج الكلام ، والملك في كِندة وكانت أقلامها سيوفا وسيوفها الآن أقلام » .

وقوله : « فوقفت منه على ظرف الظرف ، وتحفة الطرف ، وكدت أعبده منه على حرف ، وكل حرف ذلك الحرف . ولولا إشفاقي أن يفطن الدهر لمكانه من قلبي ، وخوفي أن أعرفه بحسنته منه فأغريه منها برفع أوزار حربي ، لقلت قولا يغض الأولين والآخرين من هذه الصناعة ، وأنفذت فيهم سهاما لا تحمي شاعرا منها صخرة وجه ولا كاتباً درع درّاعة . وما هي إلا آيات (٣٣/ب) كل واحدة أكبر من أختها ، وفكر مرزوقة في أيام الجمعة كلها إذا أتت الفكرَ أرزاقها يوم سَبْتها » .

وقوله : « كتب كريمة كادت ألفاظها تتبسّم ، ومعانيها تتكلّم ، وكادت حروفها تكون أُناسيَّ لعين المسار ، وكادت سطورها تجلي عرائس وعليها من الشكل حَلْيٌ ومن النقط نثار » .

وقوله : « كتاب سني المعاني سيني القوافي ، وحق سينه أن يخلص لها الإقبال ، والسين تصحب الفعل فتخلصه للاستقبال ، وهذا أفق لا مطار فيه إلا للعقاب وابنه ، وبحر لا سَبْح فيه إلاّ لمن يُخرج الدُّر من فيه ويُدخل البحرَ في رِدْنِه ، وما عنيت ها هنا بالبحر إلا يدَه الكريمة فأما البحر فلم أعنه » .

وقوله : « كَتَبَ المجلس روّح الله قلبه ، وأتاح قربه ، ولا برِحَتْ أقلامه سلاحَ أوليائه على الزّمن إذا خافوا حربه ، تؤنس راجيها ، وتؤيس مُجاريها ، ويخصب بها

---

(١) هو الحسين بن علي بن أبي طالب . وفي الحماسة ١/٥٦١ أن الطف موضع قرب الفرات به قتل الحسين بعد أن منع عنه الماء . انظر مقاتل الطالبيين ٥٤ و ٦٧ .

السمع ، ويتظاهر بها النفع ، لولا أنها تغيّر علينا شيمنا فتخلق فيها الحسد ، وتشد أيدينا إذا تعاطينا المجاراة بحبل من مسد » .

وقوله : « وسيدنا ما بعدَ بيانه بيان . وبين فكيه سيف وبين فكي كل إنسان لسان ، فقولي يا أقلامه فقد خرست في الغمود المناصل ، وتبختري يا تَغلِبَ ابنةَ وائل فقد أُعطي من البلغاء التقدمةَ وهم صارغون ، وأفلح المعترف بفضله وقد علم أنه لا يفلح الكافرون » .

وقوله : « ووقف على الميمية فأطاف به منها الطوفان ، وحياة منها الرَّوْح والريحان . وهي مما أملاه ملك إن كان يملي الأشعارَ شيطان ، وعجبت لاطراد تلك القوافي ، ورأيت الشعراء (٣٤/أ) أتت بما ألفت في ضيق الأودية وخاطرَه وقلمه أتيا بما ألقيا في الفيافي ، وكل بيت منها بديوان ، كما أن قائلها إنسان يُفدّى بألف إنسان ، كما أن قلمه قصير فما جدع أنفه إلا ليأخذ ثأر القلم من السنان » .

قلت : وعلى ذكر الفيافي في قول القاضي الفاضل ، وما ركبه في هذه السَّجْعة من الجناس المليح ، فكنت كتبت إلى شيخنا الحافظ فتح الدين محمد بن سيد الناس أبياتا ، وأجابني عنها بنظم ونثر . من جملة النثر : « بل ذلك السحر الحلال الشافي ، بل تلك القوى في القوافي ، بل تلك المقاصد التي أقصدت المنى في المنافي » .

فكتبت الجواب إليه ومنه : « وعكف منه على كعبة البلاغة . فيا حسن ما نشر في استلامي وطوى في طوافي ، وأراد طائر القلب أن ينهض بالجواب فذهبت القُوى مِن القوادم ، وظهر الخَوى في الخوافي » . رَجْعٌ إلى كلام الفاضل .

وقوله : « ولكن اعتزل الناس السِّماك الأعزل ، وارتفع أهلُ الدَّرج العُليا وانخفض أهل الدَّرك الأسفل ، وضيع الناس السهام وأصبت أنت بواحدها المَقتل ، فأنت الرامي وغيرك الرائم ، وأنت الحامي وغيرك الحائم ، وحروفك الأزهار وكتبك الكمائم ، وقلمك الساقي وخواطرك الغمائم ، وبقَوْلك يَضَنّ ويُغالى ، وإذا قلت يا خيل الأقلام اركبي ملأت الأرض تَصهالا وصِيالا ، ونفرت إليك المعاني خِفافا

وثقالا ، وأذّنت فيها بالحج فأتت ضمائر على كل ضامر ورجالا ، وأنت الحاضر والغيّب الحضور ، وأنت الحاضر والغيّب الحضور ، وأنت السيد وغيرك الحصور ، والأسماع إلى ما تقول في دمشق صور ، ولو قدحت الماء لاستطار شرارا ، ولو أجرتَ ورد الخد لكنت له من بنفسج العِذار جارا » .

وقوله : « فلِله هو من كتاب كأنه سورة ، وكل آيــة فيه سجدة ، وقابلَه بالخشوع كأنما قلمُ الكتاب القضيبُ وطرسُه البردة » .

وقوله : « وما هذه الكتب إلا كتائب ، وما هذه الأحرف إلا قــواضب ، ولا الأسطر بها إلا مراكب ، ولا النفس منها إلا عجاج يسفر عن الصباح إسفار الغياهب » .

وقوله : « وكأنما ذُخِرَ قلمُها للمملكة يحوك وشيَها ، وصائغا يخلق حليها ، وكأنما هو أمير والكلام رعيته فهو يصرف أمرها ونهيها ، وكأنما أودع الله سبحانه خاطرها سحابا وكتابها روضا جُعل القلم دولابها والدواة نِهْيها » .

وقوله : « وارتحت لما امتحت على بُعْد أرضي من غمامه ، وارويت القبل الدوي من آلامه بلمامه ، وأعاد عليّ زمَن رامة كما هو بآرامه ، وطلع علي مطالع الأهلّة وام الأهلة ؟ هل هي إلا قُلامة أقلامه » (٣٤/ب) .

وليكن هنا آخر ما أورده للقاضي الفاضل من هذا النوع ، وإن كان ذلــك قطرة من حوض ، وزهرة من روض .

[مناسبــة اللفظ للمعنى]

قال في فصل بعدما تقدم : « وقد نيط بسيدنا قلما الخط اللذان ينسب أحدهما إلى المداد ، وينسب الآخر إلى الصّعاد » [1] .

أقول: أما نسبة القلم إلى المداد فجائز ، وأما نسبة الآخر إلى الصعاد فما أدري ما هو . فإن الصِّعاد هي الرماح التي تنبت مستقيمة فلا تحتاج إلى تثقيف .

فنسبة الرماح إلى الصعاد ، أو الصِعاد إلى الرماح من باب نسبة الشيء إلى

---

(١) المثل السائر ١/١٦٨ .

نفسه ، وهو غير جائز • وما تنسب الرماح إلا إلى الأعلام أو الأسنّة أو الطعن ، كما تنسب الأقلام إلى المداد والكتابة •

قال : « ومن ذلك ما ذكرته في وصف القلم فقلت : « وقد أوحى الله إلى قلمه ما أوحى إلى النحل ، غير أنها تأوي إلى المكان الوعر وهو يأوي إلى المكان السهل ، ومن شأنه أن يجتني من ثمرات ذات أرواح لا ذات أكمام ، ويخرج من نفثاته شراب مختلف طعمه فيه شفاء للأفهام » [1] •

أقول : قوله ثمرات ذات أرواح لا ذات أكمام غير مناسب ، إذ المناسبة تقتضي أن يقول : ذات أرواح لا ذات أجسام ، أو ذات طيالس لا ذات أكمام ، ليناسب بين الروح والجسم والطيلسان والكم • ثم نسبة الروح إلى الثمرة أمر خارج عن العادة ، ولم يسمع بثمر له روح وثمر ما له رُوح • وإذا قُصِدَت المبالغةُ في وصف الثمرة قيل إنها ماء تجمّد أو هواء تجسّد •

وما أحسن قول أبي الطيب (٣٥/أ) •

لهـا ثمرٌ يُشيرُ إليـكَ منـهُ بأشربـةٍ وقفْن بـلا أواني [2]

[اللفظ والتركيب]

قال في القسم الأول من المقالة الأولى : « وكذلك ورد قوله تعالى : « إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ، ولي نعجة واحدة » [3] • فلفظة «لي» مثل لفظة «تؤذي» وقد جاءت في الآية مندرجة متعلقة بما بعدها ، وإذا جاءت منقطعة لا تجيء لائقة ، كقول أبي الطيب :

---

(١) المثل السائر ١/١٨٤ « ... في فصل من كتاب يتضمن وصف القلم .. الله تعالى إلى قلمه ما أوحاه .. وهو يأوي إلى البيان السهل ... » .

(٢) شرح الديوان للبرقوقي ٤/٤٩٠ من قصيدة مدح بها عضد الدولة وولديه ، ويذكر طريقه في شعب بوان . مطلعها :

مغـاني الشِعبِ طيبا في المغاني بمنزلـةِ الربيـعِ من الزمـانِ

وفي رواية الديوان « تشير إليك » .

(٣) سورة ص ٣٨/٢٢ .

تـمسي الأمانيُّ صرعى دون مطلَبِـهِ فما يقولُ لشيءٍ ليتَ ذلك لي [١]

أقول : أي شيء أنكره من هذه اللفظة : وليس الذي ذكره غير دعوى مجرّدة، وهذه لفظة « لي » قد وقعت متمكنة ، والقافية إذا جاءت متمكنة فإنها من حسن التركيب وعذوبة الانسجام . أما لفظة « تؤذي » في قوله : « تلذّ له المرؤة وهي تؤذي » فإنها جاءت ركيكة بخلاف « لي » في البيت المذكور . ولاتعاب هذه في هذا البيت ، إلا أن تعاب لفظة « بي » في قوله :

أزورهمْ وسوادُ الليـلِ يشفعُ لي وأنثني وبياضُ الصبـحِ يُغري بي [٢]

وما رأيت من عاب هذا البيت ولا هذه القافية ، وإنما هو معدود في المحاسن التي انفرد بها أبو الطيب ، لما فيه من مقابلة خمسة بخمسة . ولميتفقهذا العدلغيره.

وكذا لفظة « تؤذي » التي عابها ، لو وقعت قافية متمكّنة لم تـُعَب .

وما أحسن قول الشيخ مجد الدين [٣] بن الظهير الإربلي :

َقلبي وطَرفي ذايَسيلُ دمـاً وذا دونَ الورى أنتَ العليمُ بقَرْحِـهِ

وهمـا بحبكَ شاهـدانِ وإنمـا تعديلُ كـلٍ منهما في جَرْحِـهِ

---

(١) المثل ٢١٦/١ والنص فيه « وكذلكورد في القرآن الكريم .. فلفظة « لي » أيضا مثل لفظة يؤذي (وفي صدر البيت) دون مبلغه ... « وبيت المتنبي في شرح البرقوقي ٢٥٥/٣ من قصيدة يمدح بها سيف الدولة ويعتذر إليه سنة ٣٤١ مطلعها :

أجاب دمعي وما الداعي سوى طلل دعا فلباه قبل الركب والإبل

وجاء في صدره « دون مبلغه » .

(٢) في شرح الديوان للبرقوقي ١٨٨/١ من قصيدة يمدح بها كافورا سنة ٣٤٦ مطلعها :

مَنِ الجآذرُ في زِيِ الأعاريبِ حمر الحلى والمطايا والجلابيبِ

(٣) مجد الدين بن الظهير الإربلي واسمه محمد بن احمد ، شاعر اديب من فقهاء الحنفية ، له ديوان شعر (ت بدمشق سنة ٦٧٧ هـ) أو سنة ٦٩٧ عند صاحب الفوات ٣٥٦/٢ .

والقلبُ منزلكَ القديمُ فإنْ تجدْ   فيه سواكَ من الأنامِ فَنَحِّهِ [١]

انظر إلى هذه القافية الثالثة ما أحلاها وأمكنها لا يقوم غيرها مقامها . ولو وقعت في غير القافية لما كان لها هذه الحلاوة والتمكن . وكذا لفظة « لي » في قول ابي الطيب .

ومن هذا التمكّن في القافية ، قول ابن أبي هلال القَيرواني من أبيات :

يَهدي إلى العَلْيا فما من سالكٍ   طُرُقَ العُلا إلا وكان دليلَهُ

فَضَلَ الورى في الفضلِ حتى إنّه   لو قيل مَنْ فَذُّ الأنامَ ؟ لقيل : هو

وما أحسن ما استعمل القاضي الفاضل رحمه الله تعالى لفظة « لي » في القافية حيث قال :

ومدحت أهل البيت منكم بالذي   شهد الرجال بأن ذاك البيت لي [٢]

(٣٥/ب)

[هل سورة النجم مسجوعة على حرف الياء ؟]

قال في هذا القسم وقد استطرد الكلام الى قوله تعالى : « تلك إذن قِسمةٌ ضِيزي » [٣] إن سورة النجم مسجوعة على حرف الياء » [٤] .

أقول : ليس الاعتبار في رؤوس القرائن والقوافي بصورة الخَطّ ، إنما العبرة باللفظ . والسورة مسجوعة على حرف الألف المقصورة . ولكنه غرّه رسم رؤوس الآي بالياء نظراً إلى أصل الكلمة . ولا قائلَ بأن صُغرى وكُبرى وضِيزى

(١) وأبياته في فوات الوفيات ٣٥٨/٢ هي الأبيات الأخيرة من قصيدة له . وجاء في البيت الأول « بين الورى » . كما وردت في الغيث المسجم ٢٤٥/١ ، وفي خزانة ابن حجة ص ٢١٣ .

(٢) ديوان الفاضل ص ٢٨١ من قصيدة مطلعها :

نادى الرجالَ ونادى سيفَه   في كربهم ياذا الفَقَارِ ويا علي

(٣) سورة النجم ٢٢/٥٣ .

(٤) المثل السائر ٢٣٠/١ والعبارة فيه « فجاءت اللفظة على الحرف المسجوع الذي جاءت السورة جميعها عليه » .

ومأوى ومنتهى ، وما أشبه ذلك ، إذا وقع في رؤوس الآي ، أو في قافية البيت على حرف الياء ، بل كل ذلك من باب الألف المقصورة في مثل « حبلى ودنيا » ، وإنما كتب ذلك بالياء نظراً إلى أصل الكلمة لكونها من ذوات الياء . فإنك تقول : المأوى من أويت ، والمنتهى من انتهيت ، وهوى من هويت ، وغوى من غويت .

وإذا كان الأصل في الكلمة « الواو » كتب ذلك بالألف . مثل دنيا لأنه من دنوت ، ورجا من رجوت في أحد القولين . وزعم بعضهم أن ذلك لكراهية الجمع بين المثلين . وما أظن بابن الأثير رحمه الله أنه جهل هذا ، ولكنها غفلة ليس إلاّ

[مناسبة اللفظ للمعنى ونماذج من خطب ابن نباته]

قال أيضا في هذا القسم وقد أورد قول الفرزدق :

ولولاحياءٌ زِدْتُ رأسَكَ شَجَّةً ... إذا سُبِرتْ ظلتْ جوانبُها تغلي
شَرَنْبَثةٌ شمطاءُ من يَرَ مابها ... تُشيبُهُ ولو بين الخُماسيِ والطِفلِ [1]

« إن شَرَنْبَثةَ من الألفاظ التي يسوغ استعمالها في الشعر ، وهي هاهنا غير مستكرهة ، إلا أنها لو وردت في كلام منثور من كتاب أو خطبة ، لعيب ذلك على مستعمله » [2] .

أقول : قبل هذا بأسطر قليلة أورد قول تأبّط [3] شراً :

---

(١) ديوان الفرزدق ١٥٣/٢ من قصيدة قالها بعد أن جاءته نساء بني مجاشع وأبلغته فحش جرير بهن . مطلعها :
الااستهزأتْ منيهُنيدةَ أن رأت ... أسيراً يداني خَطوهُ حَلَقُ الحِجْلِ
وورد في صدر الأول « زدت رأسك هزمة » .

(٢) المثل السائر ٣٧/١ « فقوله شرنبثة من الألفاظ الغريبة . . لعيبت على مستعملها » .

(٣) تأبط شرا واسمه ثابت بن جابر الفهمي من مُضَر ، شاعر عداء من فُتّاك العرب قتل نحو ٨٠ ق هـ . انظر خزانة البغدادي ٦٦/١ . وبيته في شرح الحماسة للمرزوقي ٨٣٣/٢ .

يَظلُّ بمَوماةٍ ويُمسي بغيرها جَحيشاً ويَعرَوْري ظُهورَ المَسالكِ [1]

وقال : « لفظة جحيش من الألفاظ المنكرة القبيحة » [2] .

فيقال له : « سبحان الله ما بالعهد من قدم، تناقض قولك في صفحة واحدة ، وأنا أرى أن « جَحيشا » أخف (٣٦/أ) على السمع من « شَرَنبثة » ولو وردت هذه « شرنبثة » في النيل كدّرَته ، وأحالت فراتَه العذب إلى الملح الأُجاج وغيّرته ، ولو كانت خالاً في وجنة الشمس هجّنتها ، وألغت محاسنها التي أنارت الأيامَ وزيّنتها .

قال : « وقد ورد في خطب الشيخ الخطيب ابن نباتة ، كقوله في خطبة يذكر فيها أهوال القيامة فقال : « اقمطرَّ وبالُها واشمخرّ نَكالها ، فما طابت ولا ساغت » [3] .

أقول : إن الخطيب رحمه الله من البلغاء الفصحاء الذين يوردون الكلام موارده، ويعطون كل مقامٍ ما يستحقه ، لأن ذكر النار والقيامة أمر مهول ويحتاج إلى ألفاظ مفخمة تهول السمع وتسيل الدمع وتقشعر لها الجلود وتنفطر لها الكبود . ولا يليق بأوصاف النار غير هذه الألفاظ مثل : اقمطر واشمخر واسبطر وازبأر واكفهر واقشعر وابذعر واطلخم وادلهم ، واقتحم واحتدم .

[الموضوعات والألفاظ]

كما أن أوصاف الجنة لها ألفاظ تخُصّها عذبة سهلة لذيذة إلى السمع . مثل : لان نسيمها ، ودام نعيمها ، ورف ظلها ، وراق زلالها ، وعذب تسنيمها .

ألا ترى أنّ المديح له ألفاظ تخصّه ، والهجاء له ألفاظ تخصّه . فيذكر الرأس والفَرق في المديح ، والدّماغ والقَذال في الهجاء .

---

(١) البيت من قصيدة له في شرح الحماسة للخطيب التبريزي ٩٣/١ وفيه « ظهور المهالك » .

(٢) المثل السائر ٢٣٥/١ .

(٣) المثل السائر ٢٣٨/١ وفيه « وقد وردت ... » .

ووصفُ أبي زُبيد الطائي للأسد بحضرة الصَّحابة بمجلس عثمان رضي الله عنه مما يؤيد هذا الكلام • من جملة ذلك أنه قال :

« لِبلاغِمِه غَطيط ، ولصَدْره نَحيط ، ولطَرْفِه وَميض ، ولأرساغه نَقيض ، كأنّما يخبِط هشيما أو يطأ صَريما • وإذا هامةٌ كالمِجَنّ وخدٌّ كالمِسَنّ ، وعينان سَجْراوان كأنّهما سِراجان يقِدان ، وقصَرة رَبِلة ولهزِمة رَهِلة ، وكَتَدٌ مُغْبَط وزَوْر مُفْرِط ، وعضدٌ مفتول وساعد مجدول (٣٦/ب) وكفٌّ شَثْنة البَراثِن إلى مخالب كالمحاجِن • فضرَب بيده فأرهَج وكشَّر فأفرَج عن أنياب كالمعاوِل مَصقولة غير مَفلولة ، وفم أشدَق كالغار الأخرَق ، ثم تمطَّى فأشرَع بيديه ، ثم حَفَز ورَكِيه برجليه ، حتى صار طوله مِثليه ثم أقعى فاقشعرّ ، ثم مَثَل فاكفهرّ ، ثم تجهّم فازبأرّ • فلا وذُو بيتُه في السماء ما اتقيناه إلا بأول أخ لنا مِن فَزارة ، ضخْم الجُزارة ، فوقصَه ثم أقعَصه ، ثم نفضه نَفْضة فقضقَض مَتْنه وبقَر بطنه وجعل يَلغ في دمه • فذمرتُ أصحابي فبعد لأْيٍ ما استقدموا فهَجْهَجْنا به فكَرّ مقشعرا بزُبرةٍ كأنها شَيهَمٌ حَوْلِيٌّ ، فاختلَج من دوننا رجلا أعجَر ذا حوايا ، فنفضَه نفضةً تزايلت لها مفاصله ، ثم نهم فقرقر ، ثم زفر فبربَر ، ثم زأر فجرجَر ، ثم لحَظ • فوالله لخِلتُ البرق يتطاير من تحت جُفونِه عن شماله ويمينه • فأرْعِشتْ الأيدي ، واصطكّت الأرجل ، وأطَّتِ الأضلاع ، وارتجّت الأسماع ، ولحِقت المتون ، وشَخَصَت العيون وساءت الظُّنون ، واخزألّتِ المتون • ثم تبَهنَس وحلّق ، ثم حدّق وحملق ، فإذا له عينان سَجْراوان مثل وهَج الشرّ ، كأنما نُقِرا بالمناقير عن عرض حَجَر • لونه وَردٌ ، وزئيره رَعْد ، وجَبهته عظيمة ، وهامته شَتيمة • إن استقبلْتَه قلت أدْرَع ، وإن استدبرْتَه قلت أقدَع • وإذا الليل اعرَنكَس تبغّى وتَحسَّس • هولهُ شديد وشرُّه عَتيد وخيرُه بعيد ، متى قاسَم ظلَم ، ومتى بارَز حَطم ، ومتى نال غشم • ثم أنشد :

عَبوسٌ شَموسٌ مُطْرَخِمٌّ مُكابرٌ   جريءٌ على الأعداءِ للقِرنِ قاهرُ

براثِنُهُ شُثْنٌ وعيناهُ في الدُّجى كجمرِ غضاً في وجههِ الشرُّ طائرُ
يُدِلُّ بأنيابٍ حِدادٍ كأنها إذا قَلَّص الأشداقَ عنها خناجرُ(٣٧/أ)

قال الراوي : فحبَق أحدُ الحاضرين ، فقال له عثمان رضي الله عنه : « مه رضَّ الله فاك فلقد رعَبتَ المسلمين[1] » .

فانظر إلى هذه الألفاظ ومواقعها في النفس ، كأنها أسود تلتهم أو أَساود تلتقم ، هل يَحسُن شيء منها أن يكون في وصف ظبي أو طاووس ؟ كلا . وقد عجبت منه كونه خِفيَ مثل هذا عليه .

[مناسبة اللفظ للسجع]

قال في النوع الأول في السجع : « ومن ذلك ما كتبته في جواب كتاب يتضمن إباقَ غلام . فقلت : وأما الإشارة الكريمة في أمر الغلام الآبق عن الخدمة ، فقد يَفرّ المُهر من عَليقه ، ويطير الفراش إلى حَريقه » [2] .

أقول : أما الفَراش فما يحسن أن يقال فيه : قد يطير إلى حريقه . فإن « قد » هنا للتقليل . مثل قد يكبو الجواد . وكما قال : « وقد يفر المُهر من عَليقه » . أما الفراش فما رأى النار إلا وألقى نفسه فيها . هذا هو الغالب ، ولا كذلك المُهر ، فإن الغالب في أمره أنه إذا رأى العَليق أقبل إليه ، وفي النادر يَفر منه . وقال أبو العلاء المعري في وصف أسد :

بدا فدعا الفَراشَ بناظريهِ كما تدعوهُ موقِدَتا ظلامِ [3]

---

(١) في طبقات فحول الشعراء ص ٥٠٨ (ورد النص مع اختلاف طفيف) والأغاني ١٢/١٢٩ ــ ١٣١ ، وفي شعراء النصرانية ص ٦٧ وما بعدها .

(٢) المثل ١/٢٨١ والنص فيه « ومنه ما كتبته .. إباق غلام ، وهو أول كتاب ورد من المكتوب عنه إلى المكتوب اليه فقلت ... » .

(٣) سقط الزند ص ٤١ من قصيدة قالها يرثي والدته ، وكانت توفيت قبل قدومه من العراق بمدة يسيرة . مطلعها :

سمعتُ نعيَّها صمَّا صمامِ وإن قال العواذل لا همَامِ

[مناقشة حول معنى أخطأ فيه ابن الأثير في إنشائه]

وأما عَطف الإثبات على النفي فلا يجوز في مثل هذا . والأحسن أن يقول : قد يفِر المهر من عليقه ، وينأى المرء عن شقيقه .

قال عند ذكر التقليد الذي أورده في معارضة الصّابي في نقابة الأشراف :

« أما بعد ، فإن كل كلام لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أجذم (١) ، وكل كتاب لا يُرقَم باسمه فليس بمُعلَم ، وعلى هذا فإن حمده ينزل من الكلام مَنزِلةَ الأعضاءِ من الجسم (٣٧/ب) واسمه يتنزَّل مِن الكتاب منزلة الرُّقوم مِن الثياب . وقد جمعنا في كتابنا هذا بين التَّسمية والتَّحميد ، وجعلنا أحدهما مِفتاحا للتَّيَمُّن والآخر سببا للمزيد ، ثم ردفناهما بالصلاة على سيدنا محمد الذي أيّده الله بالقرآن المجيد ، وجعل شهادته قبل كلّ شهيد وعلى آله وصحبه الذين هُدُوا إلى الطيب من القول ، وهُدُوا إلى صراط حميد » (٢) .

[عودة إلى الابتداء بالحمد]

أقول : ادعى أنه حمِد الله تعالى وذكر اسمه ، وصلّى على النبي صلى الله عليه وسلم وصلى على آله ، ولم يصدر منه تحميدٌ ولا ذِكْر اسم الله تعالى ، إلا إن كان في أول التقليد بسم الله الرحمن الرحيم ، ولا صلاةٌ ، لأنك إذا قلت حمدُ الله واجب ، وذكرُ اسمه مستحَب ، والصلاة على رسوله وعلى آله وصحبه مُتعيِّن ، لم تكن أتيتَ بحمد ولا بذكر اسم ولا بصلاة . وإنما أخبرت عن الحمد بالوجوب ، وعن الذكر بالاستحباب ، وعن الصلاة بالتعيين . ومثل هذا إذا قلت : سبحان الله عدد

---

(١) إذن فابن الأثير يردد هذا الحديث ، كما لم يُغفل الابتداء بالحمد ، لكنه حمدالله بأسلوب لم يعجب الصفدي . انظر الصفحة ١٤١ من هذا الكتاب .

(٢) المثل السائر ٢٩٥/١ « فإن حمده يتنزل .. وجعلنا إحداهما .. وهدوا الى صراط الحميد » .

ريش الأطيار ، والحمد لله عدد موج البحار ، لم تكن أتيت بتسبيح وتحميد يوازي ذينك العددين ويساويهما • وكان معنى هذا من قولك : ان الله يستحق من المحامد والتسبيح عدد ذلك •

ومثل هذه الأشياء يتعين أن يُتحَفَّظ منها ، وإلا كان للطعن فيه مجال •

[اقسام التصريع]

قال وقد ذكر التصريع وقسمه إلى سبعة أقسام : جعل الأول ما كان كل مِصراع مستقلا بنفسه ، ومثّله بقول امرىء القيس :

أفاطمُ مهلاً بَعضَ هذا التّدلّلِ [1] (البيت) •

وجعل المرتبة الثانية أن يكون المِصراع الأول مُستقلا بنفسه غير محتاج إلى الذي يليه • فإذا جاء الذي يليه كان مرتبطا به (٣٨/أ) ، ومثلّه بقول امرىءالقيس :

قفا نَبْكِ من ذكرى حبيب ومنزلِ [2] (البيت) •

وجعل المرتبة الثالثة أن يكون الشاعر مخيرا في وضع كل مصراع موضع أخيه • ومثّله بقول ابن حَجّاج [3] البغدادي •

من شروطِ الصّبوحِ في المِهْرَجانِ خِفةُ الشّربِ معْ خلوِ المكانِ [4]

« فإن هذا البيت يجعل مِصراعه الأول ثانيا ، ومصراعه الثاني أولاً • وهذه كالمرتبة الثانية في الجودة » [5] •

---

(١) ديوان امرىء القيس ص ١٢ البيت من معلقته ، وشطره الثاني :
... ... وان كنت قد ازمعت صَرمي فأجملي

(٢) المصدر السابق . والبيت مطلع معلقته . وشطره الثاني :
... ... بسقط اللّوى بين الدخول فحومل

(٣) ابن الحجاج البغدادي ، هو الحسين بن محمد بن الحجاج . الكاتب الشاعر المشهور فريد في نظم القباح وخِفة الروح . تولى حسبة بغداد مدة (ت ٣٩١هـ) انظر وفيات الأعيان ٥/٣٢ .

(٤) ورد بيته مطلعا لقصيدة له في يتيمة الدهر ٣/٥٧ وفي عجزه « خفة الشغل » .

(٥) المثل السائر ١/٣٣٨ عبر الصفدي عن المعنى بلفظه هو .

أقول : هذه المرتبة الثالثة أحق بأن تكون أولى من الأولى التي ذكرها هو ، لأن مثل هذا النوع أعزّ من الأول ، وفيه دلالة على تمكن الناظم وجودة طبعه .

وقد جاء منه للغزّي :

لولا تذكرُ ما تقادَمَ عهدُهُ ما راجعَ القلبَ المدلَّهَ وَجْدُهُ

وكذا قوله أيضا :

ذهبَ الصِبا فتنقبي أو فاسْفري لاحظَّ فيكِ لذي قَذالٍ مُسْفرِ (١)

ولابن قلاقس الاسكندري :

الحَيا مِن غَيوثكَ البارقاتِ والجَنا مِن أصولك الباسِقاتِ (٢)

وكذا قوله أيضا :

عَدِدْ ودَعْ ذكرَ التصابي عَدِّدِ يا غافلاً عمّا يَراه في الغدِ (٣)

ولابن السّاعاتي :

ما كنتُ بالباكي ولا المتباكي لولا وقائعُ طرفِكِ الفتاكِ (٤)

(٣٨/ب)

وكذا قوله أيضا :

بالله يا رسل الرياح كيف السبيل إلى جناح (٥)

---

(١) مخطوطة الديوان المصورة . والبيت فيها مطلع القصيدة .

(٢) ديوان ابن قلاقس من قصيدة قالها يمدح القاضي ابن خليف ويهنئه بمولود والبيت فيه مطلع القصيدة .

(٣) لم أعثر عليه في ديوانه للسبب الذي ذكره ناسخ الديوان من أنه نفى من الديوان ما لم يعجبه ، والذي سماه « الساقط » .

(٤) ديوان ابن الساعاتي ١٦٥/١ والبيت مطلع القصيدة .

(٥) ديوان ابن الساعاتي ١٥٧/١ والبيت كذلك مطلع القصيدة .

ألا ترى أنّ كل بيت من هذه الأبيات فيه ما في الذي جعله أولاً وزيادةً فهو أولى بالتقديم ، ويشترط فيه أن يكون كل مصراع منه مستقلا بنفسه ، غير محتاج إلى غيره مع إمكان جعل الصدر عجزا والعجز صدرا .

وقد واخذه [١] ابن أبي الحديد في تقسيم التصريع في كتابه ولم يتنبه لهذا[٢] .

[كلامه على التجنيس]

قال في التجنيس : « القسم الثاني من المشبه بالتجنيس أن تكون الألفاظ متساوية في الوزن ، مختلفة في التركيب بحرف واحد لا غير » [٣] .

ثم مثله بقوله تعالى : « وجوهٌ يومئذٍ ناضرة إلى ربها ناظرة » [٤] . ومثّل بقوله تعالى « وهم ينهَوْن عنهُ وينأوْن عنه[٥] » ثم قال : وعلى نحو مِن هذا ورد قوله صلى الله عليه وسلم : « الخَيْل معقود بنواصيها الخَيْر » [٦] وقول أبي تمام :

يَمُدون من أيدٍ عواصٍ عواصمٍ تَصولُ بأسيافٍ قواضٍ قواضبِ[٧]

وقول البحتري :

---

(١) هو مثل آخيته وواخيته انظر المزهر للسيوطي ٤٦٢/١ وفي لسان العرب (أخذ) ٣/٥ ، وفي التنزيل العزيز (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا) والعامة تقول واخَذه .

(٢) انظر (الفلك الدائر) في المثل السائر ١٨١/٤ .

(٣) المثل السائر ٣٥٠/١ .

(٤) سورة القيامة ٢٢/٧٥ .

(٥) سورة الأنعام ٢٦/٦ .

(٦) مجمع الزوائد للهيثمي ٢٥٨/٥ . وجاءت رواية الحديث : « الخيل معقود بنواصيها الخير الى يوم القيامة » .

(٧) ديوان أبي تمام ــ عزام ٢١٣/١ من قصيدة قالها يمدح أبا دُلَف العِجلي مطلعها :

على مثلها من أربعٍ وملاعبِ أُزيلتْ مَصوناتُ الدموعِ السواكب

من كل ساجي الطَّرْف أغيدَ أجيدٍ ومهفهفِ الكَشْحين أحوى أحورِ [١]

ثم قال : وكذلك قوله :

شواجرُ أرماحٍ تَقَطَّعُ بينها شواجرَ أرحامٍ ملومٍ قَطوعُها [٢]

أقول : قد صدر التقسيم بأن تكون الألفاظ متساوية الوزن مختلفة التركيب بحرف واحد ، وما صدق معه من الأمثلة التي ذكرها إلا قوله تعالى (٣٩/أ) : «وهم ينهَوْن عنهُ» (الآية) وقوله تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة » (الآية) والحديث الذي ذكره . وأما عواص وعواصم ، وقواض وقواضب ، فإن إحدى اللفظتين زادت على الأخرى بحرف ولم تخالف ، وكذا أرحام وأرماح ، إحدى اللفظتين خالفت الأخرى بحرفين في الترتيب . ففات ما شرطه ، ولا دخول لهذا فيما ذكره .

وقد أورد عليه ابن أبي الحديد في التجنيس أشياء وما تنبه لهذا [٣] . وقد خبّط ابن الأثير في التجنيس تخبيطا كثيرا وما أحسن في ترتيبه .

وقد وضعت أنا في ذلك كتابا وسميته « جنان الجناس » قسمت فيه الجناس إلى ما أمكن تقسيمه ، فجاء ما يقارب الستين قسما . فمن أراد تحرير التجنيس في أقسامه فليقف عليه هناك .

[التجنيس المعكوس]

قال : « القسم الرابع من المشبه بالتجنيس ويسمى المعكوس » ثم أورد «عادات السادات سادات العادات ، وشِيَم الأحرار أحرار الشيم » [٤] وما شابه ذلك وساق أشياء كثيرة له ولغيره .

---

(١) ديوان البحتري (دار المعارف) ١٠٣٩/٢ من قصيدة قالها يمدح المتوكل مطلعها :

إن الظِباء غداة سفحِ مُحجرِ هيجْنَ حَرَّ جوى وفَرطَ تذكّرِ

(٢) ديوان البحتري (دار المعارف) ١٢٩٩/٢ من قصيدة قالها يمدح المتوكل ويذكر صلح بني تغلب . مطلعها :

منى النفسِ في أسماءَ لو تستطيعها بها وجدُها من غادةٍ وولوعُها

وجاء في صدر البيت « تقطع بينهم » .

(٣) انظر المثل السائر ١٨٨/٤ .

(٤) المثل السائر ٣٥٦/١ .

أقول : ما لهذا النوع دخول في باب التجنيس ، وإنما هو من باب رد الأعجاز على الصدور[(١)] ، وهو باب مستقل بذاته . ومن أحسن ما جاء فيه قوله صلى الله عليه وسلم « جار الدار أحق بدار الجار » [(٢)] .

وقول الأرّجاني [(٣)] .

شِبْتُ أنا والتحى حبيبي حتى برغمي سلوتُ عنهُ
ابيضّ ذاكَ السوادُ مني واسودّ ذاكَ البياضُ منهُ [(٤)]

وقول عفيف الدين [(٥)] التلمساني وفيه زيادة صنعة :

يا بأبي معاطف وأعين يصول منها رامح ونابل
فهذه ذوابل نواظر وهذه نواظر ذوابل [(٦)] (٣٩/ب)

ألا ترى أن الذوابل والنواظر في الأول ، غير الذوابل والنواظر في الثاني . ولو عد ابن الأثير مثل هذا في باب التجنيس لكان ذلك قولا صحيحا . فإن الألفاظ اتفقت والمعاني اختلفت .

ومما قلته أنا في ذلك :

أضاعَ نُسكي عذارُ مِسْكٍ فكيف تَرْكي لِحاظَ تُرْكي
تَنْكى سهامُ الجفونِ منهُ ومقلتي لا تزالُ تبكي

---

(١) انظر الصناعتين ٣٨٥ .
(٢) الجامع الصغير ١/٢٤٥ .
(٣) الأرجاني هو أحمد بن محمد بن الحسين أبو بكر الشاعر ، كان قاضيا . توفى بتستر سنة ٥٤٤ هـ . انظر وفيات الأعيان ٢/١٥ .
(٤) وبيتاه في الغيث المسجم ١/١٧٣ .
(٥) عفيف الدين التلمساني واسمه سليمان بن علي الشاعر . كان يتصوف (ت ٦٩٠ هـ) وابنه الشاب الظريف الشاعر ، انظر فوات الوفيات ١/٣٦٣ ، والنجوم الزاهرة ٨/٢٩ .
(٦) بيتاه في الغيث المسجم ١/١٢٤ .

قضى علـى أدمُعي بسفحٍ يقضي بهـا في دمـي بسفـكِ
وشكٌ قـلبي برُمحِ قـدٍّ قَدَّ فؤادي بغـيرِ شـكِ [١]

فالشك والقد في الأول ، غير الشك والقد في الثاني .

ومما نظمته في غير هذا النمط :

قـد فاق غصنَ النَقـا حبيبي وأخجـلَ البـدرَ في التمـام
ذاكَ قـوامٌ بـلا مُحيـا وذا مُحيّـا بـلا قَـوامِ [٢]

يقال : إنه رُفعتْ إلى القاضي الفاضل قصة باسم مؤذنين يستخدمان ، أحدهما اسمه مرتضى والآخر زيادة ، فكتب عليها : أما زيادة فمرتضى ، وأما مرتضى فزيادة . فاستخدم زيادة ، وصرف مرتضى . وهذا في غاية الحسن .

[التجنيس المجتَنَب]

قال في « القسم الخامس المشبه بالتجنيس ويسمى المُجتَنَب » . ثم إنه أخذ في الاستشهاد على ذلك بقول القائل [٣] .

أبا العبـاسِ لا تحسَبْ بأني لشَيبي من حُلى الأشعـارِ عـارِ
فلي طبْعٌ كسَلسـالٍ مَعـينٍ زُلالٍ من ذُرى الأحجـارِ جـارِ
إذا مـا أكْبَتِ الأدوارُ زَنـداً فلي زَنْدٌ عـلى الأدوارِ وارِ [٤]

ثم قال : « وهذا القسم فيه عندي نظر ، لأنه بلزوم مالا يلـزم أولى منـه

---

(١) الغيث المسجم ١/١٢٤ وفيه بيتان الأول والرابع .
وجاء في صدر الأول « مسكى » ومطلع الرابع « قد شك قلبي .. » .
(٢) الغيث المسجم ١/١٢٤ .
(٣) القائل هو ابو الفتح البستي واسمه علي بن محمد . من كتاب الدولة السامانية في خراسان (ت سنة ٤٠٠ هـ) وفيات الأعيان ١/٣٥٦ ، واليتيمة ٤/٢٠٤ ، وخزانة ابن حجة ص ٣٥ .
(٤) الأبيات في ديوانه ص ٣٨ . وجاء في عجز الأول (بسنّي من حلى الأشعار ..) .

بالتجنيس [١] » • وأخذ يعلّل ذلك بأشياء تعسّف فيها •

أقول : الصحيح أنّ هذا من أقسام التجنيس ، وهو النوع الذي يسمونه بالمزدوج • ولزوم مالا يلزم باب معقود بذاته (٤٠/أ) لا مدخل له في هذا ، ولا لهذا فيه مدخل • فإن اللزوم عبارة عن أن يأتي الشاعر أو الكاتب في القافية قبل الروي بحرف أو أكثر ، يلتزم بورود ذلك في كل قافية • كما ورد في قول المعري :

لا تطلبنَّ بآلةٍ لكَ رتبةً قلمُ البليغِ بغيرِ حظٍ مِغزلُ
سكَنَ السماكان السماءَ كلاهما هذا له رمحٌ وهذا أعزلُ [٢]

فإن المعري التزم بالزاي قبل الروي وهو اللام • ولو قال مع ذلك : معول وأول وأفضل لصحّت القافية ولكن ورود الزاي لزوم مالا يلزم ، وكما تقول : الحمام والغمام والتمام والكمام • أو : البدور والصدور أو الشذور والنذور •

فإن الميم والدال والذال لزوم مالا يلزم • ويجوز أن تقول مع الحمام ، السلام ومع البدور القبور ومع الشذور ، الحرور •

وعلى هذا الشرط بنى المعري لزومياته من أولها الى آخرها • وأما الذي أورده ابن الأثير ، فلم يكن كذلك ، لأنه قبل الألف الأولى عين ، والثانية جيم ، والثالثة واو • ففات اللزوم •

ومما اتفق لي من نمط أبي الفتح البُستي :

---

(١) المثل السائر ٣٦٠/١ « ... عندي فيه نظر ... » .

(٢) في الغيث المسجم ٧٢/٢ ، وفي وفيات الأعيان ٢٤١/١ . ورد في عجز الأول « بغير جد مغزل » . وفي خزانة ابن حجة ص ٤٣٥ وفي صدر الأول « لك رفعة» ورواية الصفدي أصوب . ورد في حاشية الصفحة ١٨٤ من كتاب « تعريف القدماء بأبي العلاء السفر الأول » أن هذين البيتين غير مذكورين في آثار أبي العلاء المطبوعة والمخطوطة .

تذكرتُ عيشاً مَرَّ حلْواً بكُم فهلْ لأيامِنـا تلكَ الـذواهبِ واهبُ
وما انصرفَتْ آمالُ نفسي لغيرِكمْ ولا أنا عن هـذي الرغائبِ غائبُ
سأصبرُ كرها في الهوى غيرَ طائعٍ لعـلَّ زمـاني بالحبـائب آيـبُ

وقلت أيضا :

بنفسيَ مَنْ اذا ادَّكَرَ اكتئـابي وأني لا أرى الأوزارَ زارا
يبيتُ وللتُّقى حَرَسٌ عليـه ولي فإذا رأى الأسحـارَ حارا
ولي قلـبٌ اذا اذَّكَرَ الزمانَ الـ لذي نلنـا بـه الأوطـارا طـارا
(٤٠/ب)

وقلت أيضا :

إنْ أنـتَ أصبحْتَ ربَّ أمـرٍ فـلا تُعِرْهُ لبـاسَ بـاسِ
وإنْ تمـادتْ بـكَ الأمـاني لا تُعِرْهـا من قياسِ ياسِ

[لزوم مالا يلزم]

قال في النوع الرابع في لزوم ما لا يلزم « ومن ذلك ما ذكرته في جملة كتـاب يتضمن ذم جبان فقلت : إذا نزل به خطب ملكه الفرق ، وإذا ضل في أمر لم يؤمن إلا إذا أدركه الغرق » [١] .

أقول : في السجعة الثانية عدم مطابقة ، وما يقابل الضلال إلا بالهدى ، ولا الإيمان إلا بالكفر . فيقال في ذلك : فإذا كفر نعمة لم يؤمن ، وإذا ضل في أمر لم يهتد . وهذا من العيوب المعدودة .

وقد عيب على أبي الطيب قوله :

نظـرْتُ إلى الـذين أرى ملوكـاً كأنك مستقيمٌ في مُحـالِ [٢]

(١) المثل السائر ١/٣٦٥ « فمن ذلك .. في جملة كتاب في فصل يتضمن .. » .
(٢) شرح البرقوقي ٣/١٨٥ من قصيدة قالها يرثي والدة سيف الدولة سنة ٣٣٧هـ مطلعها :
نُعِدُّ المشْرَفيـةَ والعـوالي وتقتلنـا المَنون بلا قِتالِ
وجاء في الشطر الأول « رأيتك في الذين ... » .

وكان ذلك بحضرة سيف الدولة • فقيل لـه : إنما يقابل المستقيم بالمعوج ، والصناعة تقتضي أن تقول : كأنك مستقيم في اعوجاج • فقال له سيف الدولة : لو أن القافية جيمية كيف كنت تصنع في البيت الثاني ؟

فقال أبو الطيب من غير روية : كنت أقول :

فإن تَفُقِ الأنامَ وأنتَ منهمْ ... فإنَّ البَيْضَ بعضُ دمِ الدجاجِ (١)

فاستحسن ذلك من سرعة بديهته •

على أن المتنبي وقع له هذا كثيرا في شعره • من ذلك قوله :

ولكلِ عيْن قرّةٌ في قرْبِهِ ... حتى كأنَّ مَغيبَهُ الأقذاءُ (٢)

القرة إنما ضدها الإسخان ، والقذى ضده الجلاء • وقوله :

ولم يعظمْ لنقصٍ كان فيهِ ... ولم يَزَلِ الأميرَ ولن يَزالا (٣)

العِظَم ضده الحقارة ، والنقص ضده التمام أو الكمال (٤١/أ)

وقوله :

وانهَ المُشيرَ عليكَ فيَّ بِضَلّةٍ ... فالحرُّ ممتَحَنٌ بأولادِ الزِنا (٤)

الحر ضده اللئيم •

وإن أمكن التأويل لأبي الطيب في هذه وأمثالها ، لكن الأحسن أن تكون كما ذكرته • وهذا النوع كثير في شعره •

---

(١) ورد البيت في القصة كاملة برواية الواحدي في شرح الديوان للبرقوقي ١٨٥/٣ .

(٢) شرح البرقوقي ٢٢/١ من قصيدة مدح بها أبا علي هارون الأوراجي الكاتب مطلعها :

أمن ازديارك في الدجى الرقباء ... إذ حيث أنت من الظلام ضياء

(٣) شرح البرقوقي ٤٢٦/٣ من قصيدة مدح بها بدر الدين بن عمار مطلعها :

بقائي شاءَ ليس هم ارتحالا ... وحسنَ الصبر زموا لا الجمالا

(٤) شرح البرقوقي ٤٢٧/٤ . من قصيدة يمدح بها بدر بن عمارويعتذر اليهمطلعها:

الحبُّ ما منع الكلامَ الألسنا ... واللذُّ شكوى عاشق ما أعلنا

[مناقشة حول معنى أخطأ ابن الأثير فيه في إنشائه]

وأما كون ابن الأثير رحمه الله تعالى يأتي بسجعتين لزومهما من أخف ما يكون ويعدهما من اللزوم ويستشهد بهما في كتابه من كلامه فإن هذا من العجيب . ولو كان الكتاب كله من أوله إلى آخره بلزوم الراء قبل القاف ، لما كان كبير أمر .

ألم ير كتاب اللزوميات لأبي العلاء ، وهو مجلد كبير نظم على حروف المعجم . ألم ير المقامات التّميمية وهي خمسون مقامة أنشأها السّرقسطي[1] ملزومة من أولها إلى آخرها وقد جمع الشيخ شرف الدين عبد العزيز شيخ الشيوخ من شعره جزءا جيدا من باب اللزوم ، أتى فيه بأبحر العروض وضروبها ، والشعر في غاية الحسن ولطف التركيب وجودة المعاني ورقة الألفاظ .

من ذلك قوله :

مُتيمٌ ودّ في عينيهِ لو خَبَأَكْ ... ماذا يَضيرُكَ لو عَرَّفتَهُ نَبَأَكْ
إنْ أثّرتْ مقلتي في وجنتيكَ فقدْ ... نكأتَ قلبي بها أضعافَ ما نكأكْ
أدميتُ خديكَ اذ أدميتَ لي كبدي ... أنصِفْ وقل لي تُرى بالشر مَنْ بدأكْ

منها .

قد قلتُ للسِجفِ لما أن حُجِبتَ به ... ياسِجفُ ليتك قد أخفيتَ لي رشأَكْ
ويا مُنَمْنِمَ خطيْ عارضيهِ لقد ... قَرَاكَ مهجته العاني وما قرأكْ
وأنتَ يامَنْ يُساميني الى شَرَفي ... لقد وسِعتَ اذاً أضعافَ ما ملأك
هذا وسرحُكَ يرعى في حمى كلأي ... فلا رعى سرحَكَ الباري ولا كلأكْ
قل ما بدالَكَ من لؤمٍ لذي كرمٍ ... فلو نبحتَ طِوال الدهرِ ماخسأك

(٤١/ب) .

---

(١) السرقطي واسمه محمد بن يوسف الأندلسي المعروف بابن الاشتركوني ، وزير من الكتاب وله شعر . عارض الحريري فأنشأ « المقامات اللزومية » (ت بقرطبة ٥٣٨ هـ) انظر الصلة لابن بشكوال ٥٥٦ ، وبغية الوعاة ٢٧٩/١ .

انظر إلى لطف هذا النظم وانسجامه ، وإلى هذه القوافي وتمكنها في أماكنها وما أحلاها في مواطنها ، وإذا أفردتها من تركيبها لم يكن لها هذا الحسن . وما أقوى تركيبها في بنائها نفسها ، وليست على إفرادها بعذبة في السمع . وهنا يبين قدر الناظم . وما أحلى قوله : فلا رعى سرحك الباري ولا كلأك .

ثم إن ابن الأثير رحمه الله ساق بعد تَيْنك السَّجعتين شيئا آخر من كلامه سجعتين سجعتين أيضا مثل : بابه واغبابه ، وعرضا وأرضا ، وأنزلته وحولته ، واطرافها واطرافها ، وسكناه ويمناه ، وليس ذلك من النادر الحسن . كما جاء في كلام القاضي الفاضل رحمه الله تعالى في قوله :

« والإنعام الذي هو الحقيقة وما سواه مجاز ، والفضل والفصل اللذين وردا بالإسهاب والإيجاز ، والجميل المخلّد الذكر فإنه تنجيز وعد الخلود وإن جاز فيه إنجاز » .

وفي قوله : « وعرفت الإنعام بالخلع ، ومن تكفل في مواقف المناظرة بطيّ لسانها تكفلت له المملكة بأن يزهى بطيلسانها ، وأحلته من سواد الخلع في خلعة إنسانها » .

وفي قوله في وصف ليل : « في ليل كموج البحر ، له أنجم كحبَب النهر ، وقد حشر الهموم وحشدها (٤٢/أ) وهدى ضوالها وأنشدها . فأقول لما تمطى بصلبه : قطع الله صلبك ، ومتى أرى عمود الصبح وقد عجل الله عليه صلبك » .

وفي قوله : « واطّلعتُ شرف الأربعين وما تركت شرف العشرين ، وقلت للنفس : أنساني نيسان ما تشرين لتشرين » .

وفي قوله : « وأوحشني قوله : إني بعثت بالكتاب مرتادا ومستأذنا ، وكيف ترى في معشر طلبته بالحقوق لأستاذنا ، ووجدت ريح كتبه ورُوح قربه فرجعنا إلى العادة وعادت أيامنا ، وصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا ، وعاودنا المنى وما كانت تخطر وإن خطرت فإنها كلا منى » .

كذا يكون اللزوم حسنا ، وكذا تكون الفصحاء لسْنا ، لا ما أورده ابن الأثير من الحَشَف ، وساقه من الغَثّ الذي مجّه السَمْعُ وما ارتشَف .

وقد اتفق لي في اللزوم أبيات ثنى ، لا بأس بإثبات شيء منها هنا .

قلت :

أدعوك ياموجِدَ الأشياءِ من عَدَمٍ وصانعَ العالَمِ العُلْويِّ والأرضي
إن كنتَ تعرِضُ يومَ الحشرِ لي عملاً فلا تُقدِّرْ له طولا على عَرْضي

وقلت أيضا :

يا ساحباً ذيلَ الصِبا في الهوى أبليْتَهُ في الغيِ وهو القشيبْ
فاغسلْ بدمعِ العين ثوبَ التقى ونَقِّهِ من قبلِ عصرِ المشيبْ(1)

وقلت أيضا :

وجدتُ في عِشرةِ صحبي أذى لما لزمتُ البيتَ في الوقتِ زالْ
يا عجبا من أشعريٍّ غدا يَحمدُ رأيَ الناسِ في الاعتزالْ (2)

(٤٢/ب)

وقلت أيضا :

إن اللطافةَ لم تزَلْ عند الأكابرِ فاشيهْ
أرأيتَ عمرَكَ في الورى طَرَفا رقيقَ الحاشيهْ(3)

وقلت أيضا :

لا ترْعَ للمَلاّقِ عَهداً ولا تَصغِ لما نَمَّقَهُ واختلَقْ
فأنت تدري ما جنَتْهُ يدالر رامي على الطيرِ بِرَعْيِ المَلَقْ

(1) خزانة ابن حجة ص ٣٠٩ .
(2) الغيث المسجم ١/٩٧ .
(3) خزانة ابن حجة ص ٣٠٧ وجاء في عجز الأول « بين الأكابر » .

وقلت أيضا :

أتاني وقد أَوْدى السُهادُ بناظري ... يُمزقُ جُنْحَ الليلِ بارقُ فيه
فقلت له : ياطيِّبَ الأصلِ هكذا ... أخذتَ الكرى مني وعيني فيهِ (١)

وقلت أيضا :

إن عيني مذْغابَ شخصُك عنها ... يأمرُ السُهدُ في كَراها ويَنْهى
بدموعٍ كأنهنَّ الغوادي ... لا تَسَلْ ما جرى على الخد منها(٢)

وقلت أيضا :

فدّيتُ حبيباً ضرّجَ الحسنُ وجهَهُ ... فصبٌّ على خديهِ ذَوْبَ عقيقِ
إذا عايَنَ الروضُ المدبّجُ خدّهُ ... يقول لنا هذا أخي وشقيقي (٣)

وقلت أيضا :

أنفقتُ كَنز مدائحي في ثغرهِ ... وجمعتُ فيه لكلِ معنى شاردِ
وطلبتُ منه جزاءَ ذلك قُبلةً ... فأبى وراح تَغَزُّلي في الباردِ (٤)

وقلت أيضا : (٤٣/أ)

وقَفَ القضيبُ لِقَدِهِ لما مشى ... وجرتْ دموعُ العينِ في تحصيلهِ
رشأٌ كساهُ الحُسْن منه حلةً ... جاءتْ بجملتها على تفصيلهِ

وقلت أيضا :

قالوا وقد مادَتْ بغُصنِ النَّقا ... أسرفتَ في الحب بلا فائده
فقلت منهوم الهوى لم يكن ... يشبع إن لذت له المائده (٤)

(١) خزانة ابن حجة ص ٣٠٦ وجاء في صدر الثاني « فناديته يا طيب الأصل ..».

(٢) المصدر السابق ١٨ وهما عنده غير منسوبين .

(٣) خزانة ابن حجة ص ٢٩٥ .

(٤) خزانة ابن حجة ص ٣٠٥ .

وقلت أيضا :

لمـــا تنـاءيتُ عنـــكمْ مـــا زال عـــنّي عنـــائي
ولـــو قفـلتُ اليكـــمْ فتحـتُ بـــابَ الهنـــاء

وقلت أيضا :

كـن كيف شئتَ فـإنّ قـــد ركَ قـد غـلا عنـدي وعـزّا
مـات السّلـوّ تعيشُ أنـــتَ أمـا رأيتَ الصبـرَ عزّى [1]

وقلت أيضا :

لـه في خـده آيـاتُ حسْنٍ وليسَ لعَقـدِهـا في الحبِ فسخُ
وريحـانُ العِذارِ لـه حواشٍ عـلى نار لهـا بالروح تسخـو

وقلت أيضا :

يا عجبـا من معشـر سُكـرُهـُـمْ أثبتَهُمْ في عـالَمِ المَحـوِ
وكـلُ كـأس شمسـه أشرقَتْ ويـومُهـمْ عـارٍ مـن الصحـوِ

وقلت أيضا :

ر شأٌ سـارَ بقلبـي وأنـا أشكـرُ سـيرهْ
فسبى صبريَ لمّـا لـم يجدْ للقلبِ غيـرَهْ

أقول : انني ما أثبت هذه الأبيات لما فيها من اللزوم ولا بدّ فإن ذلك إنما جاء فيها ضمنا وتبعا ، وإنما (٤٣/ب) أثبتها لما فيها من التورية ، وذلك ظاهر لمن تأمـل مواضعهـا .

وكتبت بقدوم ركاب مولانا السلطان ـ خلّد الله ملكه ـ من الحجاز الشريف سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة لمولانا ملك الأمراء بالشام المحروس أعز الله أنصاره :

---

(١) خزانة ابن حجة ص ٣٠٤ .

« ضاعف الله نعمة الجناب العالي وسرّه بما عطر الوجود من أنباء سلطـانه ، وأبهجه بعود مليكه بعد بلوغ أوطاره إلى أوطانه ، وملأ سمعه بما ملأ قلب الإسلام فرحا حتى فاض قَليبُه مسرة بغير أشطانه .

صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالي تَطوى على سلام يتعوذ البدر بكماله من نقصانه ، وتَنشر عن ثناء رقّص الحمام بأسجاعه أعطافَ أغصانه ، وتُوضِح لعلمه الكريم أنه سطرناها بعد ورود ركابنا الشريف إلى مستقر ملكه بقلعة الجبل التي حللنا مغناها ، وضوأنا بنيّر وجهنا الشريف أفقها وقد كانت كالألفاظ المبهمة فلما حللناها ظهر معناها ، ووردناها وهي أشد شوقا إلينا من الرياض الذاوية إلى الغمام، وأعظم كلفا من المشوق بنسمات الحمى وسجعات الحمام ، وأكثر تطلعا من الساري في الظلام إلى طلعة البدر التمام ، فزينا سماءها ، وجلّينا ظلماءها وبللنا غلة أشواقها، وفككنا يد الوحشة التي أخذت بأطواقها . هذا والظفر نزيل جناب جنائبنا ، والنصر خادم ركاب ركائبنا ، والسعود سائرة بين أيدينا ، والوجود ، بالتأييد من سـائر الجهات ينادينا ، والبروق قد بعثت في الآفاق ملطفات البشائر مخلقة ، والأولياء قد حفت بركابنا فما قَصّرت عنها سوابق نعمنا لما رأيناها مُحَلّقة .

وقد قضينا بحمد الله ومَنّه (٤٤/أ) مناسك الحج ، ورفعنا صوتنا بالنداءوأكفنا بالندى فرأى الناس كيف يكون العج ، والغيث كيف يكون الثج ، ونفحنا من سُرانا بنار البرق وفحمةُ الدجى في ضرم ، وعطفنا من مكة ــ شرفها الله ــ إلى المدينة ــ أعزها الله ــ فما سرنا من حرم إلا إلى حرم . فنلنا بفضل الله تعالى ما أمّيناه (١) وأملناه ، وأدينا الأمانة للشوق في التّملي بالحجرة الشريفة كما حملناه ، وشافهنا ذلك المقام الشريف بالسلام عند الوصول إلى السول ، وخلونا به فما كان بيننا وبين الرسول رسول ، فالجناب العالي يأخذ حظه من هذه البشرى التي ابتهج بها الإسلام، وترنّحت لها أعطاف المنابر وعَددت هباتِـها أنامل الأعلام ، ونطقت بمحامدها حتى أفواه المحابر بألسنة الأقلام . ولا يكلف الرعايا في هذه البشرى شيئا لتكون القربة

(١) اسلوب عامي من أثر العصر يعني به ما قصدنا إليه (أممناه) .

بريئة من الشوائب ، خلية من المعائب ، فإن الصواعق تكدر جود السحائب ، والملل ينغص وصل الحبائب .

والله يبقى الجناب لهناء تسمعه نغماته المطربة ، وثناء تترنح له أعطاف الطروس وتترنم له ألسنة الأقلام في أيدي الكتبة المعربة « بمنه وكرمه » .

وغالب ما أنشئه أنا إنما آتي به ملزوما ، وخطبة هذا الكتاب ملزومة (٤٤/ب) .

قال في اللزوم أيضا : وقد ورد للعرب شيء من ذلك ، فمما جاء منه قول بعضهم في أبيات الحماسة :

إن التي زعمتْ فؤادَكَ ملّها خُلقَتْ هواكَ كما خُلقْتَ هوىً لها[١]

وساق الأبيات المشهورة[٢] .

أقول : ليس من اللزوم هذا في شيء ، وإنما القافية اللام والهاء صلة . ألا ترى أنه لو قال في بعض قوافيها : أقرها أو أصمها لما جاز ذلك . وهذا النوع كثير في شعر العرب وليس هو من اللزوم كقول كُثَيِّر[٣] عَزّة :

خليليّ هذا ربعُ عَزّةَ فاعقِلا قلوصَيْكما ثم انزِلا حيثُ حلّتِ[٤]

وهي قصيدة طويلة ، القافية فيها اللام ، وأبيات الحماسة التي لعمرو بن[٥] مَعد يكرب :

(١) البيت لعروة بن أذنية . شرح الحماسة ١٢٣٥/٣ . وهو مطلع أبيات ذكرها المرزوقي — وورد في الغيث المسجم ٨١/١ غير منسوب — وفي سمط اللآلي ص ٤٠٩ قال بعد أن ذكر البيت : « اختلف في نسبة هذا الشعر فقيل إنه لعروة ابن أذنية ، وقيل إنه لبشار » .

(٢) المثل السائر ٣٧٠/١ « ... من ذلك إلا أنه قليل ... » .

(٣) كثير بن عبد الرحمن الخزاعي أبو صخر . شاعر متيم مشهور (ت بالمدينة سنة ١٠٥ هـ) انظر الأغاني ٢٥/٨ .

(٤) والبيت في ديوانه ٣٦/١ مطلع لقصيدة له في عزة . وجاء في عجزه قوله « ثم ابكيا حيث حلت » .

(٥) عمرو بن معد يكرب أبو ثور ، فارس اليمن . أخبار شجاعته كثيرة له شعر (ت ٢١ هـ) الإصابة تر ٥٩٧٢ ، والشعر والشعراء ٣٧٢/١ .

ولمـا رأيتُ الخيلَ زُورا كأنّهـا جداولُ زرعٍ أُرسلتْ فاسبطَرَّتِ [١]

(الأبيـات) .

القافية فيها الراء . على أن ابن الأثير جعلها من باب اللزوم ، وهذا أقرب إلى اللزوم من الأول . ولو أورد هذه وادعى أنها من اللزوم لكان له بعض شبهـة . فإن أبا تمام وغيره يرون أن القافية هنا التاء . ونظم أبو تمام قصيدة تائية عـلى هذا . وهي :

تُسائلُهـا أيَّ المـواطن حَلّتِ وأيُّ ديـارٍ أوطنَتْها وأيَّتِ [٢]

وكذلك تائية شرف الدين [٣] بن الفارض « نظم السلوك » ، والأخرى القصيرة ، والمحققون لا يُجيزون ذلك ويَعيبونه . وأبيات سُلمى [٤] بن ربيعة شاعر الحماسة:

حَلّتْ تُماضِرُ غربـةً فاحتلّتِ فَلْجاً وأهلُكَ باللِّوى فالحُلّتِ [٥]

أبيات طويلة لم يجعل رويها غير اللام .

وكذلك قول سليمان [٦] بن قتة العَدوي (٤٥/أ) من شعراء الحماسة :

---

(١) والبيت في شرح الحماسة للمرزوقي ص ١٥٧ مطلع القصيدة . وجاء في عجزه « خليت فاسبطرت » – وفي الأصمعيات ص ١٢٢ جاءت « ولما رأيت الخيـل رهـوا » .

(٢) ديوان ابي تمام – عزام ٣٠٤/١ من قصيدة يمـدح بها القاضي حبيش بن المعافي . والبيت مطلعها .

(٣) شرف الدين ابن الفارض واسمه عمر بن علي ابو حفص . اشعر المتصوفـين (ت بمصر ٦٣٢ هـ) ، ميزان الاعتدال ٢٦٦/٢ ، ووفيات الأعيان ٣٨٣/١ .

(٤) سلميّ بن ربيعة الضبي . شاعرجاهلي ورد اسمهفي الحماسة ٣٠٣/١ سُلَيمي انظر سمط اللآلي ص ٢٦٧ وخزانة البغدادي ٤٠٨/٣ .

(٥) البيت في الحماسة ٣٠٣/١ لسليمى بن ربيعة ، وفي الأصمعيات ص ١٦١ ورد مطلعا لقصيدة قال إنها لعلباء بن أرقم .

(٦) في الحماسة بتحقيق الخفاجي ٥٦١/١ هو سليمان بن قتة العدوي شاعـر إسلامي شيعي من بني عدي . وجاء في عجز البيت : « فلم أرها أمثالها » . وفي الحاشية نسب ياقوت هذه الأبيات إلى أبي دَهبل الجُمحي يَرثي بهـا الحسين بن علي ومن قتل معه بالطَّفّ .

مررْتُ على أبيــاتِ آلِ محمدٍ   فلم أرهــا كعهدهــا يومَ حُلّتِ

وفي الحماسة من هذا النوع كثير . أما أبيات الحماسة :

وحربٍ يضجُّ القومُ من نَفيانِهــا   ضجيجَ الجِمالِ الجِلَّةِ الدَّبِراتِ [1]

فإنها من باب اللزوم ، أما التي أوردها ابن الأثير فلا .

قال : « وقد ذكر بعضهم في هذا النوع ماورد في أبيات الحماسة . وهو :
وفَيْنَشَةٍ ليستْ كهذي الفَيْشِ [2] .

ثم ساق الأبيات وقال : « وليس هذا من باب اللزوم » [3] . وأخذ يستدل على صحة دعواه ، إما بما مغلط فيه [4] ، وإما بما خفي الصواب فيه عليه . وأقول :

إن هذه الأبيات من باب اللزوم ، بدليل أنه لو قال فيها « حَوش » لجاز . وأما استدلاله بعرش وطيش فلا يسلم له . والواو والياء تقعان ردفا قبل الرَّوي كما تقول : قصور وقصير ، وكسور وكسير . وهو أشهر وأظهر من أن يستشهد له بشيء .

قال في اللزوم أيضا : « واعلم أنه إذا صغرت الكلمة الأخيرة من الشعر ، أو من فواصل الكلام المنثور ، فإن ذلك ملحق باللزوم » [5] ثم أورد قول الشاعر :

---

(١) في شرح الحماسة للمرزوقي ص ٧٤٨ . البيت لامرأة من بني عامر . وقال أبو رياش هي من بني قشير .

(٢) شرح الحماسة للمرزوقي ص ١٨٥٠ . لم يذكر اسم القائل . والبيت الذي يليه « قد ملئتْ من خَرَقٍ وطَيْشِ » .

(٣) المثل السائر ٣٧٢/١ . والعبارة هناك : « وقد ذكر بعضهم من .. وهذا ليس من بابه اللزوم » .

(٤) في لسان العرب (غلط) ٢٣٨/٩ . تقول غالط مغالطة والمَغلطة ما يغالَط به من المسائل . وقد تجوز الصفدي فصاغ من هذا المصدر الفعل مغلط ولا وجود له.

(٥) المثل السائر ٣٧٥/١ .

عزّ على ليلى بذي سُدَيْرِ سوءُ مبيتي ليلةَ الغُمَيْرِ

وساقها إلى آخرها •

أقول : ليس ذلك من اللزوم ، فإن طمرا وظهرا وصدرا ، وسَحَرا ومطرا وقمرا، إذا كان جميع ألفاظها مكبرا فلا لزوم فيها • نعم لو كانت القوافي التي ذكرها ، قميرا وغميرا وعميرا وجميرا وسميرا ونميرا ، لعُدّ ذلك من اللزوم لوجود الميم • فإن الناظم لا يتكلف لمثل ما أورده ولا يلزم نفسه (٤٥/ب) شيئا ، بل كل قافية رائية أو غير بائية يجوز تصغيرها • ومن عجائب هذا الرجل رحمه الله أنه يَعد مثل هذا لزوما ثم إنه يقول بعد سطرين : « وربما وقع بعض الجهال في هذا الموضع فأدخل فيه ما ليس منه • كقوله تعالى : « ان المتقين في جنّات ونعيم • فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم » [1] • وهذا لا يدخل في باب اللزوم ، لأن الأصل فيه ، نعم وجحيم • والياء هي من حروف المد واللين » •

أقول : من المطبوع قول القائل :

لـو أرادَ اللهُ خيراً وصَلاحـاً لِمُحبِّهْ
نَقِلَتْ رِقَّـةُ خديــ ـهِ إلى قسوةِ قلبِهْ

وكذا هذا الرجل ، لو وفقه الله في هذا المقام ، كان كلامه هنا قد نقله إلى ما ذكره من التصغير ، وقال : إن الياء هنا للتصغير فلا عبرة بها لأن الاصل : سدر وغمر في سدير وغمير • على أنّني أضعت هذين البيتين اللذين أوردتهما هنا متمثلا ، فإنهما أشرف من كذا • وما يقال هنا إلا : فديتك لا تزني ولا تتصدقي •

(١) سورة الطور ٥٢/١٧ ـ ١٨ •

وأما الآيات الكريمة التي أوردها فإنها من باب اللزوم • فإنه يجوز في السجع أن يقال : سموم وحميم فيجمع بين الواو والياء كما تقدم • وأما جحيم ونعيم وحميم فانه من باب اللزوم وقد خبط في هذا الباب كما خبط في التجنيس • على أن لزوم مالا يلزم والتجنيس من واضح البديع ومن اشتغل بذلك تنبه لهما في المبادىء لوضوحهما •

وعجبت لابن أبي الحديد كونه ما تنبه لهذه الأشياء •

[لفظة خود متى تكون حسنة أو قبيحة]

قال في النوع السادس في اختلاف صيغ الألفاظ واتفاقها ٪ بعدما ذكر لفظ « خود » وأنها : « في الاسم الذي هو خَوْد حسنة رائقة ، وإذا جاءت على صيغة الفعل لم تكن رائقة »[١] •

ثم أورد قول أبي تمام (٤٦/أ) •

وإلى بني عبدِ الكريمِ تواهقَتْ   رَتَكَ النعامِ رأى الطريقَ فَخَوَّدا[٢]

وبيت الحماسة :

أقولُ لنفسي حينَ خَوَّدَ رألُها   رويدَكِ لمّا تُشفقي حين مُشفقِ[٣]

ثم إنه حكم للأولى بالثّقل والسَّماجة ، وللثانية بالخفة والحسن[٤] • واحتج

---

(١) المثل السائر ٣٨١/١ «فهي على صيغة الاسم حسنة رائقة ... لم تكن حسنة»

(٢) ديوان أبي تمام — عزام ١٠١/٢ البيت من قصيدة قالها يمدح بها عبد الكريم الطائي الحمصي . مطلعها :
يا دارُ دارَ عليكِ إرهامُ الردى   واهتزَّ روضكِ في الثّرى فتراءَدا
وجاء في عجز البيت « رأى الظلام فخودا » .

(٣) شرح الحماسة للمرزوقي ٣٦٥/١ . البيت لمعقل بن جوشن . وجاء في عجزه « مكانك لما تشفقي ... » .

(٤) المثل السائر ٣٨٢/١ « ... فإنها وردت في بيت أبي تمام قبيحة سمجة ، كما وردت هاهنا بين بين .. » .

لهذه بأنها « وردت هنا على حكم المجاز ، وهناك على حكم الحقيقة » .

أقول : ما أكثر تحكم هذا الرجل ودعاويه بلا مستند . وإن كان ، فهو أوهن من بيت أسس على شفا جُرُفٍ هار . وذلك أنه من أول الكتاب إلى آخره ، يستدل على أن عذوبة اللفظة وحسنها أمر يرجع إلى تركيب أحرفها ولذة موقعها في السمع، وأن ذلك أمر يشهد له الحسّ .

فيقال له : إذا كان الأمر كذلك ، فلا اعتبار هنا بالمعنى ، ولو أن المعنى يؤثر في اللفظ عذوبة لكانت « هِرْكَوْلَة » للمرأة المرتجّة الأطراف والأرداف عذبةً، ولو أثر المعنى في اللفظ ركة ، لكانت لفظة « سعير وحيف » ثقيلة في السمع . ولما لم تكن العذوبة والثقالة يتعلقان بالمعنى علمنا أن المعنى لا عبرة به في الفصاحة . فحينئذ قوله : إن خودفي الأول ثقيل لكونه حقيقة وفي الثاني حسن لكونه مجازا ، دعوى مجردة ، لأن الخاء والواو المشددة والدال لم يتغير لها صيغة ولا بناء في الموضعين . والمجاز والحقيقة أمران معنويان لا علاقة لهما باللفظ .

ويقال له : أنت قلت : « إن الذي تكلفه النحاة من التعديلات واه لا يثبت على محك النظر » ، أفهذا التعليل الذي أوردته قوي ثابت على محك النظر ، ليس فيه مغمز ولا قدح .

أهذا طعنُ مَنْ يَشفي غليلا وإقدامُ امرىءٍ عابَ الرجالا !

[هل كلمة الإمة بالكسر فصيحة]

قال أيضا في هذا الفصل ، وقد ذكر الإمّة بكسر الهمزة : « ورأيت صاحب كتاب » الفصيح [1] « وقد ذكرها فيما اختاره من الألفاظ الفصيحة . ويا ليت شعري ما الذي رآه من فصاحتها » [2] .

---

(١) هو أبو العباس ثعلب أحمد بن يحيى النحوي ، وقد تقدمت ترجمته .

(٢) المثل السائر ٣٨٩/١ .

ثم زاد في الحطّ عليه (٤٦/ب) وأكثر من ذلك .

أقول : إن أبا العباس ثعلبا ـ رحمه الله ـ ما ذكر ذلك إلا التزاما بورودها لأجل الباب الذي عقده لذلك . فقال : باب المكسور أوله ، والمضموم باختلاف المعنى[1] فاضطر لذكرها وذكر أمثالها في هذا الباب : من الخِطبة والصِفر والرِحلة والعِشر . التزاما بورود ما جاء في ذلك . وقد يكون المكسور أعذب ، وقد يكون المضموم أعذب وأئمة اللغة إذا قالوا « فصيح » ما يريدون به العذوبة والحسن ولا بدّ ، وإنما يريدون به كثرة الاستعمال ، والعذوبة قد تجيء بعد ذلك ضمناً وتبعاً .

ولهذا تسمعهم يقولون اللّغة الفُصحى في « زئبق ، وزِئبر الثوب » الهمز دون التسهيل ، وإن كان التسهيل أخف وأعذب من الهمز فالأفصح الهمز .

وكذا قولهم « السَّمَع بتحريك الميم أفصح من السكون ، والحِسّ يشهد بأن التسكين أخف وأحسن . فكل عذب فصيح ولا ينعكس .

قال في ذلك أيضا : « وكذلك (فَعُل) بفتح الفاء وضمّ العين فليس له إلا اسم واحد أيضا وهو (فَعيل) ، ولا يقع فيه اختلاف إلا ماشذّ . لكن(فَعِل) بفتح الفاء وكسر العين يقع في اسم فاعله الاختلاف استحسانا واستقباحا لأنّ له ثلاثة أوزان نحو فاعِل وفَعِل وفَعْلان ، تقول منه : حَمِد فهو حامِد وحَمْدان »[2] .

أقول : ان (فَعُلاً) بضم العين ، ليس فاعله مقصورا على (فَعيل) بل قد يأتي على (فَعال) . نحو جَبُن فهو جَبان ، وحصُنت المرأة فهي حَصان .

وقد يأتي على (فعَل) بتحريك العَين ، نحو بَطُل فهو بَطَل وحَسُن فهو حَسَن . وقد يجيء على (فُعال) بضم الفاء نحو فرُت الماءُ فهو فُرات، وضخُم الشيء فهو ضُخام ، وشجُع فهو شُجاع . وقد يجيء على (فَعول) نحو حصُرت الناقة فهي حَصور ، وعزُت فهي عَزوز . وقد يجيء على (فاعل) نحو حمُض اللّبن فهو حامِض . وقد يجيء على (فُعْل) نحو غَمُر الرّجل ـ إذا لم

(١) انظر فصيح ثعلب ص ٦٥ .

(٢) المثل السائر ٣٩٣/١ « .. تقول : منه حَمِد ... » .

يُجرِّب الأمور ـ فهو غَمْر ، وصلُب الشيء فهو صُلْب • وقد يجيء على (فعِل) نحو ندُسَ الرجل فهو نَدِس ويَقُظ فهو يقِظ • وقد يجيء على (فَعْل) بسكون العين كقولك : ضَخُم فهو ضَخْم ، وسهُل فهو سهْل(٤٧/أ)،وصعُب فهو صَعْب ، وشهُم فهو شَهْم •

أما إذا كان من أفعال السَّجايا كظَرُف وشَرُف وعَظُم وكَبُر ، فإنّ اسم فاعله على وزن (فعيل) تقول في ذلك : ظَريف وشَريف وعَظيم وكَبير •

وأما (فعِل) بكسر العين ، فإنه أطلق العبارة وادّعى أنّ فاعله يجيء على ثلاثة أوزان (فاعل وفعل وفعلان) والقاعدة في ذلك أنّ الفعل لا يخلو من ثلاث صيغ :

َفعَل بفتح العين كضَرب وفَعِل بكسر العَين كَعلِم وَفعُل بضمّ العين كظرُف • أما الأول ، فاسم فاعله مطرد القياس على (فاعل) كضرب فهو ضارب ، وذهب فهو ذاهب ، وغلب فهو غالب ، ونقص فهو ناقص ، وكمل فهو كامل •

وأما الثاني وهو (فَعِل) بكسر العين فاسم فاعله على (فاعل) مسموع ، لا يتعدى بذلك النقل ، وليس للقياس في ذلك مدخل • كقولك : أمن فهو آمن ، وسلم فهو سالم ، وسخط فهو ساخط ورضي فهو راض •

فأما اطراد اسم فاعل (فَعِلَ) على (فَعِل) ، فهو إذا كان لازما غير متعد ، وهو فعل العرض الذي هو غير مستقر ، كقولك : فرِح فهو فَرِح ، وغرِث فهو غرِث ، وبَطِن فهو بطِن ، وأَشِر فهو أشِر ، فهذا مطرد •

وإذا كان متعديا كما ذكره ابن الأثير في (حَمِد) فلا يطّرد فاعله على (فَعِل) أما(حَمِد) فما سمعته قطّ • وأظنّ ابن خالَوَيه [1] في كتاب « ليس » قال : ليس في الأسماء ما بني على ثلاثة أسماء مثل : رحم فهو راحم ورحيم ورحمان، إلا سلم فهو سالم وسليم وسلمان ، وندِم فهو نادم ونديم ونَدْمان • وقيل : إنه ادعى مثل هذا في مجلس سيف الدولة بن حمدان، وذُكرت هذه القاعدة وابن خالَويه حاضر•

---

(١) ابن خالويه . هو الحسين بن احمد ابو عبد الله النحوي اللغوي . أصله من همذان انظر وفيات الأعيان ٦٣/٥ ، وبغية الوعاة ٥٢٩/١ .

فقال : قد بقيت واحدة من نسب الأمير وهي « حمد » فهو حامد وحميد وحمدان . وهذه من محاسن ابن خالويه[١] . ولو كان في فاعلها حَمِد" لذُكر في ذلك الوقت.

فإن كان (فعِل) من أفعال الألوان والخلق ، فاسم فاعله على (أَفْعَل) نحو عوِر فهو أعور وحوِل فهو أَحول ، وجهِر فهو أَجهر ، وكدِر فهو أكدر . وكذا خضِر وسوِد وصفِر ، كلّما كان من الألوان فاسم فاعله (أفعل) .

وأما اذا كان (فعِل) للامتداء وحرارة البطن فهو (فَعْلان) بسكون العين مثل : شبِع فهو شَبعان ، وعطِش فهو عَطشان ، وصَدِي فهو صَديان ، وروِي فهو رَيّان وسكِر فهو سكران . وأما الثالث فهو (فَعُل) بضم العين . فقد تقدم الكَلام على اسم فاعله .

فهذه القاعدة في أبنية أسماء الفاعلين من الصيغ الثلاثة ، لا ما ادّعاه وأطلقه .

[حول المعاظلة اللفظية]

قال في المعاظلة اللفظية : ومن ذلك قول بعضهم : (٤٧/ب) .

وقبرُ حربٍ في مكانٍ قفرٍ وليس قُربَ قَبْرِ حَرْبٍ قبرُ[٢]

فهذه القافات والراءات كأنها سلسلة في تتابعها ، ولاخفاء بما في ذلك من الثقل .

وهكذا ورد قول الحريري في مقاماته فقال :

---

(٢) لا وجود لهذا في المطبوع من كتاب « ليس » .

(٢) جاء في « معاهد التنصيص ١/٣٤ قول العباسي : « لا يعرف قائله . ويقال : إنه من شعر الجن قالوه في حرب بن أمية بن عبد شمس » . وجاء في شطره الأول ، بمكان قفر ، وكذا في البيان والتبيين ١/٦٥ .

وازوَرَّ مَنْ كان لـه زائراً وعافَ عافي العَرْفِ عِرفانَهُ[1] [2]

أقول : أما البيت الذي ذكره أولا فهو معذور فيه ، وكل أرباب المعاني والبيان ذكروه ونصّوا عليه ولم يقرنوه بقول الحريري • وهذا من تعسّفه وتعنّته • فإن البيت الذي للحريري ما فيه غير كثرة الجناس ، وهذه صناعة فكيف يعدها عيبا • وإن كان كذلك فكل جناس تردد في بيت أو فقرة يكون معاظلة على رأيه وليس كذلك • ولو لمح السر في ثقل ذلك البيت ، لما قرنه بقول الحريري • وسبب الثقل في ذلك البيت ، ما هو تكرار الحروف ولا بدّ فإن ذلك جزء علة ، وإنما هو تقديم الحروف بعضا على بعض ، مع التكرار في قوله : قرب قبر • حتى إن هذا البيت اشتهر بأنَ الأذكياء يُمتحنون بإنشاده ثلاث مرات متواليات على نفَس واحد ، فما يكاد يسلم أحد من التخبيط فيه •

والسبب في ذلك تقديم بعض الحروف على بعض وتأخيرها • وليس هذا مخصوصا بهذا البيت ، بل بكل ما ترددت حروفه متقدمة ومتأخرة •

وهذا ابن سناء الملك من أرق المتأخرين شعرا وألطفهم قد جاء له مثل هذا في قوله :

وَصَفْتُكِ واللاّحي يعاندُ بالعذْلِ فكنتُ أبا ذَرٍ وكان أبا جهلِ
له شاهدا زُورٍ من النَهْي والنُّهى عليكِ ومن عينيكِ لي شاهدا عدلِ
حبيبةَ هذا القلبِ من قبلِ خلقِهِ يحبكِ قلبي قبلَ خلقِكِ بل قبلي[3]
(٤٨/أ)

---

(١) في « معاهد التنصيص » ٣٧/١ ورد البيت غير منسوب .
وورد في شرح المقامات للشريشي في المقامة الثالثة والثلاثين ١٧٣/٣ . من مقطوعة مطلعها :
أشكو الى الله سبحانهُ تقلّبَ الدهرِ وعدوانهُ
(٢) المثل ٤٠١/١ والعبارة فيه « فمن ذلك .. كأنها في تتابعها سلسلة .. وكذا ورد قول الحريري ... » .
(٣) ديوان ابن سناء الملك ص ٥٥٩ . من قصيدة قالها يمدح السلطان صلاح الدين الأيوبي ويذكر فتحه نابلس . وجاء في صدر البيت الأول « يعاند في العذل » وفي عجز الثالث « قبل خلقك من قبلي » .

انظر البيتين المتقدمين ما أرقّهما وما أثقل هذا الثالث ، وما سببه غير تقديم الحروف تارة ، وتأخيرها تارة في (قبلي وقلبي ، وقلب وقبل) • وأما بيت الحريري فما فيه غير تردّد حروف جناسه ، والتقديم والتأخير معدومان فيه • ألا ترى أنّ العين قبل الفاء في المرتين والعين قبل الراء والراء قبل الفاء في المرتين وهذا ظاهر •

وهذا شرف الدّين ابن الفارض ــ رحمه الله ــ في تائيته يأتي بالجناس في البيت كثيرا مُرَدّداً كقوله :

أيا زاجرا حُمْر الأوارِكِ تاركَ الـ ... موارِكِ من أكوارِها كالأريكةِ [1]

وليس فيه من التعاظل والثقل على اللسان مافي قوله :

ولا حِلْمَ لي في حَمْلِ ما فيك نالني ... يؤدي لحمدي أو لمدحِ مودّتي
وعادِ دعاوي القيلِ والقالِ وانجُ مِن ... عوادي دعاوي صدقُها قَصْدَ سُمعةِ
وكَلّفْتُها لا بل كَفَلْتُ قيامَها ... بتكليفِها حتى كفِلت بكَلْفتي [2]

وما السبب في ذلك غير تقديم الحروف في هذا تارة ، وتأخيرها تارة ، وسردها على الترتيب في الأول من غير تقديم وتأخير فاعرف ذلك •

وأنا ما أنكر أن كثرة التجنيس المتردد في البيت أو الفقرة لا يخلو من ثقل ما ، وإنما شاححته في كونه جعل قول الحريري من باب البيت الذي كأنه رقى العقرب ، أو بعض العزائم الروحانية • وقد أكثر الناس من الاستشهاد به وصار في قلق الألفاظ

---

(١) ديوان ابن الفارض ص ٣٤ والبيت ليس من قصيدته « نظم السلوك » بل من أخرى تتفق معها بالوزن والقافية مطلعها :

نَعَمْ بالصَّبا قلبي صبا لأحبتي ... فيا حبذا ذاك الشذا حين هبَّت

(٢) ديوان ابن الفارض . والأبيات من قصيدته المسماة « بنظم السلوك » مطلعها :
سَقَتْني حُمَيّا الحبِ راحةُ مقلتي ... وكأسي محيا مَنْ عنِ الحُسْنِ جَلّت

والأبيات غير متجاورة ورواية الثاني :

وعادِ دواعي القيلِ والقالِ وانجُ مِنْ ... عوادي دعاوٍ صدقُها قصد سمعةِ
وجاء في البيت الثالث « حتى كلِفْتُ بكلفتي » .

مثلا • وتقعير الألفاظ معلوم وقدذكره الناس • من ذلك أن عيسى بن عمر النحوي[١] أو أبا علقمة[٢] النحوي سقط عن حماره وأغمي عليه ، فلما أفاق ورأى اجتماع الناس عليه ، قال : « ما لكم تَكَأْكَأْتم عليَّ تَكَأْكُؤكم على ذي جِنة ، افرنقعوا عني يرحمكم الله » فقال بعضهم : دعوه فإن عفريته يتكلّم بالهِندية •

ومن ذلك خبر أُمّ الهيثم مع المرأة التي شكت اليها ألمًا في ظهرها ، فسألتها عن السبب فقالت : كنت وَحْمى بدِكّة ، فحضرتُ مأدبةً ، فأكلت حَيْزَبَة من فَراص هَلّعة فاعترتني زُلّخة • فقالت لها أم الهيثم : إنك لذات خَزَعْبِلات[٣]

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أبغضكم إلي الثرثارون المتفيهِقون المتشدقون »[٤] •

هذه الألفاظ كلها يُراد بها المتنطّعون في الكلام • فالثرثار من قولهم عين ثرثارة إذا كثر ماؤها ، والمُتَفَيْهِق من تفيهق الغدير إذا امتلأ ، والمتشدق الذي يفتح شِدقيه •

[من أنواع المعاظلة]

قال في المُعاظلة : « القسم الخامس من المعاظلة أن ترد صفات متعددة على نحو واحد •

---

(١) عيسى بن عمر النحوي أبو عمر ، من أئمة اللغة والنحو (ت بالبصرة سنة١٤٩هـ) انظر بغية الوعاة ٢٣٧/٢ .

(٢) أبو علقمة النحوي النميري ، عارف باللغة وكان يتقعر في كلامه ويعتمد الحوشي والغريب ، بغية الوعاة ١٣٩/٢ ، وانباه الرواة ٢٦٢/٢ وقد أورد الجاحظ هذه الواقعة في أبي علقمة هذا ، انظر المحاسن والأضداد ١١ .

(٣) تروى القصة عن أم الهيثم نفسها مع بعض اختلاف في العبارة في نوادر القالي ١١١ ، والمزهر ٥٣٩/١ واللسان (زلخ) .

(٤) رياض الصالحين ٢٨١ و ٦١٧ وفيه « إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة ، أحاسنكم أخلاقا . وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون » ، وانظر النهاية في غريب الحديث٤٨٢/٣ .

كقول أبي تمام (٤٨/ب) وأنشد له أبياتا منها :

تامِكِـــهِ نَهْـــدِهِ مُـــداخَلِـهِ ملمـــومِـهِ مُحزَئِلِّهِ أَجُدِهْ (١)

ثم قال : « وهذا البيت من المعاظلة التي قَلْعُ الأضراس دونها » (٢) .

أقول : ليس ثقل البيت من تعدد الصفات ، وإنما هو من قوله تامكه ومحزئلّه، وليس في تعدد الصفات نفسها ثقل ولا معاظلة إذا وردت بألفاظ عذبة ، كما تقول إذا وصفت قواما : قويمه ، أهيفه ، ناعمه ، لدنه ، ريّانه . فإن حذفت الهاء زاد حسنا . ومثل ذلك قول القاضي شمس الدين أحمد بن خلكان (٣) .

قسماً بوجهك وهـــو بـــدرٌ طـــالعٌ وبليـــلِ طـــرتك التي كالغَيْهَبِ
وبقـــامةٍ لك كالقضيب ركبْتُ في أخطارِها في الحبِّ أصعَبَ مَركبِ
ويطيبِ مبسمِـــك الشهيِ الباردِ الـ عذبِ النَّميرِ اللؤلؤيِ الأشنَبِ (٤)

ومما قلته في هذا النوع :

قَسَماً بنـــاضرِ قـــدكَ اللدْنِ القويـ مِ الأهيَفِ المتعطِفِ الـــرّيانِ
وبجفنيَ الـــدامي القريحِ الهـــامعِ الـ هـــامي المَلِثِ الهاطِـــلِ الهتّـــانِ
مـــالي عـــلى ذُلِ الجفـــا صبـــرٌ ولا جَلَدٌ يساعِـــدُني عـــلى الهِجـــرانِ

(١) ديوان أبي تمام ــ عزام ٤٣٧/١ من قصيدة قالها يمدح خالد بن يزيد الشيباني مطلعها :

ما لكثيبِ الحمى الى عَقِدِهْ ما بالُ جَرْعائه الى جَرَدِهْ

(٢) المثل السائر ٤٠٧/١ .. « التي قلع الأضراس دون إيرادها » .

(٣) شمس الدين احمد بن خلكان قاضي القضاة ، عالم بالأدب والشعر والأخبار (ت بدمشق ٦٨١ هـ) انظر النجوم الزاهرة ٣٥٣/٧ .

(٤) أبياته في فوات الوفيات ١٠١/١ من قصيدة مطلعها :

يا سادتي إني قنعتُ وحقِكُمْ في حبكم منكم بأيسرِ مطلبِ

وجاء في البيت الثاني :

وبقامةٍ لك كالقضيبِ ركبتُ من أخطارهافي الحب أعظم مركبِ

والحسُّ يحكم بيننا وبين من يدعي أن هذا من باب المعاظلة اللفظية . وأما بيت أبي تمام فإنه من قصيدة جاء فيها مثله بيتان وهما :

مازِنِــهِ لَدْنِــه متقَّفِــهِ عَرّاصِهِ في الأكفّ مُسْحَنْسِحِهِ مُطَّرِدِهْ

ثم قال :

مُسِفِّــهِ ثَرِّهِ مُسْحَنْجِهِ وابِلِهِ مُسْتَهِلِّــهِ بَرِدِهْ (١)

قال وقد أورد قول أبي الطيب :

فلا يُبْرَمُ الأمرُ الذي هوَ حالِل ولا يُحْلَلُ الأمرُ الذي هو يُبْرِمُ (٢)

[ردّ التعصب]

« وبلغني عن أبي العلاء أنه كان يتعصب لأبي الطيب ، حتى إنه كان يسميه الشاعر ويسمي غيره من الشعراء باسمه » .

وزاد ابن الأثير في ذم المعري وقال : « إن الله قد جمع له (٤٩/أ) بين العمى في البصر والبصيرة(٣) » .

أقول : إن المعري معذور في تفضيل المتنبي على غيره ، وليس هو ببِدْعٍ في ترجيحه على غيره من الشعراء فأكثر الناس على هذا المذهب . وما المعري ولا غيره ممن رجحه يعتقد أنه معصوم لا يقع في الخطأ . وإنما الرجل إذا أجاد لم يلحقه أحد، وما له عندي نظير غير القاضي الفاضل رحمه الله تعالى ، فإن الفاضل هكذا ينحط في بعض الأوقات الى الحضيض ، ثم يثب وثبة تكون الثريا لها ثرى ، ويدع من اتبع أثره وقفا خطاه وقد رجع القهقرى . كقوله : « وخواطري كليلة ، وتصرفاتي قليلة ،

(١) ديوان أبي تمام ــ عزام ٤٣٥/١ من قصيدته التي يمدح بها خالد بن يزيد الشيباني .

(٢) شرح البرقوقي ٢٦٤/٤ من قصيدة يمدح بها عمر بن سليمان الشرابي وهو يومئذ يتولى الفداء بين العرب والروم . مطلعها :

نرى عِظَماً بالبَيْنِ والصدُّ أعظمُ ونَتَّهِم الواشين والدمعُ منهمُ

وجاءت قافية البيت « مبرم » .

(٣) المثل ٤١١/١ والعبارة فيه « وبلغني عن أبي العلاء بن سليمان المعري ... وكان أبو العلاء أعمى العين خلقة وأعماها عصبية فاجتمع له العمى من جهتين» .

وحميتي كما يعرفها ، والخَلْطة تخليط ، فإن سمع سيدنا بابن شفة عني فهو لقيط » (٤٩/ب) .

وكذلك أبو الطيب ، بينا تراه على عادة الشعراء من متوسط ورديٍّ ، حتى يأتي بجيد ترك الناس ينفضون غبار سَبْقِه مِن هَواديهم ، وجلس على أسِرّة الأفق مطمئنا والشعراء يهيمون في واديهم . كما قال :

فذي الدارُ أخدعُ من مومِسٍ   وأمكرُ من كِفَّةِ الحابلِ

ثم أردفه بقوله :

تفانى الرجالُ على حبِّها   وما يحصلون على طائلِ (١)

وكما قال يرثي والدة سيف الدولة :

أتتهُنَّ المصيبةُ غافلات   ودمعُ الحزنِ في دمع الدلالِ

ثم قال :

وما التأنيثُ لاسمِ الشمسِ عيبٌ   ولا التذكيرُ فخر للهلالِ

وكما قال منها :

رأيتكَ في الذين أرى ملوكاً   كأنكَ مستقيمٌ في مُحالِ

ثم أردفه بقوله :

فإن تَفُقِ الأنامَ وأنتَ منهم   فإنَّ المسكَ بعضُ دمِ الغزالِ (٢)

---

(٣) شرح البرقوقي ١٩٩/٣ من قصيدة يمدح بها سيف الدولة ويذكر استنقاذه أبا وائل من أسر الخارجي سنة ٣٣٧ مطلعها :
إلامَ طواعية العاذلِ   ولا رايَ في الحبِّ للعاقلِ
وروايته للبيت :
فذي الدارُ اخونُ من مومِسٍ   وخادعُ من كفةِ الحابلِ

(٢) شرح الديوان للبرقوقي ١٨٢/٣ – الأبيات الأربعة من قصيدة يرثي فيها والدة سيف الدولة سنة ٣٣٧ مطلعها :
نعِدُّ المَشْرَفيةَ والعوالي   وتقتلُنا المَنونُ بلا قِتالِ

وكما قال في رثاء ابن سيف الدولة :

بنا منكَ فوقَ الرملِ ما بكَ في الرملِ فهذا الذي يُضني كذاكَ الذي يُبْلي

ثم أردفه :

كأنك أبصرتَ الذي بي وخفتَهُ إذا مُتَّ فاخترْتَ الحِمامَ على الثُّكلِ (١)

وكما قال :

ليتَ المدائحَ تَستوفي مناقِبَه فما كُلَيبٌ وأهلُ الأعصُرِ الأُوَلِ

ثم أردفه بقوله :

خُذْ ما تراهُ ودعْ شيئاً سمعتَ بهِ
في طلعةِ الشمسِ ما يُغنيك عن زُحَلِ (٢)

وكما قال :

نلومُكَ يا عليُّ لغير ذنبٍ لأنك قد زَرَيْتَ على العبادِ

ثم يقول بعد ذا :

كأنَّ الهامَ في الهيجا عيونٌ وقد طُبعَتْ سيوفُكَ من رُقادِ
وقد صُغْتَ الأسِنَّةَ من هُمومٍ فما يخطُرنَ إلا في فؤادِ (٣)

وهذان البيتان وإن عُدَّتْ سرقاتُهما فما فيها ماله هذه الديباجة ولا فيه هذه الطلاوة (٥٠/أ) .

---

(١) شرح الديوان للبرقوقي ٣/٢٠٩ البيتان من قصيدة قالها يرثي أبا الهيجاء عبد الله ابن سيف الدولة وقد توفي سنة ٣٣٨ وجاء في البيت الأول « وهذا الذي يضني » . كما جاء في عجز الثاني « إذا عشت فاخترت . . » .

(٢) شرح الديوان للبرقوقي ٣/٢٥٤ . البيتان من قصيدة قالها يمدح سيف الدولة ويعتذر إليه سنة ٣٤١ مطلعها :
أجابَ دمعي وما الداعي سوى طَلَلِ دعا فلباه قبل الركْبِ والإبِلِ

(٣) شرح الديوان للبرقوقي ٢/٩٣ الأبيات الثلاثة من قصيدة قالها يمدح علي ابن إبراهيم التنوخي . مطلعها :
أحادٌ أم سُداسٌ في أحادِ لُيَيْلَتُنا المنوطةُ بالتَّنادِ

وكما قال :

وشِبْهُ الشيءِ منجذبٌ إليهِ وأَشْبهنا بدنْيانا الطَّغامُ

ثم يردفه بقوله :

ولو لم يعلُ إلا ذو محَلٍّ تعالى الجَيْشُ وانحطَّ القَتامُ(١)

وكما قال :

أَذُمُّ إلى هذا الزمانِ أهيلَه فأعلمُهُمْ فدمٌ وأحزَمُهُمْ وغْدُ

ثم يردفهما(٢) بقوله :

ومِنْ نَكَدِ الدنياعلى الحُرِّ أن يرَى عَدواً له ما مِن صداقته بُدُّ(٣)

قيل إنه لما ادعى النبوة قيل له : ما معجزك ؟ فقال : قولي ومن نكد الدنيا .. البيت وكما قال :

ستبكي شَجْوَها فَرسي ومُهري صفائحُ دمعها ماءُ الجسوم

ثم يقول بعد هذا :

وكم من عائبٍ قولاً صحيحاً وآفته من الفَهمِ السَّقيم(٤)

---

(١) شرح الديوان للبرقوقي ٢٤٦/٤ البيتان من قصيدة قالها يمدح المغيث بن العجلي . مطلعها :
فؤادٌ ما تسليه المُدامُ وعمْرٌ مثلَ ما تَهبُ اللِئامُ

(٢) هكذا في الأصل .

(٣) شرح الديوان للبرقوقي ١٠٩/٢ . البيتان من قصيدة قالها يمدح محمد بن سيار بن مكرم التميمي . مطلعها :
أقلْ فَعالي بلْهَ أكثرَهُ مجْدُ وذا الجَدُّ فيه نلتُ أم لم أنلْ جَدُّ

(٤) شرح الديوان للبرقوقي ٣١١/٤ البيتان من قصيدة قالها وقد كبست انطاكية فقتل مهره الطخرور وأمه مطلعها :
إذا غامَرْتَ في شَرفٍ مَرومٍ فلا تَقْنَعْ بما دونَ النجومِ

وكما قال :

صَحِبَ الناسُ قبلَنا ذا الزمانا وعناهُمْ من شأنِهِ ما عنانا

ثم يقول :

وإذا لم يكُنْ من الموتِ بُدٌّ فمِنَ العجزِ أن تكونَ جبانا[1]

وكما قال :

نِتاجُ رأيكَ في وقتٍ على عَجَلٍ كلفظِ حرفٍ وعاهُ سامعٌ فَهِمُ

ثم يقول :

صَدَمْتَهُمْ بِخَميسٍ أنت غرّتُهُ وسَمْهَرِيّتُه في وجهه غَمَمُ

فكان أثبتَ ما فيهِ جسومُهُمُ يسقطْنَ حولَكَ والأرواحَ تنهزمُ[2]

وكما قال :

وإنما يبلغُ الإنسانُ طاقتَهُ ماكلُّ ما شيةٍ بالرِجلِ شِملالُ

ثم يقول :

ذِكْرُ الفتى عمرُهُ الثاني وحاجتهُ ما قاتَهُ وفضولَ العيشِ أشغالُ[3]

(١) شرح الديوان للبرقوقي ٤/٤٦٦ . البيتان من قصيدة قالها بمصر ولم ينشدها كافورا . مطلعها أولهما .

(٢) شرح الديوان للبرقوقي ٤/١٧٩ . من قصيدة أنشدها سيف الدولة سنة ٣٤٥ هـ معرضا بالبطريق الرومي وهي آخر ما أنشده في حلب مطلعها :

عقبى اليمينِ على عقبى الوغى ندمُ ماذا يزيدكَ من إقدامِكَ القَسمُ

وجاء فيه الثالث « فكان أثبت ما فيهم جسومهم » .

(٣) المصدر السابق ٣/٥٠٦ من قصيدة قالها يمدح أبا شجاع فاتكاً في مصر . مطلعها :

لا خيلَ عندكَ تهديها ولا مالُ فليُسعِدِ النُطقُ إن لم تُسعِدِ الحالُ

وهذا البيت فيه ثلاثة أمثال .

وكما قال :

عجبْتُ لِمَنْ له قَدٌّ وحَدٌّ ... وينبو نَبوةَ القَصِمِ الكَهامِ

ثم يقول :

ولم أرَ في عيوبِ الناسِ شيئاً ... كنقصِ القادرين على التمامِ (٥٠/ب)[1]

وكما قال :

ذريني أنَلْ مالا يُنالُ من العُلا ... فصَعْبُ العُلا في الصعب والسهلُ في السهلِ

ثم يقول :

تُريدينَ لُقيانَ المعالي رخيصةً ... ولا بُدَّ دونَ الشَّهدِ من إبَرِ النَّحلِ[2]

وكما قال :

أبا شجاعٍ بفارسٍ عضد الد ... ولة فَنَّاخُسْرُوْ شَهَنْشاها

أسامياً لم تَزِدْهُ معرفةً ... وإنما لذةً ذكرناها[3]

---

(١) شرح الديوان للبرقوقي ٤/٣٤٨ البيتان من قصيدة قالها يذكر حمى أصابته في مصر سنة ٣٤٨ مطلعها :

مَلُومكُما يَجِلُ عن المَلامِ ... ووقْعُ فَعالِه فوقَ الكَلامِ

(٢) المصدر السابق ٤/٥ من قصيدة قالها يمدح أبا الفوارس دِلَّيْر بن لشكرَوَزّ سنة ٣٥٣ مطلعها :

كدعواكَ كلٌّ يدّعي صِحةَ العقلِ ... ومَنْ ذا الذي يَدري بما فيه من جهلِ

(٣) شرح الديوان للبرقوقي ٤/٥١٩ . من قصيدة قالها يمدح عضد الدولة فناخسرو سنة ٣٥٤ . مطلعها :

أوْه بديلٌ مِن قَوْلَتي واها ... لِمَن نأتْ والبديلُ ذكراها

فهذا يسير من كثير ، وقليل مِن غزير • ولكنّ هذا القدر كاف في الدلالة على ماله من الجيد ، فانظر إلى انحطاطه وارتفاعه • ولكن أين ارتفاعه • وهذان الرجلان قد سار ذكرهما وثبت أمرهما وأسكرت الألباب خمرهما •

وفي تعَبٍ من يحسُدُ الشمسَ ضوءَها ويزعُمُ أن يـأتي لهـا بضريبِ [1]

فالقاضي الفاضل ــ رحمه الله ــ انفرد بالترسل ، وانفرد المتنبي بالشعر معمالهما من الانحطاط ، ولكنّ انحطاط المتنبي أوضع وأشنع •

ولو أن الناس إذا رأوا جوادا بخِل في وقت ، أو شجاعاً فرَّفي وقت ، أو صانعاً ماهراً قصّر في وقت ، يَرمونهم بالعيب ويطعنون عليهم ولا يَعدون لهم إحسانا ، لما كان في الوجود جواد ولا شجاع ولا صانع ماهر ولا خطيب بليغ ولا شاعرمُجيد • وإنما العبرة بالأغلب والأكثر ، والقليل معفو عنه ، لأنّ العصمة لا تُشْتَرط إلا للمرسلين صلوات الله عليهم وسلامه •

وللمعري بيتان يفضّل فيهما أبا الطيب على أبي تمام وهما :

ما حبيبٌ إلا أديبٌ ولكنْ ما أراهُ يقاربُ المتنبي
ذا المعاني الغرائب اللائي أسْهَرْنَ جفوني [2] دهراً وتَيَّمْنَ قلبي(٥١/أ)

ولما فرغ أبو العلاء من تصنيف كتاب « اللامع العزيزي » [3] في شرح ديوان أبي الطيب وقرىء عليه ، أخذ الجماعة في وصفه • فقال : كأنما نظر المتنبي إليّ بلحظ الغيب إذ يقول :

---

(١) في ريحانة الألبا ١/٣٤٤ غير منسوب والبيت للمتنبي من قصيدة في تعزية سيف الدولة بموت عبد له سنة ٣٤٠ . انظر شرح الديوان للبرقوقي ١/٦١ وفيه « الشمس نورها ... ويجهد أن يأتي لها .. » .

(٢) هكذا في الأصل ، والصواب (جفني) ليستقيم الوزن . ولم أعثر عليهما في شعر أبي العلاء .

(٣) ويقال له كذلك (الثابتي العزيزي) . انظر الجامع في أخبار أبي العلاء المعري وآثاره ٢/٧٨٩ .

أنا الذي نَظَرَ الأعمى إلى أَدَبي وأسمعَتْ كلماتيمَنْ بِهِ صَمَمُ[١]

وقيل : إن المعري كان إذا خلا ممن لا يثق إليه قال : ناولوني معجز أحمد[٢]، يعني ديوان أبي الطيب واذا كان في غير الخلوة يقول : الشاعر .

وهذا شبيه بما يُحكى عن أفلاطون[٣] من أنه كان إذا جلس للناس ، واستُدعي منه الكلام قال : اصبروا حتى يحضر الناس ، أو ربما قال : حتى يحضر العقل . يريد أرسطو[٤]. وكان يسمي ديوان أبي تمام (ذكرى حبيب)[٥] ويسمي ديوان البحتري (عبث الوليد[٦]) . وهذا يحتمل المدح والذم . أما المدح فلأن عبث الوليد حلو على القلوب . وأما الذم فلأنّ العبث من حيث هو مذموم عند العقلاء .

ويسمي ديوان ابن هانىء[٧] المغربي (رحى تطحن قرونا) ولعمري إن أبا العلاء

---

(١) شرح الديوان للبرقوقي ١٠٨/٤ من قصيدة قالها يعاتب سيف الدولة .مطلعها:

وأحَرَّ قلباهُ مِمَّنْ قلبُهُ شَبِمُ ومَنْ بجسمي وحالي عندَه سَقَمُ

وانظر كلام أبي العلاء في « تعريف القدماء » ١٨٣ .

(٢) هو مختصر جرّده المعري من ديوان المتنبي . وهذا يدل على أن للمعري كتابين في شعر المتنبي . انظر الجامع في أخبار أبي العلاء ٧٨٩/٢ .

(٣) افلاطون بن أرسطون أحد أساطين الحكمة . شريف النسب من بيت علم ، توفي في السنة التي ولد فيها الإسكندر ، تاريخ الحكماء ١٧ .

(٤) أرسطو طاليس ، تلميذ أفلاطون ومعلم الإسكندر المقدوني ، وبآدابهِ عمِل في حكمه ، اعتنى المأمون بترجمة كتبه إلى العربية ، تاريخ الحكماء ٣٧ .

(٥) ذكرى حبيب كتاب للمعري في شعر أبي تمام ، لم يفسر فيه شعره ولا اختصر ديوانه وإنما اقتصر على ذكر الأبيات المشكلة ، والكتاب أكثر من جزء ــ انظر الجامع في أخبار أبي العلاء ٧٢٥/٢ .

(٦) عبث الوليد ، كتاب للمعري في شعر البحتري ، وسبب وضعه أن أحد الرؤساء كلف المعري بتصويب نسخة من شعر البحتري كانت لديه ، فتعرّض المعري للغلط الذي وقع من الناسخ ، وكذلك للغلط الواقع من البحتري نفسه . انظر الجامع ٧٧٧/٢ وتعريف القدماء ١٨٣ والكتاب مطبوع بدمشق سنة ١٣٥٥ هـ .

(٧) هو محمد بن هانىء الأندلسي أبو القاسم الشاعر المعروف ، اتصل بالمعزّ الفاطمي ، قتل في برقة سنة ٣٦٢ هـ ، انظر نفح الطيب ١٨٣/٥ .

المعري ما أَنصف ابن هانىء في هذه التسمية • أليس [هو] [١] الذي يقول في القصيدة الرائية :

وجَنَيْتُمُ ثَمَرَ الوقائعِ يانعاً بالنَصْرِ مِنْ وَرَقِ الحديدِ الأخضرِ

ومنها

لايأكُلُ السِرحانُ شِلْوَطعينهمْ مما عليه من القنا المتكسر[٢]

وبعض الناس يمغلط[٣] في هذا البيت ويقول : هو بالذّم أشبه منه بالمدح ، لأنه وصفهم بأنهم لكثرة ما يجتمعون على الواحد من أعدائهم ، يكسّرون القنا في الطّعان عليه حتى يقتلوه . فيجتمع عليه من الرماح المكسرة ما يمنع السرحان من أكله (٥١/ب) وليس الأمر كذلك ، لأنّ الطّعين المراد به أنّه من الممدوحين أنفسهم، والمعنى : أنه إذا مات منهم طعين لا يَموت إلا بعد أن يجتمع عليه من الأعداء خَلْق كثير • فالطعين من الممدوحين لا مِن عدوّهم وهذا في غاية المدح •

أليس له تلك القصيدة الفائية ، وما فيها من تشبيه الكواكب حتى انتهى إلى ذكر السُّهى فقال :

كأنّ سُهاها عاشقٌ بينَ عُوَّدٍ فآوِنَةً يبدو وآونة يَخْفى [٤]

وهي مشهورة وكلها جيد •

أليس له القصيدة الدّالية التي أولها :

إمْسَحوا عن ناظري كُحلَ السُّهادْ وانفُضوا عن مَضْجَعي شوكَ القَتادْ

أوْخُذوا منيَ ما أبقيتُمُ لا أُحبُ الجِسمَ مسلوبَ الفؤادْ

---

(١) زيادة تقتضيها صحة العبارة .

(٢) ديوان ابن هانىء ٢٢٣ من قصيدة قالها يمدح جعفر بن علي مطلعها :
فَتَقَتْ لكمْ ريح الجلاد بعَنْبَرِ وأمدكمْ فَلَقُ الصباحِ المُسفِرِ

(٣) صوغ عامي لا صحة له ، عنى به تجاهل الصواب ، انظر ص ١٦٠ .

(٤) ديوان ابن هانىء ص ٢٤٠ من قصيدة قالها يمدح جعفر بن علي .

ومنها في وصف الدروع :

كلُّ رَقراقِ الحواشي فوقَــهُ كعيــونٍ من أفــاعٍ أو جَــرادْ
فَعَلى الأجسادِ وَقْدٌ من سَنَــا وعــلى الماذيِّ صبغٌ من جَسادْ (١)

أليس له الفائية الأخرى التي يقول فيها :

ولقــد هززْتُ غصونَهــا بثمارِهــا وهصرْتُهنَّ مُهَفْهَفــاً فمهفهفــا
فَرددْتُها مــن راحتيــه مُرَّةً وشربتُهــا مــن مقلتيــه قرقفــا
ما كان أفتَكَني لــو اخترطَتْ يدي من ناظريك على رقيبك مُرْهفــا (٢)

أليس له القصيدة الكافية التي أولها :

فتَكَــاتُ طرفِكِ أم سيوف أبيكِ وكؤوس خمرِكِ أم مراشفُ فيــكِ
أجِلادُ مُرْهَفَةٍ وفتــكُ مَحاجرٍ لا أنتِ راحمــةٌ ولا أهلــوكِ

منهــا :

مَنَعوكِ من سِنةِ الكرى وسَرَوا فلو عَثَروا بطيفٍ طــارقٍ ظنّــوكِ
ودعَوكِ نَشْوىماسقَوْكِ مُدامةً لما تمايَلَ عِطْفُكِ اتّهموكِ (٥٢/أ) (٣)

وله أشياء مليحة .

---

(١) الأبيات في تبيين المعاني في شرح ديوان ابن هانيء ص ٢٦٥ و ٢٦٩ .

(٢) ديوانه ص ٨٨ من قصيدة قالها يمدح الخليفة المعزّ لدين الله . مطلعها :
قد سار بي هذا الزمانُ فأوْجَفا ومَحا مَشيبي من شبــابي أحــرُفا
وجاء في مطلع الأول « فلقد » وفي صدر الثاني « من راحتيه مزة » .

(٣) ديوان ابن هانيء ص ٢٦٤ . من قصيدة قالها يمدح يحيى بن علي الأندلسي . مطلعها البيت « فتكات طرفك أم سيوف أبيك ... » وجاء في عجزه « وكؤوس خمر » .

وأما تخلصاته فمن أحسن ما يكون ولكن المعري تحامل عليه • وأما أبو الطيب فمن سعادته أنه شرح ديوانه ما يقارب الأربعين فاضلا • منهم الواحدي[١] وحسبك ومنهم الإمام فخر الدين ، وللشيخ تاج الدين الكندي رحمه الله حواش على ديوانه أحسن من حواشي الأصداغ في هوامش الوجنات ، تشتمل على فوائد جمة وقواعد مهمة ، من غريب لغة واعراب ومعنى ليس لها نظير • وقد سردت من شرح ديوانه في ترجمته في كتاب « الوافي بالوفيات » •

وقال الوزير[٢] المغربي في كتاب « أدب الخواص » وقد قال : المتنبي ، وإخواننا المغاربة يقولون المتنبه •

قلت أنا : وهذا تحريف حسن من المغاربة ، وما يليق أن يطلق عليه المتنبي • وكان الشيخ تاج الدين يروي لأبي الطيب بيتين يتصل سندهما به وليسا في ديوانه وهما :

أبعينِ مفتقرٍ اليكَ نظرتَني فأهنتَني وقذفتَني من حالقِ
لستَ الملومَ أنا الملومُ لأنني أنزلتُ آمالي بغيرِ الخالقِ[٣]

(١) الواحدي هو علي بن أحمد أبو الحسن . مفسر عالم بالأدب (ت ٤٦٨هـ) . انظر وفيات الأعيان ٣٣٣/١ ، وانباه الرواة ٢٢٣/٢ .

(٢) الوزير المغربي ، واسمه الحسين بن علي أبو القاسم . وزر ببغداد للبويهيين مدة وهو من العلماء الأدباء وله شعر (ت ٤١٨ هـ) انظر وفيات الأعيان ١٥٥/١ ، وشذرات الذهب ٢١٠/٣ .

(٣) جاء في وفيات الأعيان ٢٥٧/١ في ترجمة المتنبي قوله : « كان الشيخ تاج الدين الكندي يروي له بيتين لا يوجدان في ديوانه ، وكانت روايته لهمابالإسناد الصحيح المتصل به ، فأحببت ذكرهما لغرابتهما وهما .. » وأورد البيتين . وكذلك في معاهد التنصيص ٣١/١ إذ قدم العباسي للبيتين بعبارة قريبة من عبارة ابن خلكان ، كما أوردهما الصفدي للمتنبي في الغيث المسجم ٢١/١ وفيه « وأهنتني » . وقد انفرد كتاب مقاتل الطالبيين بنسبتهما إلى أبي الفرج الأصفهاني » هجا بهما الوزير المهلبي سر٣ ، فلما سمع الوزير بذلك قال اهجني جهرا .. انظر المقدمة صفحة ب . وأنا أرجح نسبتهما إلى أبي الفرج لبعدهما في المعنى والأسلوب عن سمات المتنبي وشعره ، وليس لأبي الفرج إلا أمثال هذا النظم المهلهل فهو ليس بالشاعر . ورواية البيتين عند الأصفهاني قريبة من رواية الصفدي . وعثرت عليهما منسوبين إلى أبي الفرج أيضا في معجم الأدباء ١٥٤/٥ .

وعلى الجملة فقد رزق أبو الطيب من السعادة في شعره ما لم يرزقه غيره . وممن عابه وحط [عليه] [١] الصاحب بن عباد في كراريس لطيفة[٢] ، ومنهم ابن وَكيع [٣] في « المنصف » [٤] وقال ابن شرف [٥] القيرواني في « أبكار الأفكار » وهو أجور من سدوم[٦] . والوحيد المغربي حط عليه وعلى ابن جنّي حطاً بالغا ومنهم الحاتِمي [٧] في رُسَيّلةٍ لطيفة، ورسالة أخرى أملاها الحاتمي في معايبه ،وهي مجلدة لطيفة ، وله « الموازنة بينه وبين أبي تمام » وللجرجاني[٨] رحمه الله كتاب « الوساطة بين المتنبي وخصومه » ، ما خلا فيها من التمالي[٩] عليه ، ومنهم الناصح ابن الدهان[١٠] في رسالة سماها « الرسالة السعيدية في المآخذ الكندية[١١] » .

---

(١) زيادة تقتضيها العبارة .

(٢) باسم « الكشف عن مساوىء شعر المتنبي » نشرها الشيخ محمد حسن آل ياسين بغداد ١٩٦٥ .

(٣) ابن وكيع هو الحسن بن علي الضبي التنيسي . شاعر مجيد (ت بمصر ٣٩٣هـ) انظر وفيات الأعيان ١/١٣٧ ، واليتيمة ١/٢٨١ .

(٤) ورد عند بروكلمان باسم « المنصف للسارق والمسروق منه » وهو مخطوط موجود في برلين (٧٥٧٧) انظر GAL – I – 88

(٥) ابن شرف القيرواني هو محمد بن سعيد ، شاعر وكاتب مترسل (ت باشبيلية ٤٦٠ هـ) انظر الذخيرة المجلد الأول من القسم الرابع ١٣٣ – ١٨٥ ، والوافي ٣/٩٧ وإرشاد الأريب ٧/٩٦ .

(٦) المثل « أجور من قاضي سدوم » في الميداني ١/١٢٨ ، والعسكري ١/٣٣٣ ، واللسان (سدم) وريحانة الألبا ٢/٢٨٤ . وسدوم إحدى مدائن قوم لوط عليه السلام . وأراد الصفدي بهذا المثل « منصف » ابن وكيع المذكور .

(٧) الحاتمي هو محمد بن الحسن أبو علي . أديب نقاد من أهل بغداد (ت ٣٨٨ هـ) تاريخ بغداد ٢/٢١٤ ، وإرشاد الأديب ٦/٥٠١ .

(٨) الجرجاني هو القاضي علي بن عبد العزيز صاحب (الوساطة) من العلماء بالأدب وله ديوان شعر (ت ٣٩٢ هـ انظر إرشاد الأريب ٥/٢٤٩ ، واليتيمة ٣/٢٣٨ .

(٩) صوابها التمالؤ بمعنى التحامل .

(١٠) الناصح ابن الدهان واسمه سعيد بن المبارك ، عالم باللغة والأدب ، له ديوان شعر (ت بالموصل سنة ٥٦٩ هـ) انظر وفيات الأعيان ١/٢٠٩ ، ونكت الهيمان ١٥٨ .

(١١) وقد كتب ابن الأثير استدراكا على هذه الرسالة سماه « الاستدراك في الأخذ على المتنبي » في كوبروللي ١٢٠٤ استانبول .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو كان الإنسان كالقدح ، لقال الناس ولولا » . وما لمن يعيب جيده جواب إلا ما قاله هو في وصف قصيدته :

بذي الغباوةِ من انشادِها صَمَمُ كما تضر رياحُ الورد بالجُعَلِ [١]

[حول وصل همزة القطع وقطع همزة الوصل]

قال في المعاظلة اللفظية أيضا : « ومن هذا القسم وصل همزة القطع وهو محسوب من جائزات الشعر التي لا تجوز في الكلام المنثور ، وكذلك قطع همزة الوصل » [٢] .

ثم أورد قول أبي تمام :

فأصبح يلقاني الزمان من آجله بإعظام مولود ورأفة والد (٥٢/ب)[٣]

أقول : أما قطع همزة الوصل فإنه معذور فيها إذا عدّها عيبا ، وهي عندي كمدّ المقصور في القبح . ووصل همزة القطع أراها كمد[٤] المقصور وهي أحسن . وذلك أنك تنقل الأثقل إلى الأخف فيهما بخلاف ذينك فإنك تنقل الأخف إلى الأثقل .

وأما جعله قول أبي تمام « من اجله » مما لا يجوز إلا في الشعر فقط ، فليس الأمر كذلك ، وهذا من باب النقل ، وقراء التجويد يعرفون ذلك ولا يسمونه وصل الهمز ، بل نقل الحركة من المتحرك إلى الساكن كقوله تعالى « ولوَ انهم صبروا[٥] »

---

(١) شرح الديوان للبرقوقي ٢٠٦/٣ من قصيدة قالها سيف الدولة وقد سار إلى الموصل لنصرة أخيه سنة ٣٣٧ هـ مطلعها :

أعلى الممالكِ ما يُبنى على الأَسَلِ والطعنُ عند محبيهنَّ كالقُبلِ

وجاء في صدر البيت « بذي الغباوة من انشادها ضرر » .

(٢) المثل ٤١٣/١ .

(٣) ديوان أبي تمام ـ عزام ٦٨/٢ من قصيدة يمدح ابن شبانة . مطلعها :

قفوا جددوا من عهدكم بالمعاهدِ وإن هي لم تسمع لنشدان ناشدِ

(٤) أراد كقصر الممدود فسها عن ذلك .

(٥) سورة الحجرات ٥/٤٩ .

فإنّ واو لو ساكنه ، فإذا أرادوا النّقل نقلوا حركة الهمزة التي تليها إليها . قالوا : « ولوَ انهم » وهذا مشهور ظاهر لا ينكر .

وقرأوا قوله تعالى : « منَ اجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل [١] » بنقل حركة الهمزة إلى النون في « من » وهذا مثل قول أبي تمام .

وإذا كانت هذه القاعدة مطردة في القرآن جميعه من أوله إلى آخره ، كيف يمنعه ويجعله من ضرورات الشعر والمعاظلة في الألفاظ .

نعم يقبح في مثل قول المتنبي :

يوسِّطُــهُ المفاوِزَ كــلَّ يــومٍ طــلابُ الطــالبين لا الإِنتظارُ[٢]

وقوله أيضا : « وشدة الظن لا الاستدلاّل » فإنّه وإن كان على القاعدة فإنه مستثقل كما تراه .

[الصنـاعة المعنويـة]

قال في المقالة الثانية في الصناعة المعنوية وقد ذكر حكم اليونـان وعلومهم « إن أبا نواس ومسلم[٣] بن الوليـد وأبا تمام والبحتري وأبا الطيب وغـيرهم كعبد الحميد[٤] وابن العميد[٥] والصابي لم يتعلموا من كتب اليونان شيئا وجاؤوا

(١) سورة المائدة ٥/٣٢ .

(٢) شرح الديوان للبرقوقي ٢/٢٥٧ من قصيدة قالها لما أوقع سيف الدولـة بالقبائل مطلعها :

طوال قنا تطاعنها قصـــار وقطرك في ندي ووغي بحـــارُ

(٣) مسلم بن الوليد الأنصاري بالولاء المعروف بصريع الغواني الشاعر ، صاحب مذهب البديع في الشعر (ت ٢٠٨ هـ) انظـر الشعر والشعراء ٢/٨٣٢ ، والنجوم الزاهرة ٢/١٨٦ .

(٤) عبد الحميد بن يحيى المعروف بالكاتب ، عالم بالأدب من أئمة الكتاب (قتـل بمصر سنة ١٣٢ هـ) انظر الوزراء والكتاب ٧٢ ـ ٨٣ ، ووفيات الأعيان ١/٣٠٧ .

(٥) ابن العميد ، هو محمد بن الحسين العميد أبو الفضل ، وزير من أئمة الكتاب وله شعر (ت بهمذان ٣٦٠ هـ) انظر يتمية الدهر ٣/٢، ومعاهد التنصيص ٢/١١٥ .

بما جاؤوا به[١] » ثم إنه مثل بنفسه وانه لم يراع ذلك وجاء بما جاء به ، وادعى هنا ما ادعاه لنفسه .

أقول : انني ما المشاحة هنا إلا في حكمه[٢] أن هؤلاء ما اشتغلوا بشيء من ذلك . فأقول له : من أين عملت هذا حتى تحكم به ؟ أما دعواك لنفسك فما أعارضك فيها ، لأن الناس (٥٣/أ) أخبر بنفوسهم ، وأما أبو نواس فقد قيل : انه كان يشتغل بالفقه حتى قيل فيه : أبو نواس فقيه غلب عليه الشعر ، والشافعي شاعر غلب عليه الفقه . ومع ذلك فلم يظهر عنه فقه ، كما لم يظهر عنه اشتغال بعلوم اليونان . وعدم الدليل لا يدل على عدم المدلول .

على أنه كان في زمن الرشيد والأمين [٣] والمأمون ، وهذه العلوم اشتهرت في أيامهم ، خصوصا في زمن المأمون ، فإنه رتب الذهب لمن يحل كتب اليونان من اليونانية إلى العربية مثل حنين [٤] بن إسحق ، وابن بختيشوع [٥] وغيرهما .

ألا ترى أبا نواس قال :

فقل لمن يـدّعي في العلمِ فلسفةً حفِظْتَ شيئاً وغابتْ عنكَ أشياءُ[٦]

فإن قلت : هذا مما يدل على رفضه لهذه العلوم وتركه إياها ، قلت إنما قال

---

(١) المثل السائر ٢/٤ .

(٢) أي ما كنت لأعترض قوله لو لم يطلق حكمه بأن هؤلاء لم يتصلوا بالثقافة اليونانية ، وتركيب العبارة خاطىء بوجود انني .

(٣) الأمين هو محمد بن هارون الرشيد ، الخليفة العباسي قتل في حصار بغداد سنة ١٩٨ هـ بعد خمس سنوات من خلافته انظر تاريخ بغداد ٣/٣٣٦ ، ومروج الذهب ٢/٢٣٢ ـ ٢٤٧ .

(٤) حنين ابن اسحاق العبادي ، طبيب مؤرخ مترجم متمكن من عدة لغات (ت ٢٦٠ هـ) انظر تاريخ الحكماء ص ١٧١ ، وابن خلكان ١/١٦٧ .

(٥) ابن بختيشوع واسمه بختيشوع بن جبرائيل بن بختيشوع ، طبيب مقرب لدى الخلفاء وبخاصة المتوكل (ت ٢٥٦ هـ) انظر عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص ٢٠١ وما بعدها .

(٦) البيت في ديوانه ص ٧ من قصيدة مطلعها :

دع عنك لومي فإنّ اللومَ إغراءُ وداوني بالتي كانتْ هي الداءُ

هذا في سياق أبيات يغري فيها بالسكر ودفع الخمّار بالخَمر والإدمان لذلك ، والانهماك في اللذات ومواصلة الشراب ومجالس الأنس ، حتى انتهى إلى قوله هذا البيت ردّاً على القائلين بالحكمة ، وأن الأخذ من الشراب كثيرا محرم عقلا ، وأن الاكثار من ذلك مضر من حيث الطب • فأخذ يسفه الحكيم في رأيه ويقول : حفظت شيئا من الحكمة ، وغابت عنك أشياء في إدمان الشراب من اللذاذات والابتهاج على عادة الشعراء في الإغراء •

ثم إنه قال فيها :

لاتحظُرِ العفوَ اِنْ كنتَ امرءاًحرِجا   فإنّ حظرَكَهُ بالــدينِ ازراءُ[1]

وهذا على عادة الشعراء في مجونهم ، وانما أبو نواس أكثر من الشعر فدون عنه ، ولم يضع هو تلك العلوم شيئا ، لاجرم أنه لم يظهر عنه شيء •

وقول أبي نواس :

ابــاح العراقيُ النبيذَ وشُربَــهُ   وقال : حرامانِ المُدامةُ والسُكْرُ

وقال الحجازيُ : الشرابان واحــدٌ   فحلّتْ لنا من بين قوليهما الخمرُ

سآخذُ من قوليهمــا طرفيهمــا   وأشربُها لافارقَ الوازرَ الوزر[2]

فمن أنعم النظر في هذه الأبيات ، علم أن أبا نواس كان منطقيا ، فإن استنتاجه حلّ الخمر من مقدمتي كلام الفقيه العراقي والحجازي يدل على ذلك • وهــذا على عادة مجاز الشعر وإلاّ (٥٣/ب) فالصحيح حرمة الخمر •

[هل صح اطلاع بعض الشعراء والكتاب على حكم اليونان وعلومهم]

وأما أبو الطيب فقد قال : أنا وأبو تمام حكيمان وإنما الشاعر البحتري ،

(١) ديوان ابي نواس ص ٨ من القصيدة الآنفــة الذكــر . ورد في عجز البيت (في الدين) .

(٢) لم اعثر على هذه الأبيات في ديوان ابي نواس .

وكلام هذين الشاعرين يدل على أنهما ما عريا عن شيء من علوم الفلسفة • خصوصا المتنبي و « الحاتمية » تدل على أنه كان ينظر في كلام القوم • ألا تَرى قوله يمدح ابن العميد :

من مبلغُ الأَعرابِ أني بعدها جالستُ رُسطاليسَ والإسكندرا
وسمعتَ بطليموسَ دارس كتبِهِ متبدياً متملكاً متحضرا (١)

وهذا بعيد أن يصدر ممن لم ينظر في كتب القوم •

وقال المعري وقد أورد لأبي الطّيب قوله :

إلفُ هذا الهواءِ أوْقَع في الأنـ ـفسُ أن الحِمام مرُّ المَذاقِ
والأسى قبل فُرقةِ الروحِ عَجزٌ والأسى لا يكون بعد الفِراقِ (٢)

« هذان البيتان يفضلان كتابا من كتب اليونان ، لتناهيهما في الصدق وحسن النظر ، ولو لم يكن له سواهما ، لكفاه ذلك شرفا » •

وأما ابن العميد فقد قال ابن خلكان رحمه الله تعالى في ترجمته : « وكان متوسعا في علوم الفلسفة والنجوم » •

قلت : والبيتان الرائيان المذكوران لأبي الطيب في مدحه يؤيدان ما قاله ابن خلكان •

---

(١) شرح البرقوقي ٢/٣٣١ من قصيدة قالها يمدح أبا الفضل محمد بن العميد . مطلعها :

بادٍ هواكَ صبرتَ أم لم تصبِرا وبُكاك إن لم يجر دمعك أو جرى

وجاء في عجز الأول « شاهدت رسطاليس •• » وفي عجز الثالث « متملكا متبديا متحضرا » .

(٢) شرح الديوان للبرقوقي ٣/١٣١ من قصيدة يمدح بها ابا العشائر الحمداني العدوي مطلعها :

اتراها لكثرةِ العُشاقِ تحسَبُ الدمعَ خِلقة في المآقي

وأقول : أليس هو بصاحب الصّاحب بن عَبّاد ، وقد كان من رِجالات المُعتزلة، وله في أصولهم مصنف • ومن المستحيل أن معتزليا لا ينظر في كتب الفلسفة •

وأما ابن أبي الحديد ، فقد أجابه عن دعواه أن الإنسان لا يحتاج إلى المنطق ولا إلى هذه العلوم ، في « الفلك الدائر » [١] • والصحيح أنه من جهل شيئا عاداه [٢] •

[شاهد الحال ودوره في استخراج المعاني]

قال في هذا : « ومما يعين على استخراج المعاني شاهد الحال » [٣] •

أقول : ما أنكِر أنّ مشاهدة الحال في الخارج تعين على تصور المعاني ، إلا أنّ استنباط المعاني لا يفتقر فيه إلى المشاهدة ، وقد جاء في الوجود جماعة من العميان الذين لم يشاهدوا الصور في الخارج ، وأتوا بالتشبيهات البديعة ، مثل بشار بن برد حيث قال (٥٤/أ) •

كأن مثارَ النَّقْع فوقَ رؤوسِنا وأسيافَنا ليلٌ تهاوى كواكبُه [٤]

ومثل أبي العلاء المعري حيث يقول :

---

(١) في المثل السائر ٤/٤٠ .

(٢) قصد الصفدي بعبارته هذه ابن أبي الحديد نفسه ، لما بدا في ردّه على ابن الأثير في هذه النقطة من اضطراب وجهل بمفهوم الشعر . اما الدكتور زغلول سلام فقد جعل ابنَ الأثير هو المقصود بهذه العبارة ، وفهم منها ان الصفدي يتهم ابن الأثير بأنه معادٍ للفلسفة اليونانية واقحامها على الأدب .. انظر كتابه تاريخ النقد العربي من القرن الخامس إلى العاشر الهجري ٣٣٠ ـ ٣٣١ •

(٣) المثل السائر ٢/٨ قال ابن الأثير بعد أن أورد ابياتا لأبي تمام : « وهذا مما يعين على استخراج المعاني فيه شاهد الحال » .

(٤) في وفيات الأعيان ٣/١٩ من قصيدة مدح بها ابن هبيرة . مطلعها :
جفا وده فازور أو مل صاحبه وأزرى به الا يزال يعاتبه

ولاح هلالٌ مثلَ نونٍ أجادها بذوبِ النُّضارِ الكاتبُ ابنُ هلالِ (١)

وحيث يقول :

ليلتي هذهِ عروسٌ من الزّ .... جِ عليها قلائدٌ من جُمانِ
وسهيلٌ كوجنةِ الحِبِّ في اللو .... نِ وقلبِ المُحبِ في الخَفَقانِ
ثم شابَ الدُّجى وخاف من الهج .... رِ فغطى المشيبَ بالزعفرانِ (٢)

وله أشياء كثيرة من التشبيه الغريب .

ومثل أبي البقاء العكبري حيث يقول :

وغديرٍ رقتْ حواشيه حتى بانَ في قعرِه الذي كان ساخا
وكأن الطيورَ إذ وردتْهُ من صفا مائِهِ تزُقُّ فراخا

وما أحلى قولَ أبي طاهر (٣) حيدر في مثل هذا :

وضاحيةٍ وردْتُ بها غديراً يقدِّرُ من صفاءِ الماءِ أرضا
كأنَّ الوحشَ حيثُ تغِب فيه يقبِل بعضُها للشوق بعضا

---

(١) سقط الزند ٢٤٧ من قصيدة مطلعها :

طَرِبْنَ لضوءِ البارقِ المتعالي ببغدادَ وهْناً ما لهُنّ ومالي

وجاء في عجز البيت «بجاري النضار» وفي معجم الأدباء ١٢٨/١٥ «بماءالنضار» .

(٢) سقط الزند ص ٩٤ من قصيدة مطلعها :

عللاني فإنّ بيضَ الأماني فنيتْ والظلامُ ليسَ بفاني

(٣) أبو طاهر محمد بن حيدر . الشاعر توفي سنة ٥١٧ هـ . انظر فوات الوفيات ٣٩٨/٢ .

ومثل جماعة تقدموا من الأضِرّاء كأبي العيناء [١] وابن سيده [٢] صاحب المُحْكَم ، والشاطبي [٣] رحمه الله ، وغير هؤلاء ممن أتى بالغرائب ، ولم يستعينوا بحاسة البصر .

فإن قلت : إن هؤلاء إن كانوا ما رأوا ولا شاهدوا ، فقد سمعوا ما قاله غيرهم، وشبهوا كما شبه غيرهم . قلت : ما نازعتك في ذلك ، وإنما أردت أن التشبيه لا يفتقر إلى (٥٤/ب) الصورة الخارجة . فإن الناظم قد يتصور المعنى في ذهنه من غير أن يشاهده في الخارج ، ويولد المعنى من معنى آخر . كقول ابن المعتز [٤] .

وأرى الثُريّا في السماء كأنها ... قدمٌ تبدَّتْ من ثيابِ حِدادِ [٥]

فانه ولد هذا المعنى من قول الآخر :

كأن كؤوسَ الشَّربِ والليلُ مظلمٌ ... وجوهُ عَذارى في ملاحفَ سودِ

وكما قال ابن الذروي [٦] وقد ذكر أهل النثوبة في مدح صلاح الدين :

---

(١) أبو العيناء واسمه محمد بن القاسم ، شاعر مترسل من الظرفاء ، كف بصره بعد الأربعين (ت بالبصرة ٢٨٣ هـ) . انظر الدّيارات ص ٥٢ ــ ٦٠ ، ونكت الهميان ص ٢٦٥ .

(٢) ابن سيده ، علي بن إسماعيل ابو الحسن . أندلسي ، امام في اللغة وآدابها ، نظم الشعر مدة ، كان ضريرا وكذلك أبوه ورد اسمه في معجم الأدباء ٢٣١/١٢ على بن أحمد على خلاف (ت في دانية ٤٥٨ هـ) وانظر نكت الهميان ٢٠٤ .

(٣) الشاطبي واسمه القاسم بن فيرُه الرعيني ، أبو محمد إمام القراء ، له قصيدة في القراءات تعرف بالشاطبية (ت بمصر سنة ٥٩٠ هـ) انظر نكت الهميان ص ٢٢٨ .

(٤) ابن المعتز هو عبد الله بن محمد المتوكل ابو العباس ، خليفة يوم وليلة . شاعر مولع بالأدب (قتل سنة ٢٩٦ هـ) انظر الأغاني ٣٧٤/١٠ ، وأشعار أولاد الخلفاء ١٠٧ ــ ٢٩٦ .

(٥) والبيت في ديوانه ص ١٧٧ من مقطوعة مطلعها :

قم يا نديمي نصطبحْ بسوادِ ... قد كاد يبدو الصبحُ أو هو بادِ

وورد في عجز البيت « في ثياب حداد » .

(٦) ابن الذروي واسمه علي بن يحيى الشاعر ــ كان قاضيا وجيها معاصرا للعِماد الأصفهاني . انظر الخريدة شعراء مصر ١٨٧/١ ، وفوات الوفيات ١٨٨/٢ .

سود" وتحمرُ الظُّبى حولَها كأعينِ الرُّمدِ بدتْ للأُساهْ
أوْ لا فسمرٌ تنتحيها القنا مثلَ دِنانٍ بُزلت للسُّقاهْ

فإنه ولّد هذا المعنى الأول من قول الأرَّجاني :

وكأنَّ كلَّ شقيقةٍ محمرةٍ كُحِلتْ محاجرُها بأحمرَ قانِ
عينٌ لإنسانٍ وقد رمِدَتْ فما يبدو لرامقها سوى الإنسانِ (١)

وولّد المعنى الثاني من قول أبي العلاء المعري في تشبيه البرق :

إذا ما اهتاج أحمرَ مستطيراً حسِبْتَ الليلَ زِنجياً جريحا (٢)

ولعمري لقد تصرف في هذا التشبيه الثاني تصرفا حسنا .

وكما ولدت أنا من قول الحصري (٣) :

الناس كالأرضِ ومنها همُ من خشنِ اللمس ومن ليِّنِ
مَرْوٌ تَشكّى الرِجلَ منه الأذى وإثمِدٌ يُجعلَ في الأعينِ

فنقلته إلى معنى المتنبي المشهور وقلت :

مولى تفرعَ من كرامٍ وجهُهُمْ وبَنانُهُمْ للمُجتلي والمُجتني

---

(١) ديوان الأرجاني ص ٤١٣ من قصيدة مدح بها الصدر السعيد محمد بن زيد مطلعها :

أهواكم وخيالكم يهواني فلقد شجاه فراقكم وشجاني

وجاءت روايته للبيتين :

وكأنَّ كلَّ شقيقةٍ مكحولةٍ شَرِقتْ محاجرُها بأحمرَ قانِ
عينٌ لإنسانٍ وقد مُلئتْ دَما منه فما يبدو سوى الإنسانِ

(٢) سقط الزند ص ٤٧ من قصيدة مطلعها :

ألاح وقد رأى برقا مُليحا سرى فأتى الحِمى نِضواً طليحا

(٣) الحُصري واسمه علي بن عبد الغني أبو الحسن . شاعر ضرير ، مدح المُعتَمد ابن عبّاد (ت بطنجة ٤٨٨ هـ) انظر نكت الهميان ٢١٣ ، والذخيرة المجلد الأول من القسم الرابع ١٩٢ ـ ٢٠٥ .

سادوا الأنامَ عُلاً وهمْ منْ جنسهمْ ... ومن الحجارةِ إثمدٌ في الأعيُنِ [١]

وولدت أيضا من قول بعض العرب :

كأنَّ هلالَه مرآةُ قيْنٍ ... لها شطرٌ يلوحُ من الغِلافِ

(٥٥/أ)

فقلت في العِذار :

قلتُ إذ قيل لي تَسَلَّ فهذا ... صدغُهُ قد دجا وكان يُنيرُ

هي مرآة خدِهِ غابَ منها ... في غلافِ العِذارِ شيءٌ يسيرُ [٢]

أو يعكس المعنى إلى ضده وهو في التشبيه كثير ، لأن التشبيه واقع بين طرفين، شبيه ومشبه به . فإذا شبهت النجوم بالشرار جاز أن تشبه الشرار بالنجوم ، وإذا شبهت البرق بالسيف ، جاز أن تشبه السيف بالبرق ، وإذا شبهت الهلال بالقُلامة ، جاز أن تشبه القُلامة بالهلال .

قال ابن المعتز :

ولاحَ ضوءُ هلالٍ كادَ يفضحُنا ... مثلِ القُلامةِ إذ قُدَّتْ منَ الظُفُرِ [٣]

وعكس ذلك سعد الدّين [٤] ابن عربي ـ فقال في مليح قلّم أظافره :

أبعدْتَ ظفركَ وهو بعضُكَ فالذي ... يَهواكَ أجدرُ بالبِعادِ الأطولِ

---

(١) الغيث المسجم ٢٠٩/٢ . وبدأ ثانيهما بـ (فاقوا الانام) ....

(٢) الغيث المسجم ١٨٣/١ .

(٣) ديوان ابن المعتز ص ٢٤٧ من مقطوعة مطلعها :
سقى المَطيرةَ ذاتَ الظِلِ والشجرِ ... وديرَ عبدونَ هطّالٌ من المطرِ
وجاء في عجز البيت « قد قدت من الظفر » وكذا في حماسة ابن الشجري ص٢٥٨ وفي شرح نهج البلاغة ٤٥/٥ كانت الرواية .
ولاحَ ضوءُ هلالٍ كاد يفضحُهُ ... مثلَ القُلامةِ قد قُصَّت من الظُفُرِ

(٤) سعد الدين ابن عربي ، هو محمد بن محمد وهو ابن الشيخ محيي الدين بن عربي ، شاعر له ديوان (ت بدمشق ٦٥٦ هـ) انظر الوافي بالوفيات ١٨٦/١ وفيه نماذج من شعره .

فأجابني : أتظنني قلمتها عن حاجة ، لا بل لمعنى عن لي
لأريك يا من بالهلال يقيسني أن الهلال قلامة من أنملي

وما أحسن قول الحسن بن إبراهيم النطري في المقص والأنامل والقلامات والأظفار :

ما عامل يحكي إذا استعملته وأعانه خمس بهن يدور
صقراً يصيد أهلة يلمعن من أعلى بدور تحتهن بحور

وعكست أنا قول بعضهم في الورد :

كأن احمرار الورد والطل فوقه خدود توالى فوقها الدمع بالوكف

فقلت من أبيات :

أقسمت ما سجعت ورق الحمائم في روض على مثل عطفيها ولا صدحت
وكلما اعتدلت بالميل قامتها رأيتها فوق حسن الغصن قد رجحت
وما اكتسى خدها من لؤلؤ عرقاً لكنها وردة بالطل قد رشحت

وعكست أيضا التشبيه الوارد في قوله تعالى « وهي تجري بهم في موج كالجبال (١) فقلت (٥٥/ب) :

قد ركبنا على البريد لمصر بحر رمل عجاجه عجاج
فعكسنا التشبيه لما جرينا في جبال كأنها أمواج

ومثل هذا يسمى غلبة الفرع على الأصل ، كما إذا شبهت العرجون بالهلال ، والغصن بالقد ، والنرجس بالعيون ، والليل بالشعر والصبح بالثغر . وهو مشهور .

(١) سورة هود ٤٢/١١ .

[فضل المتنبي في لاميته في خيمة سيف الدولة]

قال بعدما أورد أبيات المتنبي في الخيمة التي أولها :

أينفع في الخيمة العُذَّل (١)

وقد ساق منها خمسة عشر بيتا : « وهذه الأبيات قد اشتملت على معان عديدة ، وكفى بالمتنبي فضلا أن يأتي بمثلها (٢) » .

أقول : أين هذا الكلام في حق المتنبي من الكلام عند إيراد قوله :

فلا تبرمُ الأقدارُ ما هو حالل ... (البيت)

والإزراء والطّعن على المعري لتفضيله إياه .

[هل أبدع أبو نواس في أبياته : تدار علينا الراح في عسجدية]

قال بعدما أورد أبيات أبي نواس :

تُدارُ علينا الراحُ في عسجديةٍ ... (الأبيات الثلاثة) (٣) .

« وقد أكثر العلماء من وصف هذه الأبيات وهذا المعنى ، وقولهم فيه إنّه معنى

---

(١) شرح البرقوقي ٣/٢٣٦ من قصيدة قالها يمدح سيف الدولة ويذكر خيمته التي رمتها الريح بميّا فارقين مطلعها :
أيقدحُ في الخيمة العُذَّلُ وتشمل مَنْ دهرَها يشملُ

(٢) المثل السائر ٢/١٢ « هذه الأبيات قد اشتملت على معان بديعة .. » .

(٣) ديوان أبي نواس ص ٣٦١ من قصيدة مطلعها :
ودار ندامى عطلوها وأدلجوا بها أثر منهم جديد ودارس
والأبيات الثلاثة هي :

تُدارُ علينا الراحُ في عسجديةٍ حبتها بألوانِ التصاوير فارسُ
قرارتها كِسرى وفي جَنَباتها مها تدّريها بالقِسي الفوارسُ
فللخمر مازَرتْ عليه جيوبَها وللماء ما دارت عليه القلانسُ

مبتدع . ويحكى عن الجاحظ [١] أنه قال : « ما زال الشعراء يتناقلون المعاني قديما وحديثا إلا هذا المعنى ، فإن أبا نواس انفرد بإبداعه » .

وما أعلم أنا ما أقول لهؤلاء سوى أن أقول : قد تجاوزتم حد الإكثار ، ومن الأمثال السائرة : بدون هذا يباع الحمار . وفصاحة هذا الشعر عندي هي الموصوفة لا هذا المعنى . فإنه لا كبير كلفة فيه . لأن أبا نواس رأى كأسا من الذهب ذات تصاوير فحكاها في شعره .

والذي عندي في هذا ، أنه من المعاني المشاهدة ، فإن هذه الخمر لم تحمل إلا ماء يسيرا ، وكانت تستغرق صور هذا الكأس إلى مكان جيوبها ، وكان الماء فيها قليلا بقدر القلانس التي على رؤوسها وهذا حكاية حال مشاهدة بالبصر [٢] » .

أقول : كفى بهذا الرجل ــ رحمه الله ــ أن يقول مثل هذا ، وما أعرف كتابا من أمهات كتب الأدب مثل « الروضة » للمبرد و « الذخيرة » لابن بسّام و « زهر الآداب » للحصري [٣] إلا وقد تضمّن ذكر هذه (٥٦/أ) الأبيات والثناء عليها . وحسبك بكلام يثني عليه أبو عثمان عمرو الجاحظ ، وهو من أحذق أئمة الأدب ، وأعرفهم بما يقول ، وأبصرهم بمدارك العقول ، وقوله في مثل هذا حجة ، وما قرره في الأبيات هو المحجة .

وما أحسن قول القاضي الفاضل : « وأما الجاحظ ــ رحمه الله ــ فما منا معاشر الكتاب إلا من دخل من كتبه الحارة ، وشن الغارة ، وخرج وعلى الكتف منها كاره » .

---

(١) الجاحظ هو عمرو بن بحر أبو عثمان اديب العربية المعروف (ت بالبصرة ٢٥٥ هـ) انظر إرشاد الأريب ٥٦/٦ ــ ٨٠ .

(٢) المثل السائر ١٣/٢ « وقد أكثر العلماء من وصف هذا المعنى .. يتناقلون ولا أعلم أنا ما أقول لهما ولا بي سوى ان أقول ، قد تجاوز بهم حد الاكثار . . » المعنى . . ولا أعلم أنا ما أقول لهما ولا بي سوى أن أقول ، قد تجاوز بهم حد الاكثار . . » .

(٣) الحصري أبو إسحق هو إبراهيم بن علي ، اديب نقاد من اهل القيروان له شعر (ت ٤٥٣ هـ) انظر إرشاد الأريب ٣٥٨/٢ .

وقد أولع الفاضل ــ رحمه الله ــ بذكره في ترسله ، وذكر تصانيفه . ولو لم يكن له في كتب الأدب إلا كتاب « البيان والتبيين » لكفاه ذلك فخرا . ويقال : مما فضل الله به أمة محمد صلى الله عليه وسلم على غيرها من الأمم ، عمر بن الخطاب رضي الله عنه بسياسته ، والحسن [١] البصري بعلمه ، والجاحظ ببيانه .

ويحكى عنه أنه قال : دخلت ديوان المكاتبات ببغداد ، فرأيت قوما قد صقلوا ثيابهم ، وصفوا عمائمهم ، ووشوا طرزهم . ثم اختبرتهم ، فوجدتهم كما قال الله تعالى : « فأما الزَّبد فيذهبُ جُفاء [٢] » ظواهر نظيفة ، وبواطن سخيفة « فويل لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون [٣] » ومن أجوبته ما يحكى عنه أنّه اجتمع بالجماز [٤] في مجلس بالبصرة . فقال له الجماز : كم نارا في اللغة ؟ فقال: نار الحرب ، ونار الشجر ، ونار الحباحب ، ونار المعدة ، والنار المعروفة . فقال له : تركت أبلغ النيران . قال : وما هي . قال : نارُ حِرِ أُمّك التي كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها . فقال الجاحظ : أما نار أمي فقد قضيت أن لها خزانا ، الشأن في حِرِ أُمّك التي يقال لها : هل امتلأت ؟ وتقول : هل مِن مَزيد . والجاحظ أشهر من أن يذكر بمحاسن (٥٦/ب) وأنا أحكي ما قاله الجاحظ . فإن ابن الأثير ــ رحمه الله ــ روَّج المقال . والذي نقله أئمة الأدب عنه أنه قال : « وجدنا المعاني تقلب ، ويؤخذ بعضها من بعض ، إلاّ قول عنترة في الذُّباب : [٥] .

وخــلا الذباب بهــا فليس ببارحٍ ‏ ‏ غــردا كفعلِ الشــاربِ المتــرنم

(١) الحسن بن يسار البصري أبو سعيد . شب في كنف علي بن أبي طالب كان إمام أهل البصرة (ت ١١٠ هـ) انظر حلية الأولياء ١٣١/٢ ، وميزان الاعتدال ٢٥٤/١ .

(٢) سورة الرعد ١٧/١٣ .

(٣) سورة البقرة ٧٩/٢ .

(٤) الجماز واسمه محمد بن عمرو أبو عبد الله ، حسن النادرة خبيث اللسان وهو ابن أخت سَلم الخاسر . انظر معجم الأدباء ٨٢/١٦ ، ووفيات الأعيان ٦٨/٦ .

(٥) في البيان والتبيين (هارون) ٣٢٦/٣ « قالوا لم يدع الأول للآخر معنى شريفا ولا لفظا بهيا إلا أخذه الا بيت عنترة » وذكر البيتين ولم يذكر أبيات أبي نواس.

هزجـا يحكّ ذراعـه بـذراعِـهِ قدحَ المُكِبّ على الزِّنادِ الأجذمِ (١)

وقول أبي نواس في تصاوير الكأس :

تُدارُ علينا الراحُ في عسجديةٍ ... (وأنشد الأبيات) انتهى .

قال ابن بسّام في « الذّخيرة » وقد ذكر أنّ أبا نواس ولّد هذا المعنى من قول امرىء القيس :

فلما استطابوا صُبَّ في الصحنِ نصفُه وشُجَّتْ بماءٍ غيرِ طرْقٍ ولا كَدْرِ (٢)

« فجعل الشراب والماء نصفين لقوة الشراب ، فتسلق عليه أبو نواس وأخفاه بما شغل به الكلام من ذكره الصور المنقوشة ، إلا أنها سرقة مليحة .

وكرّر أبو نواس هذا المعنى عجبا به في مواضع . كقوله :

بنَيْنا على كِسرى سمـاءَ مُدامةٍ مُكَلَّلـةً حافاتُهـا بنُجومِ

فلو رُدَّ في كِسرى بنِ ساسانَ روحُه إذنْ لاصطفانا دونَ كلِ نديمِ (٣)

وأخذه النّاشيء (٤) فولّد معنى زائدا عليه فقال :

في كأسها صُوَرٌ تُظَنُّ لحسنِهـا عُرُباً برزْنَ من الحِجالِ وغيـدا

---

(١) شرح ديوان عنترة (تحقيق عبد المنعم عبد الرؤوف شلبي) من قصيدته :
هـل غـادر الشعراء من متردم أم هـل عرفت الدار بعـد توهّم
كما وردا في البديع لابن المعتز ١٢٥ الثاني فقط ، وورد الأول وحده في الحماسة البصرية ٣٤٢/٢ ولحن العوام ٣٣ . كما وردا في خزانة ابن حجة ٤٠٤ وفيها « فليس بنازح » ورواية الصفدي كما في الديوان أدق في أداء المعنى وأصوب .

(٢) ديوان امرىء القيس (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم) من قصيدة مطلعها :
لعمرُكَ ما قلبي إلى أهلـه بحُرّ ولا مُقْصِرٍ يومـا فيـأتيني بقُرّ

(٣) ديوان أبي نواس ٥٧٧ من قصيدة مطلعها :
لمن دِمَنٌ تـزدادُ حسنَ رسومِ عـلى طولِ ما أقوتْ وطِيبَ نسيمِ
وفي ثانيهما « إذن لاصطفاني » . وانظر زهر الآداب ١٦١/٣ .

(٤) اسمه عبد الله بن محمد الناشيء الأنباري أبو العباس ، شاعر ، عالم بالأدب (ت بمصر ٢٩٣ هـ) انظر وفيات الأعيان ٢٦٣/١ ، وتاريخ بغداد ٩٢/١٠ ، وفي خزانة ابن حجة ج ١٧٧ ، والبيت الثاني في الخزانة « فتقسمت .. » .

وإذا المِزاجُ أثارَهـا فتنَمْنَمَتْ ذهباً ودُراً توأماً وفريدا
فكأنهنَّ لِبِسْنَ ذاكَ مَجاسِداً وجعلْنَ ذا لِنحورِهِنَّ عقودا
(٥٧/أ)

وقال ابن المعتز :

وكأسٍ من زُجاجٍ فيه أُسْدٌ فرائِسُهُنَّ أَلْبابُ الرجالِ [١]

وألمَّ بهذا ابن بَطال [٢] البطليوسي فقال :

وغابٍ من الأكواسِ فيها ضراغمٌ من الرّاحِ ، ألبابُ الرجالِ فريسُها
قرعْتُ بها سِنَّ الهُمومِ فأقلعَتْ وقد كاد يسطو بالفؤادِ رسيسُها

وقال أبو تمام ابن رباح :

وكأسٍ بدا كِسرى بها في قَرارةٍ غريقاً ، ولكنْ في خليجٍ من الخَمْرِ
وما صوَّرته فارسٌ عَبَثاً به ولكنّهم جاؤوا بأخفى من السِحْرِ
أشاروا بما دانوا له في حياتِهِ فَنُومي اليه بالسجودِ ولا ندري

هذا ما أورده ابن بسّام في معنى الكأس المنقوشة .

ولا بأس بإيراد ما جاء في ذلك للشعراء المتأخرين ، من ذلك قول ابن سناء الملك .

ما الدُرُّ إلا ذا الحَبا .... بُ وإنني بالدرِ أدْرى
شِعري وشعرى في السما .. ءِ وفي كؤوسِكَ ألفُ شِعرَى
منَّتْ عليكَ ولا كما مَنَّتْ على أشلاءِ كسرى
الخلقُ لما عاشَ قدْ سجدوا له طَوعْاً وقَسْرا

---

(١) ديوان ابن المعتز ص ٣٨١ من مقطوعة مطلعها :
أعاذلُ قد ابحتُ اللهوَ مالي وهان عليّ مأثورُ المقالِ
وجاء في صدر البيت « بكأس من زجاج .. » .
(٢) ابن بَطال البطليوسي هو سليمان بن محمد أبو أيوب . فقيه ، باحث وشاعر (ت ٤٠٤ هـ) انظر الصلة ص ١٩٤ ، وجذوة المقتبس ص ٢٠٦ .

والكثل لما مات قد سجدوا له في الكأس سكرا(١)

ولا يخفى على ذي اللب أنّ هذا مأخوذ من قول أبي تمام بن رباح وقد تقدّم وهو أحسن من هذا .

وقوله أيضا :

ألا إنّ شرّابَ المُدامِ هم الناسُ وغيرُهمُ فيهم جنونٌ ووَسْواسُ
فياليتَ أني مثلُ كسرى مصورٌ فليس يزالُ الدّهرَ في كفهِ كاسُ(٢)

وهذا مأخوذ من قول أبي فراس . وسيأتي فيما بعد (٥٧/ب) .

وقوله أيضا وهو في غاية الحسن :

شربنا على هذا وذاك مُدامةً
بدتْ كالعقيقِ الرطبِ والذَهبِ الرّخْصِ
أعيدَ لنا في كأسِها شخصُ قيصرٍ
وكسرى ، فكادتْ تبعثُ الروحَ في الشخصِ
قياصرةٌ في قصر كسرى وربما
مَجنّا فقلْنا بل مساكينُ في خُصِ(٣)

---

(١) ديوان ابن سناء الملك ص ٣٢٩ . من قصيدة قالها يذم الزمان مطلعها :
ياخيبةَ الحرِّ الذي لم يلْقَ فوقَ الأرضِ حرّا
ورد في صدر الثاني « شعري وسُعدى في السماء .. » .

(٢) ديوانه ص ٤٥٠ . وهما بيتان فحسب ، وجاءت رواية الثاني :
فياليت اني مثلُ كسرى مصوراً فليس يزالُ الدهرَ في يده كأسُ

(٣) ديوانه ص ٤٥٣ من قصيدة مطلعها :
غدا الحسنُ شورى في المِلاح وانما إمامُهمُ مَنْ أوتيَ الحسنَ بالنصِ
وجاء في عجز الثاني « وكادت » بدل فكادت . كما ورد البيت الثالث :
قياصرةٌ في قصر كأسٍ ورُبما مَجنّا فقلنا بل صعاليكُ في خُصِ

وقول ابن قلاقس الإسكندري :

لو لم يُصبْها الماءُ حين توقَّدَتْ ... بِيَدِ المُديرِ لخِفْتُ ان يَتَسَعَّرا
وبنيْتُها قصراً سقَيْتُ براحتي ... كسرى أنو شروانَ فيه وقيصرا(١)

وقوله أيضا

انهَكَتْ جسمَها السنين فلولا ... عَرَفُها لم يكن بها ذا اعترافِ
فاحْيِ في الكأسِ جسَمَ كسرى بِراحٍ ... تبعثُ الروحَ منه في الأعطافِ (٢)

وقول ابن سناء الملك الذي تقدم أكمل في الحسن .

وقوله أيضا :

بزجاجةٍ دارتْ وفي جَنباتِها ... كسرى أنوشروانَ في ايوانِهِ
خلعَتْ على عِطفيه خِلعْةَ قهوةٍ ... وسلبتُها فغدْوتُ في سلطانِهِ (٣)

يعني أنه لبسها بشربه لها فغدا في سلطانه ، لما يجده السكران من العزة . كما قال المنخل (٤) شاعر الحماسة :

---

(١) ديوان ابن قلاقس ٤١ من قصيدة مدح بها القاضي السعيد ابن خليف ، مطلعها :
هو ملتقى أَرَجِ النواسمِ فانظرا ... هل تعرفانِ به القضيبَ الأنضَرا
وجاء في عجز الأول « بيدَ النديم .. » .

(٢) ديوانه ٦٧ من قصيدة مدح بها الحافظ السلفي . مطلعها :
عاف سمعي ذكرَ المحلِ العافي ... واصطفاهُ البكاء بالمُصطافِ
والبيتان ليسا في الديوان لأن الناسخ (نفى الساقط) كما صرح في التقديم .

(٣) ديوانه ١١١ من قصيدة مدح بها سعيد السعداء عنبرا . مطلعها :
عزّتْ ضمائرهُ على كتمانِهِ ... فلِذاكَ عبَّرَ شأنُهُ عن شانِهِ
وجاءت رواية الديوان :
دارتْ زجاجَتُها وفي جَنَباتِها ... كِسرى أنو شروانُ في ايوانِه
فخلعْتُ عن عطفيه خِلعةَ قهوةٍ ... أَلبِسْتُها فغدْوتُ في سلطانِه

(٤) المنخل بن مسعود اليَشكري . شاعر جاهلي كان ينادم النعمان بن المنذر (ت نحو ٢٠ ق هـ) انظر الأغاني ١٥٨/٩ ، والشعر والشعراء ٤٠٤/١ .

وإذا سَكِرْتُ فإنني ربُّ الخَوَرْنَقِ والسدير
وإذا صحوْتُ فإنني ربُّ الشُّوَيْهةِ والبعيرِ (١)

وقول ابن الذروي :

ومصوَّرٍ نازعْتُ فيه على المُدامةِ قيصرا
وسلبْتُ منه متَوّجاً حتى رجعتُ مُسَوَّرا
ومضيْتُ من عِقيانِهِ ولُجَيْنِهِ أغنَى الورى (٥٨/أ)

وقول ابن قلاقس أيضا :

وزجاجةٍ حيّاكَ منها قيصرٌ وكأنما هو في جوانبِ قصرِهِ
ما ألبَسَتْهُ الراحُ ثوباً مُذْهبا إلا وقلده الحُبابُ بِدُرِّهِ

وهذا مأخوذ من قول الناشيء ، وقد تقدم .

وما أحسن قولَ أبي فراس (٢) .

أغَمامُ ما يُدريكَ كيفَ قتالُنا والخيلُ تحتَ النَقْعِ كالأشباحِ
نطفو ونرسُبُ في الدِماءِ كأننا صُوَرُ الفوارسِ في كؤوسِ الراحِ (٣)

---

(١) وبيتاه من قصيدة قالها في هند بنت عمرو بن هند فقتله عمرو (في رواية الأغاني) . مطلعها :

إن كنتِ عاذلتي فسيري نحوَ العراقِ ولا تحوري

وفي الأصمعيات ص ٦٠ . جاء في أولهما « فاذا انتشيت فانني » وفي نور القبس ص ٧٢ كما وردا في الغيث المسجم ٢٦٥/١ غير منسوبين .

(٢) أبو فراس الحمداني . واسمه الحارث بن سعيد الشاعر الفارس المعروف . قتل في تدمر سنة ٣٥٧ هـ . انظر يتيمة الدهر ٢٢/١ ــ ٦٢ .

(٣) وبيتاه ليسا في ديوانه (د . سامي الدهان ــ بيروت ١٩٤٤) وهما في اليتيمة ٧٢/١ . وورد الصدر في البيتين : « اغمام ما يدريك ما افعالنا » ، « تطفو وترسب في الدماء كأنها » .

ومما اتفق لي وفيه تورية :

كؤوسُ المُدامِ تحبُّ الصفا فكُنْ لتصاويرها مُبطلا
ودعْها سواذجَ من نقشِها فأحسنُ ما ذُهِّبَتْ بالطِّلا (١)

وقلت أيضا مضمنا البيت المشهور ، واهتدمت منه ما اهتدمت ليطابق المعنى الذي تخيلته :

ومشمولةٍ قد هامَ كِسرى بكأسِها فأضحى ينادي وهو فيها مصوَّرُ
وقفْتُ لشوقي من وراءِ زُجاجةٍ إلى الراحِ من فَرْطِ الصَّبابةِ أنظرُ (٢)

وأما قول عنترة في الذباب ، فقد زعم مشايخ الأدب(٣) أنه من التشبيهات العُقم . وقد أخذه ابن الرومي فقال :

وأذكى نسيمَ الروضِ ريعانُ ظِله وغَنَّى مُغَنِّي الطيرِ فيه فرجَّعا
وغرَّدَ رُبعيُّ الذبابِ خلالَهُ كما حَثْحَثَ النُّدمانُ صَنْجاً مُشَرَّعا
فكانت أرانينُ الذبابِ هناكُمُ على شَدَواتِ الطيرِ ضَرْباً مُوَقَّعا (٤)

وقال ابن عبدون (٥) :

ساروا ومِسْكُ الدياجي غيرُ منهوبِ وطُرَّةُ الشرقِ غُفْلٌ دونَ تذهيبِ
على رُبى لم يزلْ شادي الذُّباب بها يُلقي بآنَقِ ملفوظٍ ومضروبِ

(١) خزانة ابن حجة ٣٠٥ .

(٢) المصدر السابق ١٧٧ . وجاء في الثاني « إلى الدار من فرط الصبابة .. » .

(٣) انظر قول الحصري في زهر الآداب ٣/١٦٠ ، كما أورد أبيات ابن الرومي بعد أن قدم لها بقوله : « وقد تعلق ابن الرومي بذيله .. » .

(٤) ديوان ابن الرومي ٣٠١ . وفيه قافية البيت الأول « فسجعا » وفي عجز الثاني « كما حثحث النشوان .. » .

(٥) ابن عبدون هو عبد المجيد بن عبد الله . ذو الوزارتين الشاعر الأندلسي (ت ٥٢٠ هـ) انظر وفيات الأعيان ٢/١٩ ، والمغرب ١/٣٧٤ .

وقد أخذه من قول المثَقّب(١) العَبدي يذكر الناقة :

وتستَمِعُ الذبابَ إذا تَغَنّى كتغريدِ الحَمامِ على الغُصونِ(٢)

وقول الأقيشر : (٣) .

وقد تقوم على رأسي منعّمَةٌ لها إذا طربَتْ من صوتِها غَنَجُ
فترفعُ الصوتَ أحيانا وتخفِضُهُ كما يطِنُّ ذبابُ الروضةِ الهَزِجُ

وقد أخذ ابن عبدون قوله من قول الأخطل(٤) في وصف ثور وحشي . وهو :

فَرْداً يُغنّيه ذُبانُ الرياضِ كما غنّى الغُواةُ بصَنْجٍ عند أسوارِ

وقال أبو بكر بن سعد البَطَلْيَوسي :

كأنّ أهازيجَ الذبابِ أساقفٌ لها من أزاهير الرياضِ محاريبُ

ولم يجسر أحد على هذا المعنى قبل عنترة . غير أن ذا الرُمة(٥) نقل معنى الصفة إلى الجندب فقال :

---

(١) المثَقّب العبدي اسمه عائذ بن محصن ـ على خلاف ـ شاعر جاهلي من أهل البحرين (ت حوالي ٣٥ ق هـ) انظر معجم الشعراء ١٦٧ .

(٢) البيت باختلاف في الرواية في ديوانه ق ٢٩/٥ ص ٣٧ ، والمفضليات ق ٢٨/٧٦ ص ٥٨٤ ، واللسان ٣٦٩/١ ، وجمهرة اللغة ١٦٤/١ ، والحيوان ٣٨٨/٣

(٣) الأقيشر هو المغيرة بن عبد الله الأسدي ، شاعر هجاء ولد في الجاهلية وعاش طويلا . قتل نحو ٨٠ هـ . انظر الأغاني ٨٠/١٠ ـ ٩١ ، والشعر والشعراء ص ٥٥٩ .

(٤) الأخطل واسمه غياث بن غوث التغلبي أبو مالك الشاعر المعروف . اختص بالأمويين في الشام (ت ٩٠ هـ) انظر الأغاني ٢٨٠/٨ ، وبيته في « شعر الأخطل » ص ١١٦ .

(٥) ذو الرمة غيلان بن عقبة ، الشاعر الفحل . امتاز بالوصف والتشبيه وكان مقيما في البادية (ت ١١٧ هـ) ، انظر الشعر والشعراء ص ٥٢٤ ، ووفيات الأعيان ٤٠٤/١ .

كأن رجليه رِجلا مُقطِفٍ عَجِلٍ إذا تجاذَبَ مِنْ بُرديْهِ ترنيم[(١)]

وقال السَّلامي [(٢)] في زنبور وأحسَنَ :

ولا بسٍ لونٍ واحدٍ وهو طائرٌ مُلَوّنة أبرادُهُ وهو واقعُ
أغرَّ مُحَشّى الطيلسان مديجٍ وسودَ المنايا في حَشاهُ ودائعُ
إذا حكَّ أعلى رأسه فكأنما بسالِفتيْهِ من يديه جوامعُ
بدا فارسيَ الزِيِّ يعقِدُ خصرَهُ ومئزرهُ التبريُّ أصفرُ فاقعُ
يرجّعُ ألحانَ الغَريضِ ومَعْبَدٍ ويَسْقي كؤوساً ملؤها السُّمُّ ناقعُ[(٣)]

قوله : إذا حك أعلى رأسه .. (البيت) ، من قول مسلم بن الوليد :

فعطّتْ بأيديها ثِمارَ نحورِها كأيدي الأساري أثقلتها الجوامعُ[(٤)]

(٥٩/أ)

نقل السَّلامي هذا المعنى إلى الزنبور لما ولده من هنا ، وشارك عنترة في الصفة مشاركة خفية . وكذا يكون التخيل الشّعري الصحيح .

---

(١) والبيت في ديوانه ص ٥٧٨ من قصيدة مطلعها :

أعن ترسمْتَ من خرقاءَ منزلةً ماءُ الصبابةِ من عينكَ مسجومُ

وجاء في عجز البيت « إذا تجاوب » .

(٢) السلامي هو محمد بن عبد الله أبو الحسن من شعراء العراق ، اتصل بالصاحب ابن عبّاد وعضد الدولة (ت سنة ٣٩٣ هـ) . انظر وفيات الأعيان ٥٢٤/١ ، والوافي بالوفيات ٣١٧/٣ .

(٣) أبيات السلامي في اليتيمة ٣٨٨/٢ . وقد خلط الصفدي صدر بيت بعجز آخر ففي اليتيمة :

بدا فارسيَّ الزي يعقِدُ خصرَهُ عليه قباءٌ زَيَّنَتْهُ الوشائعُ
فمعجزه الوردي أحمرُ ناصعٌ ومئزره التبريُ أصفرُ فاقعُ

(٤) ديوان مسلم بن الوليد ص ٢٧٣ . من مقطوعة مطلعها :

أعاود ما قدّمتْهُ من رجائِها إذا عاودَتْ باليأس منها المطامع

وفي « البديع » لابن المعتز ص ٤٣ جاء مطلع البيت « قطفت بأيديها .. » .

وما أحلى قول بعض الشعراء :

فِعلُ الأديبِ إذا خلا بهمومِهِ فعلُ الذبابِ يرِنُّ عند فراغِهِ

فتراهُ يفرُكُ راحتيه نَدامةً منه ويَتبعها بلطم دماغِهِ

لم أورد هذه المقاطيع في الكأس المصورة والذباب وأكثرت منها إلا لأنّ هذا الموضع من مَحَزّات الأدب وغريب المعاني • ولعل هذا القدر ما اجتمع لأحدفيهما•

وأما قوله « بدون هذا يباع الحمار » ، أصل هذا المثل أن رجلا أراد أن يشتري حمارا من آخر يُدعى أبا يسار ، فجعل يصفه ويبالغ فيه إلى أن قال : تصيد به النعام معقولاً فقال له : شاكه أبا يسار[1] ، بدون ذا ينفق الحمار [2] • وشاكه معناه قارب أي لا تَغلُ •

قال : وكذلك ورد قوله (٥٩/ب) •

يا شقيقَ النفسِ من حَكَمِ نِمتَ عن ليلي ولم أَنَمِ

فاسقِني البِكرَ التي اعتجرتْ بِخمارِ الشيبِ في الرَّحِمِ [3]

وهذا معنى مُخترع لم يسبق إليه ، وهو دقيق يكاد لدقته أن يلتحق بالمعاني التي تستخرج من غير شاهد حال مصورة [4] » • وساق حكاية جرت في حضرة الرشيد في استخراج معناه ، وهي مشهورة •

أقول : وأبو نواس ممن له المعاني التي ظاهرها سهل وباطنها مُشكِل في غاية الدقة ، كقوله :

---

(١) المثل في الميداني (بولاق) ٢٤٢/١ ، وفصل المقال ٢٨ .

(٢) المثل في الميداني (بولاق) ١٧٨/١ ، وجمهرة العسكري ٤٥٠/١ ، وفصل المقال ٢٩ ، والفاخر ١١٥ .

(٣) ديوان ابي نواس ص ٥٣٧ . وهما مطلع المقطوعة . وجاء في البيت الثاني « فاسقني البكر التي اختمرت » .

(٤) المثل السائر ١٤/٢ .

أما ترى الشمسَ حَلَّتِ الحَمَلا   وطابَ وزنُ الزمانِ واعتدلا
وغنتِ الطيرُ بعد عُجْمتها   واستوفت الراحُ حَوْلَهاكَمَلا[1]

محل الإشكال فيه « واستوفت الراح حولها » .

قالوا : من حين عصير الراح ، إلى أن تحل الشمس الحمل ما يكون غير ستة أشهر أو ما حولها ، فكونه يدعي أن الراح استوفت الحول كاملا غير صحيح ، والحول اثنا عشر شهرا . الجواب من وجوه :

أحدها وهو أقواها ، أن الضمير في « حولها » لا يعود على الرّاح ، وإنما يعود على الشمس . كأنه قال : واستوفت الراح حول الشمس كاملا .

وثانيها ، أن المراد بالحول هنا انما هو الغاية والتمام . والمعنى : استوفت الراح بلوغها وصلاحها لأن تستعمل وترشف . وفي هذه المدة ينتهي صلاح الخمرة ، وكل شيء بلغ غاية تطلب منه ، فقد استوفى حوله . كأنه من : حال عن هيئته إلى هيئة أخرى . وهذا الذي يفهم من كلامه .

وكذا قوله :

ظلتْ حُمَيّا الكأسِ تَبْسُطُنا   حتى تهتَّكَ بيننا السِتْرُ
في مجلسٍ ضَحِكَ السرورُ به   عن ناجذيهِ ، وحلَّتِ الخمرُ[2]

ذكروا في هذا أربعة أوجه :

أحدها أن طيب المكان وكمال السرور ، أباح حرمتها على عادة الشعراء في مبالغاتهم ثانيها أن يكون آلى على نفسه أن لا يتناول الخمر إلا بعد اجتماعه بمحبوبه،

---

(١) ديوان أبي نواس ص ٤٨٧ . وهما مطلع لمقطوعة . وجاء عجز الأول : « وقام وزن الزمان فاعتدلا » . وجاء في عجز الثاني « واستوفت الخمر حولها .. » .

(٢) ديوان أبي نواس ص ٣٢٥ . من قصيدة قالها يمدح الخصيب أمير مصر مطلعها:

يا مِنَّةً امتَنَّهـا السكْرُ   ما يَنقضي مني لك الشكْرُ

وورد البيت الثاني عند ابن المعتز في « البديع » ص ٤٣ .

فكان الاجتماع مخرجا من يمينه . كقول امرىء القيس : (٦٠/أ)

حلَّتْ ليَ الخمرُ وكنتُ امرأً عن شرْبِها في شغُلٍ شاغِلِ [١]

ثالثها يريد بـ « حلت » نزلت ، من الحلول في المكان .

رابعها : يريد أنهم استحلوها بدخولهم في السكر وذهول عقلهم (٦٠/ب)

وكنت وقفت بالدّيار المصرية على جزء فيه كلام لأبي عبد الله محمد [٢] بن عبد الله الخطيب على قول الشاعر [٣] .

بيضٌ مَفارقُنا تَغْلي مراجِلُنا نأسو بأموالِنا آثارَ أيدينا

وقد ذكر في قوله : « بيض مفارقنا » مئتي وجه وثلاثة أوجه ، في احتمال معنى هاتين اللفظتين .

وقد وجدت لأبي الحسن[٤] الطوسي الفقيه بيتين ، يسأل عن معنى الثاني منهما : وهما :

مَنَّيْنني حيناً فلما أنْ مللتُ من التمني

عَرَّضْنَ لي بالوصلِ حتى قلتُ قدْ ، أعرضنَ عني [٥]

---

(١) ديوان امرىء القيس ـ حسن السندوبي . من قصيدة قالها وقد بلغ ثأره من بني أسد مطلعها :

يا دارَ ماويّةَ بالحائل فالسُّهبِ فالخَبْتَيْنِ من عاقلِ

وورد البيت في شرح الحماسة للمرزوقي ٨٣٩/٢ .

(٢) محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافي أبو عبد الله . عالم بالأدب واللغة من اهل أصبهان (ت ٤٢٠ هـ) الوافي بالوفيات ٣٣٧/٣ ، وإرشاد الأريب ٢٠/٧ .

(٣) الشاعر هو بشامة بن حزن النّهشلي . من قصيدة مطلعها :

إنا مُحيّوكِ يا سلمى فحيينا وإنْ سقَيتِ كرامَ الناسِ فاسقينا

الحماسة ـ خفاجي ٤٨/١ .

(٤) أبو الحسن الطوسي واسمه عبد الرزاق بن عبد الله . كان وزيرا تفقه وافتى وناظر ، وهو ابن أخي نظام الملك (ت بنيسابور ٥١٥ هـ) انظر الكامل حوادث ٥١٥ ، والنجوم الزاهرة ٢١٢/٥ .

(٥) الغيث المسجم ٢٤٠/١ .

الإشكال فيه أنه كيف يعرضن له بالوصل ، وهو يدعي أنهن أعرضن عنه • والمعرِض لا يعرِّض بالوصل •

والجواب : أن « قد » هنا بمعنى حسب ، وذلك أحد مواردها • كقول أبي تمـام :

قدكَ اتَّئِبْ أرْبَيْتَ في الغُلَواء [1] •

أي : حسبك • والمعنى : منينني زمانا إلى أن مللت ، ثم عرضن لي بالوصال حتى إذا قلت هذا حسبي ، أعرضن عني •

واتفق لي فيما قلت بيتان ، ثانيهما مشكل ، وهما :

قال وقد أبصرَ دمعي دماً هـذا وما رُعْتُكَ بالبيْنِ
فقلتُ : لما فنيتْ أدمُعي بكيتُ بالدمعِ بلا عينِ

الإشكال في ذلك أنه : كيف يعترف بأنّ دموعه فنيت ونفدت ، ثم يقول بعد ذلك : بكيت بالدّمع بلا عين • وكيف يتفق البكاء بلا عين • ؟

والجواب : أنه قال أولا إنه أبصره وقد بكى دماً فأنكر عليه ذلك ، فقال لما نفِدَت الدموع ولم يبق لي دمع ، بكيت بالدَّم •

والعين هنا إنما يُراد بها أحد حروف الهجاء أخت الغين المعجمة ، لا العين التي هي الجارحة من الإنسان حاسة البصر ، فإن الدمع إذا حذفت منه العين كان دما •

[هل يمكن إبداع معنى من معنى غير مبتدع]

قال : « واعلم أنه قد يستخرج من المعنى الذي ليس بمبتدع معنى مبتدع(٦١/أ) فمن ذلك قول الشاعر المعروف بابن السّرّاج في الفهد :

---

(١) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي ، تحقيق عزام ٢٢/١ والبيت مطلع لقصيدة مدح بها محمد بن حسان الضبي ، وكان مدح بها يحيى بن ثابت . والشطر الثاني للبيت « كم تعذلون وأنتم سجرائي » . كما ورد البيت في « طبقات ابن المعتز » ص ٤٤٢ .

تنافَسَ الليلُ فيـه والنهارُ معـا فقمّصاهُ بجلبابٍ من المُقلِ [١]

وليس هذا من المعاني الغريبة ، ولكنه تشبيه حسن واقع في موقعه ، وقد جاء بعده شاعر من أهل الموصل يقال له ابن مُسْهِر [٢] ، فاستخرج من هذا البيت معنى غريبا فقال :

ونَقّطَتْهُ حِبـاءً كي يسالمهـا من المنايا نِعاجُ الرملِ بالحَدَقِ [٣]

أقـول :

أول أبيات ابن السّراج :

شُثْنُ البراثِنِ في فيه وفي يـدِهِ ما للقواضِبِ والعَسّالةِ الذُّبُلِ
والشمسُ مذ لقبوهـا بالغزالةِ لم تطلعْ لخيفتِهِ إلا عـلى وَجَلِ

وما أدري معنى قوله : « استخرج منه معنى غريبا » : أي غريب أتى به الثاني ؟ والمعنى الغريب هو أن بياض الفهد وسواده يشبه العيون • هذا هو روح هذا المعنى، وأما أن الليل والنهار تنافسا فيه ، وأنّ النّعاج سالمته ونقطته ، ليس بكثير أمر •

---

(١) الخريدة ، شعراء الشام ٢٧٧/٢ في الهامش هـذا البيت والبيتان التاليـان والرواية في الخريدة :

شُثْنُ البراثن في فيـه وفي يـده ما في الصوارمِ والعسالةِ الذُبُلِ
تقاسَمَ الليلُ فيـه والنهار معا فألبسـاه جلابيبا من المُقَلَ
والشمسُ مذ لقبوها بالغزالة لم تطلع لخَشيتِهِ إلا عـلى وَجَلِ

(٢) الخريدة ـ شعراء الشام ٢٧١/٢ • وابن مسهر هو الرئيس أبو الحسن على ابن مسهر الموصلي (ت سنة ٥٤٦ هـ) والبيت من قصيـدة طويلة وقـد ورد فيهـا :

ونقطتـه حبـاء كي تسالمهـا على المنون نعاج الرمل بالحـدق

وجاء في ترجمة ابن مسهر أنه أخذ البيت من ابن السّراج ، وما أبدل إلا القافية، حيث يقول ابن السّراج :

ونقطَتـه ِحبـاء كي تسالمهـا على المَنونِ نعـاجُ الرملِ بالمُقَلِ

(٣) المثل السائر ١٦/٢ والبيت « ... على المنايا نعاج الرمل بالحدق » •

أما انتزاع معنى غريب من معنى آخر ، فكقول مسلم بن الوليد :

تَظَلَّمَ المالُ والأعداءُ من يـدِهِ لا زالَ للمالِ والأعداءِ ظـلاّما[1]

انتزعه من قول أبي نواس :

بُحَّ صوتُ المـالِ ممـا منـكَ يدعـو ويصيـحُ[2]

فقول مسلم أفصح ومعنـاه أبلغ .

وقد اتفقت لي انتزاعات معانٍ من معان هي دونها غريبةٍ » .

من ذلك قول بيليك[3] القبجاقي المعرّي في الأُترج .

وأترجَّةٍ جاءتْ إليـكَ هديـةً فشبهتُ منهـا الريحَ ريحَ حبيبِ
إذا نظرتْ عيني اليهـا تمثلتْ بكفِ مريضٍ مـدها لحبيبِ[4]

انتزعت منه معنى آخر فقلت :

أيا حسنَ أترجٍ يلـوحُ لناظري عليه من الأوراقِ خضرُ الغـلائلِ
حكى مُستهاما غيّر البينُ حالَـه وقـد عَدّ أيامَ الجفا بالأنامـلِ

ومن ذلك قول شهاب[5] الدين التّلّعفَري :

---

(١) ديوان مسلم بن الوليد ٦١ من قصيدة قالها يمدح يزيد بن مزيد الشيباني مطلعهـا :

طيف الخيال حمدنا منك المامـا داويت سقما وقد هيجت أسقاما

(٢) ديوان أبي نواس ص ١٦٩ . من قصيدة مطلعها :

غـرد الديـكُ الصـدوحُ فاسقنـي طـابَ الصبـوحُ

وجاء في الشطر الثاني « منك يشكو ويصيح » .

(٣) في (ب) القفجاقي .

(٤) في هامش (ب) « هكذا بخطّ المصنف ولعل الرواية فيه : لطبيب » وهو أصوب .

(٥) شهاب الدين التلعفري ، واسمه محمد بن يوسف من شعراء الشام في القرن السابع كان مُبتلى بالقمار (ت بحماة سنة ٦٧٥ هـ) . انظر فوات الوفيات ٥٤٦/٢ ، وشذرات الذهب ٣٤٩/٥ .

جريْتُ بحمراءِ الكُميتِ إلى الشَقرا مفرِ الهوى طيباوأعرضتُ عن مَقرا[١]

انتزعت منه معنى آخر فقلت : (٦١/ب)

وحمراءَ لمّا ترشّفْتُها جنيتُ المسرّةَ فيما جنيتْ
ونلتُ المسراتِ دونَ الورى لأني سبقتهمُ بالكُميتْ

ومن ذلك قول مهيار الديلمي [٢] :

هل السابقُ العجلانُ يملكُ أمرَهُ فما كلُّ سيرِ اليَعملاتِ وخيدُ
رويداً بأخفافِ المطايا فإنما تُداسُ جباهٌ في الثرى وخدودُ [٣]

انتزعت منه معنى آخر فقلت :

أضحى نسيمُ دمشقَ حياها الحيا يمشي الهوينا في ظلالِ حِماها
وكأنه من مائها وهضابِها ما داسَ إلا أعيُنا وجِباها [٤]

ومن ذلك قول ابن التّلمساني [٥] :

(١) بيته في ديوانه ١٨ وفيه « مقر الهوى حسنا ... » وكذلك في فوات الوفيات ٥٤٧/٢ .

(٢) مهيار بن مَرزَوَيْهِ الديلمي الشاعر . أسلم على يد الشريف الرضي وتخرج عليه في الشعر والأدب (ت ٤٢٨ هـ) انظر وفيات الأعيان ١٤٩/٢ ، ودمية القصر ٧٦ .

(٣) والبيتان في ديوانه ٣١٠/١ من قصيدة كتب بها إلى محمد بن أيوب سنة ٤١٨ هـ ومطلعها :
أمنها على أن المزار بعيد خيال سرى والساهرون هجود
وجاء في البيت الأول « الغضبان » بدل العجلان ــ ورواية البيت الثاني :
رويدا بأخفاف المطي فإنما تداس جباه تحتها وخدود

(٤) في « الغيث المسجم » ٦٧/١ . وورد في مطلع الثاني « فكأنه » .

(٥) ابن التلمساني هو الشاعر محمد بن سليمان شمس الدين المعروف بالشاب الظريف (ت بدمشق ٦٨٨ هـ) انظر الوافي بالوفيات ١٢٩/٣ ، والنجوم الزاهرة ٣٨١/٧ .

ساقٍ يُريني قلبُه قسوةً   وكلُّ ساقٍ قلبُه قاسِ [(١)]

انتزعت منه معنى آخر فقلت :

قلبَ الدنَّ من أحبُّ فأضحت   نفحةُ النَّدِّ من حُميّاهُ تُهدى

قال لي اعجب فقلتُ غيرُ عجيبٍ   كلُّ دنٍ قلبتَه كان نِدّا [(٢)]

ومن أحسن ما وقفت عليه في الفهد قول القائل : (٦٢/أ)

ومتصفٍ بالفتكِ عند اكتسابِهِ   على ظُفرِهِ شبهُ الدماءِ ونابِهِ

كأنَّ مَهاةَ الفلكِ لما انتهى به   مداهُ إلى سربِ المَها وانتهابِهِ

رمتْهُ بشُهبِ الجو خوفَ انتقامِهِ   فأطفأها في عسجدٍ من إهابِهِ

[مناقشة نموذج من إنشاء ابن الأثير]

قال : « ومما ذكرته في فصل من كتاب منازلة بلد ، فذكرت القتال بالمنجنيق فقلت : فنزلنا بمرأى منه ومسمع ، واستدرنا به استدارة الخاتم بالإصبع ، ونصبت المنجنيقات فأنشأت سحبا صعبة القياد ، مختصة بالربا دون الوهاد . فلم تزل تقذف جلامد السور بوبل من جلمودها ، وتفجؤه برعودها قبل بروقها وبروق السحب قبل رعودها ، حتى غادرت الحزن منه سهلا ، والعامر بلقعا محلا .

وفي هذا معنيان غريبان : أحدهما أن هذه السحب تخص الربا دون الوهاد ، والآخر أن رعودها قبل بروقها [(٣)] » .

---

(١) والبيت في ديوانه ٤٦ .

(٢) في الغيث المسجم ٢/٤٠٥ طبعة الإسكندرية .

(٣) المثل السائر ٢/١٧ . والنص فيه :
« ومن ذلك .. يتضمن منازلة بلد ، فذكرت القتال بالمنجنيق وهو : فنزلنا .. فلم تزل تقذف السور بوبل ... بلقعا مُخْلى ... » .

أقول : ما أدري معنى قوله في تشبيه الغبار بأنه « سحب صعبة القياد » ما هو؟ وكونه ادّعى أن تخصيص السحب بالربا دون الوهاد أمر غريب • في هذا تعسف ، وبعض السحب تسقي الوهاد دون الربا ، وبعضها بالعكس ، هذا أمر محسوس • فهي إذا سقَت الربا وجفّت الوهاد ، كانت بالربا مخصوصة وبالعكس •

وما أحسن قول أبي العلاء المعرّي :

ولو أن السحاب همى بعقل لما أَرْوى مع النخلِ القتادا
ولو أعطى على قدْرِ المعالي سقى الهَضَبات ِ واجتنب الوهادا[1]

(٦٢/ب)

وكذا دعواه في أن البروق في السّحب قبل الرّعود أمر غير لازم ، فإن البروق قد ترى بعد الرعود وإن كانت في الغالب تكون قبل •

ولا بأس بإيراد شيء من كلام القاضي الفاضل ــ رحمه الله تعالى ــ هنا في ذكر المنجنيق • فمن ذلك :

« وكتب الخادم والمنجنيقات قد سكنت سبابتها المسْلِمة ، وكان عدم التسليم لموادعة البلد المستسلِمة » •

ومنه : « والحصار مستمر على صَفَد وقد نصب عليها من المنجنيقات غلاظا شدادا جامعة لأوصاف الزّبانية ، ونحن في الليل والنهار لا نسمع إلا الواحدة والثانية ، والله ينجح الثالثة في عبدة الثلاثة ، والبلدة عقدة وسعادة السلطان نفاثات في العقد ، ما أصغى إلى الآن للمنجنيق عطفها ، ولا رغم من البروج أنفها » •

(١) سقط الزند ص ٢١٦ . من قصيدة قالها يخاطب خاله علي بن محمد وكان قد سافر إلى المغرب . مطلعها :

تفدّيك النفوسُ ولا تفادى فأدْنِ القُربَ أو أَطِلِ البِعادا

ومن ذلك : « فما خطفوا الخطفة حتى اتبعهم شهاب ثاقب ، ولا قذفوا أنفسهم في الخندق حتى قذفتهم السيوف من كل جانب ، ولا أقدموا على سماء المنجنيقات لأنها قد زينت من المقاتِلة بزينة الكواكب » .

ومن ذلك : « بعد نصب منجنيقات ترمي بأحجار متناوبة النوائب، وإذا اتَّبَعَتْها الحبال مُوَدِّعة خيلت أنها كواكب ذوات نوائب ، وبعد أن حذرهم خِطابُ الخُطوب من اللجاج ؛ وبعد أن هزَّت النُّقوب أعطاف الجُدران وتَساقط ثَمَرُ الأبراج» .

ومن ذلك : « وأنا نازل على عَيْنٍ يَصم ُّالسمعَ هديرُها ، فوق جبال يَقمر العين صَبيرُها، تحت سماء قد رابني منها الغداة سفورُها ، أمامي قِتال يدير كأس المَنون فيها مُديرها ، وورائي حجار المنجنيقات التي إذا رأت نقطها حروف البروج مُحِيت سطورُها » .

ومن ذلك : (٦٣/أ) وَجَنّا المنجنيق يحاكمُها ، ولسان حبله يخاصمُها ، والخادم تحت المنجنيق الإسلامي يعرِّض الوجه لمنجنيق الفِرَنج ، وينقل قطع الستائر نقْلَ قطع الشِّطرنج ، حيث التراس بياذق والجفاتي رخاخ ، وحيث القلاع صَيْد والحجارة حَبٌّ والمنجنيقات فِخاخ » .

ومن ذلك : « وضايقوا عكا بأبراج خشبية ضربت مع الأبراج الحجرية المصاف، وتقدموا بمنجنيقات محاربة لله ورسوله فقطعت أيديها وأرجلها من خلاف » .

ومن ذلك : « وفي الثغر مجانيق لا يَعَطَّلُ راتبُها ، ولا يَرْصَد ضاربُها ، أكبرها ما قتل المقاتلَ شَدْخا ، وأيسرها ما جعل بيذق الهام رُخا » .

ومن ذلك : « وقد كنا نزلنا على هذه المدينة فأردنا توقير ثغرها ، وتوفيرها عن نَقْبها وثغرها ، فلما كان ثاني يوم الأضحى وقد بلغ منا الصبر إلى غاية مَن لا لومَ عليه في التقرّب بنَحرِها ، وقضى بأن يُتلَّ تلُها للجبين ، وأن لا يأخذها بالأمان بل يأخذها باليَمين ، فأضجعتها المجانيق وذبحتها النُّقوب ، وجرت منها دماء في الحال أوجبَتْ من أبرجتها الجُنوب » .

ومن إنشاء شيخنا القاضي شهاب الدين محمود ــ رحمه الله ــ من قصيدة نظمها في فتح المَرْقَب :

وأمطرَتْها المجانيقُ التي نشأتْ ولم يكن قبلَها يهمي به المطرُ
وكان للكسرِ منها كلما صنعوا من جنسِها ولأيدي الهدم ما عمروا
كأنها ومجانيقُ الفرَنْجِ لها فرائسُ الأسْدِ إذ أظفارُها الظفرُ
وكم شكى الحِصنُ ما يلقى فما اكترثتْ يا قلبَها أحديدٌ أنت أم حجرُ
(٦٣/ب)

ومن كتاب كتبه القاضي تاج الدين أحمد بن الأثير في هذا الفتح أيضا :

« والمنجنيقات تُفَوِّقُ إليهم سهام قِسِيِّها ، ويخيل إليهم أنها ساعية إليهم بحبالِها وعِصِيِّها ، وهي في (١) الحصون ِمن ألدّ الخصوم ، وإذا أمَّتْ حصنا حُكم بأنه ليس بإمام معصوم ، ومتى امترى خلق في آلات الفتوح لم يكن فيها أحد مِن الممترين ، وإذا نزلت بساحة قوم فَساءَ صباحُ المُنذَرين ، تدعى إلى الوغى فتكلّم ، وما أقيمت صلاة حرب عند حصن إلا كان ذلك الحصن ممن يسجد ويسلّم » .

قال ابن السّاعاتي :

ومتى يحاول بلدةً لم يَثْنِه حشْدُ الجيوش بها ولا بُعْدُ المَدى
هتَمَتْ مجانقُه ثنايا سورِها فرأيتَ ذاكَ الثغرَ ثغراً أدردا

[نماذج من إنشاء ابن الأثير يدعي فيها التقدم]

قال : « ومن ذلك ما وصفت فيه نزول العدو على حصار بلد من بلاد المكتوب عنه وكان ذلك في زمن الشتاء ، فسقط على العدو ثلج كثير صارَ به مَحصورا . فقلت : « وقد عاجلته قتال البروق قبل البَيارق ، وأحاط به الثلج فصار خنادق تحول بينه وبين الخنادق .

(١) لعلها « للحصون » للمعنى .

والشتاء قد لقي عسكره من البرد بعسكره ، والسماء قد قابلته بأغبر وجهها لا بأخضره ، والأرض كأنها قُرْصَةُ النَّقِيّ وعسى أن تكون أرض مَحْشَرِه»[١] ثم أخذ في ذكر اختراع المعنى من الحديث النبوي وهو « إنكم تحشرون على أرض بيضاء كقرصة النقيّ [٢] » يريد : الخبزة البيضاء . ودَنْدَنَ لذلك وطَنْطَنَ .

أقول : العجب منه كونه يدون هذه الأشياء ويجمعها ويوردها ، ويخطب عَقيب كل واحدة منها خطبة لنفسه ، يدّعي فيها أن البلاغة في غيره مجاز وفي كلامه حقيقة ، وأنه جاء بعقود الدرر وجاء غيره بجَزْعَةٍ ولا يرضى أن يقول بعقيقة . وقد أوردت كتابا للقاضي الفاضل فيما تقدم أصدره مِن بَعْرين ، ذكر فيه الأمطار والثلوج والخيام وأتي فيه بمحاسنَ (٦٤/أ) ما لابن الأثير بها يدان ، ولا يدور على قطبها لكاتب فَرْقدان .

ومن كلام القاضي الفاضل : « فأما الثلوج التي وصفها ذلك البيان فأجّجها ، بل أهداها إلى الصدور التي هي بيوت نار الشوق فأثلجها . فقد تَمَثَّلْتُ البلاد وكأنما نشر المولى عليها عِرْضَه ، وسرّني أن سرّ ذلك الفضاء فضّه، وأراني النجوم في هذه السنة وقد ناصحت في خصبها فنزلت بأنفسها ، وبرزت ظاهرة في النهار بجواريها وخُنسها ، وأَجْدِرْ بها أن تكون سنةً تغسل وَضَر الكفر بصابون ثلجها ، وتبشر العزمةَ الناصرية من هذه الرغوة بما تحتها من صريح فلجها » .

ومن ذلك : « وإنْ يكشف الله قناع الشك ، تكنْ أحقَّ منزلة بالترك ، فلن ترى إلا محشر الحشرات بل محسَّر الحسرات ، يومها بالهم والثلج أبلق ، والمنفق فيها يُقَلِّب كفَّيه على ما أنفق » .

---

(١) المثل السائر ١٨/٢ « ومن ذلك ما ذكرته في كتاب أصف فيه .. فقلت : وقد عاجله قتال البروق قبل البوارق .. » .

(٢) الحديث في صحيح مسلم ١٢٧/٨ . والرواية فيه « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي ليس فيها علم لأحد » .

ومن رسالة كتبها القاضي محيي الدين بن قَرناص إلى القاضي تاج الدين ابن الأثير :

« وعندما سطَّرها متهجما ، كان وجه الأفق بالغيم متجهما ، وثغر حماةَ بالثّلج مُتبسِما ، وقد ظهر عليها السكون ، حيث شابت منها القرون ، وكان المملوك مُشرفاً على مكان أُحيطَ بثَمَرٍ ، والدَّوْح يقلب كفيه على ما أنفق من عُمُره ، وقد تزهد فتجرد من حرير أوراقه ولبس قطن زَهَرِه ، فلا ترى إلا أشجارا قائمة على أصولها وكروماً خاوية العروش ، وسقيطَ ثلْجٍ كالفراش المبثوث وجبال غيوم كالعِهْن المَنفوش » •

ومن جواب القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر عن هذه الرسالة :

« وكان توجهنا إذ ذاك حين اكتست الجبال بالثلوج ، وأحاطت بنا الأنواء من كل جانب (٦٤/ب) إحاطة ما لها من فروج ، بفصل فتحت فيه السماء أبوابها بماليس لجَمله عن تلك المواطن فصول ، ولا لخضاب الجليد الدّابغ أديمَ الثرى المتجلّد من نُصول • فعدنا إلى جهة حمص وإن لم يعجبنا العام ، وقلنا كل ذلك مغتفر في جنب ما أشارته مصلحة الإسلام ، الشاملة منهم للخاص والعام ، واستقبلنا تلك النواحي المتناوحة ، والمنازل المتنائية على المراحل المتنازحة ، برقة جلود تتجالد على الجليد ، وأوجهٍ تواجه من تلك الظهور ما وُرودُ حياضِ المنون به إليها أقربُ من حبل الوريد ، كم التفّت الشمس بقارا من قرّها بفَرْوةِ سِنْجابٍ من الغمام،وكم غمضت عينها عمن لم تُطعَم جفونُه بتهويم ولا تطمع بمنام ، وكم سبك الزمهرير فضةَ ثلوجها فصَحّتْ عند السبك ، وكم خبرٍ من امرىء القيس أنشد عند النبك قفا نبك • هذا والزُمّيتا قد مَدّتْ على البلاد والعبادمُلاءتها الرّحيضة ، وأضحت بها الأنفس قتيلة لا مريضة ، كأنها وخطُ المَشيب على المفارق ، أو رملٌ أبيض قد ذُرَّ على سطور تلك المهارق » •

وللقاضي محيي الدين بن عبد الظاهر ــ رحمه الله تعالى ــ في القُطَيِّفة عدة مفاطيع يصف بردها • منها قوله :

هـذي القَطَيِّفَـةُ التي لا تَشْتَهى عقـلاً وتقـلا
خَشِيَتْ ببـردٍ يـابسٍ فلأجْل ذاكَ الحشوِ تَقْلى (١)

وقولـه أيضـا :

عـلى ذمِ القَطَيِّفَـةِ اجتمعْنـا وإنْ خَشِيَتَ ببردٍ قـد تكررْ
وقـد أضحى عليهـا للزُمَيتْـا بياضٌ مثلَمـا قـد ذُرَّ سُكَّرْ
ولم يكن المكفَّنُ غـيرَ شخصٍ يكونُ إلى نواحيهـا مُسَيَّـرْ

(٦٥/أ)

وأبيات شهاب الدين الشاغوري(٢) مشهورة في الثلج . وهي :

قد أخمدَ الجمرَ في كانونَ حينَقَدَحْ وأجمدَ الخمرَ في كانونَ كل قـدحْ
يا جُبّةَ الزَبـداني أنتِ مُسْفِرةٌ عنحُسْنِ وجهٍ إذاوجهُ الزمانِ كَلَحْ
فالثلجُ قطنٌ عليكِ السحبُ تندُفُهُ والجوُ يحلجُهوالقوسُ قوسُقُزَحْ

ومن هذا قول أبي الفضل الكاتب :

وأطرَبَنا غيمٌ يُمـازِحُ شمسَه فتَستَترُ طوراً بالسحاب وتَكْشفُ
ترى قَزَحا في الجوِ يفتح قوسَه مُكِبّاً على قطنٍ من الثلجِ ينـدُفُ

قيل إن الثلج وقع مرة في بغداد ، فقال بعض شعراء ذلك العصر :

يا صدورَ العـراقِ لم نـرَ ثلجا قبلَهـا حلَّ في نواحي العـراقِ
إنما عمَّ ظلمُكُـمُ سـائر النـا .... س فشـابتْ ذوائبُ الآفـاقِ

---

(١) خزانة ابن حجة ص ٢٥٣ ، وفوات الوفيات ٤٦٢/١ وهما فيه لمحيي الدين ابن عبد الظاهر .

(٢) شهاب الدين الشاغوري . هو فتيان بن علي الأسدي ، مؤدب شاعر من أهل دمشق ، اتصل بالملوك وعلم أولادهم . (ت بدمشق ٦١٥ هـ) انظر وفيـات الأعيان ٤٠٧/١ .

ومما اتفق لي في ذلك :

تبّاً لهـا من بلـدةٍ لا أرى فيهـا مُقامي واضحَ النهْجِ
لأنّهـا في وجـهِ سكانهـا وأهلِهـا تبصُقُ بالثلجِ [1]

[الحسن في أبيات ابن بقّي : بأبي غزال غازلته مقلتي]

قال وقد أورد في محاسن المعاني قول القائل :

بأبـي غـزالٌ غـازلَتْهُ مقلَتي بين العُذَيْبِ وبين شَطّي بارقٍ [2]

... الأبيات .

« وهذا من الحسن والملاحة بالمكان الأقصى ، ولقد خفَّتْ معانيه على القلوب حتى كادت ترقص رقصا ، والبيت الأخير هو الموصوف بالإبداع ، وبه وبأمثاله أقرت الأبصار بفضل الأسماع ... [3] » .

أقول : هذه الأبيات لابن بَقيّ ، وأوردها ابن الأبّار في « تحفة القادم [4] »

---

(١) في « الغيث المسجم » ١/٧٠ .

(٢) الأبيات لابن بقيّ الأندلسي . واسمه يحيى بن عبد الرحمن أبو بكر . شاعر اشتهر بإجادة الموشحات (ت ٥٤٠ هـ) انظر قلائد العقيان ص ٢٧٩ ، والمغرب ٢/١٩ — ٢١ وأبياته في « معاهد التنصيص » :

بأبي غـزالا غـازلتْه مقلتي بـين العذيب وبين شطي بـارقِ
وسألت منه زيارةً تَشفى الجوى فأجابني منهـا بوعـدٍ صـادقِ
بتنـا ونحنُ من الرجا في خيمةٍ ومن النجومِ الزُهْرتحتسُرادقِ
عاطيتُه والليـلُ يسحب ذيلَـه صهباءَ كالمسكِ الفَتيقِ لناشقِ
وضممتُه ضمَ الكمـيِ لسيفـه وذؤابتـاه حمـائل في عـاتقـي
حتى اذا مالَتْ به سِنَةُ الكرى زحزحتُـه شيئا وكـان مُعانقي
أبعدْتُه عن أضلعٍ تشتاقُـه كي لا ينـامَ على وسادٍ خـافقِ

(٣) المثل السائر ٢/٣٠ « ... والبيت الأخير منه هو الموصوف بالإبداع ... » .

(٤) الكتاب غير موجود ، والموجود هو المنتخب منه في الأسكوريال ٣٥٦ .

ثم قال : وقد نسب بعض أهل عصرنا ابن بقي إلى الجفاء في قوله :

أبعدته عن مهجة تشتاقه ...

ولو قال : أبعدت عنه أضالعا تشتاقه ، لكان أحسن .

ثم أورد بعد ذلك لأبي الحكم جعفر بن يحيى بن عتال الدّاني [1] : (٦٥/ب)

حسْبُكَ لَذَّ بكلِ معنى إلى كرى مِلْتَ أو سُهادِ
إنْ كان لا بُدَّ من رُقادٍ فأضلعي هاكَ عن وِسادِ
ونَم على خفقِها هُدُوّاً كالطفلِ في نَهنَهِ المِهادِ

ولما وقفت أنا على ما ذكره ابن الأبّار من الإيراد على ابن بَقيّ ، وأبيات ابن العتال خطر لي أن يكون ذلك نظما . فنظمت ذلك على روي ابن بقيّ ووزنه :

أبعدتَهُ من بعدِ ما زحزحْتَه ما أنت عند ذوي الغرام بعاشقِ
هذا يدل الناسَ منك على الجفا إذ ليس هذا فعلَ صبٍ وامقِ
إن شئتَ قل أبعدْتُ عنه أضالعي ليكون فعلَ المستهامِ الصادقِ
أو قل فباتَ على اضطرابِ جوانحي كالطفلِ مضطجعاً بمهد خافقِ [2]

فانظر إلى ما استحسنه ومدحه وفضّله كيف أورد الناس عليه وعابوه ، ولعمري إنه نقد حسن ومأخذ دقيق وإيراد متوجه .

---

(١) ابن عتال الداني ، ذكره العباسي في معاهد التنصيص ٨١/٣ باسم ابن عيال الدّاني . واورد له البيت الثاني والثالث فحسب ، وجاء في قافية الثاني « كالوساد » بدل عن وساد . أما البيت الثالث فهو :

فنم على خفقِها هدّوا كالطفل في هِزة المهادِ

كما ورد هذان البيتان فقط في الغيث المسجم ١٧٦/١ .

(٢) في الغيث المسجم ١٧٦/١ . وجاء صدر الأول : (أبعدت من زحزحته عن أضلع) .

وأما خفق الفؤاد واضطرابه من المحب ، فللمتأخرين فيه مقاصد لطيفة المغزى . من ذلك قول الحظيري الورّاق :

يقول لي حين وافى قد نلتَ ما ترتجيه
فما لقلبكَ قد جا .... ءَ خفقةٌ يعتريه
فقلتُ وصلكَ عرسٌ والقلبُ يرقصُ فيه (١)

وقول ....

لا تنكروا خَفَقانَ قلبٍ جاء الحبيبُ اليه زائرْ
ما تلك إلا دارُهُ دُقّت له فيها بشائرْ (٢)

وقول ابن سناء الملك :

أما والله لولا خوفُ سخطِكْ لهانَ عليّ ما ألقى برهطِكْ
(٦٦/أ)
ملكتِ الخافقيْنِ فتِهتِ عُجبا وليس هما سوى قلبي وقرطك (٣)

وقول أبي الوليد بن الجنّان الشاطبي (٤) :

---

(١) الأبيات في الغيث المسجم ٢٤٦/١ ووفيات الأعيان ١٢٠/٦ وجاءت رواية البيت الثاني : فما لقلبك قد جا بخفقةٍ تعتريه
ووردت في معاهد التنصيص ٨٠/٣ ورواية الثاني فيه :
فما لقلبك قد جا بخفقةٍ تعتريه

(٢) لم يذكر اسم القائل وهو البهاء زهير انظر ديوانه كما وردا في معاهد التنصيص ٨٠/٣ وفي الحاشية « وينسبان إلى ابن الفارض » وهما عند العباسي :
لا تنكروا خَفَقانَ قلـ ... بي والحبيبُ لديّ حاضرْ
ما القلبُ إلا دارُهُ دُقّتْ له فيها البشائرْ
وكذلك في الغيث المسجم ٢٤٦/١ غير منسوبين .

(٣) في الخريدة ـ شعراء مصر ١٠٠/١ وقد جاء البيت الأول :
أما وهواكِ لولا خوفُ سخطِكْ لهانَ على محبكِ أمرُ رهطِكْ
كما ورد في الغيث المسجم ٢٤٥/١ والرواية مطابقة .

(٤) ابن الجنان الشاطبي ، واسمه محمد بن سعيد أبو الوليد . أديب شاعر (ت ٦٧٥ هـ) انظر فوات الوفيات ٣٢١/٢ .

وأبيكِ لم يخفقْ جناني انما طَرَباً بأيامِ العقيقِ يُصَفِّقُ
لا يدّعي فيه الفؤاد خفوقَه فورِشاحُ مَنْ أهوى لَعَمري أخفقُ[1]

وقول الآخر :

مَلَكَ القرطَ والفؤادَ فحقاً إنْ تَسَمَّى بمالكِ الخافقينِ
واحدُ الحُسْنِ في الورى ثاني الغصـ ـنِ إذا ماس ثالثُ القمرينِ

وقول البدر يوسف بن لولو الذهبي [2] :

وأحوى فاترِ الأجفانِ ألمى رشيقٍ قدُّهُ رَخْصِ البنانِ
تملَّكَ قرطَه والقلبَ مني فصارَ له بذاكَ الخافقانِ [3]

وقول ابن سناء الملك من مرثية :

أوسعْتَ فيكَ الدهرَ عَتْباً مؤلماً فأجابني بالبَهْتِ والبُهْتانِ
قلبي يحاسبُه على إجرامِهِ ويعدُّها بأناملِ الخفقانِ [4]

وما أحسن قول القاضي الفاضل أيضا :

وقد خفقَتْ راياتُه فكأنها أناملُ في عمْرِ العدوِ تحاسبُهْ[5]

---

(١) والأبيات في فوات الوفيات ٢/٣٢٣ . وجاءت رواية البيت الأول :

وأبيكِ لم تخفُقْ حشايَ وإنما طربا بأوديةِ العقيقِ تصفقُ

(٢) يوسف بن لولو الذهبي ، بدر الدين الشاعر . (ت بدمشق ٦٨٠ هـ) مطالع البدور ١/٤١ .

(٣) وبيتاه في الغيث المسجم ١/٢٤٥ .

(٤) وفي ديوانه ص ٨١٢ وقد جاء في البيت الثاني « أجرامه » بفتح الهمزة . وفي الغيث المسجم ١/٢٤٦ ، والخريدة ــ شعراء مصر ١/٩٢ .

(٥) ديوان القاضي الفاضل ص ١٦٤ والبيت من مقطوعة هو خاتمتها .

وقول معين الدين بن تولـُو ا (١) :

لـم أنسَهُ إذ قال أيـن تـحِلتُني حـَذَرا عليّ من الخيالِ الطارقِ
فأجبتُه : قلبي فقـال تعجّبـا : أرأيتَ عمرَكَ ساكناً في خافقِ (٢)
(٦٦/ب)

وهو مأخوذ من قول (٣) :

وسكنْتَ قلبـاً خافقـاً يا ساكنـاً فـي غـير ساكنْ

وما أحسن قول السَّراج الورّاق :

يا ساكنـا قلبي ذكرتُك قبلَهُ أرأيْتَ قبلي من بـدا بالساكـن
وجعلتُه وقفاً عليـكَ وقـد غـدا متحرِكاً بخـلافِ قلبِ الآمنِ (٤)

وقول شمس الدين محمد بن التّلمِساني :

يا ساكنـاً قلبـي المُعنّى وليس فيـه سـواهُ ثـانِ
لأي معنى كسرْتَ قلبـي ومـا التقـى فيـه ساكنـانِ (٥)

هذا المعنى ، رأيت جماعة من أهل العصر قد لهجوا به واستحسنوه ، وهـو فاسد ، وذلك أن القلب وعاء للساكنين ، والظرف غـير المظروف ، والقاعـدة ان

---

(١) معين الدين بن تولوا واسمه عثمان بن سعيد . أديب مصري (ت بالقاهـرة ٦٨٥ هـ) ، انظر فوات الوفيات ٦٤/٢ .

(٢) والبيتان في الغيث المسجم ٢٤٦/١ .

(٣) لم يذكر اسم القائل وهو الشاعر القَيْسَراني واسمه محمد بن نصر (ت بدمشق ٥٤٨ هـ) انظر الخريدة ــ شعراء الشام ٩٦/١ .
ورد بيته في المصدر السابق ١٢٩/١ من قصيدة مطلعها :
مـا هـذه الحـدق الفواتنْ إلاّ سهـامٌ في كنـائـنْ
وجاء مطلع البيت « وحللت » . كما ورد في الغيث المسجم ٢٤٦/١ .

(٤) في الغيث المسجم ٢٢٧/١ .

(٥) ديوانه ص ٨٢ وجاء في البيت الأول « سواك » بدل سواه .

الساكنين إذا التقيا كسر الثاني منهما ، وإذا كسر قلبه فليس بعجيب لأنه غير الساكنين وليس واحدا منهما ، فما لإنكاره عليه معنى ، فتأمل ذلك يظهر فساده .

ومن معنى قول معين الدين بن تـولوا قول ابن سَناء الملك ، ولكنه سلك به مسلكاً آخر حيث قال :

من كل محتكِمِ الأجفانِ يُخرجُنا   من أرض سلوتِنا في الحبِ ساحرُهُ
يأوي الى خافقِ القلبِ الشجيِّ به   فاعْجبْ لمن وكرُهُ في الحبِ طائرُهُ[1]

وقوله : (٦٧/أ)

يا طائرَ الحُسنِ الذي وكرُهُ   قد حلَّ من قلبيَ في طائرِ[2]

وقوله أيضا :

وطائرِ حُسْنٍ طارَ قلبي بحُسنِهِ   فيا عَجَبا من طائرٍ وكرُ طائرِ[3]

ومن هذا قول ابن قلاقس وقد وصف المركب :

ونحن في منزلٍ يسري بساكنه   فاسمع حديثَ مُقيمٍ بيتُه غادِ[4]

ومما قلته في خفقان القلب :

لما رقدْتُ أتى خيالُك بَغتةً   فغدا فؤادي خافقاً يتموّجُ
لو أنّ صَحْبي شاهدوني في الكَرى   والقلبُ يرقصُ في الخيالِ تفرجوا

---

(١) لم أعثر عليهما في ديوانه .

(٢) ديوان ابن سناء الملك ص ٢٩٥ . من قصيدة قالها يمدح الملك الظاهر غازي مطلعها :

لَهفي من العاذلِ والعاذرِ   ذا ظالمي فيكَ وذا ضائري

(٣) ديوانه ص ٣٦٢ . من قصيدة قالها يمدح الملك العادل بن أيوب . مطلعها :

تنزّهَ طَرْفي بينَ زاهٍ وزاهرِ   على أنّ طرفي أيُ ساهٍ وساهرِ

(٤) ديوان ابن قلاقس ٣٢ وفي الخريدة ــ شعراء مصر ١/١٥٠ .

ومن قولي أيضا :

حَسْبي الذي ألقاهُ فيك من الجَفا   وعلى الصحيح فبعضُ ذاكَ كفاني
فانظرْ إلى قلبي إذا قابلتَه   يا غصنُ كيف يطيرُ بالخفقانِ [(١)]

[احسن ما قيل في الخمر وكأسها]

قال : « وكذلك جاء قول بعض المغاربة في الخمر وكأسها ، وهو : »

ثَقُلَتْ زجاجاتٌ أتتنا فُرَّغا   حتى إذا مُلِئَتْ بصِرفِ الراحِ
خَفَّتْ فكادَتْ أن تطيرَ بما حوتْ   وكذا الجسومُ تخِفُّ بالأرواحِ [(٢)]

«وهذا معنى مبتدع، أشهد أنه يفعل بالعقول فعل الخمر سكرا ، ويرق(٦٧/ب) كما رقت لطفاً ويفوح كما فاحت نَشْرا [(٣)] » .

أقول : هما لأبي علي إدريس اليماني ، وأصل المعنى لابن المُعتز حيث قال :

وَزَنّا الكأسَ فارغةً وملأى   فكان الوزنُ بينهما سواءَ [(٤)]

ولكنه زاده مبالغة ، وهي أن الكؤوس استفادت بالخمر خفة ، ثم إنه أراد لذلك مثالا في الخارج فلم يجده إلا في الروح والجسم .

ومثل هذا قول الخوارزمي [(٥)] :

---

(١) في الغيث المسجم ٢/٥٩ . وورد صدر أولهما « حسبي الذي ألقاه من ألم الهوى » .

(٢) المصدر السابق ١/٢٤٤ . وفي خزانة ابن حجة ص ٢١٤ لإدريس اليماني .

(٣) المثل السائر ٢/٣٢ والعبارة فيه : « وكذلك جاء وصف بعض المغاربة في الخمر وكاساتها :
ثقلت زجاجات . . . .

(٤) البيت غير وارد في ديوان ابن المعتز .

(٥) الخوارزمي ، هو محمد بن العباس أبو بكر . من ائمة الكتاب وأحد الشعراء العلماء (ت بنيسابور سنة ٣٨٣ هـ) . انظر معجم الأدباء ١/١٠١ ، والوافي بالوفيات ٣/١٩١ ، وفي الغيث المسجم ١/٢٩ .
وورد في البيت الثاني « نوره » بدل ضوءه . وفي سمط اللآلي ص ٦١٦ وقد ورد البيت الأول :
أراك إذا أيسرت خَيَّمتَ عندنا   مقيما وإن اعسرتَ زُرْتَ لِماما

رأيتُكَ ان أيْسَرْتَ خيمْتَ عندنا لِزاماً وان أعسرْتَ زُرْتَ لماما
فما أنت إلا البدرُ ان قلّ ضوءُه أَغَبَّ وإن زادَ الضياءُ أقاما

أخذ المعنى في الأصل من قول إبراهيم بن العباس الصولي[1] في ابن الزيات[2] :

يعرف الأبعدَ إن أَثْرى ولا يعرفُ الأدنى إذا ما افتقرا

ولما أراد أن يضرب لذلك مثالا في الخارج ، لم يجده إلا في القمر وضوئه .
وهكذا حال إدريس اليماني مع ابن المعتز .

ولابن حَمْديس[3] هذا المعنى بعينه ، فإنه قال :

وكاس نشوانَ فيها الشمسُ بازغةٌ باتَتْ تَديمُ إلى الإصباح لثمَ فَمِهْ
تَخِفُّ ملأى وتعطي الثِقْلَ فارغةً كالجسم عندوجودِ الروح أوعَدَمِهْ[4]

وقال أيضا :

جامٌ تجمّعُ شربُه لذاتِنا وعقولُنا بالسُكْرِ منه تَبَدَّدُ
ويخِفُ ملآناً ويثقل فارغا كالجسم يُعدَمُ روحُه أويوجَدُ[5]

(١) إبراهيم بن العباس الصولي أبو إسحق الكاتب الشاعر . قربه الخلفاء (ت بسامراء سنة ٢٤٣ هـ) انظر الأغاني ٢٠/٩ ، وتاريخ بغداد ١١٧/٦ ، وبيته في معجم الأدباء ١٨٣/١ ، وفي سمط اللآلي ص ٧٠٩ ، والغيث المسجم ٢٩/١ .

(٢) ابن الزيّات هو محمد بن عبد الملك ، وزير المعتصم والواثق ، عالم باللغة والأدب له ديوان شعر (ت ٢٣٣ هـ) انظر النجوم الزاهرة ٢٢٣/١ .

(٣) ابن حمديس الصقلي هو عبد الجبار بن أبي بكر ، شاعر مبدع اتصل بالمعتَمد ابن عبّاد (ت بجزيرة ميورقة سنة ٥٢٧ هـ) انظر وفيات الأعيان ٣٠٢/٣ .

(٤) والبيتان في ديوانه ص ٤٢١ .

(٥) ديوان ابن حمديس ص ١٢٦ . وجاء في صدر الأول « يجمّع » وجاء في عجز الثاني « كالجسم تعدم روحه أو توجد » .

على أن ابن حَمْديس أتى بالمعنى كاملا في بيت واحد ، وإدريس اليماني إنما أتى به في بيتين • ولكن نظم إدريس أعلق بالقلب ، وأوقع في النفس ، وأعذب في السمع •

وقريب من هذا المعنى قول أبي العلاء المعري في اللزوميات :

لم يكُنِ الدَّنُّ غيرَ تكْسرٍ سُلافةُ الراحِ عَرَّفَتْهُ
كآدمٍ صيغَ من ترابٍ ونفخةُ الروحِ شرفَتْهُ[(١)]

(٦٨/أ)

وكلاهما تسلق على هذا المعنى ، ونقله إلى الثقل والخفة ، وإلا فهو هو •

وعلى ذكر الخفة في الخمر والطيران ، فما أحلى قول أبي الحسين الفُكَيْك :

بِكْرٌ خَطاب إذا ما الماءُ خالطَها أبدت لنا زَبَداً في سَوْرةِ الغَضَبِ
كادتْ تطير نِفارا حين واقَعَها لولا شبابيكُ ما صاغتْ من الحَبَبِ

[نماذج من إنشاء ابن الأثير يدعي فيها السمو]

قال : « وقد جاءني في الكلام المنثور شيء من هذا الضرب ، وسأذكر ههنا منه نبذة •فمن ذلك ما ذكرته في وصف صورة مليحة فقلت :

« ألبس من الحسن أنضر لباس ، وخلق من طينة غير طينة الناس ، وكما زاد حسنا فكذلك زاد طيبا ، واتفقت فيه الأهواء حتى صار إلى كل قلب حبيبا ، فلو صافح الورد لتعطرت أوراقه ، ولو مرّ على اللَّيْنوفَر ليلا لتفتحت أحداقه[(٢)] » •

أقول : أي غريب في هذه المعاني ، وأي إبداع حتى يثبته ويتعجب له ويروقه .

أما الأول فمأخوذ من قول[(٣)] •

---

(١) لم أعثر على البيتين فيما وقفت عليه من شعره .

(٢) المثل السائر ٢/٣٢ « ... من هذا الضرب شيء . . وكما زاد حسنا فكذلك ازداد طيبا ... أو لو مر على النيلوفر ليلا .. » .

(٣) لم يذكر اسم القائل والبيت لابن زيدون في ديوانه ص ١٤٤ من قصيدته المشهورة في ولادة بعد فراره من سجن قرطبة . مطلعها :

أضحى التنائي بديلا من تدانينا وناب عن طيبِ لقيانا تجافينا

وقد جاء لفظ « أنشأه » بدل « صوره » .

ربيبُ مُلْكٍ كأنَّ اللهَ صوَّرَهُ مِسْكاً ، وقدَّر إنشاءَ الورى طينا

ولا يخفى أن هذا أمدح وأحسن .

وأما الثاني ، فمأخوذ من قول البحتري :

أُفرِغَتْ في الزجاجِ من كل قلبٍ فهي محبوبــةٌ إلى كل نَفْسِ [(١)]

وقول ابن لَنْكَك [(٢)] .

عُصِرَتْ من دمِ القلوبِ فما تَبْـ .... ـصَرَ إلا تعلقَتْ بالقــلوبِ [(٣)]

وأما قوله « فلو صافح الورد لتعطرت أوراقه » ، فأي مزية لهذا الموصوف بهذه الصفة والورد ما زال عطرا ، سواء صافحه زنجي أو غيره ، وهذا من بـــاب تحصيل الحاصل . ولو قال : فلو صافح الأثل تضوع منه نشر البان ، ولو مرّ على اللَّيْنوفر في الليل لأيقظ طرفه الوسنان لكان أحسن . فإن الورد لو صافحه أبو الأسود الدؤلي أو عبد الملك بن مروان (٦٨/ب) ، لكان طيب العَرف ؛ والمدح إنما يكون بأنّ الإنسان يُكسب الطيبَ ما ليس له طيب ويُفيد الحُسنَ ما لم يكن معروفا بحُسن .

---

(١) ديوان البحتري ١٩١/١ . من قصيدة قالها يصف إيوان كسرى . مطلعها :
صُنْتُ نفسي عما يدنّسُ نفسي وترفَعْتُ عن جَدا كلِ جِبْسِ

(٢) ابن لنكك واسمه محمد بن محمد البصري . جل شعره في شكوى الزمـان وأهله . وقد هجا المتنبي (ت نحو ٣٦٠ هـ) انظر الوافي بالوفيات ١٥٦/١ ، واليتيمة ١١٦/٢ ـ ١٢٥ .

(٣) والبيت في معجم الأدباء ١١/١٩ وهما بيتان اولهما :
قــد شربنــا على شقائقِ رَوْضٍ شربَتْ عَبرةَ السحابِ السكوبِ
وجاء مطلع البيت « صُبغت » .

ألا ترى أنهم عابوا على كثير عزة قوله :

وما روضةٌ با لحَزْنِ طيبةُ الثرى يَمُجُّ النَّدى جثجاثُها وعَرارُها
بأطيبَ من أردانِ عزةَ موْهِناً وقدأُوقدَتْ بالمَنْدلِ الرَطْبِ نارها[١]

وقيل له : لو كانت هذه أمة زنجية ووقود نارها مندل رطب ، لطاب ريحها وتعطر رِدْنها . وهلاّ قلت كما قال امرؤ القيس .

ألم تَرَ أَني كلما جئتُ طارقاً وجدتُ لها طِيبا وإن لم تَطَيَّبِ[٢]

ولهذا استحسنوا قول القائل :

وريحُها أطيبُ من طيبِها والطيبُ فيه المسكُ والعنبرُ

فانظر إلى هذا الشاعر لما أثبت أنها تتطيّب جعل ريحها أطيب منه .

وبالغ بشار بن برد في قوله :

وإذا أدنيتَ منها بصلاً غلَبَ الطيبُ على ريحِ البصلْ[٣]

---

(١) ديوان كثير ٩١/١ من قصيدة مطلعها :
فأقسمتُ لا أنساكِ ما عشتُ ليلةً وان شَحَطَتْ دارٌ وشطَّ مزارُها
وجاء مطلع أولهما « فما » وأوردهما ابن عبد ربه في العقد الفريد ٣٧٣/٥ ، والشريشي في شرح المقامات ٢٠٨/٢

(٢) ديوان امرىء القيس ص ٤١ من قصيدة مطلعها :
خليليَّ مُرّا بي على أمِ جندب نُقَضِّ لُبانـاتِ الفؤادِ المعذبِ
والبيت في الديوان :
الم ترياني كلما جئتُ طارقا وجدْتُ بها طيبا وإن لم تطيّبِ
وجاء في رواية العقد ٣٧٣/٥ « ترياني » و « وجدت فيها طيبا » وكذا في شرح المقامات ٢٠٧/٢ ، أما الوساطة ص ٣١٢ فكانت « ألم تر أنى » و « وجدت بها طيبا » . وانظر تفصيل ذلك في المحاسن والأضداد ١٣٩ .

(٣) لا وجود للبيت في المطبوع من ديوان بشار ، لأن الديوان لم يجاوز حرف الراء.

لكنه هجن هذا المعنى بذكر البصل .

ويحكى أن بعض الشيعة أنشد أبا مجالد[1] قول السيِّد الحِميري[2] :

أقسم بالله وآياته ... والمرء عمّا قالَ مسؤولُ
أنّ عليَّ بنَ أبي طالبٍ ... على الهُدى والبرِ مَجبولُ
ذاكَ الذي سلّم في ليلةٍ ... عليه ميكالٌ وجبريلُ
ميكالُ فيألفٍ وجبريلُ في ... ألفٍ ويتلوهمْ سَرافيلُ
في يومِ بدرٍ بددا كلُّهمْ ... كأنهمْ طيرٌ أبابيلُ

فقال له أبو مجالد : ياهذا إن الشاعر لم يمدح صاحبك ، وإنما هجاه في موضعين (٦٩/أ) أحدهما أنه زعم أن علياً ــ كرّم الله وجهه ــ مجبول على البرّ والهُدى ، ومن جُبل على أمر لم يمدح عليه ، لأنه لم يكسبه بسعيه .

وثانيهما أنه ادّعى أنه أُيد في حروبه بالملائكة ، ولا فضيلة له حينئذ في الظفر ، لأن أبا حَيَّة النُميري[3] لو أيّد بهؤلاء لقهر الأعداء[4] .

ذكر ذلك أبو عمر الزاهد[5] في كتاب « الياقوته » فثبت بمثل هذا أن لا مدح

---

(١) أبو مجالد واسمه احمد بن الحسين البغدادي الضرير ، كان يحفظ مئة الف حديث . انظر طبقات المعتزلة ٨٥ .

(٢) السيد الحميري واسمه إسماعيل بن محمد . شاعر إمامي غزير الشعر (ت ١٧٣ هـ) انظر الأغاني ٧/٢ ــ ١٣ .

(٣) ابوحيّةالنميريواسمه الهيثم بن الربيع ، شاعر مجيد راجز من مخضرمي الدولتين ، مدح الخلفاء وعرف بجُبنه (ت نحو ١٨٣ هـ)انظر الشعروالشعراء ٧٧٤ ، وخزانة البغدادي ١٥٤/٣ .

(٤) يقصد أبو مجالد ان السيد الحميري لم يصب في المدح فصار كالهجاء ، ولم يقصد انه هجاه حقيقة فالسيد الحميري شيعي متطرف ، انظر اخبار السيد الحميري للمرزباني .

(٥) في الأصل أبو عمرو وهو تحريف . ت سنة ٣٤٥ . وقد الف كتابه الياقوته ما بين سنتي ٣٢٦ ــ ٣٣١ هـ . انظر انباه الرواة ١٧١/٣ ، والفهرست ١١٩ ، وتاريخ بغداد ٣٥٦/٢ .

في قوله : « لو صافح الورد لتعطرت أوراقه » • ويؤيد هذا أنه تنبه لهذا في السجعة الثانية فقال :

« ولو مر على الлينوفر ليلا لتفتحت أحداقه » فاحترز بالليل لأنه في النهار يكون مفتوح الأوراق [١] •

ومن طريف ما جاء للشعراء في الлينوفر قول الخبز أرزي [٢] :

خافَ المَلالَ إذا طالتْ إقامتهُ فصارَ يظهَرُ أحياناً ويحتجبُ
كأنه حين يبدو من مطالِعهِ صبٌ يُقبِّلُ حِبّاً وهو يرتقبُ

وذكرت هنا قول بعض المتأخرين[٣] في زر ورد •

سَبَقَتْ اليكَ من الحدائقِ وردةٌ وأتتكَ قبل أوانها تطفيلا
طمِعَتْ بلثمكَ إذ رأتكَ فجمّعتْ فَمَهَا إليكَ كطالبٍ تقبيلا[٤]

وهذا من محاسن التضمين الذي نقل عن أصله ، لأن المتنبي قال في الناقة من جملة قصيدته :

ويُغيرني جذبُ الزمامِ لقلبِها فَمَهَا اليكَ كطالبٍ تقبيلا[٥]

---

(١) لعلها الأحداق .

(٢) الخبز أرزي ، واسمه نصر بن أحمد البصري ، شاعر أُميّ غزل كان يخبز خبز الأرز في المربد (ت سنة ٣٢٧ هـ) انظر وفيات الأعيان ١٥٣/٢ ، وإرشاد الأريب ٢٠٦/٧ – ٢٠٨ .

(٣) صاحب الأبيات هو الشاعر مجير الدين ابن تميم محمد بن يعقوب ، كان جنديا شجاعا كريم الأخلاق (ت بحماة ٦٨٤ هـ) انظر شذرات الذهب ٣٨٩/٥ ، والنجوم الزاهرة ٣٦٧/٧ ، وفوات الوفيات ٥٣٨/٢ ، وخزانة ابن حجة ١٧٦ .

(٤) وورد البيتان له في معاهد التنصيص ٦٦/١ ، وريحانة الألبا ٤٦٣/٢ – ٤٦٤ ، والغيث المسجم ٧٢/١ وفيه « سيقت إليك .. » .

(٣) شرح الديوان للبرقوقي ٤٣٦/٣ من قصيدة قالها في بَدرْ بن عمّار إذ ضرب الأسد بسوطه . مطلعها :

في الخدِ أنْ عَزَمَ الخليطُ رحيلا مطرٌ تزيدُ به الخدودُ مُحولا

على أنه أخذه من ابن بابك [١] ، وإنما حسّن ذلك التضمين . فإن ابن بابك قال :

وافى الشتاءُ فبزَّ النورَ بهجتَه فعلَ المشيبِ بشعرِ اللِّمَّةِ الرَّجِلِ
وَرْدٌ تفتحَ ثم ارتدَّ مجتمعاً كما تجمَّعتِ الأفواهُ للقُبَلِ [٢]

وما أحسن قول مجير الدين محمد بن تميم في اللينوفر : (٦٩/ب)

غدا اللَّيْنوفرُ المصفرُّ يَحكي النّجوم فلا يغادرها شبيها
تغوصُ العيْنُ فيه إذا تجلّى النّهارُ وفي الظلامِ يغوصُ فيها

وقد استخدم العين هنا في معنين : أولهما العين الباصرة ، والثاني العين الجارية وقول ابن حَمْديس الصِّقِلّي :

اِشربْ على بركةِ لينوفرٍ مصفرةِ الأوراقِ خضراءِ
كأنما أزهارُها أخرجتْ ألسنةَ النارِ من الماءِ [٣]

وما ألطف قول التنوخي [٤] من جملة أبيات :

ألِفَ المياهَ مشاكلاً بلطافةٍ حتى يفارقَ شكلَه لم يَصْبِرِ
فيقومُ طوْرا ثم يرفعُ رأسَه بتخَنُّثٍ وتأودٍ وتكَسُّرِ

(١) ابن بابك واسمه عبد الصمد بن منصور ، شاعر بغدادي مكثر ، وفد على الصاحب بن عباد (ت ببغداد سنة ٤١٠ هـ) انظر وفيات الأعيان ٢٩٧/١ ، ومعاهد التنصيص ٦٤/١ .

(٢) وبيتاه في معاهد التنصيص ٦٦/١ ووردت فيه « النور » مرفوعة وقد نصبها الصفدي والنصب أنسب للمعنى .

(٣) ديوان ابن حمديس ص ٥ وقد جاء البيت الأول :
اشرب على بركةِ نيلوفرٍ محمرةِ النَّوارِ خضراءِ

(٤) التنوخي هو عبد المحسن بن حمود الحلبي أمين الدين الشاعر الكاتب المنشىء (ت ٦٤٣ هـ) انظر الشذرات ٤٢٠/٥ ، والنجوم الزاهرة ٣٥٣/٦ .

وكأنـه في الماء صاحبُ مذهبٍ أغراه وَسْواسٌ بأنْ لم يَطْهُرِ

وقول الآخر :

كـأن لينوفرَهـا عاشقٌ نهارَه يرقبُ وجهَ الحبيبْ
حتى اذا الليلُ بـدا سِجْفُـهُ وانصرفَ المحبوب نحوَ الكئيب(١)
غَمَّضَ عينيـه عسى أن يـرى في النومِ من فازَ به عن قريبْ

وبالغ الآخر في الظرف حين قال :

وكأنه اِذْ غابَ وقتَ مسائهِ في الماءِ واحتجبَتْ نضارةُ قدِهِ
صبٌ يهـدّدُه الحبيبُ بهجرِهِ ظُلماً فغرّق نفسَه من وجدِهِ (٧٠/أ)

وقال الوجيه ابن الذروي يهجو النَّيلْنوفر المصري :

ولينوفرٍ أبـدى لنا باطناً لـه مع الظاهرِ المخضرِ جمرةَ عنـدمِ
فشبهتُه لما قصـدتُ هجاءَهُ بكاساتِ حجّامٍ بها لوثةُ الدمِ

[نموذج من إنشاء ابن الأثير في ذم الشيب يدعي فيه الإبداع]

قال : « ومن ذلك ما ذكرته في ذم الشيب فقلت : والشيب إعدام لا يسار ، وظلم لا أنوار ، وهو الموت الأول الذي يصلى نارا من الهم أشد وقودا من النار ، ولئن قال قوم إنه جلالة فإنهم دقّوا به وما جلوا ، وأفتوا في وصفـه بغير عـلم فضلّوا وأضلّوا ، وما أراه إلا محراثا للعمر ولم تدخل آلة الحرث دار قوم إلا ذلوا . ومن عجائب شأنه أنه المملول الذي يشفق من بُعْدِهِ ، والخلق الذي يكره نزع برده ، ولما فَقِدَ الشبابُ كان عنه عوضا ولا عوض عنه في فقده (٢) » .

(١) في النسخة (ن) « الكثيب » وفي حسن المحاضرة للسيوطي ٢٤٤ « خوف الرقيب » ، وفي عجز الثالث « مَن فارقه » وهو أصوب .

(٢) المثل السائر ٣٣/٢ « ... اعدام للايسار وظلام للأنوار ... ومن عجيب شأنه أنه المملول ... » .

أقول : إنه أخذ بعد فراغه من هذا الفصل في الدندنة على العادة ، وأن المعنى الذي ابتدعه هو تشبيه الشيب بآلة الحرث ، وقد شبه الناس الشيب بأشياء منها اشتعال النار ، وقد نطق القرآن العظيم به في قوله تعالى «واشتعل الرأس شيبا[1]» .

وقال الأرّجاني :

قدأشعلَ الشيب رأسي للبِلاعَجِلاً ... والشمعُ عند اشتعالِ الرأس ينسبكُ
فإن يكن راعَها من لونه يَقَقٌ ... فطالما راقَها من لونِهِ حَلَكُ[2]

ومنها تشبيهه بالصبح ، قال :

وقالوا انتبه من رقدةِ اللهووالصبا ... فقد لاحَ صبحٌ في دُجاكَ عجيبُ
فقلت : أخِلاّني دعوني ولذّتي ... فإن الكرى عند الصباحِ يَطيبُ[3]

ومنها تشبيهه بالنجوم ، قال : (...)[4] (٧٠/ب) .

ومنها تشبيهه بالتبسم . قال أبو تمام :

رأتْ تَبَسُّمَهُ فاهتاجَ هائجُها ... وقال لاعجُها للعَبْرةِ انسكبي
فلا يُؤَرّقْكِ إيماضُ القتيرِ بـه ... فإنّ ذاك ابتسامُ الرأيِ والأدبِ[5]

---

(١) سورة مريم (١٩/٤) .

(٢) ديوان الأرجاني ص ٢٩٥ من قصيدة يمدح بها سعد الملك الوزير أحمد بن نظام الملك الحسن بن إسحق . مطلعها :

هم نازلون بقلبي أيةً سلكوا ... لو أنهم رَفَقوا يوما بمَن ملكوا

وجاء في صدر الاول « عجبا » بدل عجلا ، كما جاء في عجز الثاني « من قبله حلك » .

(٣) في الغيث المسجم ٢/٢٢٢ غير منسوبين .

(٤) بياض في الأصل .

(٥) ديوان أبي تمام – عزام ١/١١٦ من قصيدة قالها يمدح الحسن بن سهل مطلعها :

أبدت اسى ان راتني مخلِسَ القَصَبِ ... وآلَ ما كان من عُجْبٍ الى عَجَبِ

وجاء في صدر الأول « رات تشننه » ، وتشننِ الجلد : إذا خلق .

ومنها تشبيهه بالحبب . قال (...) [١] .

ومنها تشبيهه بالغبار قال ابن المعتز :

صدَّتْ شُرَيْرُ وأزمعتْ هجري ... وضعتْ ضمائرُها إلى الغَدْرِ

قالت كبرْتَ وشِبْتَ قلتُ لها: ... هذا غبارُ وقائعِ الدهرِ [٢]

ومنها تشبيهه بالسيف ، قال :

أنا إنْ نزعْتُ عن الغوايةِ والصبا ... فلطالما استهوتْني الآثامْ

أصبو وسيفٌ للمشيبِ مجرَّدٌ ... وقلتُ نورٌ بدا على قُضُبِهْ

ومنها تشبيهه بالزهر . قال الغزي :

تألقَ الشيبُ فاعتذرْتُ له ... وقلتُ نورٌ بدا على قُضُبِهْ

كأن ثغرَ الحبيبِ ركَّبَ في ... مفارقي ما أضاءَ من شنبه

ومنها تشبيهه بالبوم والقطاة كقول الشافعي — رضي الله عنه — في أبياته التي منها :

أيا بومةً قد عشَّشَتْ فوقَ هامتي ... على الرغمِ مني حين طارَ غرابُها [٣]

وقال الغزي :

---

(١) بياض في الأصل .

(٢) في الغيث المسجم ٢/٢٢٢ وجاء البيت الأول :

صدت سرير وازمعت هجري ... وصفت ضمائرها إلى الغدر

كما ورد ثانيهما في الذخيرة . القسم الرابع المجلد الأول ص ٢٢٦ . انظر ديوان ابن المعتز ٢/١٣٧ .

(٣) ديوان الشافعي (سيد الأهل) ١٩٦٦ ص ١٣ من قصيدة قالها في المشيب مطلعها :

خَبَتْ نارُ نفسي باشتعالِ مَفارقي ... وأظلَمَ ليلي إذ أضاءَ شهابُها

قطاةً في الهدايةِ كان شيبي ... وإن سمّتْنَهُ نقبتُهُ غُرابا(١)

وشبهه السراج الوارق بالقِرْطِم ، وإنما حَسُن ذلك لأنه ـ رحمه الله تعالى ـ كان أشقر . فقال .

ذهب العصفرُ مني ... وبدا قِرطمُ شيبي
والتي قد ملكتْ رِقـ ... ـيَ رَدَّتني بعيبي

وقيل لأعرابي عن الشيب : ما هذا البياض الذي في رأسك ؟ فقال زبدةمخضتها الأيام وفضة سبكتها التجارب .

وما أحسن قول القاضي الفاضل ـ رحمه الله ـ (٧١/أ) .

اليكَ بعدَ انقضاءِ اللهوِ واللعِبِ ... عني فلم أرَبي ما يقتَضي أَرَبي
والعمرُ كالكأسِ والأيامُ تَمزُجُهُ ... والشيبُ فيهقذىً فيموضعِ الحبَبِ(٢)

وشبّه بأشياء مناسبة غير هذه ، ولم أر لأحد تشبيهه بآلة الحرث ، وأي مناسبة بين آلة الحرث والشيب وما وجه الشبه وليس هذا من باب تشبيه المحسوس بالمحسوس ، ولا من باب المحسوس بالمعقول ، وما أدري ماهو ، وأما تشبيه الهرم بالحرث نفسه فجائز وأما قوله « اعدام لايسار » ، فمأخوذ من قول المتنبي :

---

(١) مصورة الديوان ورقة ١١١ . من قصيدة مطلعها :

تصابى في المشيبِ ومن تصابى ... كمن في كفِهِ الهندي صابا

وجاءت رواية البيت :

قطاةً في الهدايةِ كان فَوْدي ... وإن سميت نقبته غرابا

(٢) ديوان الفاضل ص ١٣٨ من قصيدة مطلعها البيت الأول نفسه . وجاء في صدره « الجد » بدل « اللهو » . واللهو أصلح .

وقد أراني الشبابُ الروحَ في بدني وقد أراني المشيبُ الروحَ في بدلي(١)

وأما قوله « ظلام لا أنوار » ، فمأخوذ من قول أبي تمام :

له منظرٌ في العينِ أبيضُ ناصعٌ ولكنه في القلبِ أسودُ أسفعُ(٢)

وقول أبي الطيب :

ابعِدْ بعِدْتَ بياضاً لا بياضَ له لأنتَ أسودُ في عيني من الظُّلَمِ(٣)

وما أحسن قول الغزي :

كيف لا ينفرُ الظباءُ من الشيـ ـبِ ومن عادةِ الظباء النُّفورُ
أبيضٌ مظلمٌ وكلُّ بياضٍ في سوى العينِ والمفارقِ نورُ(٤)

وأما قوله : « وهو الموت الأول .. » (السجعة)، قال محمود الورّاق : «الشيب إحدى الميتتين » (٥) .

وقال غيره : الشيب غمام قطر الغموم .

وأما قوله : « ولئن قال قوم إنه جلالة .. (السجعة) ، فذكرت به قول بعض المتأخرين :

---

(١) غير وارد في شعر المتنبي . وجاء في عجزه في النسخة (ن) « الروع في بدني » .

(٢) ديوان أبي تمام ــ عزام ٣١٩/٢ . من قصيدة قالها يمدح أبا سعيد الثغري . مطلعها :

أمـا إنه لـولا الخليطُ المودِّعُ وربعٌ عفا منه مَصيفٌ ومَربَعُ

كما ورد البيت في هبة الأيام ص ٢٩٣ ، والوساطة ص ٢٥٠ ، وحماسة ابن الشجري ٢٤٢ .

(٣) شرح الديوان للبرقوقي ١٩٥/٤ . من قصيدة قالها في صباه ، مطلعها :

ضيفٌ ألمَّ برأسي غيرَ محتشمِ والسيفُ أحسنُ فعلاً منه باللِّمَمِ

(٤) مصورة ديوان الغزي ورقة ١٠٩ من قصيدة : مطلعها :

كوكبُ الشرقِ ثاقبٌ لا يغورُ وبقدْرِ الأسى يكونُ السرورُ

وفيه صدر الأول « الغزال » بدل « الظباء » .

(٥) زهر الآداب ٤٤/٤ .

وقالوا شبابُ المـرءِ لهوٌ وغِرّةٌ ومن خلفِه شَيْبُ الوقارِ ولا رَيْبُ
وأيُّ وقارٍ لامرئٍ عريَ الصِبا وقدّامَه شيبٌ ومِنْ خلفِه شَيْبُ

وأما قوله : « وهو المملول الذي يشفق من بعده » ، فمأخوذ من قول مسلم ابن الوليد وقولُ مسلم في غاية الحسن : (٧١/ب) .

الشيبُ كُرهٌ وكره أن يفـارقني اعجبْ بشيءٍ على البغضاءِ مـودودِ
يمضي الشبابُ فيأتي بعدَهُ بـدلٌ والشيبُ يذهبُ مفقوداً بمفقودِ (١)

قيل : إن المنذر بن أبي سَبَرَة نظر إلى أبي الأسود الدؤلي وعليه قميص مرقوع فقال له : ما أصبرك على هذا القميص ؟ فقال : رب مملول لا يستطاع فراقه(٢) . فبعث إليه تَخْتاً من ثياب .

ونظر سليمان بن وهب (٣) في المرآة فرأى الشيب فقال : عيب لا عَدِمناه (٤) وقد جاء في ترسل الفاضل ذكر الشيب فقال :

« فمَن يطلعُ شرف السبعين يهبط إلى الحضيض ، ومن يُعمّر العمر الطويل يقع في الطويل العريض وأيام المشيب كلها بيض ، ومـا نحن ممن يصوم الأيام البيض » .

وما ألطف قول ابن المعتز :

أيـا نفسُ قـد أثقلتِني بـذنوبي أيا نفسُ كفي عـن هواكِ وتوبي

---

(١) ديوان مسلم ص ٣١١ وفيه صدر الثاني « يمضي الشباب وقد يأتي له خلف ». كما وردا في زهر الآداب ٤/٤٤ ــ ٤٥ ، وحماسة ابن الشجري ٢٤٥ .
(٢) انظر هذا الكلام في فصل المقال ٢٩٣ ، ومجمع الأمثال (محيي الدين عبد الحميد) ١/٣٠٦ حرف الراء .
(٣) سليمان بن وهب بن سعيد الحارثي ، وزير من كبار الكتاب ، مدحه البحتري وأبو تمام . مات في حبسه ببغداد سنة ٢٧٢ هـ ، أنظر وفيات الاعيان ١/٢١٦ ، وسمط اللآلي ٥٠٦ .
(٤) قوله في زهر الآداب ٤/٤٤ .

وكيفَ التصابي بعد أن ذهَبَ الصِبا وقد ملَّ مِقراضي عِتاب مشيبي [١]

وما أحلى قول[٢] :

ألا يا سارياً في بطنِ قَفْرٍ ليقطعَ في الفَلا وعْراً وسهْلا
قطعْتَ نَقا المشيبِ وبنْت عنْهُ وما بعدَ النَقا إلا المُصلّى

ولبعض الشعراء :

ولما رأيتُ الشيبَ راءً بعارضي تيقنْتُ أنَّ الوصلَ لي منكِ واصلُ

ربما يفهم من هذا البيت غير ما قصده الناظم ، فيتوهم أنه يظن أن الشيب سبب لوصاله وهو على خلاف المعهود من كلام الشعراء ، فإنهم ما زالوا يقولون إن الشيب سبب نفار الغواني عن المحبين .

وما أحسن قول خالد الكاتب [٣] في هذا :

لما رأتْ شيباً ألمَّ بمَفْرِقي صدَّتْ صدودَ مُفارقٍ مُتجَمِّلِ
وجَعَلْتُ أطلبُ وصلَها بتذلّلٍ والشيبُ يغمِزُها بأنْ لا تفعلي [٤]

(٧٢/أ)

(١) ديوان ابن المعتز ص ٩٣ . وهما فيه بيتان فحسب . وجاء الثاني :
وكيف التصابي بعدما ذهب الصبا وقد مل مقراضي عقاب مشيبي

(٥) لم يذكر اسم القائل وهما لابن خلكان ، أوردهما له ابن شاكر الكتبي في فوات الوفيات ٢/٢١١ كما يلي :
ألا يا سائراً في قَفرِ عُمرٍ يقاسي في السُرى حَزْناً وسَهْلا
بلغْتَ نَقا المشيب وجَزْتَ عنه وما بعد النقا إلا المصلى
كما وردا في الغيث المسجم ٢/٢٢٤ غير منسوبين .

(١) خالد بن يزيد البغدادي المعروف بالكاتب ، شاعر رقيق غزل من الكتاب (ت ببغداد سنة ٢٦٩ هـ) انظر فوات الوفيات ١/٢٩٦ .

(٢) والبيتان له في زهر الآداب ٤/٣٩ وقبلهما ثالث . والرواية فيه :
نظرَتْ اليَّ بعينِ من لم يَعْدِلِ لما تمكّنَ حبُها من مَقْتَلي
لما رأت وضَحَ المشيبِ بلِمتي صدتْ صدودَ مجانب متحملِ
فجعلت أطلب وصلها بتلطف والشيب يغمزها بأن لا تفعلي
وينسبهما العقد الفريد ٣/٤٣ لأبي تمام وليسا في ديوانه .

والشاعر إنما أراد هذا المعنى المعهود ، فإن واصل بن عطاء الغزال [١] رأس المعتزلة ، كان يلثغ في الراء لثغة قبيحة ، وكان يتجنب الراء في كلامه ، ولا تكاد تسمع منه كلمة فيها راء ويقال إنه امتحن ليقرأ أول سورة « براءة » فقرأ من غير فكر ولا روية : عهد من الله ونبيه إلى الذين عاهدتم من الفاسقين ، فسيحوا في البسيطة هلالين هلالين .

وبلغه أن بشار بن برد هجاه ، فقال غير مفكر : أما آن لهذا الأعمى الملحد المكنى بأبي معاذ من يقتله . أما والله لولا أن الغيلة خلق من أخلاق الغالية ، لبعثت إليه من يبعج بطنه على مُضْطَجَعِه ثم لا يكون إلا سَدوسِيّا أو عُقَيْلِيّا .

فقال « الأعمى » ولم يقل الضرير ، وقال «الملحد » ولم يقل الكافر ، وقال « أبو معاذ » ولم يقل بشار بن برد ولا المُرعث ، وقال « الغيلة » ولم يقل الغدر ، وقال « الغالية » ولم يقل المغيرية ولا المنصورية ، وقال « بعثت » ولم يقل سيرت ، وقال « يبعج » ولم يقل يبقر ، وقال « مضطجعه » ولم يقل فراشه ، وأراد بذكر عقيل وسدوس ما كان بشار بن برد يذكره من الاعتزاز اليهما [٢] .

وقال فيه بعض الشعراء [٣] يمدحه :

---

(١) واصل بن عطاء الغزال أبو حذيفة ، رأس المعتزلة ومن أئمة البلغاء والمتكلمين (ت ١٣١ هـ) انظر طبقات المعتزلة ٢٨ ، وانظر قوله في زهر الآداب ١١٩/٢ – ١٢٠ ، وشرح أدب الكاتب للجواليقي ١٠٤ و ١٠٦ ، والآية الكريمة في سورة التوبة ١/٩ « براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين ، فسيحوا في الأرض أربعة أشهر » .

(٢) انظر تفصيل ذلك في زهر الآداب ١١٩/٢ – ١٢٠ ، وشرح أدب الكاتب للجواليقي ١٠٤ ، ١٠٦ .

(٣) لعله أبو الطروق الضبي وقد عرف بمدحه واصل بن عطاء بإطالة الخطب واجتناب الراء . وقد وردا غير منسوبين في فوات الوفيات ٦٢٤/٢ ، ومعجم الأدباء ٢٤٦/١٩ . وجاء فيه البيت الثاني :

ولم يُطِقْ مَطَرا في القولِ يجعَلَه فعاذَ بالغيثِ إشفاقا من المَطَرِ

كما وردا في البيان والتبيين ٢١/١ .

ويجعـل البُرَّ قمحاً في تصرفِـهِ وخالَفَ الراءَ حتى احتالَ للشَعَرِ
ولم يُطِقْ مطرا والقولُ يُعجِلُهُ فجاءَ بالغيثِ إشفاقـا مـن المطرِ

فلهذا قال الشاعر ذلك البيت . وشبه الوصل بواصل ، وشبه الشيب بالراء . مراده أنه يجفوه جفاء واصلٍ الراءَ .

وقال آخر فأحسن :

أعِدْ لَثْغَةً لو أن واصلَ حاضرٌ ليسمَعَها ما أسقَطَ الراءَ واصلُ

وقال الرَّمادي[1] في مليح ألثغ .

لا الراء تطمعُ في الوصالِ ولا أنا الهجرُ يجمعنا فنحـن سـواءُ
فـإذا خلَوتُ كتبتُهـا في راحتي وقعدْتُ مُنتَحِباً أنا والراء(٧٢/ب)

وقال الأرجاني :

هَجَرَ الراءَ واصلُ بـنُ عطاءٍ في خطـابِ الورَي مـن الخطباءِ
وأنـا سوفَ أهجرُ القـافَ والرا ءَ مع الضادِ مـن حروفِ الهجـاءِ

[مناقشة نموذج من إنشاء ابن الأثير]

قال : وكذلك كتبت إلى بعض الأصحاب كتابا من هذا الجنس ، أهزل معه فقلت: « ينبغي له أن يشكرني على وسمه بهجائي دون امتداحي ، فإني لم أَسِمْه إلا لتحرم به الأضحية في يوم الأضاحي ، ولا شك أن سيدنا معدود في جملة (٧٣/أ) الأنعام ، غير أنه من ذوات القرون والقرون عدة في الخصام [2] » .

---

(١) الرمادي واسمه يوسف بن هارون الكندي ، شاعر أندلسي مدح المنصور بن أبي عامر (ت بقرطبة ٤٠٣ هـ) انظر مطمح الأنفس ص ٦٩ ، والصلة ص ٦٣٧ .

(٢) المثل السائر ٣٤/٢ « وكذلك كتبت إلى بعض الناس .. فقلت في فصل منه ما ذكره وهو : ينبغي ... والقرون عدوه عند الخصام » .

أقول : أي معنى هذا حتى يتبجح به ويقول : « وهذا معنى ابتدعته ولم أسمعه لأحد قبلي » .

ولو أنه اقتصر على السجعتين الأوليين لكان ذلك أحسن من أن يفسر معناهما فيما بعد ولقد أذهب رونق التنديب والتندير ، بما أتى به من التفسير . وقد قيل إن من شرط التنديب أن لا يكون خفياً ولا صريحاً ولكن بين بين .

ألا ترى إلى قول السَّراج الوراق فيمن ينعت بالصفيّ :

حالت حوادثُ بيني بين الصفيِّ وبيني
فلا أموتُ إلى أنْ أرى الصفيَّ بعيني

ما أحلاه . ولو قال : فلا أموت إلى أن أراه صفيّا أو بعين واحدة ، يعني أعور ما كان له هذه الطلاوة ، ولا فيه هذا الحسن الواقع من القلب . أو لو أخذ يفسره فيما بعد ويشرح ما رمزه ، ذهبت منه هذه الحلاوة .

وانظر ما أحسن قول الجزّار أبي الحسين[1] رحمه الله تعالى :

لو يقنِصُ الجزارُ أرواحَ العِدى في يومِ عيدكَ كنتُ أولَ قانصٍ
لكنهُمْ أمِنوا مُدايَ لنقصِهِمْ إنّ الضَحيةَ لا تكونُ بناقصٍ

وقوله أيضا :

نصحتُكَ فاسمعْ من نصيحةِ عاشقٍ[2] وإني على ما قلتُه لأَمينُ
من الرأي أن لا توقع الحربَ بَيْننا فإني جزار وأنتَ سمينُ (٧٣/ب)

---

(١) أبو الحسين الجزار واسمه يحيى بن عبد العظيم جمال الدين . شاعرمصري ظريف كان جزارا ، وصل بشعره إلى السلاطين (ت ٦٧٩ هـ) انظر فوات الوفيات ٢/٦٣٠ ، والنجوم الزاهرة ٧/٣٤٥) .

(٢) في حاشية (ب)« لعله صادق » وهو أنسب .

ولو قال : ينبغي له أن يشكرني على وسمه بهجائي بين البرية ، فإني لم أسمه إلا لكي تحرم به الأضحية ، لكان أحسن . فإن قوله : « الأضحية في يوم الأضاحي» من باب قولك : العيد في يوم العيد ، والصيام في أيام الصيام . ومن المعلوم أن الضحايا لا تطلق إلا على ما ذبح أيام التشريق ، وما ذبح في غير ذلك من الذبائح لا يطلق عليه ذلك . وكذلك صلاة الجمعة لا تطلق إلا على الصلاة المعروفة في الوقت المخصوص ، ومتى كانت صلاة في غير ذلك الوقت فلا تكون جمعة .

[نموذج من إنشاء ابن الأثير يدعي فيه الإبداع]

قال في فصل ذكر فيه هدية رطب لبعض ملوك الشام : « ولما استقلت به الطريق أنشأ الحسد لغيره من الفواكه أربا ، وما منها إلا من قال يا ليتني كنت رطبا [1] » .

أقول أي فصاحة لهذه العبارة ، وأي بلاغة على هذا المعنى الذي لا طائل تحته وأين هذا من قول أبي الحسين الجزار :

قلتُ لما سكَبَ السا قي على الأرضِ الشرابا
غيرةً منـي عليـه ليتني كنتُ ترابـا

فإن هذا أتى بلفظ القرآن العظيم ، فكان له في السمع وقع وفي القلب حلاوة ، ولو كان قوله « ليتني كنت رطبا » بعض آية أو بعض بيت أو بعض مثل أو معنى متداولا في شيء ، فنقله إلى هذا ، لكان حسنا .

ومن كلام القاضي الفاضل ــ رحمه الله تعالى ــ في جواب الخليفة :

« ورد الكتاب المشتمل على ما أبان عنوان النية وإن كان كتابا ، وأقر النعمة وإن علا وكان سحابا ، المقتضي حدّ الطاعة ولتلك القدم الشريفة يقـول المؤمن ليتني كنت ترابا » .

---

(١) المثل السائر ٢/٣٨ .

ثم إن ابن الأثير قال : « وما منها إلا من قال » • فأجرى « من » على ما لا يَعقل • وهي لا تكون إلا لمن يعقل • والفواكه (٧٤/أ) لا تعقل •

ولو قال : وما منها نوع إلا قال ، لخلص من ذلك • وقد يعتذر له بأنه لما نزّل أنواع الفاكهة منزلة العاقلين في القول ، أطلق « من » عليها • كقوله تعالى : «فقال لها وللأرض ، ائتيا طوعا أو كرها ، قالتا أتينا طائعين » [١] • وهذا الجمع الذي يعرب بالحروف لا يكون إلا للعاقلين • ولكنه لما نزلهما منزلة العاقلين في القول والطاعة ، أعطاهما جمع العاقلين •

والجواب : ليس هذا من هذا ، والفرق بين الآية الكريمة وبين كلامه ، أنه في الآية الكريمة أطلق ذلك لما تقدم قولهما • فأشعر بأنهما تنَزّلا منزلة العاقلين •

وأما ابن الأثير فإنه أطلق « من » على ما لا يعقل من أول وهلة فلم يحسن • وبمثل هذا خلص المتنبي من إيراد ابن وكيع [٢] وغيره عليه ، في قوله :

وكلُّ ما قـدْ خلقَ اللـ ـهُ وما لـم يخلقِ
محتقـرٌ في همّتـي كشعرةٍ في مَفرِقي [٣]

قالوا : وفيما خلق الله تعالى ، الأنبياء والرسل والملائكة • وهذا يقتضي تكفيره ويدل على زندقته •

والجواب عن المتنبي أنه إنما قال « وكـل ما » ولم يقل « وكل من » فإن « ما » لما لا يعقل على الصحيح وبهذا يخرج عنه الرسل ومن شرف قدرهم وارتفع مقامهم عن هذا ، والملائكةُ صلوات الله عليهم وسلامه •

وكذا أورد بعض الجاهلين في قوله تعالى : « إنكم وما تعبدون من دون الله حصَب جهنّم [٤] » •

---

(١) سورة فصلت ١١/٤١ •

(٢) ابن وكيع التنيسي واسمه الحسن بن علي الشاعر ، له كتاب « المنصف في سرقات المتنبي » (ت بمصر ٣٩٣ هـ) ، انظر وفيات الأعيان ١٣٧ ، واليتيمة ٢٨١/١ •

(٣) شرح الديوان للبرقوقي ٩٨/٣ ، والأبيات ثلاثة أولها :
أيَ محل أرتقي أيَ عظيمٍ أتقـي

(٤) سورة الأنبياء ٩٨/٢١ •

فقال : وممن عَبد المسيح ، ولم يدر المُشكِل أن « ما » في قوله تعالى « وما تعبدون » لما لا يعقل . فيتناول الأصنام والكواكب وغير ذلك ، ويخرج المسيح ــ عليه السلام ــ من ذلك .

[مناقشة رسالة لابن الأثير من عاشق إلى معشوق]

قال : « ومن ذلك رقعة كلفني بعض أصدقائي إملاءها عليه ، وهي رقعة من عاشق إلى معشوق[1] » ثم أخذ في سردها وهي طويلة افتتحها بقول القائل [2] :

واذا قيلَ من تُحِبُّ تخطا كَ لساني وأنتَ في القلبِ ذاكا (٧٤/ب)

فلما رأيته قد صدر الرسالة ببيت أبي تمام قلت : لعل هذا البارق تكون وراءه سميا ، ويتمسك بهذه الطليعة في اللطف على عادة مخاطبة العشاق وخضوعهم وذل سؤالهم في طلب الوصال أو شكوى الهجر أو رقة العتاب في إخلاف الوعد أو الميل إلى الضد ، فإنه إن كانت الرقة واللطافة والاستكانة خلقت لشيء ، فما أرى أحدا أولى بها من العشاق في هذه المقامات وما أحلى قول القائل [3] :

يُديرُ من كَفِّه مداماً ألذَّ من غَفْلَةِ الرقيبِ
كأنها إذ صفَتْ ورَقَّتْ شكوى مُحِبٍّ إلى حبيبِ

فما كان إلا أن قال بعد ذلك البيت : « يامن لا أسميه ولا أكنيه ، وأذكر غيره وهو الذي أعنيه لا تكن ممن أوتي ملك الملاحة فلم ينظر إلى زواله ، وعرف مكانه من القلوب فجار في إدلاله ، ولا تغتر بقول من رأى الحسن للإساءة ماحيا ، واعلم أن اللاحي يقول : كفى بالتذلل لاحيا ، وكثيرا ما يزول العشق بجنايات الصدود ، والزيادة في الحد نقص في المحدود . وقد قيل : إن الحسن عليه زكاة كزكاة المال ،

---

(١) المثل السائر ٢/٤٤ .

(٢) هو أبو تمام والبيت في ديوانه . د . عبد الحميد يونس ٣٨٦ .

(٣) القائل هو الشاعر منصور بن كيغلغ ، أديب من أولاد أمراء الشام . وجاء في صدر البيت الأول : « يدير في كفه .. » انظر اليتيمة ١/٧٥ .

وليست زكاته عند علماء المحبة إلا عبارة عن الوصال ، وهذه صدقة تقسم على أربابها ، ولا ينتظر أن يحول الحول في إيجابها ، فهي مستمرة على تجدد الأيام ، والمستحقون لها قسم واحد ولا يقال إنهم ثمانية أقسام ، وهؤلاء هم المخصوصون بفك الرقاب ، ورَقَبة العشق أشد أسرا من رَقَبةٍ تتحرّر بالكتاب . فاخرج يامولاي من هذا الحق الواجب ، وإلا فتأتَّ لطالب مُنىً وأي مطالب ، ولا تقل هذا غريم أكثَر (٧٥/أ) عدّ الليالي في مطله ، وأعدَه والمواعيد زاد لمثله ، فهذه سلعة قد عاملتني بها مرة ساخرا ومرة ساحرا ، ومن الأقوال السائرة إن الغر تجعله التجربة ماهرا ، ولعمري إن ممارسة الحب تجدد لصاحبه علما ، وتَبْصرةً وإن كان كما يقال أعمى ، وقد كذب القائل (١) :

عَرِّضَنْ للذي تحبُّ بحبٍ ثم دعْهُ يروضُهُ إبليسُ

فإن كانت الرياضة كما قيل لإبليس فما أراه صَنعاً في الذي صنع ، وأراك استعصيت عليه استعصاء القارح وأنت جذع ، ولا شك أنك تهدم ما يشيده من البناء ، وأنك مستثنى في جملة مَن دخل في حكم الاستثناء ، وأنا الآن له عائب ، وعليه عاتب . فأين نفّاثاته التي هي أخدع من الحبائل ، وأين قوله لآتينهم عن الأيمان والشمائل ، وأين جنوده المسترقة ما في السماء ، التي تجري منهم مجرى الدّماء . وكل هذا قد بطل عندي خبره ، كما بطل عندي أثره ، فإن أدركته النخوة بأني استهزأت بتصديق أفعاله ، فليحلل معقول حاجتي هذه حتى أعلم أنه قادر على حل عِقاله ، وإلاّ فليخف راسه ، وليمح وسواسه ، وإن كان له عرش على البحر فليقوض من عرشه ، وليعلم أن السحر ليس في عُقَدِه ونفثِه ولكنه في الأصفر ونقشه ، وها أنذا قد بعثت بما يجعل العَزْم محلولا والودّ مبذولا ، وما أقول إلا أني بعثت [معشوقاً](٢) إلى معشوق ، وكلاهما محله القلب بل القلب من حبهما مخلوق ، وما أكرمه وهو وسيلة إلى مثله ، وحسنه من حسنه وإن لم يكن شكله من شكله ، وما وصفه

---

(١) القائل هو أبو حفص الشطرنجي ، في الغيث المسجم ١٤٧/١ . والرواية فيه :

قل لمن شئتَ اِبنِي بكَ مغرى ثم دعْهُ يروضُهُ ابليسُ

(٢) زيادة يقتضيها المعنى .

(٧٥/ب) واصف إلا كان ما رآه منه فوق ما رواه ، ومِنْ أغرب أوصافه وأحسنها انه لم يُر ذو وجهين وجيهاً سواه ، ولا جَرم أنه إذا سفر في أمر تلطف في فتح أبوابه، وتناول وَعْره فبدَّلَه بسهله وبُعْدَه فبدَّله باقترابه ، ولو بعثت غيره لخفت أن لا يكون في سِفارته صادقا ، وأنه كان يمضي سفيرا ويعود عاشقا ، فليس على الحسن أمانه ، وفي مثله تعذر الخيانة ، ولا لوم على العقول إذا نسيت هناك عزيمة رشدها ، ورأت مالا يحتمله كاهل جهدها ، ومن ذا الذي يقوى درعه على تلك السهام ، أو يروم النجاة منها وقد حيل بينه وبين المرام ، وهذا الذي منعني إلا أن أرسل كيسا أو كتابا ، فأحدهما يكون في السفارة محسنا والآخر على السر حجابا ، والسلام إن شاء الله تعالى [1] » .

أقول : إنه لما فرغ من هذه الرسالة ، أخذ على العادة في تفريط كلامه لما ابتدعه من ذكر الزكاة ووصف الدينار بمعنى الحديث ، وأن الذي اتفق له لم يظفر بـه الحريري ولا سُبق إليه وأقول : إنني ما سمعت ولا رأيت ولا أسمع ولا أرى بمن راسل محبوبه بمثل هذه الأشياء ، وتهدد بأن العشق يزول بالصدود ، والزيادة في الحدّ نَقص في المحدود ، وأنّ الوصال زكاة تجب عليك ولا تقل إنها في العام بل في كل وقت ، فأَخْرج من هذا الحق الواجب عليك، ولا تقل إني غريم هين الطلب، فكم تسخرُ بي ، فما أنا كما كنت والتجربة تجعل الغِرّ ماهرا ، ولكن المحب أعمى ثم أخذ في ذم إبليس وتأنيبه وتوبيخه ، وأنه ليس بصاحب الوسوسة والإغواء

(١) المثل السائر ٢/٤٤ والنص فيه : « .. لا تكن ممن أوتى ملكا فلم ينظر في زواله، وعرف مكانه من القلوب فجار .. والزيادة في الحد نقصان في المحدود .. وإلا فتأتّ لطالب مُنىً ومَطالب .. ولعمري إن ممارسة الحب تجدد لصاحبه علما ، وتبصره وان كان .. (أول البيت) عَرِضَنْ ...
أو إنك مستثنى في جملة من دخل في حكم الاستثناء .. فأين نفثاته التي هي..
التي تجري من بني آدم مجرى الدماء .. فإن أدركته النخوة بأني استهزىء ..
وها أنا قد بعثت منه ما يجعل العزم محلولا ... بل القلب من حبهما مخلوق..
لا جرم أنه إذا أُسفر في أمر ... أو أنه كان يمضي سفيرا ويعود عاشقا ..
ومن الذي يقوى درعه على تلك السهام ... وهذا الذي منعني أن أرسل إلا كيسا وكتابا ، فأحدهما يكون في السفارة (..) والآخر على السر حجابا .. »

والسِحْر إنما هو للدينار ، وها أنا قد جهزت شيئا من ذلك ، وما بقي بعد أن أجهز المعشوق الى المعشوق شيء . ثم أخذ يصف الدينار .

نعم (٧٦/أ) هذه العبارة والتهديد تصلح أن تكون في حقّ عدوّ خرج عن الصداقة إلى العداوة أو مُتَوَلٍّ أكثر الظلم والفساد في البلاد والعباد ، ولم يفده الإنذار ولا التحذير ، أو عبد خرج عن طاعة مولاه ولم يخف سلطانه .

وما أظن هذا المعشوق إلا أنه كان قد عزم على زيارة هذا العاشق ، فعارضه في الطريق الرسول بهذا الكتاب والدينار ، فلما وقف عليها ورأى هذا الإنعام والمانّة [١] به عليه ، كرّ راجعا بعد أن سبّ الرسول ومزق ثيابه ، ونتف ذقنه وبصق في وجهه ولعن من أرسله ، ومزق الرقعة شذَر مذَر ، وداس فتات الرقعة برجليه وقال ما عنده من العُجَر والبُجَر ، وتفضل في حق كاتب الرسالة بما يستحقه ، ورمى بالدينار الذي أرسله في الهواء . على أنه يكون في ذلك مختصرا ، وأنّه سكت عن ظلمه ولم يكن منتصرا .

أما وقف هذا على شعر المُتيّمين من العرب الذين خاطبوا أحبابهم وتوسلوا في طلب الوصال ، وتلطفوا في طلب الرضا والمساعدة على الهوى . أكذا قال قيس بن ذَريح [٢] وعبد الله بن العَجلان النَّهدي [٣] وعُروة بن حِزام [٤] وأبو ذؤيب[٥]

---

(١) من تأثر الأدباء بالعامية الفاشية .

(٢) قيس بن ذَريح الكناني شاعر مُتيّم من سكان المدينة ، اشتهر بحب لبنى الكَعْبية (ت ٦٨ هـ) انظر الأغاني ١٠٧/٨ ـ ١٢٨ ، والشعر والشعراء ٦٢/١ .

(٣) عبد الله بن العجلان النَّهدي ، شاعر جاهلي من العشاق ، وهو من سادات قومه (ت نحو ٥٠ ق هـ) انظر مصارع العشاق ٨ و ٢٣٣ ، وسمط اللآلي ٧٣٨ .

(٤) عروة بن حزام الشاعر ، من بني عذرة كان يحب ابنة عم له وزوجت بآخر فمات عروة حرقة نحو ٣٠ هـ . انظر مصارع العشاق ص ١٣٢ ، وفوات الوفيات ٧٠/٢ .

(٥) ابو ذؤيب الهذلي واسمه خويلد بن خالد ، شاعر فحل مخضرم ، اشترك في الفتوح ، رثى أبناءه الخمسة وقد أخذهم الطاعون في عام واحد (ت ٢٧ هـ) . انظر الأغاني ٥٦/٦ ، ومعاهد التنصيص ١٦٥/٢ .

وقيس المَجنون (١) وجميل بثينه (٢) وكثير عزة . أكذا تغزّل عمر بن أبي ربيعة (٣) والحارث بن خالد (٤) والعباس بن الأحنف (٥) . أما سمع قول أبي الطيب :

زيدي أذىً مُهجتي أزِدْكِ هوىً ... فجهلُ الناسِ عاشقٌ حاقدْ (٦)

وقول أبي فراس :

أساءَ فزادَتْهُ الإساءةُ حُظْوةً ... حبيبٌ على ما كان منه حبيبُ
يَعُدُّ عليَّ الواشيان ذنوبَه ... ومِن أينَ للوجهِ الجميلِ ذنوبُ (٧)

وقول الآخر (٨) .

---

(١) هو قيس بن الملوَّح العامري ، شاعر من اهل نجد ، لقب بالمجنون لهيامه في حب ليلى بنت سعد (ت سنة ٦٨ هـ) انظر خزانة البغدادي ٢/١٧٠ – ١٧٢ .

(٢) هو جميل بن عبد الله بن معمر العذري الشاعر المعروف ، افتتن ببُثينة وهي من قومه ومُنِع من الزواج بها (ت بمصر ٨٢ هـ) . انظر وفيات الأعيان ٣/٢٦٧ .

(٣) هو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي الشاعر الغَزِل ، كان يشبب بنساء الحج فنفاه عمر بن عبد العزيز ثم غزا في البحر فمات غرقا سنة ٩٣ هـ . انظر خزانة البغدادي ١/٢٤٠ ، والأغاني ١/٦١ .

(٤) الحارث بن خالد بن العاص المخزومي ، شاعر غزل من أهل مكة ، كان يهوى عائشة بنت طلحة ويشبب بها ولاه يزيد إمارة مكة وتوفي نحو سنة ٨٠ هـ . الأغاني ٣/٩٧ – ١١١ ، وخزانة البغدادي ١/٢١٧ .

(٥) العباس بن الأحنف اليمامي ، شاعر غَزِل رقيق ، نشأ ببغداد وهو خال إبراهيم بن العباس الصولي (ت ١٩٢ هـ) انظر الأغاني ٨/٣٥٢ ، ومعاهد التنصيص ١/٥٤ .

(٦) شرح الديوان للبرقوقي ٢/٢١٠ من قصيدة قالها يمدح عضد الدولة .

(٧) ديوان أبي فراس ٤٤ من مقطوعة . والبيت الثاني فيه :

يَعُدُّ عليّ العاذلون ذنوبَه ... ومن أين للوجه المليح ذنوب

(٨) هو ابن الدُّمينة عبد الله بن عبيد الله من خثعم والدُمينة أمه . شاعر بدوي غَزِل ، اغتيل قرب الطائف وهو عائد من الحج حوالي سنة ١٣٠ هـ انظر معاهد التنصيص ١٦٠ ، والأغاني ١٥/١٤٤ والبيت في ديوانه ص ١٣ من قصيدة مطلعها :

قفي يا أميمَ القلبِ نقضِ لُبانةً ... ونشكُ الهوى ثم افعلي ما بدا لكِ

وكذلك في شرح الحماسة للمرزوقي ٣/١٣٠٧ (الحاشية) ، وفي العقد الفريد ٢/٢٧٦ .

لئن ساءَني أن نِلتِني بِمَساءةٍ لقد سَرَّني أني خطرْتُ ببالِكِ

وقول الآخر :

ويَدُلُّ هجرُكُمُ على أني خطرتُ ببالكمْ (٧٦/ب)

أما سمع قول المعري :

لِغَيري زكاةٌ من جِمالٍ فإن تكنْ زكاةُ جَمالٍ فاذكري ابنَ سبيلِ (١)

ما أحلى قول : فاذكري ابن سبيل ان أخرجت زكاة جمالك ، لم يأمرها بصرفها إليه ولا أوجبها عليها بل قال : ان كان شيء ، فاذكري ابن السبيل المستحق .

ومن هذا قول كثير عزة :

لئن كان يُهدى بردُ أنيابِها العُلى لِأفقرَ مني إنني لفقيرُ (٢)

على أنّ معناه مشكل إذا تأملته حق التأمل ، وليس هذا مكان الكلام عليه .

وما ألطف ابن سناء الملك في قوله :

وغانيةٍ لم تَعْدُ عشرين حِجةً أقولُ لها قولاً لديه صوابُ

عليكِ زكاةٌ فاجعليها وصالَنا فعمرُكِ في العشرين وهي نصابُ (٣)

---

(١) سقط الزند ص ٢٢٠ من قصيدة مطلعها :

أسالَت أتيَّ الدمع فوق أسيلِ ومالت لظلٍ بالعراق ظليلِ

(٢) البيت ليس في ديوان كثير وهو لابن الدمينة وهو في ديوانه ص ٤٩ من أبيات ثلاثة أولها :

لقد كثُر الأخبارُ انْ قد تزوجتْ فهل يأتينّي بالطلاقِ بشيرُ

وكذلك في شرح الحماسة للمرزوقي ١٣٠٥/٣ .

(٣) ديوان ابن سناء الملك ــ ٤٦ من قصيدة قالها في صباه يمدح الأجل الفاضل . مطلعها :

عسى ان يَسُرَّ السائرين ايابُ وان يَرْوعَ البينَ المُشتِتَ إيابُ

وجاءت قافية البيت الأول « ثواب » بدل صواب. ومطلع عجز البيت الثاني « لأنك » بدل فعمرك .

وقول ناصر الدين بن النقيب (١) :

لقد وجبتْ عليك زكاةُ حُسْنٍ وفيه كمثلِ ما في المالِ حقُّ
فلا تَعدِلْ به عني فاني لِمَصْرِفِه الفقيرُ المستحِقُّ

أما سمع بقول جميل بن معمر العذري (٧٧/أ) .

لا خيرَ في الحبِّ وقْفاً لا تحرِّكُه عوارضُ اليأسِ أويعتادُهُ الطَمَعُ
لو كان لي صبرُها أو عندها جَزَعي لكنتُ أعرفُ ما آتي وما أَدَعُ (٢)

وقول أبي الطيب :

وأحلى الهوى ما شَكَّ في الوصلِ ربُّهُ وفي الهجرِ ،فهو الدهرَ يخْشى ويَتَّقي (٣)

وقول كشاجم :

لولا اطرادُ الصيدِ لم تكُ لذَّةٌ فتطاردي لي بالوصالِ قليلا
هذا الشَرابُ أخو الحياةِ وما له من لذةٍ حتى يُصيبَ غليلا (٤)

وقول العباس بن الأحنف :

وأحسنُ أيامِ الهوى يومُكَ الذي تُرَوَّعُ بِالهجرانِ فيه وبالعتْبِ

(١) ناصر الدين ابن النقيب واسمه الحسن بن شاور الكناني المعروف بالنفيسي . شاعر من أفاضل مصر (ت ٦٧٨ هـ) انظر فوات الوفيات ٢٣٢/١ .
(٢) ديوان جميل ص ١١٩ من مقطوعة في أربعة أبيات . وجاء في عجز البيت الأول « يرتاحه » بدل يعتاده وكذلك في عجز البيت الثاني « أملك » بدل أعرف .
(٣) شرح الديوان للبرقوقي ٥٧/٣ من قصيدة في مدح سيف الدولة . مطلعها :
لعينيكِ ما يلقى الفؤادُ وما لقي وللحبِّ ما لم يبقَ مني وما بي
وجاء في عجز البيت « يرجو » بدل يخشى .
(٤) ديوان كشاجم ص ١٨٧ وهما فيه بيتان منفردان .

إذالم يكنْ فيالحب ِسُخْط"ولا رِضىً فأين حلاوات ُ الرسائلِ والكُتُبِ (١)

وقول عُلَيَة بنت المهدي (٢) :

وُضِعَ الحُبُّ على الجَوْرِ فلوْ أَنْصَفَ المعشوقُ فيه لسَمُجْ
ليس يُستحسنُ في شرعِ الهوى عاشقٌ يُحسِنُتأليفَ الحُجَجْ (٣)

أما سمع بقول محمد بن بشير الخارجي (٤) :

ولقد أردتُ الصَبرَ عنكِ فعاقَني عَلَقٌ بقلبي من هواكِ قديمُ
يبقى على رَيْبِ الزمانِ وصَرْفِهِ وعلى جَفائكِ انه لكريمُ (٥)
(٧٧/ب)

وما أحسن قول العباس بن الأحنف حين عنف أحبابه على المطل بالوصل :

كأن لم يكنْ بيني وبينكُمُ هوى ولم يكُ موصولاً بحبلكُمُ حَبْلي

---

(١) لا وجود لهما في ديوان ابن الأحنف وقد وردا في الفوات ٢١٠/٢ لأبي حفص الشطرنجي من أبيات أربعة وجاء مطلع اولهما « وأطيب أيام الهوى » . كما نسبهما ابن شاكر إلى علية بنت المهدي في ١٩٩/٢ بقوله : « فبدأت عليه فغنتهم من صنعتها في شعرها ... » .

(٢) عليَة بنت المهدي اخت هارون الرشيد وتلقب بالعباسة . أديبة شاعرة تحسن صناعة الغناء (ت سنة ٢١٠ هـ) انظر أشعار أولاد الخلفاء ٥٥ وما بعدها ، والأغاني ٧٨/٩ .

(٣) وبيتاها في فوات الوفيات ١٩٩/٢ . وفيه « بُني الحب » بدل وضع . وجاء في صدر الثاني « في حكم الهوى » كما أوردهما الجاحظ في المحاسن والأضداد ١٩٤ وذكر أن الرشيد قتل عَلية بسبب هذا القول خنقا .

(٤) محمد بن بشير الخارجي ، شاعر حجازي من شعراء الدولة الأموية . كان يسكن البادية وخاصة بادية المدينة انظر الحماسة ٤٧٠/١ .

(٥) والبيتان لابن الدمينة في ديوانه ص ٤٨ وفي الحماسة ٢١٢/٢ وجاء في صدر الثاني « يبقى على حدث الزمان وريبه » . وقد أوردهما الصفدي في تمام المتون ورقة ١٨ منسوبين لابن القيم الآخر .

وإني لأستحيي لكمْ من مُحَدِّثٍ يحدثُ عنكمْ بالمَلالةِ والمَطْلِ (١)

حكى الشبليّ (٢) ــ رحمه الله تعالى ــ قال : رأيت يوم جمعة معتوها عند جامع الرُّصافة قائما عُريانَ وهو يقول : أنا مجنون الله ، أنا مجنون الله ، فقلت : لم لا تدخل الجامع وتتوارى وتصلي ؟ فأنشد يقول :

يقولون زُرْنا واقضِ واجبَ حَقِنا وقد أسقَطَتْ حالي حقوقَهمُ عني
إذا أبصروا حالي ولم يأنفوا لها ولم يأنفوا منها أنِفتُ لهم مني

قلت أنا : وهذا نوع آخر غير هذا الذي نحن فيه ، وطرق الجِدّ غير طرق المزاح (٣) ومما قلت أنا :

وإذا تَهتّكَ في الهوى سري غداً وتحدثَتْ بصَبابتي السمّارُ
أو قيلَ ذا المسكينُ أصلُ جنونِهِ سحرُ العيونِ وما له أنصارُ
أيَحِلُ في شرعِ الهوى هذا ومَنْ أفتى بأنَّ دمَ المُحبِ جُبارُ
وعلمتَ أن هواكِ أصلُ بليَّتي فعلى صدودِكِ لا عليَّ العارُ

---

(١) ديوان العباس ص ١٢١ من قصيدة مطلعها :
يقولون لي واصلْ سواها لعلّها تَغارُ والا كان في ذاكَ ما يُسْلي
وجاءت رواية البيت الأول :
فإن لم يكن بيني وبينهمُ هوى ولم يكُ موصولا بحبلهمُ حبلي
وفي عجز الثاني « بالملال وبالخذل » .

(٢) الشبلي : هو دُلَف بن جَحْدَر الشِّبلي أبو بكر ، أصله من خراسان ونسبته إلى قرية شبلة من قرى ما وراء النهر ومولده بسامراء ووفاته ببغداد سنة ٣٣٤ هـ . اشتهر بكنيته واختلف في اسمه . له شعر سلك به مسلك الصوفيين ، انظر الأعلام ٣/٢٠ .

(٣) ليس الموقف هزلاً كما فهمه الصفدي ، وفي هذا القول مسحة صوفية يشير بذلك إلى قولهم « إذا سلب ما وهب سقط ما وجب » .

أما سمع بما قنع به المحبون مثل جميل حيث يقول :

وانّي لراضٍ منكِ يا بَثْنَ بالذي لو أيقنه الواشي لقرّتْ بلابلُه
بلا وبأنْ لا أستطيع وبالمُنى وبالوعدِ حتى يسأمَ الوعدَ ماطِلُه
وبالنظرةِ العَجْلى وبالحولِ تنقضي أواخرُهُ لا نلتقي وأوائلُه [1]

وجَحْدر [2] حيث يقول :

أليسَ الليلُ يجمعُ أمَّ عَمْروٍ وإيانا فذاكَ بنا تَدانِ
وتنظرُ للهلالِ كما أراهُ ويعلوها النهارُ كما علاني [3]
(٧٨/أ)

---

(١) ديوان جميل ١٦٨ وهي فيه ثلاثة فحسب . جاءت رواية الأول والثاني :
واني لأرضى من بثينةَ بالذي لو أبصرَهُ الواشي لقرّتْ بلابلُهْ
بلا وبأنْ لا أستطيعَ وبالمنى وبالأملِ المرجوِّ قد خابَ آملُهْ
وفي وفيات الأعيان ٢٨٢/٣ جاءت الرواية مطابقة للديوان عدا « لو أبصره » في عجز البيت الأول فجاءت « لو استيقن » . وتنسب الأبيات لابن الدُّمينة ، وقد وردت في ديوانه ١٩٣ مع اختلاف طفيف وهي :
وإني لأرضى منكِ يا ليل بالذي لو أبصرَهُ الواشي لقرّتْ بلابلُهْ
بلا وبأنْ لا أستطيع وبالمنى وبالوعد والتسويفِ قدملَّ آملُهْ
اما في الحماسة الصغرى ص ١٨٩ فالأبيات منسوبة إلى المجنون . وكانت رواية البيتين :
وإني لأرضى منك يا ليلَ بالذي لو أيقنه الواشي لقرت بلابله
بلا وبأنْ لا أستطيع وبالمُنى وبالوعد حتى يسأمَ الوعدَ آمله

(٢) جحدر بن ضبيعة البكري الوائلي أبو مُكْنِف ، فارس بكر في الجاهلية وقتل في حرب تَغلِب يوم تَحلاق اللّمم ، له شعر . انظر طبقات ابن سلام ص ٥٢ .

(٣) وأورد سمط اللآلي ٦١٧ هذين البيتين فقال : « وانشد أبو علي لجَحدر اللص قصيدة منها : .... وجاء مطلع البيت الثاني « نعم وترى الهلال كما أراه » وكذلك في أمالي القالي ٢٧٨/١ ، ووردا في الغيث المسجم ٢٣٥/٢ غير منسوبين .

والآخر حيث يقول :

إلى الطائرِ النَسرِ انظرِي كلَ ليلةٍ فإني إليــهِ بالعشيــةِ ناظـرُ
عسى يلتقي طرفي وطرفُكِ عنــدَهُ فنشكو جميعاً ما تُجِنُّ الضمائرُ

وأبي العلاء المعري حيث يقول :

لاقاكِ في العامِ الـذي ولّى ولمْ يسألْكِ إلا قبلةً في القـابلِ
إن البخيلَ إذا تَمدُّ لـه المـدى في الجودِ هان عليه بذلُ النائلِ [1]
(٧٨/ب)

وأما ذكره إبليس واستصراخه به وحثه على وسواسه وتزيين الباطل له ، فإنه من الغريب أتراه ما علم أن المحب إذا قال لمحبوبه : ما يدعك تزورني وتحنو علي إلا إبليس بوسواسه أن المعشوق يمثل ذلك بين عينيه ويقول : إن هذه الأمور من فعل إبليس ومطاوعة الشيطان في اتباع المحرمات المحظورة ، فيرجع إلى الهجران ، ويتقمص شعار الجفا والصد والإعراض ويكون في ذلك كالنائم الذي أيقظه غـيره من الغفلة .

قال بعضهم : كان لي صديق ، وكان لا يحتشمني ولا أحتشمه ، فقال لي يوما : يا أخي قد علمت حبّي لفلانه ولم أقدر منها على شيء قطّ وقد زارتني اليـوم ، وأحبّ أن تكون عندنا فإني لا أحتشمك . فأجبته إلى ذلك . فلما صرت إلى مكانه، وأخذتْ عيني الجارية فرأيت أحسن النساء . ثم إنا أفضنا في الأكـل والشرب والحديث ، وسألني صاحبي الغناء وكنت مجيدا فيه . وكأن الله تعالى أنساني جميع ما أحفظه إلا هذا الصوت :

(١) سقط الزند ١٢٧ من قصيدة قالها يمدح وائليا من أولاد سيف الـدولة . مطلعهـا :

ليت الجياد خرِسْنَ يومَ جُلاجلِ ورُزِقْنَ عقلاً في تنائفِ عاقلِ

وجاء في صدر البيت الأول « فلم » بدل ولم . كما ورد البيت الثاني :

إن البخيـل إذا يَمدّ له المـدى في الجود هانَ عليه وعدُ السائلِ

من الخَفِرات لم تفضحْ أخاها ولم ترفعْ لوالدِها شَنَارا (١)

فلما سمعَتْه الجارية قالت : أحسنتَ والله أعِده يا أخي فأعدته ، فوثبت قائمة وقالت : أنا إلى الله تائبة ، والله ما كنتُ لأفضحَ أخي وأرفع شنار أبي . فجهد الفتى في رجوعها فلم تفعل وخرجتْ . فقال لي : ويحَك ، ما حملك على ما صنعت؟ فقلت : والله ما هو شيء اعتمدته ، ولكنه أُلقِي على لساني .

فانظر إلى فائدة ما ذكرته . والأنسب في طلب الوصال أن يقول : اسأل الله ان يعطف قلبك علي ، ويلهمك اغتنام الأجر فيَّ ويرزقك رحمتي لتدخل في الجنة(٧٩/أ) كما غالط القائل محبوبه في قوله : (٢)

تَجَنَّيْتَ لي ذنبي ولم أكُ مذنباً وحمَّلْتَني في الحبِ مالا أطيقُه
وما طلبي للوصلِ حِرصٌ على البقا ولكنه أجرٌ اليكَ أسوقُه

وكما غالط الآخر حيث قال :

قم بنا تفديكَ روحي نجعلِ الشكَ يقينا
فإلى كم يا حبيبي يأثمُ القائلُ فينا (٣)

وقد وقفت على بعض رسالة من كلام ابن سناء الملك وهو : « وأنا والله في أمرك مغلوب والسبب أني أنا المحب وأنت المحبوب ، ولا أتجالد عليك فأغرك ، ولا أخون حبك ولا أقعقع عليك فأغشك وأغم قلبك ، اعمل ما شئت فأنا الصابر ، واقتل كيف شئت فأنا الشاكر ، وقل لي فلي سمع يعشق قولك ، والتفتْ ترَ آمالي ترفرف

(١) البيت للسُلَيك بن السُلَكة ، وهو مطلع مقطوعة وردت في الأغاني ٤/١٠٠ و ١٨/١٣٧ .

(٢) القائل هو الحسين بن سعد بن الحسين الآمدي المتوفى سنة ٤٤٤ هـ . ولد ونشأ بآمد ثم قدم بغداد ثم الشام ومات في أصبهان . له مؤلفات وشعر . انظر معجم الأدباء ٩/٢٦٧ وفيه في البيت الأول « أتنسب لي ذنبا » .

(٣) في الغيث المسجم ١/٢١٤ غير منسوبين وجاء في صدر الأول « تفديك نفسي » بدل روحي .

حولك ، وافعل فأنت المعذور ، واستطِل فما أنا المضرور بل المسرور ، وارجع إلى الود الذي بيننا فكل ذنب لك مغفور » انتهى .

قلت : ولله الوزير أبو الوليد بن زيدون حيث يقول :

بيني وبينكَ ما لو شئتَ لم يَضِعِ ... سر" إذا ذاعتِ الأسرارُ لم يَذعِ
يا بائعاً حظّه مني ، ولو بُذِلَتْ ... ليَ الحياةُ بحظي منه لم أبعِ
يكفيكَ أنكَ ان حَمَّلتَ قلبيَ ما ... لا تستطيعُ قلوبَ الناس يستطعِ
تِهِ أحتَمِلْ واستَطِلْ أصبرْ وعِزَّ أَهُنْ ... ووَلِّ أُقبِلْ وقُلْ أسمعْ ومُرْ أطعِ (١)

والآخر حيث قال :

هيهاتَ لا جَذَبَ السلوُّ بمِقْودي ... أبداً ولا ظَفِرَ المَلامُ بسلوتي
إقْطَعْ وَصِلْ أوصُدَّ عني عامدا ... طَبَعَ الغرامُ على هواكَ سجيَّتي
(٧٩/ب)

ومحاسن الشوا (٢) حيث يقول :

أدنُ فما يُدني أَفيءُ فما يَفي ... أَكُفُّ فما يكفي أجودُ فما يُجْدي
تهنَوا أهُنْ جوروا أجِرْ أوعِدو أَعِدْ ... تَسلَوا أسَلْ صولوا أصِلْ هدِدوا أُهدي

وحيث يقول أيضا :

فديتُكَ يا مَنْ تَجنّى وصالا ... وأَحرَمَني في هواهُ الوِصالا
فللحُسْنِ فيكَ معانٍ بها ... تُضِلُّ النساءَ وتُلهي الرجالا
تَروعُ تُراعى تُحابي تُحبُّ ... تُعادي تُعادُ تُولي تُوالى

(١) ديوان ابن زيدون ـ كيلاني ص ١٨٨ و ١٦٩ .
وجاء في عجز البيت الثالث « لم تستطعه قلوب الناس » بينما جاءت رواية وفيات الأعيان ٣٠٥/١ مطابقة لرواية الصفدي .

(٢) محاسن الشوّا واسمه يوسف بن إسماعيل شهاب الدين . شاعر من الأدباء (ت بحلب سنة ٦٣٥ هـ) انظر وفيات الأعيان ٤١١/٢ ، وكشف الظنون ١٣٤٤ .

يا مَنْ وقفْتَ على فرطِ الضنى جسدي فيه ، وقلبي على التعـذيبِ والعَنَتِ
بنْ أدْنُ قاطعْ أصِلْ بُح أخْفِ شُحَّ أَجُدْ
خُنْ أوفِ جُرْ أعدِلْ اسخَطْ أرضَ عِش أَمُتِ

والوزير أبو شجاع فاتك (١) حيث قال ٨٠/أ

يا مُمْرِضاً بتجنّيهِ وجَفْوتِهِ قلبي ، ويا تاركي لحماً على وَضَمِ
كنْ كيف شئتَ فإني لستُ أكرهُ ما ترضى ، ولوأن ما يُرضيك َسفكُ دمي
أعرِضْ وعرِضْ وجُرْ واهجُرْ وصُدَّ وصِلْ
واخْشَنْ ولِنْ وارضَ واغضَبْ واعفُ وانتقِمِ
في كل حالٍ أنا الجاني المسيءُ وأنـ.... تَ المُحسنُ الحسنُ الأخلاقِ والشيمِ

وابن رَواحة الحموي (٢) :

إن كان يحلو لديكَ قتلي فزدْ من الهجر في عذابي
عسى يطيلُ الوقوفَ بيني وبينكَ اللهُ في الحسابِ (٣)

وهذا أكثر وأشهر من أن يستشهد له .

---

(١) أبو شجاع فاتك بن عبد الله الرومي الملقب عزيز الدولة ، من ولاة الحاكم بأمر الله ، محب للأدب والشعر . صنف له ابو العلاء المعري رسالة « الصاهل والشاحج » وكتاب « القائف » . قتل في قلعة حلب سنة ٤١٣ هـ ، انظر زبدة الحلب ٢١٥/١ ــ ٢٢٠ .

(٢) ابن رواحة الحموي ، واسمه الحسين بن عبد الله ، شاعر من الفقهاء ، استشهد في واقعة مرج عكا سنة ٥٨٥ هـ . انظر إرشاد الأريب ٤٧/٤ .

(٣) وبيتاه في الخريدة ــ شعراء الشام ٤٨٣/١ من مقطوعة انشدها العماد في قلعة حلب ، مطلعها :

يا ما طلا لا يرى غليلي لديه ورْداً سوى سرابِ

وجاء صدر البيت الأول : « إن كان يحلو لديك ظلمي » .

وأما اضافة السحر وعُقَده إلى إبليس ، فإنه من العجب ، والسحر والعقد إنما هما للآدميين ليستخدموا إبليس وجنوده ، فالسحر للإنسان لا للشيطان .

وما أحلى قول (....) (١) حين استصرخ بإبليس تظرفا منه :

الخمرُ يا إبليس ان لم تَقُمْ وتوسعِ الحيلةَ في رَدِّها
لا نَفَقَتْ سوقُ المعاصي ولا أفلحْتَ يا إبليسُ مِنْ بعدها

وأما دعواه في وصف الدينار بذي الوجهين وأنه لم يُسبق إليه ، فأول ما وصفه الحريري بذلك ، فقال في مقاماته :

تَبّاً له من خادعٍ مُماذقِ أصفرَ ذي وجهين كالمنافقِ
يبدو بوصفين لعينِ الرامق زينةِ معشوق ولونِ عاشقِ (٢)

وقد جاء ذكر الدينار في مقامات البديع الهمذاني (٣) فقال :

فاستصحب لي عدواً في بردة صديق ، من نجار الصُّفر ، يدعو إلى الكفر ، ويرقُص على الظُّفر ، كدارة العين يحطُّ ثِقل الدَّين ، وينافق بوجهين (٨٠/ب).

وما أحسن قول ناصر الدين بن النَّقيب مُلغِزا في الدّينار :

أيُّ شيءٍ تصبو النفوسُ اليهِ صبوةَ العاشقين للمعشوقِ
ضربوه وعلقوه ولكنْ زادَ عِزاً بالضربِ والتعليقِ

وأما قوله : « يمضي سفيرا ويعود عاشقا وليس على الحسن أمانة » ، فمأخوذ من قول أبي الطيب :

---

(١) بياض في الأصل .
(٢) مقامات الحريري ص ٢٩ . وجاء في صدر ثانيهما « بوصفين » بدل بوضعين وكذا ورد في شرح الشريشي ١/٧٣ .
(٣) البديع الهمذاني هو أحمد بن الحسين أبو الفضل ، وعلى منواله نسج الحريري (ت بهراة سنة ٣٩٨ هـ) . انظر وفيات الأعيان ١/٢٧٢ .

ما لَنــا كلُّنــا جَوٍ يا رسولُ أنا أهــوى وقلبُــكَ المتبــولُ
كلمــا عــادَ من بعثْتُ إليها غــارَ مني وخــانَ فيما يقولُ
أفسدَتْ بيننــا الأماناتِ عينا •• هــا وخانتْ قلوبَهُنَّ العقولُ[(١)]
(٨١/أ)

ومن هنا أخذ الأرجاني أيضا حيث قال :

قَسَماً لقد رَجَعَ النسيمُ عليــلا لمــا سَرى مني إليــكِ رســولا
فأتى لبرحِ هــواكِ وهــو مرددٌ نَفَساً يسارِقُهُ الأنــامَ طويــلا
ورأى لحبكِ أنــه قــد خــانني فغــدا يجرُّ مِنَ الحياءِ ذيولا [(٢)]

ومن هنا قول ابن سناء الملك أيضا :

راحَ رســـولاً وجاءني عــاشقْ وعــاقَهُ عــن رسالتــي عــائق
وعادلا بالجــوابِ بــل بجــوىً أخرسَه والهــوى بــه ناطقْ [(٣)]

ولكن الأرجاني تستر في سرقته .

قال في تعزية بزوجة توفيت ثم توفي ولدها : « أشجي التعازي ما أتبع فيــه المفقود بمفقود ، لا سيما إذا جمع بين سعد الأَخبية وسعد السُّعود ــ ثم قال ــ ولم يوفّهما حقهما من بكى ولا من ندب ، ولا من شعر ولا من كتب ، وليت فدّي أَحدهما بصاحبه فعاش درهما المفدي بالذهب ... » [(٤)] .

---

(١) شرح الديوان ــ البرقوقي ٣٣٤/٣ . والأبيات مطلع قصيدة قالها يمدح سيف الدولة بعد مفارقته كافورا ، وكتب بها إليه من الكوفة سنة ٣٥٢ هـ .

(٢) ديوان الأرجاني ص ٣٣٦ من قصيدة يمدح بها شرف الإسلام إسماعيل أبا العلاء ابن صاعد وجاءت رواية البيت الثالث :
ورأى بحبكِ أنــه قــد خانني فمضى يجــر من الحيــاء ذيــولا

(٣) ديوان ابن سناء الملك ــ ٥٠٨ والبيتان مطلع لقصيدة قالها يمدح أباه ، عــلى الفندق الذي وهبه له ويصفه .

(٤) المثل السائر ٤٨/٢ .

ثم ساق باقي الرسالة وهي طويلة غثه سَمجة ، إلاّ أنه بعد الفراغ منها أخذ يتطنطن ويدندن في قول « سَعد الأَخبية وسَعد السُعود » وأنهما منزلتان من منازل القمر ، ويعجب من هذا الاتفاق .

[مناقشة نموذج من إنشاء ابن الأثير]

وأقول : إنه نفخ في غير ضرم ، وطاف بغير حرم ، وليس ذلك بكبير أمر ، ولا مما ينبه عليه (٨١/ب) بعد الفراغ منه، بل هو في الرتبة الوسطى لا ينحطّ انحطاطه في عادته ، ولا يرتفع ارتفاع القاضي الفاضل .

وقد استعمل الناس أسماء المنازل والكواكب في كلامهم جدا وهزلا ، كقول سيف الدين المشد ابن قزل :

ضلّ فؤادي بين أبياتكمْ ونارُهُ تضرِمُها الأهويهْ
يا ذابحَ النوم بطرفي أما ترثي لقلبٍ ضل في الأخبيهْ

وقوله أيضا :

ألا يا وادي الشقـرا .... ء كم قد حُزْتَ من نُزْهَهْ
غِياضٌ ماؤها يجري فما في طيبها شُبْهَهْ
وكم بدرٍ يروقُ الطر .... فَ أضحى منك في الجَبْهَهْ

وقوله أيضا :

بدا في الدرعِ مثلَ الرمـ .... حِ في الأعطافِ والسُمْرَهْ
فيا لله من بدرٍ يروقُ الطَرفَ في النَثْرَهْ

وقول العدل برهان الدين بن الفقيه نصر [١] :

بخدمتكمْ لم أنل طائلاً وميزانُ نقصي بكمْ راجحْ

---

(١) برهان الدين بن الفقيه ، واسمه عبد الواحد بن إبراهيم . فاضل من أهل الموصل له شعر (ت ٦٣٦ هـ) . انظر فوات الوفيات ٢/٤٠ .

ففي الطَرْفِ من أدمعي نَثْرَةٌ وفي القلب من سَعْدِكم ذابحْ

ومن أحسن الكنايات قول الآخر :

ألم ترني أُكابدُ فيكَ وجدي وأحمِلُ منكَ مالا يُستطاعُ
إذا ما أَنْجُمُ الجوِ استقلَّتْ ومالَ الدلوُ وارتفعَ الذراعُ

وقول محمد سِبط التّعاويذي :

فبِتُّ وباتتْ إلى جانبي نَعُدُّ المنازلَ فيها كلانا
تُريني البُطَيْنَ ولكنني أقارِضُها فأريها الزُبانى (١)

(٨٢/أ)

وقول الآخر من أبيات : (٢)

فأعجلْتُهُ عن دخولِ الكنيفِ بجهلٍ مطاعٍ وحِلمٍ مُطاعِ
فغَرَّقْتُ منه بنوْءِ البُطَيْنِ وروَّاهُ منيَ نوءُ الذراعِ

وأما قوله : « وليت لو فُدي أحدهما بصاحبه » ، أحسن من هذا قول المتنبي :

فليت طالعةَ الشمسين غائبةٌ وليت غائبةَ الشمسين لم تَغِبِ (٣)

وتمام السجعة نصف بيت من هذه القصيدة لأبي الطيب ، أوله :

قد كان قاسمك الشخصيْنِ دهرُهُما فعاش درُهما المفديُّ بالذَهبِ

قال : « ومن هذا الباب ما أوردتُه في رسالة طردية في وصف قِسي البندق وحامليها (٤) » ثم إنه ساقها .

---

(١) المثل السائر ٢/٥٤ « ... في جملة رسالة طردية .. » .

(٢) البيتان في الطالع السعيد ص ٣٨٩ لنصر الله بن بصاقة من مقطوعة في أربعة أبيات ووردا في الغيث المسجم ٢/٦٠ غير منسوبين . وجاء ثانيهما :

فغرقني منه نوءَ البطينِ وغَرِقَ مني بنوءِ الذراعِ

(٣) شرح الديوان ــ البرقوقي ١/١٠٥ من قصيدة قالها يرثي أخت سيف الدولة وقد توفيت بميا فارقين ، فكتب أبو الطيب بهذه المرثية إليه من الكوفة سنة ٣٥٢ هـ مطلعها :

يا أختَ خيرِ أخٍ يا بنتَ خيرِ أبٍ كنايةً بهما عن أشرَفِ النَسَبِ

(٤) ديوان ابن التعاويذي ص ٤٩٠ مشيرا إلى انه اخذهما عن الغيث المسجم ٢/٦٠

أقول : وهي أيضا من الوسط ، فلا تكون في العالي ولا السقط ، وذكـرتُ بالطريق التي سلكها فيها ما جاء لبعض كتاب العجم (٨٢/ب) فيما أظن ، في القوس التي للسهام ، فإنها في حسنها فذة ، ونكتها في سلب العقول مغِذة ، وصناعتهـا لم تدَع في المثاني والمثالث عند النفوس بعدها لذة . وهي :

[رسالة لابن الأثير في وصف قسي البندق وحامليها]

« ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا ، حكيم جبل على السّداد ، يهدي إلى سبل الرشاد ، آثار بأسه مشهورة على ذوي الأعواد . ويسألونك عن الأهلة ، فقل صفر من غير علة ، مجرة تنقضّ منها نجـوم الرجوم ، برج ذو جسدين يطلع بالطائر المشؤوم ، شيطان تطلع شمس النصر بين قرنيه ، مارد لا يسكن إلا بتعريك أذنيه ، صورة مركبة ليس لها من تركيب النظم ، إلا ما حملت ظهورها أو الحوايا أو ما اختلط بعظم . مطية تخالف سائر الأنعام ، قيامها باليد وقيامهن بالأقدام . متحرك يعض على ناجذ التصبر في الشدة والرخاء ، من صحبه طرفة عين مشى على الهواء ، فقل في نون التقم مرسلا فنبذه بالعَراء . مقيد يَحمل عليه المطلق ، طريد العنق من جيدِ عاتقهِ معلق . ناحل أُلصق بطنُه بظهره ، حتى بدت للناظرين بنات صدره ، وغارت كلاه في خصره ، لاستيلاء قوتيه الجاذبة والماسكة على قوتيه الدافعة والهالكة . مقبوض يقارب السريع ، ويفارقـه عند التقطيع . وهريّ أتى عليه قرن بعد قرن فانحنى مطاه ، لا ينصب إلا على اليد متكاه ، وينشد إذا فتح فاه :

سلبْتِ عظامي لحمَهـا فتركتِهـا مجردةً تُضحي لديـك وتُحصرُ
خذي بيدي ثم اكشِفي الثوبَ تنظُري ضنى جَسَـدي لكنني أتسترُ (١)
(٨٣/أ)

---

(١) شرح الحماسة للمرزوقي ٣/١٤٢٥ . وقال الحارثي :
سلبتِ عظامي لحمَهـا فتركتِها مجردةً تضحي إليكِ وتَخْصَرُ
خذي بيدي ثم انهضي بي فتبيّني بـي الضرَّ إلا أننـي أتستَّـرُ
وعند التبريزي « خذي بيدي ثم ارفعي الثوب فانظري » .

منحني الظهر يتوكأ على عصا ، ويلقيها فإذا هي حية تسعى •

تنكَبَ رماحَ الخطِ والبيضَ خَلـهِا وأمـا الحنـايا حـلَّها وتنكبا

أقبل على تَعاطي القنا من مغاوير الرجال ، وتناولتْها بالساعد مَساعير الأبطال• آلة حدباء تنذر بالمنون ، وأعوَجيّ ضامر كحرف النون • أنضاء تحِن على غِلَظ أكبادها ، عَطوف تئن لفراق أولادها • فرع شـُد بهداب الدمقس المُفتل ، ضارب بسهيمه في أعشار قلب مقتل • غلاظ شداد قاسية القلوب جافية الطباع ، توكَل بقبض الأرواح ذي أجنحة مثنى وثلاث ورباع • نِضو يهدِر إذْ لـَزَّ في قرن ، جامع إلى بطن الشارخ انحناء اليفن ، مكدود كاد ينقطع منه الوَتين ، مـُنحني الظهر شارف عقد الستين ••• » •

وهي طويلة تدخل في كراسة ، وكلها من هذا الأنموذج •

وقد عارضها جماعة ، منهم القاضي ناصر الدين بن المنير (١) ، ضنع ثلاثة (٢) أو أكثر ، وغيره ، وكلهم لم يشق لها غبارا ، ولم يجر من الذيل خلفها إلا ما كان عثـارا •

وأما البندق ، فلشيخنا القاضي شهاب الدين أبي الثناء محمود ـــ رحمه الله تعالى ـــ فيه رسالة طنانة ، الدرة مع الشذرة تزدحم فيها كالحَب في الرمانة ، أثبتَها في كتابه الموسوم بـ « حسن التوسل » وهي من الحسن في غاية ، ومن طبقات الأدب في نهاية • ولولا طولها لأثبتها هنا ، وأوجدت فقر هذا التأليف منها الغنِي •

ولابن الرومي قصيدة عينية في البندق والرماة رجز طويلة • ولمحمـد سبط التعاويذي قصيدة في رمي البندق أولها :

---

(١) القاضي ناصر الدين بن المنير السكندري واسمه أحمد بن محمد بن منصور من علماء الإسكندرية وأدبائها وولي قضاءها وخطابتها مرتين (ت سنة ٦٨٣هـ)، انظر فوات الوفيات ١/١٣٢ .

(٢) في الأصل هكذا ، سهوا ، والصواب (ثلاثا) .

حُيِّيتِ يا دارَ الهوى مِنْ دارِ ولا عَدَتْكِ السُحْبُ السواري[١]

في غاية الحسن ، وهي في ديوانه (٨٣/ب) .

ومن أحسن ما ذكرته في قوس البندق قول ابن وضاح المرسي :

عجباً من القوسِ الكريمةِ إنَّها لم ترْعَ حقَّ حمائم الأغصانِ

أضحَتْ لها حَتْفا وكانت مأمنا وكذاكَ حُكْمُ تصرُّفِ الأزمانِ[٢]

وأما أنا فقد كتبت توقيعا بالحكم بين رماة البندق ، لا بأس بإثباته هنا . وهو :

« الحمد لله الذي لم يزل حمده واجبا ، ورفده لكل خير واهبا ، وشكره للنعم جالبا وللنقم حاجبا ، وذكره للبؤس سالبا ، وللنعيم كاسبا . نحمده على نعمه التي نصرع بالحمد أصناف أطيارها (٨٤/أ) ونقصّ بالشكر أجنحتها فلا قدرة لها على مطارها . ونشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له شهادة لا يكون لنا بها عن الفوز بالجنة عذر ، ولا نجد بها نفوسنا يوم البعث إلا في حواصل طيور خضر . ونشهد أن محمدا عبده ورسوله أفضل من قدم ذوي الرتب ، وأشرف من حكم بالعدل العاري من الشبه والريب . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين كانوا في الحروب عقبانها الكواسر ، وفرسانها الذين أشبَعوا من لحوم العدى ذوات المخالب والمناسر ، ما أحمد الرامي في المرام عزمه » وسعت له في لرتب قَدَمُ قِدْمَة . وسلم تسليما كثير . وبعد .

فلما كان الرمي بالبندق فنا تعاطاه الخلفاء والملوك ، وسلك الأمراء والعظماء منه طريقة لطيفة المأخذ طريفة السلوك ، يرتاضون به عند الملل لاسترواح نفوسهم ،

---

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٢٥ ، والبيت مطلع قصيدة قالها في عدة فنون منها رمي البندق .

(٢) في الغيث المسجم ٢١٩/٢ .

وقد بدأ الأول بقوله « عجبي » وجاء في صدر الثاني « وكانت مألفا » بدل مأمنا .

ويجنون ثمرات المنى في التنزه من عروش غروسهم ، ويبرزون إلى ما يروق الطرف ويروع الطير من برزاتهم ، وينالون ببنادق الطين من الطير ما لا يناله سواهم بجوارح صقورهم ولا بزاتهم . قد نبذوا في تحصيل المراتب العلية شواغل العلق ، وتدرعوا شعار الصدق بينهم وهم أصحاب الملق ، ومنعوا جفونهم من ورد حياض النوم إلا تحلة ، وبرزوا بوجوه هي البدور وقسي هي الأهلة . وتنقلوا في صيد النسور تنقل الرخ ، وصادوا الطيور في الجو لما نثروا حبات الطين من كل قوس هو كالفـخ ، وصرخوا على الأوتار وكانت ندامى الأطيار على سلاف المياه من جملة صرعاها ، واقتطفوا زهرات كل روضة أخرجت ماءها ومرعاها ، احتاجت هذه الطريق الـى ضوابط تراعى (٨٤/ب) في شروطها ، وتسحب على الجادة أذيال مروطها ، ليقف كل رامٍ عند طور طيره ، ويسبرُ بتقدمه غور غيره ، ليؤمَن التنازع في المراتب ، ويسلم أهل هذه الطريقة من العائب والعاتب .

وكان المجلس السامي الأميري الشهابي هو الذي جر فيها على المجرة مُطرَفه، وأصبح ابنَ بجدتها علما ومعرفة ، تطرب الأطيار لنغمة أوتاره ، وتنشق مرائر الطير غيرة من لون غياره ، وتود المجرة لو كانت له طريقا والشمس جراوة والسماء ملقة ، وتتمنى قوس السحاب الملونة لو كانت قوسه والنَّسر طائره والنجوم بُندقه . كم جعل حُلل الروض المرقومة بما صرعه مُطايره ، وكم خرج في زمر والطير فوقهم صافات فصاد بدر تِمٍّ حين بادره، وكم ضرَّج فيمعرك الجو من قتيل ريشه كالزَّرَد المَوضون ، وكم أرسل البندقَ فكان سهما ماضيا لأنه مِن حمأٍ مسنون .

فلذلك رُسم الأمر العالي المَولوي السُّلطاني الملكي الناصري ، لا زال طائره ميمونا ، ودُرُّ أمره فيأدراج الامتثال مكنونا ، أنيفوَّض إليه الحكم بين رماةالبندق بدمشق المحروسة ، على عادة من تقدمه في ذلك من القاعدة المستقرة بين الرماة . فليتولَّ ذلك ولاية يعتمد الحق بها في طريق الواجب ، ويُظهر من سياسته التي شخصت لها العيون فكأنما عقدت أعالي كل جَفن بحاجب ، وليَرع حق هذه الطريق في حفظ مَوثقه ، وليجرِ على السنن المألوف من هذه الطائفة فكلُّ إنسان ألزمناه طائره في عنقه ، بحيث إنه يُنزِّل كلَّ مستحق في منزلته التي لا يعدوها ، ويَقبل من

الرامي دعوى صيده الواجب له (٨٥/أ) ويردّ مالا يَعتدّ به الرماة ولا يعدّوها ، مُتثبّتا فيما يُحمل اليه للحكم ولا يُرخ على عيبه ذيلا ، مُحررا أمر المصروع الذي أصبح راميه من كلفه به مجنون ليلى ، جريا في ذلك على العادة المألوفة ، والقاعدة التي هي بالمنهج الواضح موصوفة • وليتلقّ هذه النعمة بشكر يستحق به زيادة كل خير ، ويتلُ آيات الحمد لهذا الأمر السليماني الذي حكّمه حتى في الطير • والله يتولى تدبيره ، ويصلح ظاهر حكمه والسريرة • إن شاء الله تعالى » •

[هل من شرط بلاغة التشبيه ان يشبه الشيء بما هو أكبر منه وأعظم]

قال في النوع الثامن من التشبيه : « وقد قيل : إن من شرط بلاغة التشبيه أن يُشبّه الشيء بما هو أكبر منه وأعظم ، ومن ها هنا غلط بعض كتاب أهل مصر في ذكر حصن من حصون الجبال مشبها له : هامة عليها من الغمامة عمامة ، وأنملة خضّبها الأصيل وكأن الهلال لها قلامة » •

ثم إنه أخذ يعيب هذا ويقول : أيّ مقدار للأنملة أن تشبه الحصن [١] » وأطال باعتراض وجواب •

أقول : إن ابن أبي الحديد ناقشه في ذلك [٢] ، وقد بقي شيء من مؤاخذته على هذا •

وهو أن الذي ادعى أن من بلاغة التشبيه أن يُشبّه الشيء بما هو أكبر منه وأعظم ، أبحث معه وأقول : فعلى هذا تبطل غَلبة الفرع على الأصل في التشبيه ، ونخطّىء مثل ذي الرُمة في مثل قوله :

---

(١) المثل السائر ١٢٦/٢ « وقيل إن من شرط ... ومن ها هنا غلط بعض الكتاب من أهل مصر .. مشبها له فقال ... فكان الهلال منها قلامة ... أي مقدار للأنملة بالنسبة إلى تشبيه حصن على رأس جبل » .

(٢) « الفلك الدائر » في المثل السائر ٢١٤/٤ .

ورملٍ كأوراكِ العذارى قطعتُهُ إذا ألبستْهُ المظلماتُ الحنادسُ[١]

فإنه شبه كثبان الرمل بما هو أقل منها وأحقر ، لأن أوراك العذارى دون الكثبان .

ولا نستحسن مثل قول أبي بكر محمد بن هاشم[٢] (٨٥/ب) .

والمشتري وسْطَ السماءِ تخالُه وسَناهُ مثلَ الزئبقِ المترجرجِ
مِسمارَ تبرٍ أصفرٍ ركّبْتَهُ في خاتَمٍ والفصُّ من فَيْروزَجِ[٣]

فإن كرة السماء والمشتري أكبر من الفص والمِسمار .

ولا قول ابن قزَل :

فصلٌ كأنَّ البدرَ فيه مُطرِبٌ يبدو وهالتُه لديهِ طارُهُ
وكأنّ قوسَ الغيمِ جَنْكٌ مُذْهَبٌ وكأنما صَوْبُ الحيا أوتارُهُ[٤]

ومثل هذا كثير . وكل ما كان في العالم العُلوي لا يُشبَّه بشيء من العالم الأرضي لأنه أحقر وأقل ، كما تُشبَّه الثريا بالنرجس الذابل ، والهلال بالقُلامه والنَّعل[٥] ، والبرق بالسيف ، والشمس بالمرآة ، والنجوم بالسراج ، وقوس قزح

---

(١) ديوان ذي الرمة ٣١٨ من قصيدة مطلعها :
ألم تَسألِ اليومَ الرسومَ الدوارسُ بحُزوى ، وهل تَدري القفارُ البسابسُ
وفيه « إذا جللته المظلمات . . » .

(٢) محمد بن هاشم أبو بكر الخالدي ، شاعر أديب من أهل البصرة ، اشتهر وأخوه سعيد بالخالديين ، وكانا من خواص سيف الدولة وتوليا خزانة كتبه ، ويشتركان في نظم القصيدة . لهما تآليف في الأدب . توفى أبو بكر نحو ٣٨٠ هـ . انظر فوات الوفيات ٥٣٦/٢ ، والفهرست ٢٤٠ .

(٣) وبيتاه في اليتيمة ١٧١/٢ وفي عجز الثاني « في فص خاتم فضة فيروزج » .

(٤) في فوات الوفيات ١٣٢/٢ وفيه :
وكأن قوسَ الغيمِ حَنْكٌ مذهب وكأنما صوتُ الحيا أوتاره
وهو تصحيف .

(٥) من الغريب أن يدخل النعل ميدان الشعر آنذاك ، بدليل قول الشاعر زين الدين الاشعافي :
لقد خاننا دهر وكنا به نعلو يود هلالُ الأفقِ لو أنه نعلُ
انظر ريحانه الألبا ٣٢١/١ .

بأذيال العروس ، وجميع ما هو من هذا الباب لا يجوز تشبيهه ، وإن كان فلا يكون بليغا على هذا التقرير . وهيهات هذا سدّ لباب الحُسن . وأما الحصون ، فقد شبهها الشعراء بالأنامل ، منهم الغزي حيث يقول :

سَدَّ البسيطةَ نازلاً من قُلَّةِ الـ .... جبلِ الأشمِّ إلى قَرارِ الوادي
حتى غدا الحِصْنُ المباركُ خِنْصرا ني خاتَمٍ من بهْمَةٍ وجَوادِ [١]

وقد استعمل ابن الأثير ذلك ، فقال في فصل تقدم :

« فنزلنا منه بمرأى ومسمع ، واستدرنا به استدارة الخاتم بالإصبع [٢] » .

وشبهها ابن قِزل بالعين فقال :

إنّ الحصونَ لكالعيونِ فهُدْبُها شُرُفاتُها وجفونُها الأصوارُ
وكذا محاجرُها الخنادقُ حولَها والحافظون لها همُ الأشفارُ
(٨٦/أ)

ومن يعيب مثل قول القاضي الفاضل :

« ونزلنا قلعة نجم وهي نجمٌ في سحاب ، وعُقابٌ في عِقاب ، وهامةٌ لها الغَمامة عِمامة ، وأنملة إذا خضبَها الأصيل كأن الهلال لها قلامة » [٣] .

فما ينبغي لمجادل يناظره إلاّ كفُّ القولَ عنه ، وهل الطعنَ على هذا إلاّ قولُ مَن لم يصل إلى العُنقود .

---

(١) في مخطوطة ديوان الغزي ورقة ١٤ من قصيدة قالها في وزير فارس جها نشجاه يمدحه بعد سمل عينيه مطلعها :

اللهُ جارُكَ والنبيُ الهادي يا مَنْ يُوالي فيهما ويُعادي

وكذا في الخريدة ٥٣/١ .

(٢) المثل السائر ١٧/٢ .

(٣) انظر نهاية الأرب ٤٠٢/١ .

كأنّ عائِبَكُمْ يُبدي محاسنَكُمْ به ويمدحُكُم عندي ويُغريني

ويكفيه أنه عاب مثل هذه الألفاظ التي بهرَ حُسنُها لما ظهرَ ، وغدتْ وفي كلّ ضاحية من وجهها قمر .

وقول الفاضل يشبه قول ابن خَفاجة (١) :

في خَصْرِ غَوْرٍ بالأَراكِ موشَّحٍ أو رأسِ طوْدٍ بالغمامِ مُعَمَّمِ (٢)

ومن إنشاء شيخنا شهاب الدين محمود ـ رحمه الله تعالى ـ في وصف حِصن :

« حصن قد تقرَّط بالنُّجوم وتقرْطَق بالغيوم ، وسما فرعُه إلى السماء ورسا أصله في التُّخوم ، تُخال (٨٦/ب) الشمس إذا علتْ أنّها تتنقل في أبراجه ، ويَظنّ مَنْ سَها إلى السُّهى أنه ذبالة في سِراجه ، لا يعلوه من مُسمّى الطير غير نسر السماء ومِرْزَمِه (٣) ، ولا يرمق مُتَبرّجاتِ بُروجه غير عين الشمس والمُقَل التي تطرِفُ من أَنجمِه ، وحوله مِن الجبال كلُّ شامخ تتهيّب عُقابُ الجوّ قطعَ عِقابه ، وتقف الرياح حَسْرى إذا توقَّلَتْ في هضابه ، تخاف العيونُ إذا رمَقَتْه سُلوكَ ما دونه مِن المَحاجر ، ويُخيِّلُ الفكر صورةَ التَّرقّي إليه ثم لا يبلغها حتى تبلغ القلوبُ الحناجر ، وحوله من الأودية خنادقُ لا تُعلم منها الشُّهورُ إلاّ بأنصافها ولا تُعرف فيه الأهلّةُ إلاّ بأوصافها .

---

(١) ابن خفاجة . واسمه إبراهيم بن عبد الله ، أبو اسحاق الأندلسي ، غلب على شعره وصف الطبيعة (ت ٥٣٣ هـ) . انظر بغية الملتمس ص ٢٠٢ . وصفة جزيرة الأندلس ص ١٠٣ .

(٢) البيت في ديوان ابن خفاجة ٢٣٥ وفيه « في خضر عود بالأراك موشح » والراجح عندي رواية الصفدي ، لما عُرف به ابن خفاجة في شعره من تشخيص المحسوسات بالمرأة ، حتى إن البيت الذي تلاه هو :

أو بحر نحر بالحباب مقلّدٍ أو وجه خَرْقٍ بالضَّريب مُلثّمِ

(٣) لسان العرب ١٣١/١٥ المرزمان : نجمان (رزم) .

قال كَعْب الأشقري (١) يصف حصنا :

مُحلِّقَــةٌ دونَ السمــاءِ كأنها غمامةُ صيفٍ زالَ عنهــا سَحابُها
فلا يبلغُ الأروى شَماريخَها العُلا ولا الطيرُ إلا نسرُها وعُقابُها
ولا خُوِّفَتْ بالذِئبِ وِلدانُ أهلِها ولا نَبَحَتْ إلاّ النّجومَ كلابُها (٢)

والخالديان (٣) :

وقلعةٍ عانــقَ العَيّوقُ أسفلَهــا وجــاز منطقــةَ الجـــوزا أعاليهــا
لا يعرفُ القَطْرُ إذ كان الغمامُ بها أرضاً تَوَطّــأَ قطرَيْــه سَواسيهــا
إذا الغمامــةُ لاحتْ خــاضَ ساكنُها حياضَهــا قبــل أن تَهْمي عَزاليها
يَعُدُّ من أنجُمِ الأفلاكِ مَرْقَبُها لو أنــه كان يَجــري في مجــاريهــا
على ذُرى شامخٍ وعْرٍ قــد امتلأتْ كِبراً بــه وهــو مملــوءٌ بها نيهــا
لــه عِقابٌ عِقــابُ الجــوِ حائمةٌ من دونهــا فهي تَخْفى في خوافيها (٤)

وقالا أيضا في ذلك :

---

(١) كعب بن معدان الأشقري أبو مالك . فارس شاعر خطيب من جلة أصحــاب المهلب بن أبي صفرة (ت نحو ٨٠ هـ) انظر سمط اللآلي ٥٨٨ ، ورغبة الآمل ١١٣/٨ .

(٢) وأبياته الثلاثة في الحماسة البصرية ٣٤٥/٢ ــ ٣٤٦ ، والأشباه والنظــائر للخالديين ١٨١/٢ ، ونهاية الأرب ٤٠٤/١ .

(٣) هما محمد أبو بكر وقد مرت ترجمته ، وأخوه سعيد أبو عثمان ابنا هاشم ، واشتهــرا بالخالديين نسبة إلى أصلهمامن الخالدية وهي قرية من أعمال الموصل . وتوفي سعيد سنة ٣٧١ هـ على خلاف ومحمد سنة ٣٨٠ هـ انظر اليتيمة ٤٧١/١ ، ومعجم الأدباء ٢٠٨/١١ ، ومعجم البلدان (الخالدية) .

(٤) الأبيات في الأشباه والنظائر للخالديين تسعة ١٨١/٢ ــ ١٨٢ وفيه في البيت الأول « سافلها وجاز منطقة الجوزاء عاليها » وفي الثاني « ... لها أرضــا لَوطئاً قطريهمواشيها» وفي الثالث .. « راحت خاض ساكبها » . وانظر كذلك نهاية الأرب ٤٠٥/١ .

وحلقاءَ قد تاهتْ على من يرومُهـا ... بِمَدْقَبِها العالي ومَرْكَبِها الصعب
يَزُرُّ عليهـا الجوُّ جيبَ غمامِـهِ ... ويُلْبِسُها عِقْدا بأنجُمِه الشهْبِ
(٨٧/أ)
إذا ما سرى برقٌ بَدَتْ من خِلالِـهِ ... كما لاحتِ العذراءُ منخَلَلِ السُحبِ
سموْتَ لها بالرأي يُشرقُ في الدجى ... ويقطع في الجُلّى وتنهضُ في الصعبِ
فأبرَزتَهـا مهتوكـةَ الجيبِ بالقنـا ... وغادرتَها ملصوقةَ الخَدِ بالتُربِ (١)

[مناقشة حول التشبيه في أبيات أحد الشعراء]

قال في النوع الثاني من التشبيه بعدما أورد قول الشاعر (٢) :

وكـأنّهـا وكأنّ حامـلَ كأسِهـا ... إذ قـام يجلوهـا على النُدَمـاءِ
شمسُ الضُحى رقصتْ فنقّطَ وجهَها ... بـدرُ الدُجى بكواكبِ الجَوزاء

« إنه شبه الساقي بالبدر ، وشبه الخمر بالشمس ، وشبه الحبب الذي فوقها بالكواكب (٣) » .

أقول : قد ادعى أنه شبه ثلاثة بثلاثة ، وهو لم يشبه الساقي ، ولا في البيتين ما يدل على تشبيهه ، على أن الشاعر توهَّم أنه شبه الساقي ولم يذكره ، وقلده ابن الأثير ــ رحمه الله ــ في وهمه . ومعناهما : أن الخمر في حبَبها كأنها شمس رقصت

(١) الأبيات في الأشباه والنظائر للخالديين ستة ١٨١/٢ وفيه في البيت الأول « وخرقاء ... يرومها .. وجانبها الصعب » وفي الثالث « .. من خلل الحجب » . وفي الرابع « يشرف .. ويقطع .. ويقدع في الهضب » وفي الخامس « فأبرزتها » كما وردت في الحماسة البصرية ٣٤٦/٢ ، وفي نهاية الأرب ٤٠٤/١ .

(٢) هو الوأواء الدمشقي واسمه محمد بن أحمد الغساني أبو الفرج . كان ينادي على الفواكه في سوق البطيخ بدمشق (ت ٣٧٠ هـ) المحمدون من الشعراء للقفطي الورقة ١٤ ، واليتيمة ٢٣٧/١ ، ومقدمة ديوانه ص ١٧ .

(٣) المثل السائر ١٣١/٢ « فشبه الساقي ... » .

فنقّطها البدر بالكواكب ، وكنّى برقصها عن اضطرابها عند المزج • وحَسُن ذكر البدر هنا لأنه يصاحب الكواكب ، وهو أكبرها في رأي العين ، لا في العقل إذا فكّر في الهيئة ، فحَسُن أن يكون له الكواكب تصرف لينقّط الشمس بها •وذِكْر البدر هنا أمر على طريق الاستطراد ، لمّا ذكر (٨٧/ب) النّقوط ، أراد أن يسند فعله إلى فاعل صدر عنه ، فحسن أن يذكر البدر • ولو حذف من الكلام تمّ المعنى في الأصل ، كما يقال : كأن الخمر شمس رقصت فنُقِطت بالكواكب • والشاعر أثبتَ أداة التشبيه للساقي في قوله : وكأنها وكأن حامل كأسها •

ولم يأت له بمشبه به ، فالشاعر واهم ، وابن الأثير مقلّد ، وكلاهما اغتر بذكر البدر ، لأن العادة قد جرت بتشبيه الساقي بالبدر ، والخمر بالشمس • كقول الشاعر :

إسقنيها بنتَ كرمٍ … عُتِّقَتْ عشْرا وخمْسا
باتَ يجلوها علينا … قمرٌ يحملُ شمسا

وقول الآخر :

وساقٍ كالهلالِ يُديرُ شمساً … على النُدْمانِ في مثلِ الهلالِ

وقول ابن الرومي :

أبصرتُهُ والكأسُ بين فمٍ … منه وبينَ أناملٍ خَمْسِ
فكأنّها وكأنَّ شاربَها … قمرٌ يقبّلُ عارضَ الشمسِ (١)

ولو كان الشاعر شبه الساقي لقال : شمس يديرها بدر أو يطوف بها أو يحملها• وهذان البيتان مشهوران بين أهل الأدب ، ولعل أحدا ما تفطّن لهذا النقد • وما

(١) ديوان ابن الرومي ص ١٠٧ والبيتان فيه نهاية مقطوعة بين مدامة ومعشوق . مطلعها :

ومُدامةٍ كحشاشةِ النفس … لَطُفَتْ عن الإدراكِ باللّمْسِ

أقول : لأن الشاعر أدخل أدلّة التشبيه على « مثار النقع وأسيافهم » وأتى بمشبَّه واحد هو الليل وقوله : « تهاوى كواكبه » في موضع الصفة لليل ، فهي من لواحق الليل •

ولو قال : ليل تهاوى كواكبه ، ورقمه البرقُ ووشاه الصبح ، لكان كل ذلك مشبها به ليس إلا • ولو كان من باب تشبيه اثنين باثنين لقال : ليل وكواكب تتهاوى • كما قال امرؤ القيس :

كأنَّ قلوبَ الطيرِ رَطْباً ويابساً لدى وكْرِ ها العنّابُ والحَشَفُ البالي[1]

وهذا الذي ذكرته ثابتٌ على محَكّ النظر ليس بدعوى مجرَّدة عن الدليل والبرهان • وللعكوك [2] بيت هو بيت بشار بن برد • وهو :

كأنَّ سُمُوَّ النقْعِ والبيضَ حولَه سماوةُ ليلٍ أسفَرَتْ عن كَواكبِ

وما أحسن قول ابن قاضي ميلة :

بِتْنا ونحنُ على الفُراتِ نُديرُها ليلاً فأشرقَ من سَناها النيلُ
وكأنها شمسٌ وكفَ مديرِها فينا ضُحى وفمَ النديمِ أصيلُ

وذكرت بالبيتين اللذين أوردهما ابن الأثير ــ رحمه الله تعالى ــ قول ابن السَّراج في مجدور :

لي قَمَرٌ جُدِّرَ لما اكتسى فزادَهُ حُسْناً وزادتْ هموم

(١) ديوان امرىء القيس ص ٣٨ من قصيدة مطلعها :

الا عِمْ صباحاً أيها الطللُ البالي وهل يَعِمَنْ من كان في العُصُرِ الخالي

وكذا في البديع لابن المعتز ص ١٢٢ .

(٢) العكوك واسمه علي بن جَبَلة . شاعر عراقي كان أعمى أسود أبرص ، أكثر شعره في مدح أبي دُلَف العجلي ، قتله المأمون سنة ٢١٣ هـ . انظر الورقة ص ١٠٦ ونكت الهميان ص ٢٠٩ .

كأنه غنّى لشمسِ الضحى فنقّطَتْهُ طربا بالنجوم (١)

وقول أبي يزيد العاص أكثر مناسبة من هذا ، فإنه قال :

عابَهُ الحاسدُ الذي لام فيه أن رأى فوق خدّه جُدَرِيّا

إنما وجهُهُ كبدرِ تمامٍ جعلوا بُرقُعاً عليهِ الثُرَيا(٢)

(٨٨/ب)

لأنّ الثريا قد تُرى مع البدر ، وأما النّجوم فلا تُرى مع الشمس . ويمكن أن يقال فيه : ولهذا قال : نقطته طربا بالنجوم ، فإنّ مَن نقط بشيءٍ فقد بان عنه وفارقه .

ويمكن أيضا التأويل للبيتين اللذين أوردهما ابن الأثير أيضا ولكنه بعيد .

[مناقشة نماذج من التشبيه من انشاء ابن الأثير]

قال في التشبيه : « ومن ذلك ما كتبته من جملة كتاب إلى ديوان الخلافة أذكر فيه نزول العدو الكافر على عكا . فقلت :

« وأحاطَ به العدو إحاطة الشّفاه بالثغور ، ونزل عليه نزول الظلماء على النور (٣) » .

(١) البيتان : منسوبان لابن السَّراج في أنباه الرواة ١٤٨/٣ ، والوافي بالوفيات ١٢١/٣ ، والمحمدون من الشعراء مخطوطة ورقة ١٢١ ، وطبقات النحويين واللغويين ص ١٢٥ ، والوافي بالوفيات ٨٨/٣ ، والذخيرة القسم الأول من المجلد الثاني ٢٩٢ ، وهما منسوبان للمفجع محمد بن أحمد البصري في : معجم الأدباء ٢٠٤/١٧ ، والمحمدون من الشعراء ورقة ٦ ، وأعيان الشيعة ٢٦٥/٤٣ .
وقد جاءت القافية في بعض المصادر مشبعة ، وورد في صدر البيت الثاني :
« أظنه غَنّى لشمس الضحى » كما في المحدون والطبقات

(٢) الذخيرة القسم الأول من المجلد الثاني ٢٩٢ ــ ٢٩٣ .

(٣) المثل السائر ١٤٢/٢ « فمن ذلك ... على ثغر عكا .. وأحاط بها العدو ... ونزل عليها نزول ... » .

أقول : ليس في ذلك مبالغة ، لأن الشفاه لا تحيط بالثغور ، والإحاطة اشتمال المحيط على المحوط من كل جانب ، كالدائرة بالنقطة ، وعنصر الماء بكرة الأرض ، وبياض العين بالسواد . أما الشفاه فإنما هي ساترة لا محيطة .

والكامل في ذلك قول الحريري ــ رحمه الله تعالى :

« وقد أحاطت به أخلاطُ الزُّمَر ، إحاطة الهالة بالقمر والأكمام بالثمر [١] » .

وقول القاضي الفاضل :

« وأبقاه بقاءاً خارقا للعوائد ، وجعل أياديه مطيفة بالأعناق اطافة القلائد »

وليست الشفاه كذلك ، إنما هي تستر الظاهر دون الباطن .

وقوله : « نزول الظلماء على النور » ، لا بأس به ، من نسبة الكفار إلى الظلام ، ونسبة ثغر عكا إلى النور لكونه كان في أيدي المؤمنين .

وما أحلى قول القاضي الفاضل ــ رحمه الله تعالى ــ من كتاب في فتح طَبَريّة :

« وصَبَّح الخادمُ طبريةَ وهجم عليها هجوم الطيف ، وافتض عُذرتها بالسيف » .

قال : « ومن ذلك ما ذكرته في فصل من كتاب إلى بعض الإخوان فقلت : »

« وما شبهتُ كتابه في وروده وانقباضه ، إلاّ بنظر الحبيب إلى إقباله وإعراضه وكلا الأمرين كالسهم في (٨٩/أ) ألم وقعه وألم نزعه ، والمشوق من اشتهرت صبابته في حالتيْ وصله وقطعه [٢] » .

أقول : هذا مأخوذ من قول الشاعر

(. . . . .) [٣]

---

(١) شرح الشريشي ، المقامة الأولى ١/٢٩ .
(٢) المثل السائر ٢/١٤٢ .. « ... إلا بنظر الحبيب في إقباله واعراضه ... والمشوق من استوت صبابته ... » .
(٣) بياض في الأصل .

ويلاهُ إنْ نظرتْ وإنْ هي أعرضَتْ وقـعُ النِـصالِ ونزعُهُـنَّ أليمُ [١]

[براعة التشبيه في بيت للبحتري]

قال وقد أورد قول البحتري :

وتَـراهُ في ظُلَمِ الوغى فتخـالُه قمراً يكُرُّ على الرِّجالِ بكوكبِ [٢]

« وفي هذا التشبيه ثلاثة أشياء بثلاثـة أشياء ، فإنه شبه العَجـاج بالظلمة ، والممدوح بالقمر ، والسِّنان بالكوكب . وهذا من الحُسن النادر [٣] » .

أقول : هذا من أنموذج ما تقدم من قوله في قول الشاعر :

وكأنها وكأن حامل كأسها ... (البيتين) .

هناك وهم الشاعر فقلده ، وهنا انفرد هو بالوهم دون البحتري ، لأن البحتري ما قال : وتراه في عجاج الحرب إذا كرّ على الرجال برمحه ، قمرا يجول في الظلام بكوكب ، ولو كان البيت يُفهم منه هذا المعنى ، كان تشبيه ثلاثة بثلاثة ، وليس في البيت غير تشبيه واحد لأنه قال : تراه في ظلم الوغى فتخاله قمرا .

هذا هو المعنى الذي بُني عليه البيت . وأما قوله : يكر على الرجال بكوكب ، فمن لواحق القمر ألا ترى أنّ الجملة في موضع النصب على أنها صفة لـ « قمر » .

ومن العجيب أنه ادّعى أن البحتري شبّه العجاج بالظُلَم ، والبحتري جعل

(١) البيت لابن الرومي . وهما بيتان وردا في معجم الشعراء ص ١٤٦ أولهما :
نظرتْ فأقصدَتِ الفؤادَ بسهمها ثـم انثنتْ عنـه فكاد يهيـم
وجاءت رواية البيت :
الموتُ إن نظرَتْ وان هي أعرضَتْ وقعُ النصـالِ ونزعُهُنَّ أليمُ

(٢) ديوان البحتري ٢/٢٣٠ من قصيدة قالها يمدح مالك بن طوق . مطعها :
رحلوا فأيـةُ عَبرةٍ لم تُسكَبِ أسفـاً وأيُ عزيمـةٍ لم تُغلبِ
وجاء في عجز البيت « يشد على الرجال » .

(٣) المثل السائر ٢/١٤٧ والعبارة فيه « وفي هذا البيت تشبيه ثلاثة أشياء . . . »

العجاج نفسه ظلاما . ولو أتى ذكرُ الظلام في عجز البيت ، لدخل في المشبَّه بـه واندرج بين القمر والكوكب ، وإنما جاء ذكره في أصل المشبه (٨٩/ب) .

وما أحسن قول المعتمد بن عباد (١) :

ولمـا اقتحمْتَ الـوغى دارِعـاً وقَنَّعْتَ وجهَكَ بالمِغْفَـرِ
حَسِبْنا مُحيّاكَ شمسَ الضُّحى عليهـا سحـابٌ مـن العَنبرِ (٢)

وقول ابن الزَّقاق (٣) .

لو كنتَ شاهدَهُ وقد غَشِيَ الوغى يختالُ في دِرعِ الحـديدِ المُسْبَلِ
لرأيتَ منـه والحُسامُ بكفِـهِ بحرا يُريقُ دمَ العـداةِ بجـدولِ

وقول الغَزّي :

وقد سَلَبَ الطّعنُ الأسنَّةَ لونَهـا فعصْفَرَ في اللَبّاتِ ما كان أزرقـا
وأسيافُنا في السابغـاتِ كأنهـا جداولُ تجري بـين زهْرٍ تَفتّقا (٤)

وقوله أيضا :

وكم رُعْتَ مِن مَلمومةٍ لا تَبينُ مِنْ فوارسِها إلا الظُّبى والحَمـالقُ
تخوضُ النّجيعَ احْمَرَّ تحتَ دِلاصِـهِ كما نبتَتْ حولَ الغديرِ الشقائقُ (٥)

وهذا مأخوذ من قول أبي الطيب :

---

(١) المعتمد بن عباد واسمه محمد أبو القاسم . صاحب إشبيلية وقرطبة ، كان فصيحا شاعرا وكاتبا (ت سنة ٤٨٨ هـ) . انظر مطمح الأنفس ص ١١–٢٢ .

(٢) والبيتان في ديوانه ص ١٧ .

(٣) ابن الزقاق واسمه علي بن عطية البَلَنْسي الشاعر . توفي دون الأربعين سنة ٥٢٨ هـ انظر فوات الوفيات ٢/١٢٥ .

(٤) ليسا في مخطوطه ديوانه لدي لنقصها .

(٥) بيتا الغزي في مخطوطة ديوانه الورقة ٩٩ .

تَعَوَّدَ أن لا تقضِمَ الحَبَّ خيلُه إذا الهامُ لم تَرْفَعْ جُنوبَ العلائِقِ
ولا تَرِدُ الغُدرانَ إلا وماؤها مِن الدّمِ كالريْحانِ تحتَ الشّقائقِ (١)

ومما قلته أنا في هذا النوع :

وسيوفٍ إذا مَضَتْ في جراحٍ قلتَ هذا بنفسجٌ في شَقيقِ
يَنْشُدُ الجسمُ روحَه من ظُباها ودِماها بين النقا والعقيقِ (٢)
(٩٠/أ)

وأما ما يشبه قول البحتري الذي أورده ابن الأثير ، فقول أبي فراس فيما أظن :

وقَفَلْتَ عنهم غانماً وقلوبُهُمْ فيها لخوفِكَ عسكرٌ جرّارُ
وأتيتَ يقدُمُكَ السِّنانُ كما أتى قبل الصباحِ الكوكبُ الغرّارُ (٣)

قال : « ومن التشبيهات الباردة قول أبي الطيب » :

وجرى على الورقِ النجيعُ القاني فكأنه النارنجُ في الأغصانِ (٤)

أقول : لعمري إنه معذور في هذا ، وهو من سَقَطات المتنبي التي ينحط فيها، وهذا البيت من تلك القصيدة التي افتتحها بقوله :

الرأيُ قبلَ شجاعةِ الشجعانِ هو أولٌ وهي المحلُّ الثاني

(الأبيات الخمسة) .

---

(١) شرح الديوان ـ البرقوقي ٨٦/٣ من قصيدة قالها يمدح سيف الدولة وإيقاعه بالقبائل المناوئة سنة ٣٤٤ هـ . مطلعها :

تذكرتُ ما بين العُذَيْبِ وبارقِ مجرَّ عوالينا ومجرى السوابِقِ

(٢) في الغيث المسجم ٢٠/٢ .

(٣) ليسا في ديوانه .

(٤) المثل السائر ١٥٧/٢ والبيت في شرح البرقوقي ٣٨٩/٤ من قصيدة قالها يمدح سيف الدولة عند منصرفه من بلد الروم سنة ٣٤٥ هـ .

فانظر إلى هذا الافتتاح ، وما أتبعه من الحِكَم والأمثال مع الفصاحة والبلاغة وفي هذه القصيدة مثل قوله :

وتوهموا اللعبَ الوغىوالطعنُفيالـ ... هيجاءِ غيرُ الطعنِ في المَيْدانِ

ومنها يصف العدو المنهزم :

يغشاهُمُ مطرُ السحابِ مفَصَّلاً ... بمُهَنَّدٍ ومُثَقَّفٍ وسِنانِ (١)

وقبل البيت الذي أورده ابن الأثير :

قد سَوَّدَتْ شجرَالجبالِ شعورُهُمْ ... فكأنَّ فيه مُسِفَّةَ الغِربانِ

ولما عكس أبو المطرِّف بن أبي بكر المخزومي معنى أبي الطيب في تشبيه نارنجة في نهر (٩٠/ب) جاء حسناً . فإنه قال :

ومنظرٍ أرَّقني حُسنُهُ ... من أزرقٍ ينسابُ كالأرقمِ
أبصرتُه يحملُ نارِنْجَةً ... طافيةً حمراءَ كالعَنْدمِ
ودرَّجَتْ ريحُ الصَبا مَتنَهُ ... لَمّا انبرَتْ وهْي به ترتمي
فخِلْتُهُ سيفَ وغىً مُصْلَتاً ... هُزَّ وفيهِ قطرةٌ من دَمِ

وقال ابن فَتحون (٢) في ذلك :

والماءُ فوق صفائِه نارِنجةٌ ... تطفو به وعجاجُهُ يتموَّجُ
حمراءُ قانيةُ الأديمِ كأنّها ... وسْطَالمَجرَّةِ كوكَبٌيتوهَّجُ

فأتى بالمعنى في بيتين ، وأبو المطرِّف في أربعة فأطال .

وذكرتُ بقول أبى المُطرِّف ، قول القاضي عِياض (٣) رحمه الله تعالى :

---

(١) في المصدر السابق « بمثقف ومهند وسنان » .

(٢) ابن فتحون ، واسمه محمد بن خلف الأندلسي أبو بكر ، وكان معتنيا بالحديث (ت بمرسيه سنة ٥٢٠ هـ) انظر الصلة ص ٥٤٧ ، والوافي ٣/٤٥ .

(٣) القاضي عياض بن موسى أبو الفضل ، عالم حافظ بالمغرب ، ولي قضاء سبتة ثم غرناطة (ت بمراكش سنة ٥٤١ هـ) . انظر قلائد العقيان ص ٢٢٤ .

كأنّما الزرعُ وخاماتُه وقد تبدَّتْ فيه أيدي الرياحْ
كتائبُ تجفَلُ مهزومةٌ شقائقُ النعمانِ فيها جِراحْ[١]

[مناقشة نموذج آخر من إنشاء ابن الأثير]

قال في القسم الأول من النوع الرابع في الالتفات ، بعدما تكلّمَ على ما في سورة الفاتحة من الالتفات مِن الخطاب إلى الغيبة ، وفرغ من ذلك :

« فانظر إلى هذا الموضع ، وتناسب هذه المعاني الشريفة ، التي الأقدام تكاد تطؤها (٩١/أ) والأفهام مع قربها صافِحةٌ عنها[٢] » .

أقول : أكذا يُقال بعد ذكر أسرار القرآن الكريم وايضاح غامضه . وما أفاد قوله : « المعاني الشريفة » وتأدبه بقوله « تكاد الأقدام تطؤها » ! وكان الأحسن أن لو قال : فانظر إلى هذه المعاني الشريفة كيف غدت شموسها ضاحية ، والبصائر عن إدراك ضيائها لاهية . أو أن يقول : تكاد تيجانها تقع على المَفارِق ، والأذهان عاطِلةٌ الجيد من دُرّها المتناسق .

[الالتفات في بعض الآيات]

قال في الالتفات وقد ذكر قوله تعالى : « ثُمّ استوى إلى السّماء وهي دُخان[٣] » (الآية) . إنما عدَل عن الغيبة إلى الخطاب في قوله تعالى : « وزَيّنّا السّماءَ الدّنيا[٤] » لأنّ طائفة من الناس غير المتشرعين يعتقدون أن النجوم ليست في سماء الدنيا ، وأنها ليست حفظا ولا رجوما . فلما صار الكلام إلى هنا ، عدل عن خطاب الغائب إلى خطاب نفسه لأنّه مهمٌ من مُهِمات البلاغة في الاعتقاد ،

---

(١) بيتاه في المصدر السابق وريحانة الألبا ١/٣٥٦ و ٢/٩٥ .
(٢) المثل السائر ٢/١٧٤ والعبارة فيه : « .. التي الأقدام لا تكاد تطؤها ... » وواضح بُعد هذا عن المعنى المقصود .
(٣) سورة فصلت ٤١/١١ .
(٤) سورة فصلت ٤١/١٢ .

وفيه تكذيبُ الفِرقة المكذّبة المعتقدين بطلانه [١] » .

أقول : إن اعتقادهم أنّها ليست في سماء الدنيا وليست رجوما ، فرع على اعتقاد قِدَم العالم ، وأن الله تعالى موجب بالذّات دون حدوث العالم والفاعل المختار .

وعلى ما قرّره ٪ فإضافةُ الفعل في خلق السماوات في يومين ، ووحي أمرها فيها إلى المتكلم ، يكون أولى من أن تكون إخبارا عن غيره ، لأنه الأصل ، والعناية بالأصل أولى مِن العناية بالفَرع ، لأنه إذا ثبت الأصل ثبت الفرع ولا ينعكس ، ولو كان هذا أولى لما عدَلَ عنه ، ولكنه قد عدل عنه لحكمة لم تظهر لابن الأثير .

[اقحام النحو]

قال في النوع الرابع [٢] في توكيد الضميرين :

« ولربما قيل في هذا الموضع : إن الضمائر مذكورة في كتب النحو فأي حاجة إلى ذكرها هنا ؟

ولم يعلم أن النحاة لا يذكرون ما ذكرته ، لأن هذا يختص بفصاحة (٩١/ب) وبلاغة ٪ واولئك لا يعرضون إليه ، وإنما يذكرون عدد الضمائر ، وأنّ المنفصل منها كذا والمتصل كذا ولا يتجاوزون ذلك . وأما أنا فقد أوردت في هذا النوع أمرا خارجا عن الأمر النحوي [٣] » .

أقول : إنّ نحوَ المتقدمين غالبه معان وبيان ، مثل : الرّماني وأبي علي الفارسي

---

(١) المثل السائر ١٧٨/٢ « والفائدة في ذلك أن طائفة ... فلما صار الكلام إلى ها هنا عدل به عن خطاب الغائب إلى خطاب النفس لانه مهم من مهمات الاعتقاد وفيه تكذيب للفرقة المكذبة المعتقدة بطلانه » .

(٢) في المثل السائر ١٩١/٢ « النوع الخامس » .

(٣) المثل السائر ١٩١/٢ « إن قيل في هذا الموضع .. فأي حاجة إلى ذكرها ها هنا ولم نعلم أن النحاة ... قلت إن هذا يختص بفصاحة وبلاغة وأولئك لايتعرضون إليه ... وأما أنا فإني أوردت في هذا النوع أمرا خارجا عن الأمر النحوي » .

وابن جنّي على تأخر زمانهم ، وأكثر ما هو الآن مدون في علم المعاني مذكور في كتب القوم ، ولكن لما أتى الإمام عبد القاهر الجُرجاني (١) ، جرّد هذه النكت التي ليست بإعراب ولا بد ، وجمعها ودوّنها وبوّبها ورتّبها ، صار علما قائما برأسه، وتنبّه الناس بعده كالسّكّاكي (٢) وغيره تفتّحتْ لهم الأبواب (٣) .

ولهذا إنّ مَن لم يكن متمكنّا من النّحو ، لا يقدر على الكلام في هذا . ألا ترى أن الزمخشري لما كان عارفا بالنحو تيسر له في تفسيره مالا تَيسَّر لغيره ، وباقتداره على الإعراب والنظر في أسرار العربية وتعليل أحكامها أورد تلك الإشكالات ، وأجاب عنها بتلك الأجوبة المرقصَة ، وبالنّحو استطال ومَهر وتبحَّر ودرُبَهُ فنَّيْ النَّظم والنَّثر هي التي نبهته لذلك . حتى إنّ الإمام فخر الدين في تفسيره تراه إذا تكلَّم في سائر العلوم غير مقلّد لأحد ، فإذا جاء المعاني والبيان قلّد الزمخشري في ذلك وقال : قال محمود الخوارزمي وقال صاحب الكشاف . ولهذا قال العلماء : مَن نظر في الكشاف ولم يكن عارفا بالعربية وأصول الدين ، صار معتزليا ، وما أُشبّه وضع علم المعاني والبيان إلاّ بالفقه . فإنّ الفقهاء قديما في التابعين إنما كانوا مُحدِّثين فلما جاء أبو حنيفة (٤) — رضي الله عنه — دوّن الفقه وقرّر (٩٢/أ) قواعده ، وقاس ما لم يبلغه فيه حديث على ما ورد فيه الحديث، وجاء الناس من بعده ومدّوا فيه الأطناب ، وفتِحت لهم الأبواب . وانفرد الفقهاء بهذا العلم عن المُحدِّثين ، واختصَّ الفقهاء بمعرفة الأحكام والاستنباط وتركوا معرفة طرق الحديث وأسماء رجاله وصحيحها من سقيمها للمحدِّثين . ولهذا

---

(١) عبد القاهر بن عبدالرحمن الجرجاني أبو بكر . من أئمة اللغة وواضع أصول البلاغة وله شعر رقيق (ت ٤٧١ هـ) . انظر فوات الوفيات ٦١٢/١ .

(٢) السكاكي واسمه يوسف بن أبي بكر الخوارزمي أبو يعقوب ، عالم بالعربية والأدب (ت ٦٢٦ هـ) انظر بغية الدعاة ٣٦٤/٢ ، ومفتاح السعادة ١٦٣/١ .

(٣) سها الصفدي هنا كما يبدو عن ربط جواب الشرط (جرد) بالفاء . وصواب العبارة أن نقول : لما أتى الإمام .. جرد هذه النكت .. فصار علما .. وتنبه الناس ... وتفتحت لهم الأبواب » .

(٤) أبو حنيفة واسمه النعمان بن ثابت الكوفي ، أحد الأئمة الأربعة ، أبى تَولّيَ قضاء بغداد للمنصور ورعاً ، فحبسه إلى أن مات سنة ١٥٠ هـ . (انظر النجوم الزاهرة ١٢/٢) .

تسمعهم يقولون ، فلان من الفقهاء المحدثين • وأعيان الفقهاء إنما تميزوا لقيامهم بفن الحديث • وانظر إلى أئمة المذاهب مثل الشافعي وأبي حنيفة ومالك وأحمد بن حنبل[1] وأبي داود الظّاهري[2] والثّوري[3] والأوزاعي[4] وسعيد بن المسيّب[5] ـ رضي الله عنهم ـ تجدْهم من كبار المحدّثين •

ويقال : إن سبب وضع أبي حنيفة الفقه وتدوينه أنّه كان في عصره اثنان حضرا إلى الحمام وأودَعا صاحبه وَداعة لها صورة" ، ودخلا الحمام • ثمّ إنّ أحدهما خرج وطلب الوَداعة وأخذها وراح في سبيله • فلما خرج الآخر طلبها من الحَمامي فقال له : إن صاحبك خرج وأخذها ، فراح إلى الحكام في ذلك الزمان وشكاه إليهم فألزموه بالقيام بها للغريم الحاضر وقالوا له : أنت فرّطت ، وكان الواجب أن لاتدفع الوداعة إلا إليهما معا كما أودعاك معا ، فبقي ذلك الرجل في حيرة لا يدري مايصنع • فلقيه أبو حنيفة فسأله عن حاله لِما رآه مِن الفكرة والحيرة ، فأخبره بقضيته ، فقال له : قل لغريمك : إن المال عندي ، فأحضر لي صاحبك لأدفع الوداعة إليكما ، فإذا أتى به حصلت على غريمك • فكان ذلك سبب خلاص الحمامي من تلك الورطة •

---

(١) أحمد بن محمد بن حنبل أبو عبد الله . أحد الأئمة الأربعة ، قدمه المتوكل وتولى ببغداد سنة ٢٤١ هـ . انظر وفيات الأعيان ١/١٣٢ .

(٢) أبو داود الظاهري واسمه داوود بن علي الأصبهاني . احد الأئمة المجتهدين ، لقب بالظاهري لأخذه مع طائفته بظاهر الكتاب والسنة (ت ببغداد سنة ٢٧٠ هـ) . انظر تذكرة الحفاظ ٢/١٣٦ .

(٣) الثوري واسمه سفيان بن سعيد من مضر . سيد أهل زمانه في علوم الدين والحديث (ت بالبصرة سنة ١٦١ هـ) ، انظر حلية الأولياء ٦/٣٥٦ .

(٤) الأوزاعي عبد الرحمن بن عمرو إمام الدّيار الشامية في الفقه . امتنع عن قبول القضاء (ت ببيروت ١٥٧ هـ) انظر حلية الأولياء ٦/١٣٥ ، ووفيات الأعيان ١/٢٧٥ .

(٥) سعيد بن المسيّب المخزومي أبو محمد أحد الفقهاء السبعة في المدينة (ت سنة ٩٤ هـ) . انظر حلية الأولياء ٢/١٦١ .

وعند ذلك أخذ أبو حنيفة في تدوين الفقه ، وكانت المسألة المذكورة أول ما وضعه . وكذلك أصول الفقه ، إنّما كان يقوم به المُجتهد العارف (٩٢/ب) بما يحتاج إليه من العلوم في استنباط الحكم مِن الآية والحديث ، ويكون عنده قوة ينظر بها في المُحكَم والمتشابه ، والناسخ والمنسوخ ، والحقيقة والمجاز ، وصِحة الحديث مِن ضعفه ، وثقة رُواته ، وترجيح أحد الحَديثين على الآخر إذا تساويا في الصِّحة بما يُوافق القواعد ويستند إلى القياس الشرعي . ومثل هذا يحتاج إلى علوم جَمّة ، فجاء الشافعي ــ رحمه الله تعالى ــ ووضع أصول الفقه وجمع ما كان منه مفرّقا في العلوم من اللغة في معرفة المُشترك والمتباين والمُترادِف، والحقيقة والمجاز ، والاستعارة والكناية .

ومِن النحو في معرفة الشرط والجزاء ، والاستثناء المتصل والمنقطع ، والعطف المرتّب والعطف الذي لا يُرتّب ، والذي للفَوْرِ والذي للتّراخي ، وحروف الجر واختلاف معانيها وما ينقسم كلّ حرف إلى أنواعه ، والأسماء المبهمة وغير ذلك .

ومن المنطق في معرفة دلالة المُطابقة والتضمُّن والالتزام ، ومعرفة الجنس والنوع، والفصل والخاصة والعرَض العام ، والمقدمتين والنتيجة والقياس المنتج ، وغير ذلك مما يحتاج إليه الفقيه من قواعد الجَدل ومعرفة المَغالِط ، وما يحتاج إليه من معرفة صحة الحديث وضَعفه وحُسنه إلى غير ذلك . وجعله الشافعي ــ رحمه الله تعالى ــ علما قائما برأسه وإن كانت أجزاؤه مفرّقة في العلوم . ثم إنّ الناس جاؤوا بعده وزادوا فيه ما أمكن من ذلك . فكذا علم المعاني والبيان ، انتُزع من النحو ودُوّن وجُعل فنّا قائما برأسه .

[حول توكيد الضميرين]

قال : ولنقدم في ذلك قولا يحصره ويجمع أطرافه فنقول : إذا كان المقصود معلوما ثابتا في النفوس ، فأنت بالخيار في توكيد أحد الضميرين بالآخر (٩٣/أ) وإذا كان غير معلوم ــ وهو ممّا يُشك فيه ــ فالأولى حينئذ أن توكد أحد

الضميرين بالآخر في الدلالة لتقرّره وتثبّته . فممّا جاء من ذلك قوله تعالى : «قالوا يا مُوسى إمّا أن تُلقِي وإمّا أَنْ نكونَ نَحنُ المُلْقِين [1] » فإنَّ إرادة السَّحَرَة للإلقاء قبل موسى لم تكن معلومة عنده ، ولأنهم لم يُصرّحوا بما في أنفسهم [2] » وطوَّلَ في الكلام على ذلك .

أقول : ظهرتْ فائدة ما قررتُه أنا من أن المعاني والبيان جزء من النحو ، وإذا خرجا عن القواعد النحوية ، خبَطَ قائلهما خبْطَ عشواء . والدليل على ذلك أنه قرر في القاعدة التي له أنّ المعنى إذا كان ثابتا في النفس ، فأنت مُخيّر في تأكيد أحد الضميرين بالآخر وليست هذه القاعدة على الإطلاق ، فإنّ التأكيد هو التكرار، ومن شرطه — أعني التكرار — أن يتم المعنى بدونه مثل : ضربت زيدا زيدا ، وجاءني زيدٌ زيدٌ ، وأنت أنت الفاضل ، وهو هو الجواد . فكلّ هذه الصور يجوز حذف التأكيد فيها لأن المعنى يتم بدونه .

وقد وجدنا الضمير يتكرّرُ ولا يجوز حذفه ، كقوله تعالى : « وقلنا يا آدم اسكُن أنت وزوجُك الجنّة [3] » . وقوله تعالى : « فاذهبْ أنتَ وربُّك فقاتِلا [4] » ، لأن أفعال الأمر نحو : قم واقعد واسكن كلّها يتحمل الضمير ولا يجوز إظهاره ، لأن التقدير : قم أنت ، واسكن أنت ، ولهذا حكم النحاة على أفعال الأمر بأنها كلام لأنها تركبت من فعل وفاعل .

ألا ترى أنهم أوردوا على الشيخ جمال الدين بن الحاجب [5] — رحمه الله

---

(١) سورة الأعراف ٧/١١٥ .

(٢) المثل السائر ٢/١٩٢ « ... اذا كان المعنى المقصود معلوما .. في توكيد أحد الضميرين فيه بالآخر .. فالأولى حينئذ أن يؤكد أحد .. فان ارادة السحرة الالقاء قبل موسى .. » .

(٣) سورة البقرة ٢/٣٥ .

(٤) سورة المائدة ٥/٢٤ .

(٥) جمال الدين ابن الحاجب واسمه عثمان بن عمرو ، فقيه مالكي من كبار علماء العربية . من تصانيفه « الكافية » و « الشافية » (ت بالاسكندرية ٦٤٦ هـ). انظر وفيات الأعيان ١/٣١٤ ، ومفتاح السعادة ١/١١٧ ، وبغية الوعاة٢/١٣٤

تعالى ــ في قوله : الكلمة لفظ وُضع لمعنى مُفردٍ ، الضمائر المُستكِنَّة في أفعال الأمرِ جميعا وقالوا : هي كلمات ولم يَلفظ بها اللسان • حتى إنّ الشيخ بدرالدين محمد بن مالك [1] ــ رحمه الله تعالى ــ قال : الكلمة لفظ بالقوة أو الفعل (٩٣/ب) فاحترز بقوله بالقوة من مثل الضمائر التي تتحملها أفعال الأمر ، ولهذا فسَّر بعضهم اللفظ فقال : اللفظ ما يطرحُه اللسان أو في حكمه حتى يَخلصَ حدُّ ابن الحاجب•

وإذا تقرّر هذا فأقول : إنّ « أنت » في قوله تعالى : « اسكن أنت » ضمير آخر بارز غير الضمير المستكن في « اسكن » ، وتقديره : اسكن أنت أنت وزوجك• ومع ذلك فلا يجوز أن يحذف الضمير الظاهر ها هنا لأنه لا يجوز عطف « زوجك » على الضمير المستتر ، لضعف ما هو بالقوة بالنسبة إلى ما هو بالفعل • وهذا بخلاف قوله تعالى : « وإمّا أن نكون نحنُ المُلقين » • فثبت أنّ صاحب المعاني إذا لم يعرف النَّحو ، لم يدر ما يقوله •

ويمكن أن يُجاب عنه ويُعتذر له فيقال : إنه إنمّا يتكلم في التوكيد ، وقوله تعالى : « اسكن أنتَ وزوجُك » ليس هو من باب التوكيد ، إنما أتى به لأمر آخر وهو عدم الجواز في العطف على المضمر المستكن ، وهذا غير التوكيد •

قلت : وعلى كل حال ، فهي عبارة مدخولة غير سادّة [2] ، تحتاج إلى قيد يُخرجُ مِثلَ هذا ، وإلاّ وردَ على قاعدته التي قررَها ، فإنّ القواعد تحتاج إلى أن تكون محكمة غير موهمة •

[ابن الأثير يناقش المتنبي في بعض شعره]

قال في النوع الثامن في استعمال العام في النفي ، والخاص في الإثبات :

« وقد أغفلَ كثير من الشعراء ذلك ، من جملتهم أبو الطيب حيث يقول :

---

(١) بدر الدين محمد بن محمد الطائي وهو ابن جمال الدين ناظم الألفية . نحوى من أهل دمشق . من كتبه شرح الألفية (ت بدمشق ٦٨٦ هـ) . انظر بغية الوعاة ٢٢٥/١ والنجوم الزاهرة ٣٧٣/٧ .

(٢) أي لا تفي بالقصد .

يا بَدْرُ يا بَحْرُ يا غمامةُ يا ليثَ الشرى يا حِمامُ يا رَجُلُ [(١)]

فإنه إذا فعل ذلك ، كان كالمُرتفع مِن محل إلى محل أعلى منه ، وإذا خالفه كان كالمنخفض (٩٤/أ) مِن محل إلى محل أدنى منه .

فأما قوله « يا بدر » فإنه اسم الممدوح والابتداء به أولى ، ثم يجب أن يقول بعده : « يا رجل يا ليث يا غمامة يا بحر يا حمام » لأن الليث أعظم من الرجل ، والغمامة ، أعظم من الليث والبحر أعظم من الغمامة ، والحمام أعظم من البحر[(٢)]» .

أقول : قد ناقشه ابن أبي الحديد [(٣)] ، وقال كلاماً أذكر ملخصه ، وهو أنّ المتنبي قصد مقصداً صالحاً لأنه ابتدأ بالبحر وهو دون الغمامة ؛ لأن البحر هنا هو الذي يُورَد وهو مثل الغدير والنهر لا البحر المِلْح ، فإن ذلك أستُقص" [(٤)] كلّي ، والأنهار والغدران يتفرعان عن الغمامة ، ثم انتقل فقال : « يا ليث الشرى » وانتقل منه إلى الحمام لأنه أعلى من الليث ، لأنه لولا الحمام لم يرهب الليث . ولِذكْرِ الجود أولاً قال يا بحر ، ولذِكر الشجاعة ثانيا قال يا ليث ، وقدّم الجود لأن حاجة جمهور الناس إلى الجود أكثر من حاجتهم إلى الشجاعة . انتهى ، هذا ملخص كلام ابن أبي الحديد ، وهو لعمري تأويل حسن ، كونه عكس على ابن الأثير مقصده وجعل البيت من باب الانتقال من الأدنى إلى الأعلى ، وغالبُ الناس طعَن في البيت كما طعن ابن الأثير .

---

(١) شرح البرقوقي ٣/٤١٣ من قصيدة قالها يمدح بدر بن عمار وقد فصد لعلة مطلعها :

أَبْعَدُ نأي المليحةِ البَخَلُ في البُعْدِ ما لا تكلَّفُ الإبِلُ

(٢) المثل السائر ٢/٢١٥ « ... فمن جملتهم أبو الطيب المتنبي في قوله « شعر » وينبغي أن يبدأ فيه بالأدنى فالأدنى فإنه إذا فعل ذلك .. فإنه اسم الممدوح والابتداء به أولى ثم بعده فيجب أن يقول ... » (والغمامة أعظم من الليث) غير موجودة .

(٣) الفلك الدائر في المثل السائر ٤/٢٤٢ .

(٤) الاستقص : هو الشيء البسيط الذي يتركب منه الشيء المركب والاستقصات الأربعة هي النار والهواء والماء والتراب ، انظر مفاتيح العلوم للخوارزمي ص١٣٧ ، ونهاية الأرب ١/٩٥ .

قلت : وللناس فيه تأويل آخر ، وهو أنه لا يلزمه الانتقال من الأدنى إلى الأعلى فيما قصده ، لأنه أراد وصفه بالمدح الذي ادعاه فيه قبل . وقال : يا بدر اسمه ، ثم قال يا بحر ، فإن لم أُصدِّق فيما أقوله فيا غمامة ، فإن لم أصدِّق فيا ليث ، فإن لم أُصدِّق فيا حِمام لأنك تُعدِم نفوس أعدائك الحياة ، فإنّ لم أصدِّق فيا رجل، جمع هذه الأوصاف التي ذكرتُها ، على أنّ هذا التأويل ليس في (٩٤/ب) قوة ما ذكره ابن أبي الحديد ولا في حُسنه .

وابن الأثير ادّعى أنّ الحِمام أكبر مَن البحر وأعلى ولم يُبين وجه ذلك ، والذي أقوله في ذلك : لأن الموت عبارة عن عدم الحياة ، والبحر عبارة عن وجود الماء الكثير الغَمْر ، والعَدَم أعم من الوجود ، فهو أعلى منه بهذا الاعتبار ومقدم عليه . ومن هذا قوله تعالى : « الحمدُ لِلّه الذي خلَقَ السّموات والأرضَ ، وجعلَ الظّلمات والنّور » [١] . قيل : إنه قدم الظّلمات على النور ، لأنّ الظلمة عبارة عن عدم النور ، والعدَم متقدّم على الوجود . ولولا هذا التأويل في هذه الآية الكريمة ، لكان قول المتنبي : يا بدر يا بحر (البيت) من هذا الباب .

ويشكل على مَن قرّر أنه لا ينتقل إلاّ مِن الأدنى إلى الأعلى ، وبهذه القاعدة التي قرّروها تمسَّكَ مَن فَضَّل الملائكة على الأنبياء وقال : إن الله تعالى انتقل من الأدنى إلى الأعلى في قوله تعالى : « لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لِلّه ولا الملائكةُ المقرّبون [٢] » فإنّ الحكيم لا ينتقل مِن الأعلى إلى الأدنى ، ولا يقول البليغ : لا أفكر في السلطان ولا في الوزير بل يقول : لا أفكر في الوزير ولا في السلطان .

والصحيح الذي ذهبَ إليه علماءُ السُّنّة ، أنّ الأنبياء أفضل من الملائكة إلاّ من شذَّ منهم مثل : القاضي أبي بكر الباقلاني [٣] ، وأبي عبد الله الحليمي [٤] ،

---

(١) سورة الأنعام ١/٦ .
(٢) سورة النساء ١٧١/٤ .
(٣) ابو بكر الباقلاني واسمه محمد بن الطيب . قاض انتهت إليه الرئاسة في مذهب الأشاعرة ، سفر لعضد الدولة إلى ملك الروم . من كتبه « إعجاز القرآن » (توفي ببغداد سنة ٤٠٣ هـ) ، انظر وفيات الأعيان ٤٨١/١ ، والوافي ١٧٧/٣ .
(٤) أبو عبد الله الحليمي واسمه الحسين بن الحسن . فقيه قاض شافعي ولد بجرجان وتوفي ببخارى سنة ٤٠٣ هـ ، انظر الرسالة المستطرفة ص ٤٤ .

والإمام فخر الدين في بَعض كتُبه وليس هذا بمكان أدِلّة القوم ، فإنّ المسألة عظيمة والنّزاع فيها كثير .

وابن أبي الحديد قد ناقش ابن الأثير في هذا الباب بمجموعه مناقشة جيدة ، فما تنكره عليه تجده في الفلك الدائر .

[هل يجب تقديم الأكثر على الأقل في الكتابة]

قال في النوع التاسع في التقديم والتأخير : « ومن هذا الضرب تقديم الأكثر على الأقل ، كقوله تعالى : « ثم أورثْنا الكتابَ الذين اصْطفَيْناه مِن عبادِنا ، فمِنهم ظالم لِنفسه ، ومنهم مُقتصد ، ومنهم سابق بالخَيْرات [1] » .

« وإنما قدم الظالم لنفسه للإيذانِ بكثرته وأنّ معظم الخلق عليه ، ثم أتى بعده بالمُقتصدين لأنهم قليل بالإضافة إليه (٩٥/أ) ثم أتى بالسابقين وهم أقلُّ من القليل ، أعني من المقتصدين . فقدّم الأكثر ، ثم بعده الأوسط ، ثم ذكر الأقلَّ آخرا [2] » .

ثم إن ابن الأثير قال بعد سبعة أسطر أو ثمانية . قال « فإن قيل قد ورد في القرآن العظيم مواضعُ منه تخالف هذا الذي ذكرته ، كقوله تعالى في سورة هود : « وما نُؤخِّره إلاّ لأجل مّعدود ، يومَ يأتي لا تكلّم نفسٌ إلاّ بإذنه ، فمنهم شقيٌّ وسعيد ، فأما الّذين شَقُوا ففي النار [لهم فيها زفير وشهيق ، خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ، إن ربك فعّال لما يريد] [3] وأما الذين سعدوا ففي الجنة [4] » .

فقدّم أهل النار في الذّكر على أهل الجنة ، وهذا مُخالف للأصل الذي أصلته في هذا الموضع . ثم أخذ يذكر الجواب .

---

(١) سورة فاطر ٣٢/٣٥ .
(٢) المثل السائر ٢٣١/٢ .
(٣) مابين المعقوفين ساقط في الأصل والنسخ الأخرى كذلك . (يبدو انه مقصود !)
(٤) سورة هود ١٠٤/١١ — ١٠٨ .

أقول : إنك قد قررتَ أن التقديم والتأخير قد يكون للأكثر والأقل ، واستشهدتَ بالآية الكريمة التي اشتملت على تقديم الظالم لكثرته ، وما بالعهد من قدم . فلأيِّ شيء ما تكون هذه الآية التي أوردتها من ذلك الباب ، وإنّ الشقي في العالمين أكثر من السعيد . وما تحتاج إلى أنك تورِدُ وتعترضُ وتتكلّفُ الجواب .

على أنّه قد أورد أشياء في هذا الباب ، وأجابه عنها ابن أبي الحديد فيؤخذ مِن الفلك الدائر (١) .

قال : « ومما جاء من ذلك قوله تعالى في قصة مريم « فحملته فانتبذت به .. »(٢) « الآية » وفي هذه الآية دليل على أنّ حملها ووضعها إياه كانا متقاربين ، لأنه عطف الحمل والانتباذ إلى المكان الذي مضت إليه ، والمخاضَ الذي هو الطلق بالفاء وهي للفور ، ولو كانت كغيرها من النساء لعطف بثم التي هي للتراخي والمُهلة . ألا ترى أنه قد جاء في الآية الأخرى : « قُتِل الإنسان ما أكفره .. » إلى يسَره (٣) ، فلما كان بين تقديره في البطن وإخراجه منه مدةٌ متراخية ، عطف ذلك بِثُم (٩٥/ب) ، وهذا بخلاف قصة مريم ، فإنها عُطفت بالفاء . وقد اختلف الناس في مُدّة حَمْلها ، فقيل : إنه كان كحمل غيرها من النساء وقيل : لا بل كان مدة ثلاثة أيام . وقيل أقل وقيل أكثر (٤) .

« وهذه الآية مزيلة للخلاف ، لأنها دلتْ صريحا على أنَّ الحملَ والوضعَ كانا متقاربين على الفور من غير مُهلة ، وربما كان ذلك في يوم واحد أو أقل . ومن هذا الأسلوب قوله تعالى : « ولقد خلقْنا الإنسانَ مِن سُلالة مِن طِين ، ثم جعلناه نُطفةً في قَرارٍ مَكين ، ثم خلقْنا النُّطفة عَلقَة ، فخلقنا العلقةَ مضْغة ،

---

(١) المثل السائر ٤/٢٦٧ .
(٢) سورة مريم ١٩/٢٢ .
(٣) سورة عبس ٨٠/١٧ — ٢٠ .
(٤) أورد الرازي في تفسيره (مفاتيح الغيب) مختلف الأقوال في هذا وهي تتفاوت بين تسعة أشهر وساعة واحدة ، وممن قال بالفورية ابن عباس — رضي الله عنه — انظر تفسير الرازي ٥/٥٢٦ ، وتفسير الطبري ١٦/٦٥ .

فخلقْنا المُضغةَ عِظاما ، فكسوْنا العِظام لَحْما ، ثم أنشأناه خَلْقا آخر ، فتبارك اللهُ أحسنُ الخالقين [(١)] .

« وفي الآية المقدَّم ذكرُها قال : « مِن نطفةٍ خلقَه فقدَّره » فعَطَف التَّقدير على الخَلْق بالفاء لأنه تابع له ، ولم يذكر تفاصيل حال المخلوق .

« وفي هذه الآية ذكرُ تفاصيل حاله في تَنقُّله ، فبدأ بالخلق الأول وهو خلق آدم من طين ، ولما عطف عليه الخلق الثاني الذي هو خلق النسل ، عطفه بثُمَّ » لما بينهما من التراخي ، وحيث صار إلى التقدير الذي يتبع بعضه بعضا من غير تراخ ، عطفه بالفاء ، ولما انتهى إلى جعله ذكرا أو أنثى وهو آخر الخَلْق ،عطفه بثم»

« فإن قيل : إنّه عطف المُضغة على العَلَقة في هذه الآية بالفاء ، وفي أخرى بثُمَّ ، وهو قوله تعالى : « يا أيها الناس إنْ كنتم في رَيْبٍ من البعث فإنّا خَلقْناكم مِن تراب ثُمّ مِن نطفةٍ ثمّ مِن عَلقَة ثم مِن مضغة [(٢)] » والجواب [(٣)] . ثم أخذ في الجواب .

أقول : إنّ ابن أبي الحديد أوردَ عليه في جَعْله أنّ الفاء للفور في الفلك الدائر [(٤)] بما فيه كفاية . ولمّا وصل إلى هذه الآية الكريمة ، قال ابن أبي الحديد : إن ابن الأثير لم يذكر الجواب (٩٦/أ) عن ذلك بل أمسك ولم يقل شيئا في النسخة

---

(١) سورة المؤمنون ١٢/٢٣ ـ ١٤ .

(٢) سورة الحج ٥/٢٢ .

(٣) المثل السائر ٢٣٧/٢ « ومما جاء من ذلك أيضا قوله تعالى في قصة مريم وعيسى عليهما السلام ... على أن حملها به ... ألا ترى أنه قد جاء في الأخرى : « قتل الإنسان ما أكفره .. إلى يسره » ... وهذا بخلاف قصة مريم عليها السلام .. وربما كان ذلك في يوم واحد أو أقل أخذا بما دلت عليه الآية . ومما ورد من هذا الاسلوب ... فتبارك الله أحسن الخالقين « ففي الآية المقدم ذكرها قال ... فإن قيل إنه قد عطف المضغة على العلقة في هذه الآية بالفاء ... » .

(٤) في المثل السائر ٢٦٤/٤ وما بعدها .

التي وقف عليها لمّا وصلتْ مِن المَوْصل ، وإنه طلب نسخةً أخرى ، ثم تأمّلها فوجدَها هكذا ، وقد أخلى مكانا للجواب [١] .

وقد وقفتُ على جواب ابن أبي الحديد عن هذا الموضع ، وعلى جواب ابن الأثير في « المثل » فوجدت ابن أبي الحديد قد أجاب بالجواب السَّادّ ، ومُلخصُه أنّ هذه الفاء ليست للفور لا هنا ولا في قصة مريم عليها السلام ، وما يقال في الفاء إلا التّعقيب ولم تكن للفور الحقيقي الذي يُراد به هذا بعد هذا بلا تخليل زمان يفصل بين الشيئين . واستدل بمثل قوله تعالى : « ولقد عهِدْنا إلى آدم مِن قبلُ فنسِي [٢] » ، وبمثل : « وأنزل مِن السماء ماءً فأخرجْنا به أزواجا مِن نبات شتّى [٣] » .

وإنّ النسيان مِن آدم لم يكن على الفور بل بعد مُدّة مائة عام في قول [٤] ، وكذا خروج النبات لم يكن على الفور مِن نزول المطر بل بعد مُدة . ولهذا يصحّ أن يقال : دخلت البصرةَ فبغدادَ وإن كان بينهما مُدّة .

وإن الفاء وإن كانت لها مُدّة ما ، فثمّ لها مُدّة أكثر في المُهلة والتّراخي .

هذا مُلخص ما قاله ابن أبي الحديد في الجوابين . وإذا كان ذلك ، فليس في الآية التي اعترض بها إشكال ، وإنما أشكلتْ عليه لكونه قدّر أنها للفور الذي هو عدَمُ الزمانِ المحسوس بين الحالتين . وكيفُ يتصوّر مثلُ هذا ، وبين كل كون وكون مِن النطفة إلى العلَقة إلى المُضغة زمان ، وقد جاء في الحديث الشريف أنه أربعون يوما .

هذا لم يقل به أحد ، فإنه لا يُتصور مع ورود النّقل فيه بالحديث النبوي ، والإحساس به في مدة الحمل .

(١) والامر كذلك في النسخ المطبوعة التي بين أيدينا .
(٢) سورة طه ٢٠/١١٥ .
(٣) سورة طه ٢٠/٥٣ .
(٤) لا تحديد للمدة في تفسير الطبري ١٦/٢٢٠ ، وفي تفسير الرازي ٦/٧٦ وكذا في مجمع البيان للطبرسي .

وأما ما أجاب به ابن الأثير في « المثل » عن هذا الإشكال ، فإنني ما فهمته ، لأنّه أضاع الزمان في فعل المطاوعة وما يشبهه ، والعطف عليه بالواو وبالفاء (٩٦/ب) وأطال وما أطاب ، وأجاب وما أجاد . ومن أراد الوقوف عليه فليقف عليه في « المثل السائر » ولكن :

في طَلعةِ الشَّمسِ ما يُغنيك عن زُحَل (١) .

ولم أذكر هذا إلاّ تنبيها على أنّ ابن أبي الحديد لم يقف على هذا الجواب ، ولو وقف عليه لشاهد عجبا (٢) .

[الصفدي يناقش ابن الأثير في التطويل]

قال في النوع الخامس عشر من الإيجاز :

« وسأزيد هذا الموضع بيانا بمثال أضربه المتّطويل حتى يستدل به على أمثاله وأشباهه ، والمثال الذي أضربه هو حكاية أوردتْ بمَحْضَر منّي ، وذاك أنه جلس إليّ جماعة من الإخوان في بعض الأيام وأخذوا في مفاوضة الأحاديث ، وانساق ذلك إلى ذكر غرائب الوقائع التي تقع في العالم ، فذكر كل من الجماعة شيئا ، فقال شخص منهم : إني كنت بالجزيرة العُمَرية في زمن الملك فلان ، وكنت إذ ذاك صبيا صغيرا ، فاجتمعت أنا ونفر من الصبيان في الحارة الفلانية ، وصعدنا إلى سطح الطاحون التي لبني فلان وأخذنا نلعب على السطح ، فوقع صبي منّا إلى أرض الطاحون ، فوطئه بغل من بغال الطاحون فخفنا أن يكون آذاه ، فأسرعنا النزول إليه فوجدناه قد وطئه البغل فختنه ختانة صحيحة حسنة لا يستطيع الصانع الحاذق أن يفعل خيرا منها . فقال له شخص من الحاضرين : والله إنّ هذا عِيّ فاحش وتطويل كثير لا حاجة إليه . فإنك بصدد أن تذكر أنك كنت صبياً تلعب مع الصبيان على سطح طاحون ، فوقع صبي منكم إلى أرض الطاحون ، فوطئه بغل

(١) عجز بيت للمتنبي وصدره : خذ ما تراه ودع شيئا سمعت به
في العصر الحاضر .

(٢) ليت الصفدي أورد هذا الجواب هنا لتكمل به النسخ التي طبع منها الكتاب انظر ص ٥٠/أ .

من بغال الطاحون ، فختنه ولم يؤذه ولا فرق أن تكون هذه الواقعة في بلد نعرفه أو في بلد لا نعرفه ، ولو كانت بأقصى المشرق أو بأقصى المغرب (٩٧/أ) ولم يكن ذلك قدحا في غرابتها . وإما أن تذكر أنّها كانت بالجزيرة العـُمـَرية ، في الحارة الفلانية ، في طاحون بني فلان ، وكانت زمن الملك فلان ، فإن هذا كله تطويل لا حاجة إليه ، والمعنى المقصود يـُفهم بدونه [١] » .

أقول : أترى هذا الرجل ما سمع الحديث ، ولا اعتنى برواية العلم عن طريق القوم فإنهم من العادة أن يعيدوا الزمان والمكان ، خصوصا في الوقائع الغريبة ، التي يتفق وقوعها نادرا عن النمط المعتاد والعـُرف المعهود . ومثل هذه الواقعة التي أوردها غريبة في الوقوع ، وهي بعيدة في الذّهن ، واتفاقها غريب ، وفيها من لطف الله الخفي بالضعيف ما يوجب الاعتراف به للّطيف الخبير في حفظه الإنسان وكلاءته ورعايته ، ويجب إظهاره ونشره ، وتتعين إذاعته . ويحتاج مثل ذلك إلى ضبط الزمان والمكان والعصر ومن حضر ذلك ، ليكون ذلك قرائن يتمسك السامع بها في الصدق ، والمحافظة على ذلك والنقلُ له أبعد من الكذب وأنفى للريب .

ولو اتفق لأحد ممّن راعى الحديث ، وعانى الرواية ، وسمع الآثار ، واعتنى بنقل الوقائع على الصيغة التي تقع ، أو تسمع بها على الصيغة التي حكاها هذا الناقل ، لأوردها من حفظه أو من كتابه كذلك من غير زيادة ولا نقص .

ولو اتفق لابن الأثير أن يستشهد في هذا الموطن بما حكاه صاحب [٢] الأغاني

---

(١) المثل السائر ٢/٢٧٣ « ... وذاك أنه جلس الي في بعض الأيام جماعة من الاخوان وأخذوا ... وصعدنا إلى سطح طاحون لبني فلان ... أنك كنت صبيا تلعب مع الصبيان على سطح الطاحون ... ولا فرق بين أن تكون هذه الواقعة .. وكان زمن الملك فلان ، فإن مثل هذا كله تطويل ... » .

(٢) هو أبو الفرج الأصفهاني علي بن الحسين الأموي القرشي . من أئمة الأدب واللغة والتاريخ (ت ببغداد سنة ٣٥٦ هـ) . انظر وفيات الأعيان ١/٣٣٤ واليتيمة ٢/٢٧٨ .

في أخبار مطيع بن إياس [١] ، لكان أنسب • وذلك أنه ساق من جملة خبر له مع المهدي [٢] أنّه قال له : وقد رفع إليّ صاحب الخبر أنك تتماجن على السؤال وتضحك النّاس منهم • قال : ولا ذلك من فعلي يا أمير المؤمنين ولا جرى مني قطّ إلا مرة واحدة (٩٧/ب) ، فإنّ سائلا اعترضني وقد عبرت الجسر على بغلتي فظنني من الجند ، فرفع عصاه في وجهي ثم صاح : اللهم سخّر الخليفة لأن يعطي الجند أرزاقهم ، فيشتروا من التجار الأمتعة ، فتربح التجار عليهم ، فتكثر أموالهم ، فتجب فيها الزكاة عليهم ، فيتصدقوا عليّ منها • فنفرت بغلتي من صياحه ورفعه عصاه في وجهي حتى كدت أسقط في الماء • فقلت : يا هذا ما رأيت أكثر فضولا منك • سل الله أن يرزقك ، ولا يجعل بينك وبينه هذه الحوالات والوساطات التي لا حاجة إليها ، فإن هذه المسائل فضول • فضحك الناس منه[٣] •

ويقال : إن بعض الأكابر سأل إنسانا : هل تعرف تلعب بالشّطرنج ؟ فقال : لا والله ، إلا أنّ لي أخا اسمه فلان ، وهو أخي لأمي ، أكبر سنا مني بقدر سنتين أو أكثر ، وكان حصل بيني وبينه صورةغاظته ، ففارقنا من مدة عشرة أعوام ، وسكن بعلبك وتديّرها ، وفتح بها دكان عطر • والآخر أيضا ما يعرف يلعب بالشّطرنج •

قال في الإيجاز بعدما ساق قطعاً للأعشى [٤] وللفرزدق ولجرير [٥] ولعليّ ابن جبلة [٦] :

---

(١) مطيع بن إياس الكناني أبو سلمى شاعر من مخضرمي الدّولتين ، ظريف ، ماجن ، متهم بالزندقة (ت بالبصرة سنة ١٦٦ هـ) انظر الأغاني ١٢/٧٥ ـ ١٠٤، والديارات ص ١٥٩ ـ ١٦٦ .

(٢) المهدي هو الخليفة العباسي محمد بن عبد الله المنصور ، أقام في الخلافة عشر سنين (ت ١٦٩ هـ) ، انظر الوافي ٣/٣٠٠ .

(٣) الأغاني ١٣/٣١٨ .

(٤) الأعشى ميمون بن قيس الوائلي أبو بصير . الشاعر الجاهلي ، المعروف بأعشى قيس . أحد أصحاب المعلقات ، أدرك الإسلام ولم يسلم (ت ٧ هـ) ، انظر الأغاني ٩/١٠٨ ، ومعاهد التنصيص ١/١٩٦ .

(٥) جرير بن عطية الخطفي من تميم ، أشعر أهل زمانه وكان هجّاءً مرّاً (ت باليمامة سنة ١١٠ هـ) . انظر الأغاني ٨/١ .

(٦) الملقب بالعكوك . تقدمت ترجمته .

[حول إعجاب ابن الأثير بأبيات أبي نواس السينية]

« فهذا هو الكلام الذي ألفاظه وفاقُ معانيه » ثم قال « ومن هذا الضرب قول أبي نواس وهو مِن نوادر ما يأتي به في هذا الموضع » وساق أبياته السِّينية التي أولها :

ودارِ ندامى أدلجوها وعطّلوا بها أثرٌ منهمْ جديدٌ ودارِسُ (١)

وساق بعد ذلك خمسة أبيات أخر ، وذكر ما رُوي عن الجاحظ من أنه أنشدها أبا شُعيب القَلاّل فقال له : والله يا أبا عثمان إن هذا لهو الشعر ، ولو نُقِر لطَنّ (٩٨/أ) فقلت : ويحك ما تفارق عمل الجِرار والخزَف . ثم قال : « ولعمري إن الجاحظ عرَفَ ما وصَف ، وخبر فشَكَر وذلك هو الحقّ (٢) » .

أقول : هنا يعُدّ هذه الأبيات في الطبقة العليا ، ويطرِّزُها بهذه الحكاية ، ومن قبل أوردها وقال : « إن الجاحظ أوردها وعظّمها ، وبدون هذا يُباع الحمار » ، وهنا وفّاها حقها ، وهناك كابرَ نفسَه . وهذا دليل على عدم الإنصاف .

وأما قول أبي شعيب القَلاّل : « هذا هو الشعر ولو نقَرتَه لطَنّ » ، فقد ذكرت قول البَتّي (٣) لابن البواب (٤) وقد رآه جالسا على عتبة بابه : « أظن الأستاذ يقصد حفظ النسب بالجلوس على العتب (٥) » .

وقد وضع ابن مولاهم المصري كتابا سماه « البدائع في الصنائع (٦) » ، ساق

---

(١) ديوان أبي نواس ص ٣٦١ والبيت مطلع القصيدة . وجاء في صدره « عطّلوها وأدلجوا » . وكذا في طبقات ابن المعتز ص ٢٠٦ . وهو الصواب .

(٢) المثل السائر ٢/٣٤٦ « .. وهو من نادر ما يأتي في هذا الموضع .. ولعمري إن الجاحظ عرف فوصف وخبر فشكر والذي ذكره هو الحق » .

(٣) البتي هو أحمد بن علي أبو الحسن . كاتب أديب غلب عليه الظرف والمُجون ، كانت له معرفة بالغناء وصنعته (ت ٤٠٥ هـ) . انظر إرشاد الأريب ١/٢٣٣ـ ٢٤١ ، واللباب ١/٩٧ .

(٤) ابن البواب . تقدمت ترجمته .

(٥) القصة برواية أخرى في معجم الأدباء ١٥/١٢٤ ـ ١٢٥ .

(٦) ورد اسم الكتاب في كشف الظنون ١/٢٣٠ .

فيه خمسين صانعا اجتمعوا على شرابهم في ليلة أُنس ، وأخذ كل إنسان يتحدث بلغته ومصطلح أهل ذاك الفن ، وما يدور بينهم مِن المحاورات في مخاطباتهم ، بحيث أنّه أورد ذلك جميعه من باب التّورية . وهو في غاية اللّطف مع ما فيه مِن العامية اليسيرة .

ووضع ابن يغمور أيضا كتابا ، ذكر خمسين صانعا غير أولئك ، وهو من نَمَط الأول .

[الصفدي ينقد رسالة لابن الأثير يدعي فيها الإجادة والإبداع]

قال : « وإذا أريد وصف ذلك البستان على حكم الإطناب ، قيل فيه ما أذكره . وهو فصل من كتاب أنشأته وهو . وساق الكتاب وفيه قوله في المشمش :

« ففيها المشمش الذي يسبق غيره بقدومه ، ويقذف أيدي الجانين بنجومه ، فهو يسمو بطيب الفَرع والنّجار ، ولو نُظم في جيد الحسناء لاشتَبه بقلادة مِن نُضار . وله زمنُ الربيع وهو أعدلُ الأزمان ، وقد شُبِّه بسن الصِّبا في الأسنان [(١)] » .

أقول : أيُّ حُسن في هذا ليُثبته ويجعله أُنموذجا يُحتذى عليه ، ويُنسج على منواله وأين هذا (٩٨/ب) من قول القاضي الفاضل ــ رحمه الله تعالى ــ : « وأما حجُّ المشمش فلا غرو لقاطن مكة أن يغيب عن عَرَفَه ، ولا للجائز على نهر طالوت أن يغترفه ، ولا شك في كون جرسه الذهبي المعلق قد أسمَعَ على خَرَسه، وأذكى الكرمُ منه جمراتِ النار لقِرى حاضري عُرسه . وإذا كان حجُّ البيت فلا بدّ مِن جمرات ، وإذا كان ظلٌّ وجنىً فلا أبعدَهُنّ اللهُ مِن شجرات [(٢)] .

إذا ما حضرتُم فاذكرونا فإنّنا

---

(١) المثل السائر ٣٦٩/٢ « ... وله زمن الربيع الذي هو أعدل الأزمان ... » .

(٢) يشير هنا إلى قول الشاعر :

إذا لم يكن فيكنَّ ظِلٌّ ولا جَنى فأبعدَكُنَّ الله مِنْ شجراتِ

انظر الإبدال لأبي الطيب ٢٦١/١ .

اذكرونا بالحمية عن المشمش وارثوا لنا منها ، فقِدْماً كنا نوكله ولا نأكله ، ونفوّض قضاء حقّه إلى الإخوان ونكِله . فما قوّس ظهري لالتقاط بَنادقه ، ولا شهدتْ بناني رُقعة السفرة إذا بُسطتْ لبياذقه ، ولا زِدتُ على النزهة لآكلِه والتسبيح لخالقه » .

وقوله من كتاب آخر : « وما يساوي المشمش هجرَ الصديق البعيد بداره القريب بحُبه ، والإخلالَ بقوت قلبه من كتبه ، ورياضةَ لسانه الشاكر على عَتْبه . ولقد ظننتُ أن المشمش أعدى المودةَ إلى أن صار عمرها كعُمرِه ، وكان طعمُها كطعمه إذا انتهى إلى حدّ قطفه بل إلى حدّ بَتره . هذا وقد حفِظني وما أضاعَني ، وإنصافي في البُعد لمّا باعني ، بأنه لم يبعني مِن المشمش إلا بذهب راقت صفرتُه ، وترفعت عن رقة الدنيا كَرتُه . ولا أحسب هذا الكتاب يحظى بتقبيل يد مالكه إلا وحجيجُ المشمش قد أحلّوا بإحرام أسحارِه ، وأصواتُ الشحارير قد شجَت بتعطيل أشجاره » .

وقول القاضي محيي الدين ابن عبد الظاهر ــ رحمه الله تعالى :

حبــذا مِشْمِشٌ بِجِلَّقَ أضحى ذا شُعاعٍ يستوقفُ الأبصارا
شجرٌ أخضـرٌ لنا جعــل اللــ ... ــهُ تعــالى منــه كمــا قال نــارا
(٩٩/أ)

وقوله أيضا :

وكأنَّ ضوءَ الشمسِ من أوراقِها في نَقْشِ أَسْوِقَةِ الغُصون خَلاخِلُ
وكأنَّ مِشْمِشَها بصوتِ هَزارِها إذ حَرَّكَتْهُ يدُ النسيمِ جَلاجِلُ

وقوله أيضا :

إن لَوْزِيَّ جِلَّقٍ واهِنُ العجْمِ والقُوى
لم يكلّفْكَ كسرَهُ فالقُ الحَبِ والنَوى (١)

---

(١) خزانة ابن حجة ص ٢٥٣ .

أقول : هكذا يكون التّفنّن في الوصف ، والإتقان في استواء النظم وحسن الرّصْف . ولله القائل :

خدٌّ متى قلتَ إنّ الوردَ يشبهُهُ ... قال الجمال : تأملْ ذا وذا وَقِسِ

ثم قال : « وفيها التفاح الذي رق جلده ، وعظم قده ، وتورّد خدُّه ، وطابت أنفاسه فلا بانُ الوادي ولا رَنْدُه [١] » .

أقول : ما يقال في مثل التفاح والكُمَّثْرى والسَّفَرْجَل وما أشبه ذلك «رق جلده » وإنما يقال ذلك في ما اشتمل على مائع ، كالعنب الذي يؤكل جلده معه غالبا والمشمش . وأما عظم القدّ فما سمعته للتفاح ، وأي قدّ له وهو يميل إلى الشكل الكُرِيّ . وقالوا : قَدُّ الغصن والرُّمح وخدّ الورد ، وثغر الأقاحي ، وعيون النَّرْجِس ، وأصابع المنثور ، وآذان السَّوْسَن وأما قدّ التفاح فما سمعتَه قط .

وما أحسن قول شمس الدين التِلمساني :

تَبَسَّمَ زهرُ البانِ عن طيبِ نَشْرِهِ ... وأقبلَ في حُسْنٍ يَجِلُّ عن الوصْفِ

هَلُمّوا اليه بين قَصْفٍ ولَذّةٍ ... فإنّ غصونَ البانِ تصلحُ للقَصْفِ [٢]

وما أحسن قول مُجير الدين محمد بن تميم :

إني لأشهد لِلحَمي بفضيلةٍ ... من أجلِها أصبحتُ من عشاقِهِ

ما زاره أيامَ نرجِسِهِ فتى ... إلا وأجلَسَه على أحداقِهِ [٣]

(٩٩/ب)

---

(١) المثل السائر ٢/٣٧٠ « ... فلا بان الوادي ولا رنده » .

(٢) ديوان التلمساني ص ٥٤ وفيه :

تبسم زهرُ اللوزعن طيب وصْفِهِ ... وأقبل في حسن يجل عن الوصف

هلم اليه بين قَصف ولذة ... فان غصونَ الزهرِ تصلحُ للقصفِ

(٣) في الغيث المسجم ١/١٨٣ ، وخزانة ابن حجة ص ٢٦١ .

وقول السّراج الورّاق :

فبادِرْ الينا فدَتْكَ النفوسُ فلم يَخْفَ عنكَ انتظارُ المشوقِ
فللبابِ آذانُ سوسانِنا وأعينُ نرجسِنا للطريقِ

وقول مجير الدين محمد بن تميم :

ما بين منثورٍ أقامَ ونرجسٍ معْ أُقْحُوانٍ وصفَهَ لا يُدرَكُ
هذا يُشير بإصبعٍ وعيونُ ذا ترنوا إليه وثغرُ هذا يضحكُ (١)

وقول الآخر :

ونرجسٍ قابلَ في مَجلسٍ ورْداً غلا في نَعْتِهِ الناعِتُ
فَخَدُّ ذا يخجلُ من لَحْظِ ذا وطَرفُ ذا في وجهِ ذا باهتُ

ثم إنه وصف العنب والرمان فأحسن بعض إحسان في الرمان . ثم قال :

« وفيها التين الذي أقسم الله به تنويها بذكره ، واستتر آدم بورقه إذ كشفت المعصية من ستره ، وخُصّ بطول الأعناق (١٠٠/أ) فما يُرى فيه من مَيْل فهو من نشوة سكره . وقد وصف بأنه راق طعما ونعم جسما ، وقيل هذا كنيف مُلِيء شهْدا لا كنيف مليء عِلما (٢) » .

أقول : هذا فيه مُسحة حُسن في السجعة الأخيرة ، وأما عنق التين ، فذكره الناس وظرّفوا فيه . من ذلك قول القائل :

أما ترى التينَ في الغصونِ ضُحى منكَّسَ الرأس مائلَ العُنُقِ
كأنه ربُّ نعمةٍ سُلِبَتْ فعادَ بعد الجديدِ في الخَلَقِ

(١) في فوات الوفيات ٢/٥٤٢ .
وورد في صدر البيت الأول : ما بين منثور وناظر نرجس
(٢) المثل السائر ٢/٣٧٠ .

وقول ابن خفاجة الأندلسي من أبيات :

ومالَ يسيلُ جنى شهدِهِ كمـا سـال ريقُ حبيـبٍ نعسْ
فهِمْتُ لـه ببيـاضِ الثغـورِ وأحببْتُ فيه سوادَ اللَعَسْ [(١)]

وأما قوله : « فهو نشوة من سكره » ، في غير محلها لأنه ما تقدم ما يدل على النشوة • فلو استعار له سلاف الطل لكان أحسن • وكان يقول : وارتشف سلاف الطل فميْلُ عنقِه من سكره ، وأما إضافة النشوة إلى السكر فغريب •

ثم إنه ذكر النخل [(٢)] فوصفه بوصف غير طائل ، لولا أنه ختم السَّجع ببعض آيةٍ من القرآن لكان سمجا •

ولشيخنا القاضي شهاب الدين محمود ــ رحمه الله تعالى ــ في النخل لُغزٌ حسن ، أحببت أن أذكره هنا وهو : « يا إماماً أصول علومه ثابته ، وفروع فنونه في سماء الفضائل باسقه وفي رياض العلوم نابته • ما شيء يَبهج الناظر مرآه ، ويَزين الرياضَ النواضر منشاه إن صَحَّفْتَـه طـار في الهـواء ، ووُجِـد فيـه الجمـع بـين الـداء والـدواء ، وإن عكسـتـه بعـد تصحيفـه ذُمَّ بـه اللســان وسقط بسببـه الإنسـان ، وربمـا اتصف بـه مَـن لـم تـزده معرفتـه رفعة ، ولم تظهر لـه وإن كثر سماعـه بين أهل الحديث سُمعة ، فإن أسقطْتَ عند ذلك آولَه كان وصفَ (١٠٠/ب) من حنَّ إلى أوطانه ، حنين النجيب إلى أعطانه ، وان حططْتَ رُتبة إعجام أولحروفه ، وعمدتَ بعداستقامته إلى تحريفه ، ذُم المتَّصفُ به بين جِنسه ، وكانت جنايتُه في نفس الأمر عـلى نفسه ، وإن أفردْتَه نقَص عددُه ، وقلّ عند ذلك مدده ، وقصر عن رُتبة الغِنى مَن حوتْهُ يدُه • وربما علوتَه بسبب ، وجنيت من رُضابِه ما هو أشهى من

(١) ديوان ابن خفاجة ص . ١٥ من مقطوعة مطلعها :
أمـا واهتصار غصـون البَلَسْ وقد قلَّص الصبحُ ذيلَ الغَلَسْ

(٢) المثل السائر ٢/٣٧١ .

الضَرَب ، واستبحتَ ذلك منه وإن عُدّ من ذوات المحارم في اللفظ دون النَسَب . وله نتائج يختلف ألوانُها ، فتردُ في كل عام ولا يتغير زمانُها . فمنها ما يَسَرُّ تصحيفُه ، ويروق انتظامُه وتأليفه . وإن قلبْتَه رسب ، وردّ مصحّفُه ذا الجماح والشَّغَب . أبِنْه فقد أوضحتُه لديك ، وجلوت عرائسه عليك »

وللنَّصير الحمّامي (١) لُغزٌ في النَّخل :

ما اسمٌ سما والنجمُ مِنْ تحتِ علاهُ يزهرُ
مرتفعٌ منتصبٌ مؤنَّث مذكَّرُ
وجاء في إكرامِه عن النبي الخَبَرُ

وللشّريف النّاسخ (٢) يصفها :

ونخلةٍ قد علَتْ سُمُوّا وانخفضَتْ دونَها الجبالُ
فمِنْ شماريخها الثريا ومن عراجينها الهلالُ

قال بعد ذلك في كتاب أنشأه مثالا على لسان طاهر بن الحسين (٣) إلى المأمون لما ظفر بعيسى ابن ماهان (٤) :

« وجيء برأس عيسى ، وهو على جسدٍ غير جسده ، وليس له قدم فيقال إنه يسعى بقدمه ولا يد فيقال إنه يبطش بيده .. (٥) » .

---

(١) النصير الحمامي ، وقد ترجم له صاحب الفوات ٢/٦٠٤ بقوله « كيّس الأخلاق يتحرف باكتراء الحمامات . وكان يستجدي بالشعر (تبمصر سنة ٧١٢ هـ)

(٢) الشريف الناسخ هو محمد بن رضوان العلوي الحسيني الدمشقي ، له يد في النظم والنثر والأخبار (ت ٦٧١ هـ) انظر فوات الوفيات ٢/٤٠٦ .

(٣) طاهر بن الحسين الخزاعي . من كبار الوزراء والقواد أدبا وحكمة وشجاعة . قتل الأمين سنة ١٩٨ هـ تولى خراسان وقتل بمرو سنة ٢٠٧ هـ وفيات الأعيان ١/٢٣٥ ، والكامل لابن الأثير ٦/١٢٩ .

(٤) المعروف أن اسمه علي بن عيسى وقد ورد ناقصا في المثل السائر أيضا وهو من كبار القادة : حرّض الأمين على خلع المأمون ، وسيره الأمين لقتاله فهزم أمام طاهر في الري وقتل سنة ١٩٥ هـ . انظر الكامل لابن الأثير ٦/٧٩ ، والنجوم ٢/١٤٩ وقد اشار إلى ذلك المحققان للمثل السائر ٢/٣٧٢ .

(٥) المثل السائر ٢/٣٧٢ .

أقول : الأول مأخوذ مِن قول أبي فراس ، وقد عاد سيف الدولة إلى حلب وبين يديه رأس القَرمطي [١] على رمح :

وأنقَذَ من ثقلِ الحديدِ ومَسِّهِ أبا وائـلٍ والدَّهرُ أجدعُ صاغرُ
وآبَ ورأسُ القَرمَطِيِّ أمامَـه له جَسَدٌ من أكعبِ الرمحِ ضامِرُ [٢]

وقال بعض الشعراء (١٠١/أ) .

وعـاد لكنـه رأسٌ بـلا جسدٍ وجـاء يَسْري على ساقٍ بلا قدمِ
إذا تراءى على الخَطِّيِّ أسفرَ في حال العُبوسِ لنا عن ثَغْرِ مبتسمِ [٣]

وأما قوله : « وليس له قدم » (السجعة الثانية) فإنه عِيّ ، وقد قال في الأولى : « وجيء برأس عيسى » فإن ذكر القدم واليد بعد مجيء الرأس ونفيهما عنه من باب تحصيل الحاصل .

[حول نموذج إنشائي لابن الأثير]

قال : إنه كتب كتابا عن الملك الناصر إلى ديوان الخلافة في معارضة كتـاب كتبه القاضي الفاضل في فتح القدس . ثم إنه ذكر الدعاء الذي افتتح به كتابه فقـال :

« خلد الله سلطان الديوان [٤] العزيز النبوي وجعل أيام دولته أترابا ، ومناقب

---

(١) القرمطي . وهو المعروف بالمبرقع ، أخذ يدعو إلى نفسه وكسب الأنصار ، فأوقع به سيف الدولة قرب دمشق وقتله وحمل رأسه على رمح فقال في ذلك أبو فراس . انظر اليتيمة ١/١٨ .

(٢) والبيتان في ديوانه من قصيدة مطلعها :

لعل خيالَ العامريةِ زائـرُ فيَسْعَدُ مهجورٌ ويُسعد هاجرُ

وورد في صدر الأول « من مسّ الحديد وثقله » .

(٣) ورد البيتان في اليتيمة ١/١٩ غير منسوبين . وجاء في عجز الأول « يسري ولكن على ساق بلا قدم » .

(٤) جاء في صبح الأعشى ٦/٤٩٦ قوله : « والمراد بالديوان ديوان الإنشاء ، لأن المكاتبات عنه صادرة وإليه واردة . وسبب مخاطبتهم بالديوان ، الخضعان عن مخاطبة الخليفة نفسه ، ويكون الدعاء للديوان بما فيه دوام العز والسلطان وبسط الظل وما أشبه ذلك » .

مجدها هضابا ، وزادها على مرور الأيام شبابا ، وأوسعها توشية وإذهابا ، إذا أوسع غيرها تلاشيا وذهابا ، ومنحها في الدنيا والآخرة عطاء وفاقا لاعطاء حسابا ، ومثّل جدودها في عيون الأعداد شيئا عجابا ، وأراهم منها في اليَقظة إرهابا وإرعابا ، وفي المنام إبلاً صعابا تقود خيلا عِرابا [(١)] » •

أقول : إن ابن الأثير ــ رحمه الله ــ لما أنشأ هذا الكتاب ، قعد في بيته وتأنى وتأنق ، ونقّى ونقّح ، وكان في ذلك كالحريري في مقاماته ، فإنه عملها في بيته بمسودات واختيار ومطالعات • والفاضل ــ رحمه الله تعالى ــ أصدر ذلك الكتاب وهو ابن يومه بل ابن ساعته ، وجهزه وخرج عن يده على ما فُتح به ذلك الوقت عليه •

[حول رسالة لابن الأثير يعارض فيها القاضي الفاضل]

رأقول : إن قول ابن الأثير : « وجعل أيام دولته أترابا » كان ينبغي له أن يحترز للأيام ، فإنه إذا دعا لها بأن تكون متشابهة ، شمل ذلك الخير والشر (١٠١/ب) فأي دولة صفت من الكدر ؟ وكان ينبغي أن يقول : وجعل أيام دولته في النصر أترابا • وأما قوله : « ومناقب مجدها هضابا » أي مبالغة في أن تكون في ارتفاعها كالهضاب ، وهي : صغار الجبال أو كبار الرُّبا أو الجبال المنبسطة على الأرض • ولو قال « أعلاما » لكان بعض شيء ، ولو قال : ومناقب مجدها تَرفعُ مِن الصباح عمودا وتمد من المَجرّة أطنابا ، كان أبلغ •

وأما قوله : « وأوسعها توشية وإذهابا ، لفظة « إذهاب » موهمة ، والسمع ينفر عنها في الدعاء للدولة ، لاشتقاق ذلك مِن الذّهاب • ولو قال : توشية وتذهيبا ، كان أحسن •

---

(١) المثل السائر ٢/٣٧٥ « .. وأراهم منها وراءهم في اليقظة إرهابا وإرعابا .. ».

وقوله : « ومثّل جدودَها في عيون الأعداء شيئا عجابا ، هذا كلام فارغ كالجسد الذي لا روح فيه .

وقوله : « وأراهم في اليقظة إرهابا وإرعابا ، وفي المنام إبلا صعابا ، تقود خيلا عِرابا » ، أصل هذا المعنى لأَشجَع السُّلمى (١) .

وعلى عدوِكَ يا بنَ عمِ محمدٍ ‏ ‏ رَصَدانِ : ضوءُ الصبح والإظلامُ
فاذا تَنَبَّهَ رُعْتَهُ واذا غَفا ‏ ‏ سَلَّتْ عليه سيوفَكَ الأحلامُ (٢)

وما زان سجعتَه الثانية إلا تضمينُه السجع الذي جاء في رؤية الموبذان ليلة وُلد النبي صلّى الله عليه وسلم وما جاء في ذلك من كلام سَطيح (٣) .

وابن الأثير احتفل لهاتين (٤) السَّجعتين ، وأراد مماثلة القاضي الفاضل في دعاء الكتاب الذي كتبه في فَتح القُدس . ومنه :

« ولا زالت غيوثُ فضلِه إلى الأولياءِ أنواءً إلى المرابع وأنواراً إلى المساجد، وبعوثُ رُعبِه إلى الأعداء خَيلاً إلى المراقب وخَيالاً إلى المَراقد » .

وأنت أيها الواقف على هذه الأوراق حَكَمٌ بين هذين الخصمين ، وبيدك الأمر في الفَرْق بين الكلامين :

فمن استَحَقَّ الارتقاءَ فرقّهِ ‏ ‏ ومن استحَطَّ فحُطّهُ في حَشِه (١٠٢/أ)

---

(١) أشجع بن عمرو السلمي ، شاعر فحل معاصر لبشار . مدح البرامكة وقربه الرشيد (ت نحو ١٩٥ هـ) . انظر الأغاني ٣٠/١٧ – ٤٤ ، وخزانة البغدادي ١٤٣/١ .

(٢) وبيتاه من قصيدة قالها في مدح الرشيد . انظر العقد ٣٨/١ ، والوساطة ص ٢٥٣ . وفي طبقات ابن المعتز ص ٢٥١ جاء صدر البيت الثاني : « فإذا تنبه رعته واذا هدا » .

(٣) سطيح الكاهن واسمه ربيع بن ربيعة . جاهلي غساني من المعمرين ، يضرب المثل بجودة رأيه (ت ٥٢ ق هـ) والموبذان هو قاضي الفرس . انظر الأغاني ٣٠٥/٤ ، وانظر في رؤيا الموبذان وتفسير سطيح الكاهن لها في تاريخ الطبري (أبو الفضل) ١٦٦/٢ – ١٦٨ ، وتاريخ أبي الفداء ١١٠/١ وفي اللسان (سطح) ٣١٢/٣ – ٣١٣ .

(٤) في الأصل « لهذه » .

وإن كان هواي مال بي إلى كلام الفاضل .

فلِله ابن سناء الملك حيث قال :

إني رأيتُ البــدر ثم رأيتُهــا مــاذا عليَّ اذا عشِقْتُ الأحْسَنا[1]

ثم قال : « وهي فتح القدس الذي تفتحت له أبواب السماء ، وكثرت بأحاديث مجده كواكب الظلماء ، واسترد حق الإسلام وطالما سعت الهمم في طلبــه بالزاد والماء[2] » .

وأي همم هذه ، وما عسى أن تناله إذا لم يكن معها إلا الزاد والماء . أَمَــا كان لها مهمٌ غيرُ الزاد والماء ، ولا لها فكرة غير ذلك ؟ وهمةٌ لا يكون همُّهــا الخيل والرجل والسلاح والدأب والسُرى وركوب الأخطار ، وقطع المفــاوز ، والصبر على السهر وأنواع المشاق ، أي شيء تناله ..

ثم قال : « ومن أحسن ما أتى به أنّه آنس قبلته الثانية بقبلته الأولى[3] » .

أقول : المليحُ النادر في هذا ، ما ورَدَ في خطبة القاضي محيــي الدين ابن الزكي[4] ــ رحمه الله تعالى ــ وهو على المِنبر في أول جُمعة أُقيمت في القدس : « ومسجدكم هذا أول القبلتين ، وثاني الحرمين ، وثالث المسجدين .. » .

واستعمل العماد الكاتب[5] ذلك أيضاً في كتاب كتبه إلى ديوان الخِلافة بفتح

---

(١) ديوان ابن سناء الملك ص ٧٩٩ . من قصيدة قالها يمدح القاضي الفاضــل ويهنئه بعيد الفطر . مطلعها :

ان كنت ترغب أن ترانا فالْقَنــا يومَ الهيــاجِ إذا تشاجرت القنا

ورواية الديوان « إني رأيت الشمس ثم رأيتها » .

(٢) المثل السائر ٢/٣٧٥ « وهي فتح البيت المقدس الذي تفتحت له ... » .

(٣) المصدر السابق .

(٤) القاضي محيي الدين ابن الزكي واسمه محمد بن علي . فقيه دمشقي ، خطيب أديب ، كانت له منزلة عند صلاح الدين ، ولي له حلب وقضاءها ثم قضــاء دمشق (ت ٥٨٨ هـ) انظر وفيات الأعيان ١/٤٦٧ .

(٥) العماد الكاتب واسمه محمد بن محمد ، مؤرخ عالم بالأدب من كبار الكتاب ، ولي ديوان الانشاء عند نور الدين بدمشق ثم لصلاح الدين ويقوم مقام الفاضل إذا غاب (ت ٥٩٧ هـ) . وفيات الأعيان ٢/٧٤ ، والوافي ١/١٣٣ .

القدس أيضا ، فقال وقد ذكَر الصخرة :

« فصافحت الأيدي منها موضعَ القدم ، وتجدَّدَ لها مِن البهجة والرسالة ما كان لها في القِدم ، فهو ثاني المسجدين بل ثالث الحَرمين » .

ثم قال : « وكان قد برز مِن السلاح في لباس رائع مِن المنعَه ، وأخرج من السواد الأعظم ما خدع العيون والحرب خِدعه [١] » (١٠٢/ب) .

أقول : أكذا يُكتَب عن مثل ملك عانى مِن الأهوال ما عانى، وكابد ما كابد، وبذل نفسه وولده وأهله وماله وعساكره ، حتى استنقذ مثل القدس مِن مثل الفرنج .. وهو يريد أن يُمتّ إلى الخليفة بهذه اليد ، ويُعظّم الأمر ويُفخّمه ، ويصف الشدائد التي كابدها حتى صار هذا الفتح العظيم في أيام الخليفة ، وانضاف إلى ملكه ودخل في قبضته . ويقال : « خدعهم بالسواد الأعظم والحرب خدعة » . ليس هذا بلائق في هذا المقام .

ثم قال : « وما تمنع رقاب البلاد بكثرة السواد ، ولا تُحمى بعوالي الأسوار بل بعوالي الصِّعاد [٢] » .

أقول : كان الأحسن أن لو قال : وما تُمنع رقاب البلاد بكثرة السواد ، بل ببياض الرأي وكثرة السَّداد .

على أن هذا الكتاب الذي أورده ابن الأثير ـ رحمه الله ـ في معارضة الفاضل من أجلّ ما أنشاه ، وأحسن ما وشاه . وإنما سبب ذلك كونه عارضه به معارضه ، وأخذ محاسنه من المهلة والتأني مقارضه ، فلهذا جاء مُنقَّحا وزهره مفتَّحا . ولو أنه أخذ درجا ، والقاضي الفاضل درجا وقعدا في مكان واحد ، وأخذا في العمل على غير مثال ، لبان المُجلّي في الحلبة من الفِسْكل [٣] ، كما اقترح السلطان

---

(١) المثل السائر ٢/٣٧٦ .

(٢) المثل السائر ٢/٣٧٦ « وما يَمنع رقاب البلاد ... ولا يحمي بعوالي .. » .

(٣) في لسان العرب ١٤/٣٤ الفسْكل والفُسْكُل : الذي يجيء آخر الخيل ، فهو المقصر البطيء .

المُعِزُّ (١) على ابن رشيق (٢) وابن شرف القيرواني (٣) أن ينظِمَا في الشعر الدقيق الذي على ساق بعض النساء ويمدحاه لِكونه يستحسنُه ويعيبه بعضُ الضّرايرِ • وقال : أريد أن يكون ذلك حجة لها على من يعيبُها • فانفرد كل واحد منهما ونظما في الوقت • فكان الذي أتى به ابن شرف :

وبلقيسيّةٍ زينَتْ بشَعرٍ يسيرٍ مثلَ ما يَهَبُ الشحيحُ
حكى زَغَبَ الخُدودِ وكلُّ خَدٍّ بـه زَغَبٌ فمعشوقٌ مليحُ
فإن يكُ صرح بلقيس زجاجاً فمن حدق العيونِ لها صروحُ (١٠٣/أ)

وكان الذي أتى به ابن رشيق :

يَعيبون بلقيسيةً إذ رأَوْا بها كما قدرأى مِن تلكَ مَن نَصبَ الصَرْحا
وقد زادها التزغيبُ مُلحاً كمثلِ ما يزيدُ خدودَ المُردِ تزغيبُها مُلحا (٤)

فاستحسن المُعِزُّ أبيات ابن شرف وعاب قول ابن رشيق وقال : لقد أوجدت خصمَها حُجةً بقولك « يعيبون » ، فإنّ بعض الناس عاب ذلك • وهذا نقدٌ حسن •

---

(١) المعز بن باديس من ملوك الدولة الصنهاجية بافريقية ، قرب العلماء وأكرمهم ، حمل الناس على ترك مذهب أبي حنيفة الى مذهب مالك . تقهقر أمام بني هلال وسُليم الى المهدية وتوفي فيها سنة ٤٥٤ هـ . انظر وفيات الأعيان٢/١٠٤

(٢) الحسن بن رشيق القيرواني صاحب العمدة في صناعة الشعر . كان شاعرا أديبا مدح صاحب القيروان (ت ٤٥٦ هـ) . انظر بغية الوعاة ١/٥٠٤ ، ووفيات الأعيان ٤/١٦٢ .

(٣) ابن شرف القيرواني واسمه محمد بن سعيد كاتب شاعر من ندماء المعز ترحّل ومات باشبيلية سنة ٤٦٠ هـ . انظر فوات الوفيات ٢/٤١٠ ، والوافي ٣/٩٧ .

(٤) ديوان ابن رشيق ص ٣٩ . وجاء في صدر الأول « أن رأوا بها » وفي عجز الثاني « خدود الغيد » . كما ورد البيت الأول في كتاب « ابن رشيق » لعبد العزيز الميمني ص ٧ .

وانظر إلى هذين الشاعرين كيف نطقا بلسان واحد ، عن روية واحدة ، ومعنى واحد ، وقافية واحدة .

ولا بأس بإثبات شيء من كتاب القاضي الفاضل في الفتح المذكور . ولولا خوفُ الإطالة لأثبتُّ الكتابين برمتهما ، ولكن يؤخذان من مكانيهما .

قال القاضي الفاضل رحمه الله تعالى :

« أدام الله أيام الدِّيوان العزيز ، ولا زال مظفّراً بكل جاحِد ، غنياً بالتوفيق عن رأي كل رائد ، موقوف المساعي على اقتناء مطلّقات المحامد ، مستيقظَ النّصر والسَّيفُ في جَفنِه راقد ، واردَ سحابِ الجُود والسحابُ على الأرض غير وارِد ، مَتعدِّدَ مساعي الفَضل وإنْ كانَ لا يُلقى إلا بشُكر واحد ، ماضي حُكم العدل بعزمٍ لا يمضي لسل غويّ وريش راشِد ، ولا زالت غيوثُ فضلِه إلى الأولياء أنواءً إلى المَرابع وأنواراً إلى المساجد ، وبعوثُ رُعبه الى الأعداء خيْلا إلى المَراقب وخيالا الى المَراقد » .

منه : « ولله في إعادة شُكره رِضى ، وللنّعمة الراهنة دوامٌ لا يُقال معه هذا مضى ، وقد صارت (١٠٣/ب)أمور الإسلام إلى أحسن مصائرِ ها ، وقد استتبَّت عقائدُ أهلها على بصائرها ، وتقلّص ظلُّ الكافر المبسوط ، وقد صدَق الله أهلَ دينِه فلمّا وقع الشَّرْطُ وقَع المشروط ، وقد كان الإسلام غريباً فهو الآن في وطنه ، والفوزُ معروضا وقد بُذلت الأنفس في ثَمنه ، وجاء أمرُ الله وأنوفُ الشِركِ راغمة ، وأَدلَجت السيوفُ والآجالُ نائمة ، وصدق الله وعدَه في إظهار دينه على كلِّ دِين ، واستطارت له أنوار أبانت أنّ الصباح عندها جبانُ الجبين ، واستردَّ المسلمون تُراثا كان عنهم آبقا ، فظفِروا منه يقظَةً بما لم يَصدِّقوا أنهم يظفرون به طيفا على النَّأي طارِقا ، واستقَرّتِ على الأعلى أقدامُهم ، وخفقَت على الأقصى أعلامهُم ، وتلاقتْ على الصخرة قُبَلُهم ، وشفيتْ بها وإن كانت صخرة كما تشتفي بالماء غللُهم . ولما قدِم الدّين عليها عَرَف منها سويداء قلبه ، وهنّأ كفؤَها الحجرُ الأسود بيتّ عِصمتها مِن الكافر بحَربه ، فلِلّه الحمدُ على أن أَحرمتْ بخلعِ ذلك البُنيان المَخيط ، وطهّرها ما قطر مِن دعم الكفر وما كان ليطهرها

البحرُ المحيط ، وكان الخادم لا يسعى سعيه إلا لهذه العظمى ، ولا يقاسي تلك البؤس إلا لهذه النعمى ، ولا يحارب من يستظلمه إلا لتكون الكلمة مجموعة وكلمةُ الله هي العليا ، وليفوز بجواهر الآخرة لا بالعَرَض الأدنى من الدنيا . ومن طلب خطيرا خاطَر ، ومن رام صفقةً رابحةً خاسَر ، ومَن سما لأن يجلّي غمرة غامر » .

منه لماذكر الخلفاء(١٠٤/أ)«لا جَرَم أنّهم ورثّوا اسِرهم وسريرتَهم خلَفَهم الأطهر، ونجلَهم الأكبر ، وبقيتَهم الشريفة ، وطليعتَهم المنيفة ، وعنوانَ صحيفة فضلهم ، لا عدم الإسلام سواد القلم وبياض الصحيفة » .

منه : « والشرق يهتدي بأنواره ، بل إنْ بدا نورٌ مِن ذاته هتف الغرب بأن وارِه ، فإنّه نورٌ لا تُكِنّه أغساق السُّدُف ، وذكرٌ لا تواريه أوراق الصُّحُف » .

منه وقد ذكر الكفر : « ونام سيف جَفنه وكانت يقظته تريق نُطف الكَرى مِن الجُفون ، وجُدعت أنوفُ رماحه وطالما كانت شامخة بالمُنى راعفة بالمنون ، وأصبحت الأرضُ المقدسة الطاهرة وكانت الطامث ، والربُّ المفردُ الواحد وكان في زعمهم الثالث » .

منه : « وبدّل الله مكانَ السيئة الحسنه ، ونقل بيت عبادته من يد أصحاب المشأمة إلى أصحاب الميمنة » .

منه : « فكم أهلة سيوف تقارضَها الضِّراب حتّى عادت كالعراجين ، وكم أنجم قنًا تبادلتِ الطّعان حتى صارت كالمطاعين ، وكان اليوم مشهودا والملائكة شهودا ، وكان الصّليبُ صارِخاً والإسلامُ مولودا ، وكانت ضلوعُ الكفّار لنارِ جهنّم وقودا » .

منه وقد ذكر القَومَص وفراره : « وكان مليّاً يومَ الظّفَر بالقتال ويوم الخِذلان بالاحتيال ، فنجا ولكن كيف ، وطار خوفا مِن أن يلحقه ِمنسرُ الرمح وجناح السيف ، وكان لعِدتهم كذلك ، وانتقل من ملك الموت إلى مالك . وبعد

الكَسرة مرّ الخادم على البلاد فطواها بما نشَر (١٠٤/ب) عليها من الراية العباسية السوداء صِبغاً البيضاء صُنعا ، الخافقة هي وقلوب أعدائها ، هي وعزائم أوليائها ، المستضاء بأنوارها إذا فتح عينَها البِشر ، وأشارت بأنامل العذَبات إلى وجهِ النصر » .

منه : « ويحصد كفرا ويزرع إيمانا ، ويحطُّ مِن جوامعها صُلبانا ويرفع أذانا ، ويبدل المذابح منابرَ والكنائسَ مساجد ، ويُبوِّىء أهلَ القرآن بعد أهل الصُّلبان لِلقتال مَقاعد ، ويُقِر عينَه وعينَ أهل الإسلام أَن تعلَّق النصر منه ومِن عسكره بجارٍ ومجرور ، وأن يظفر بكل سُورٍ ما كان يُخاف زلزاله وزِياله إلى يوم النَّفْخ في الصُّفح » .

منه : « وقابلها ثم قاتلها ، ونزَل إليها ثم نازَلها ، وبرَز لها ثم بارَزها ، وحاجزها ثم ناجَزها ، فضمَّها ضمةً ارتقَبَ بعدها الفتح ، وصدَع جَمْعها فإذا هم لا يَصبرون على عُبودية الحدّ عَن عِتق الصَّفح » .

منه : « وقدَّمَ المَنجنيقات التي تتولى عقوباتِ الحُصون عِصيُّها وحبالُها، وأَوْتَر لهم قِسيَّها التي تضرب ولا تفارق سهامَها نصالُها ، فصافحت السُّور فإذا سهمُها في ثنايا شُرفاتها سِواك ،وقدَّمَ النصرُ نَسْراً مِن المنجنيق يَخلُد إخلادَه إلى الأرض ويعلو علوَه إلى السِّماك ، فشجَّ مَرادِغَ أَبراجِها ، وأسمع صوت عَجاجها ، فأخلى السُّورَ من السَّيارة ، والحرب مِن النُّظارة ، وأمكن للنَّقَّاب أن يُسفِر للحرب النِّقاب ، وأن يُعيد الحجَر إلى سيرته مِن التُّراب ، فتقدَّم إلى الصخر فمضغ سَرْدَه بأنياب مِعوَله ، وحل عُقَدَه بضرْبه الأَخرَق الدَّالِ على لطافة أَنمُله (١٠٥/أ) ، وأسمع الصَّخرةَ الشَّريفَةَ حَنينَه واستغاثتَه إلى أن كادت ترِقُّ لمقتله ، وتبرأ بعضُ الحجارة مِن بعض ، وأخذ الخراب عليها مَوثِقا فلن يبرحَ الأرضَ ، وفتَح مِن السُّور بابا سدَّ مِن نَجاتِهم أبوابا ، وأخذ يفتُّ في حَجره فقال الكافر يا ليتني كنت ترابا » .

منه في تسلُّم البلد : « وملكَ الإسلامُ خُطَّةَ كان عهدُه بها دِمنة سُكّان ، فخدَمها الكفرُ إلى أن صارت روضةَ جِنان ، لا جرَم أنّ الله تعالى أخرجَهم منها وأهبطَهم ، وأرضى أهل الحقّ وأسخطَهم » .

منه : « وفيها كلُّ غريب مِن الرُّخام الذي يطّرِد ماؤه ، ولا يَنطرِد لألاؤه ، قد لطَف الحديدُ في تَجزيعه ، وتفنَّنَ في تَوسيعه ، إلى أن صار الحديدُ الذي فيه بأس" شديد ، كالذَّهب الذي فيه نعيم" عَتيد ، فما تَرى إلا مقاعدَ كالرِّياض بها مِن بَياض التَّرخيم رَقْراق ، وعَمَداً كالأشجار لها مِن التَّنبيت أوراق » .

منه : « وأُقيمت الخُطبة وكادت السموات ينفَطِرن للسُّجوم لا لِلوُجوم ، والكواكب تنتثرُ لِلطَّرب لا للرُّجوم ، ورُفِعت إلى الله كلمةُ التَّوحيد وكانت طريقُها مسدودة ، وطهُرت قبورُ الأنبياء وكانت بالنجاسات مَكدودة ، وأُقيمت الخمسُ وكان التثليثُ يُقعِدها وجهرت الألسنة بـ « الله أكبر » وكان سحر الكفر يعقدها ، وجهر باسمِ أمير المُؤمنين في مَوطنه الأشرف مِن المِنبر ، فرحَّب بهِ ترحيب من بُرَّ بمن بَرّ ، وخفق علماه فيخافِقتيه فلو طار سُروراً لطارَ بِجناحيه» .

منه : « وكلُ مَشقَّةٍ بالإضافة إلى الفَتح مُحتملة ، وأطماعُ الفِرَنج بعد ذلك غير مُرجِئة ولا مُعتزِلة ، فإن يدعوا دعوةً يرجو الخادمُ مِن الله أن لا تُسمَع(١٠٥/ب) ولن يَفكّوا أيديَهم مِن أطواق البلاد حتى تُقطَع ، ولهذه البشائرِ أخبار" لا تكاد مِن غير الألسنة تَتَشخَّص ، ولا بما سِوى المُشافهة تَتلخَّص ، فلذلك نفَّذ فلانا شارحا ، ومُبشرا صادِحا ، يُطالِع بالخَبر على سِياقَته ، ويعرِض جيش المَسرّة من طليعتِه إلى ساقَتِه . وهو فلان » .

وقال من كتاب آخر عند ذكر الصخرة : « فقد كان بَخْتُ الناصِر في ردّ القدس أمضى من سيفِ بُختَ ناصِر » .

وذكرت هنا أبيات الصاحب جمال الدين ابن مَطروح [1] ــ رحمه الله ــ وهي :

المسجدُ الأقصى له عادة" سارَتْ فصارَتْ مَثَلاً سائرا
إذا غدا للكفر مُستَوْطَنا أن يبعَثَ اللهُ لهُ ناصرا

---

١) جمال الدين ابن مطروح واسمه يحيى بن عيسى ، شاعر أديب مصري ، نَظرَ خزانة مصر للصالح أيوب ــ توفي مخمولا بعد الصالح سنة ٦٤٩ هـ . انظر النجوم الزاهرة ٢٧/٧ ، وشذرات الذهب ٢٤٧/٥ .

فناصرٌ طهَّرهُ أولاً وناصِرٌ طهَّرهُ آخرا [1]

رجع الى كلام الفاضل :

منه : « وكان الكفر حلَّ بهذا البلد فملكَه واستهلكَه ، وأغلقَه فأوْثَقه ، وضاعت مفاتيحُه من الإسلام فلم يجدْها إلاّ في زمان أمير المؤمنين وهي السيوف، وما كان يضرب في فنائه للحرب مَصافٌ حتى ضُربت في مسجده للصّلاة صُفوف فاسترجع الصَّخرةَ التي هي فَصٌّ خاتَم الإسلام كما استرجع بها سليمانُ قدْما خاتَمه ، وكان وكيلُ الإسلام في استرجاع خاتَمه صارِمَه » آخر كلام الفاضل رحمه الله تعالى .

وهـذا بديهٌ لا كتحبيرِ قائلٍ إذا ما أرادَ القولَ زَوَّرَهُ شَهْرا [2]

وقد أتْبع ابنُ الأثير [3] ـ رحمه الله ـ كتابَ فتح القدس بتقليدِ حِسْبةٍ ، أطال فيه وليس في عِقْده واسطة ، ولا في أثنائه نكتة تكون بينها وبين التعَجّب رابطة ، لكنه استوعب آدابَ الحِسبة وعددَها ، ورصَّع وصاياها في سلكه ونضّدها (١٠٦/أ) وأطال في نصّها لمّا سَردها ، وأظهر فيه العِلمَ لا لُطفَ العمل، وأتى به عَرِيّاً عن المحاسن فلا رغبةٌ فيه للمُنشيء الماهِر ولا أمل ، وهو بأن يكون جزءاً في آداب الحِسبة أحقٌّ منه بأن يكون في التقاليد مَعدودا ، وبأن يُضمّ إلى الكتُب الموضوعةِ لذلك أولى مِنه بأن يكون في جملة الإنشاءِ مَسرودا .

[حول ورود « أن » بعد « لما » وأثرها في الدلالة على تراخي الزمن]

قال في النوع (١٠٦/ب) السابع عشر في التكرير ، وقد ذكر دُخول « أن » التي ترد بعد « لمّا » وادّعى أنها إذا دخلتْ في الكلام دلّ على ان الفعل

(١) أبياته في ديوانه ص ١٨٣ وقالها لما استعاد الناصر داوود القدس من الفرنج . وكذا وردت الأبيات في البداية والنهاية ١٨٢/١٣ .

(٢) البيت لبشار بن برد يمدح واصل بن عطاء بخطبته التي ارتجلها وتجنب فيها الراء . انظر (البيان والتبيين) ٢٤/١ و ٦٨ وبدأ البيت فيه بقوله « فهذا » .

(٣) المثل السائر ٣٨٥/٢ .

لم يكن على الفور ، وأنه ثَمَّ تراخٍ ومُهلة» • وساق قوله تعالى : « فلمّا أنْ جاءَ البشيرُ ألقاهُ على وَجهِهِ فارتَدَّ بصيرا [1] » •

« وإذا نُظر في قصة يوسفَ مع إخوته منذ ألقوه في الجُبِّ وإلى أن جاء البشير إلى أبيه عليه السلام ، وُجِد أنّه كان ثَمَّ إبطاء وتراخٍ بَعيد بعيد ، ولو لم يكن ثمُ مدة بعيدة وأمد مُتطاول ، لَما جِيء بـ « أن » بعد « لمّا » وقبل الفعل • بل كانت تكون الآية : فلما جاء البشير ألقاه على وجهه • وهذه دقائق ورموز لا تُوجد عند النحاة لأنها ليست مِن شأنهم [2] » •

أقول : هذا من جناية إعجاب المرء بعَقله ورأيه ، ألا تراه كيف تَصوَّر الخطأ صوابا ، ثم أخذ يَتبجَّح بأنه ظفِر بما لم يفهمه النُّحاة ولا يعلموه : أتراه ما نظر إلى هذه الفاء التي هي للتعقيب عَقيبَ ماذا وردت • هل وردت عقيب قوله تعالى : « فلما ذهبوا به وأَجمَعوا أنْ يجعلوه في غَيابَةِ الجُبِّ [3] » •• والآياتِ المُتعلّقة بواقعة إلقائه في الجُبّ حتى يدّعي هذه الدَّعوى • أو وردتْ عَقيب قوله تعالى : « اذهَبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأتِ بصيرا وأْتوني لأجِدُ ريحَ يُوسفَ لولا أَنْ تُفنِّدونِ • قالوا : تاللّه إنك لفي ضلالِك بأهلِكُم أَجمعين » إلى قوله تعالى : « ولما فَصَلتِ العِيرُ قال أَبوهم : إني القَديم • فلمّا أنْ جاء البشير [4] » الآيات • فأي تراخ بين هذين مِن البعد البعيد والمُدة المُتطاولة ؟ إنما كان ذلك كلّه بقَدر المَساقة مِن مصر إلى أرض كنعان ، مَقامِ يعقوب عليه السلام ، وهي تكون اثني عشر يوما وما حولَها ، ولهذا قال النُّحاة : إنها هنا زائدة (١٠٧/أ) •

قال في هذا النوع أيضا وقد أورد قول أبي نواس :

---

(١) سورة يوسف ٩٦/١٢ .

(٢) المثل السائر ١٤/٣ « إذا نظر في قصة يوسف عليه السلام .. كان ثم ابطاء بعيد (وقد اختلف المفسرون في طول تلك المدة) ولو لم يكن ثم مدة بعيدة وأمد متطاول ... وهذه دقائق ورموز لا تؤخذ من النحاة ... » .

(٣) سورة يوسف ١٤/١٢ .

(٤) سورة يوسف ٩٣/١٢ ــ ٩٦ .

أَقَمْنا بهــا يوماً ويــوماً وثالثــاً ويوماً له يومُ التَّرَحُّلِ خامِسُ[١]

« مراده مِن ذلك أنّهم أقاموا أربعة أيام . ويا عجباً له ، يأتي بمِثل هــذا البيت السخيف الدّالِ على العِي الفاحش في ضمن تلك الأبيات[٢] » .

أقول : ليس الأمر كما ادّعاه مِن أنّه أراد أنهم أقاموا أربعة أيام ، بل قد ذهب بعضُ المتأدبين إلى أنّ المقام كان سبعة أيام[٣] ، بدليل أنه أقام يوما ويوما وثالثا فهذه ثلاثة أيام . ثم قال : ويوما له يوم الترحل خامس فزاد الثلاثــة أربعة أخر خامسها يوم الرحيل . وما يَشكُّ صاحبُ الذّوق أنّ هذه العبارة أحسن من قوله: أقمنا بها أسبوعا ، وإن كان هذا أخصَرَ في اللفظ ، ولكن ذلك له مَوقع .

سلَّمنا أنّ المقام أربعة أيام ، ولكنه كرّر ذلك لِمعنى لم يوجد إلاّ في هــذا التكرار ، وهو أنّ المقام في هذه الحالة مقامُ وصفٍ لأيام قطعَها في لَذّة ، فأخذ يُعددها أفرادا غير جملة ويقول : أقمنا بها يوماً ويوماً ويوماً كالمُتلذِّذ بهيئة كلّ يومٍ استحضرَها في ذِهنه ، وما مر لهم فيها مِن أنواع اللّذاذات والمَسرّات ، وهذا أمر مُتعَارَف في الخير والشّر فيُقال : واصَلني يوماً في يوم في يوم في يوم ، وهجَرني يوماً في يوم في يوم في يوم . ومن هذا قول مروان الأصغر[٤] :

سقى اللهُ نَجْداً والسّلامُ على نَجْدِ ويا حبذا نجدٌ على النأْيِ والبُعْدِ[٥]

كرّر ذلك تَلَذُّذا بذكرها ، وتَحرُّقاً بالشّوق إليها .

ولِله المُتنبّي حيث قال : (١٠٧/ب)

---

(١) ديوان أبي نواس ص ٣٦١ من قصيدة مطلعها :

ودارِ ندامى عطّلوهــا وأدلجــوا بهــا أثرٌ منهم جديدٌ ودارسُ

وكذا في طبقات ابن المعتز ص ٢٠٦ .

(٢) المثل السائر ٢٤/٣ « ومراده من ذلك أنهم أقاموا بها أربعة أيام . . . » .

(٣) انظر ما جاء في شذرات الذهب ٣٤٦/١ .

(٤) هو مروان بن أبي حفصة ويكنى أبا السمط . انظر طبقات الشعراء لابن المعتز ٣٩٢ والأغاني ٨٠/١٢ .

(٥) البيت في أول ثلاثة أبيات في الأغاني ٨٠/١٢ .

أبا شجاعٍ بفارسَ عضُدِ الدّ و لةِ فنّا خُسْرَوْ شَهِنْشاها
أساميًا لم تَزِدْهُ معرفةً وإنما لذّةً ذكرناها [1]

[حول الاعتراض]

قال في النّوع الثامن عشر في الاعتراض بعدما أورد قول المضرّب السعدي [2]

فلو سألَتْ سراةَ الحي سَلْمى على أن قد تلَوّنَ بي زماني
لَخَبَّرَها بنو أحسابِ قومي وأعدائي فكلٌ قد بلاني [3]

« ومن ذلك قول أبي تمام الطائي :

وإنّ الغِنى لي إنْ لَحَظْتَ مطالبي من الشِعْرِ إلاّ فيمديحكأطوعُ [4] [5] »

أقول : أي شيء رآه في قول أبي تمام حتى يجعله مُنخَرطا في قول المضرب السعدي ؟ ، وأنا لا أعيب البيت من حيث معناه فإنه في غاية الحُسن ، وإنما أعيبه من حيث تراكيب ألفاظه فإنها بين تقديم وتأخير ضيّعا بهجة المعنى وأذهبا طلاوته . ألا ترىأنه يحتاج إلى تقدير وهو : وأنّ الغنى أطوعُ لي من الشعر إلا في مدائحك إن لحظت مطالبي . فالمعنى في نفسه في غاية الحُسن مِن البلاغة ، والألفاظُ ما

---

(١) سبق الكلام على هذين البيتين .
(٢) في الحماسة ٥٩/١ سوّار بن المضرّب السعدي ، شاعر إسلامي كان مع قَطَريّ ابن الفجاءة وهو من بني سَعْد .
(٣) بيتاه في المصدر السابق وجاء في صدر الثاني « ذوو أحساب قومي » كما ورد البيتان له في الفيث المسجم ٥٨/٢ .
(٤) ديوان أبي تمام ــ عزام ٣٣٣/٢ من قصيدة قالها يمدح أبا سعيد الثغري . مطلعها :
أمــا إنــهُ لولا الخليطُ المودعُ وربْعٌ عفا منه مَصيفٌ ومَرْبَعُ
وفي هبة الأيام ص ٢٩٨ ورد صدر البيت « وان الغنى لي ان لحظتَ مطالبي ».
(٥) المثل السائر ٤٥/٣ (الطائي) غير موجودة .

كأنها إلا عقد الميزان ، أو التخليط الذي يكون في منامات الباذنجان . وما أشبه هذا البيت الا بقول الفرزدق :

ومـا مِثْلُهُ في الناسِ إلا مُمَلَّكاً　　أبو أمِّهِ حيٌّ أخوهُ يقاربُهْ (١)

ومثل قول أبي تمام قول شرف الدين بن الفارض :

هبي قبلَ يُفْني الحبُّ مني بقيةً　　أراكِ بها لي نظرةَ المُتَلَفِّتِ (٢)

والتقدير فيه : هبي لي نظرة المتلفت قبل أن يفني الحب مني بقية أراك بها .

[حول الكناية]

قال في النوع التاسع عشر في الكناية وقد أورد قوله تعالى (١٠٨/أ) « أيحِبُّ أحدُكم أنْ يأكلَ لحمَ أخيه مَيْتا (٣) » (الآية) :

« فأما جعل الغيبة كأكل الإنسان لحمَ الإنسان الآخر ، فشديدُ المناسبة ، لأنّ الغيبة إنما هي ذكرُ مثالب الناس وتمزيقُ أعراضهم ، وتمزيق العرض مماثل

(١) لم أعثر على البيت في ديوان الفرزق وفي طبعة الصاوي ص ١٠٨ وورد في العقد الفريد ٣٩٢/٥ ومعاهد التنصيص ٤٣/١ وجاء في عجز البيت « أبوه » بدل اخوه . وشرحه صاحب العقد بقوله : « ما مثل هذا الممدوح في الناس إلا الخليفة الذي هو خاله » .

وقال العباس في تقديمه « البيت للفرزدق من قصيدة يمدح بها إبراهيم بن هشام خال هشام بن عبد الملك » . وفي طبقات فحول الشعراء ص ٣٠٩ ورد البيت :

وأصبح ما في الناس إلا مملكا　　أبو أمه حي أبوه يقاربه

(٢) ديوان الفارض ص ٤٧ من قصيدته التائية الكبرى المسماة نظم السلوك . مطلعها :

سقتني حميا الحبِ راحةُ مقلتي　　وكأسي محيا مَن عن الحسْنِ جلّتِ

(٣) سورة الحجرات ١٢/٤٩ .

لأكل لحم مَن تَغتابه ، لأنّ أكل اللحم تمزيق على الحقيقة (١) » .

أقول : دعواه أنّ مناسبة الغيبة بأكل لحم الإنسان لأنّها تمزيق عِرض والتمزيق أكل ، ليست بواضحةٍ فإنّ تمزيق العِرض من باب أكل اللحم ، وهما كناية عن أمرين معقولين بأمرين محسوسين . والأحسن في مثل هذا أن يُقال : لأن الذي يغتاب يذكر مثالب وارتكاب مُحرّمات وغيرها ممّا يجبُ فيها على المُغتاب الحدُّ ، ولعل ذلك الحدّ يكون ضربَ عُنُق أو قطعَ يدٍ أو جلدَ ظهْر ، وذلك تفصيلُ أعضاءٍ وتمزيقُ أجزاء ، فهو أشبهُ شيءٍ بالأكل ، لأنّ الأكل يفرّق الأجزاء مِن الأجسام . ألا ترى قولَ السّراج الورّاق ما أحسنَه في هذا المعنى :

وربّ شخصين قَطُّ ما اجتمعا ... إلاّ على هَرْتِ غائبٍ فهما
ما مرّ يومٌ إلاّ وعندَهما ... لحمُ رجالٍ أو يُولغان دَما

مضمن .

وهذا التعليل أنسب ، وبه يُعلّل تمزيق العِرض أيضا فأما قوله كتمزيق العِرض ، فإنّه أحالَ على أمرٍ يَحتاج إلى بيان ، وينتقل السّؤال مِن الغِيبة إليه، وبمثل هذهِ المناسبة التي ذكرتها أنا ، لا يحتاج إلى ذلك .

قال في هذا النوع :

« وأما القسم المُختص بما يقبُح ذكرُه مِن الكناية ، فإنه لا يحسن استعماله لأنّه عيب في الكلام فاحش وذلك لعَدَم المُراد مِن الكناية فيه (٢) . فمما جاء

---

(١) المثل السائر ٣/٦٢ « ... فأما جعل الغيبة كأكل الإنسان لحم إنسان آخر مثله فشديد المناسبة جدا .. وتمزيق العرض مماثل لأكل الإنسان لحم من يغتابه .. » .

(٢) المثل السائر ٣/٧٠ « .. وذلك لعدم الفائدة المرادة من الكناية فيه ... » .

منه قول الشريف الرضي [١] يَرثي امرأة :

إن لم تكن نصلا فغمد نصالِ [٣] .

أقول : أما هذه الكناية فإنّها في غاية الحُسن في كون المرأة يُغمد فيها ذلك العُضو المخصوص (١٠٨/ب) وليس في بابها مِثلُها ولا تقبُح من حيث الصناعة وتخيُّل المعنى ، وإنما قبحُها بالإضافة إلى المقام ، إن كان المقـام مقامَ تعظيـم قدر المَرثيّ ، لأنها أمُّ ملِك أو بنتُ كبير القَدْر ، أو أختُ أمير . فإنه ليس مِن الأدب أن يَسمع فيها قريبُها هذه الكناية لتعلقها بفرجها وذكر عورتها . كما عِيب على أبي الطيب قولُه يرثي أمَّ سيف الدولة :

رِواقُ العِزّ فوقَـكِ مُسبَطِرّ ومُلكُ عليٍّ ابنِكِ في كمالِ [٣] .

فإنه ليس مِن الأدب أن يَذكر أمَّ السُّلطان ويقـال : فوقها مُمتدٌّ ، فإنّ النفوس الكبار تأنف مِن ذكر عورات النساء .

ويقال : إنّ بعض الولاة أُحضِرَ إليه جماعةٌ مِن الفُسّاق ، فأراد تأديبَهم ، فجعلوا يقسمون عليه ولا يزداد عليهم إلاّ قَسوة وغِلظة ، وكان فيهم مُخنَّث فقال: تنحوا يا حمير ، أكذا يُحلَّف الأمير ثم قال : يا أمير بحياة أمِّك ، فاشتد غضبه عليه وهم يجلِدونه ، فقال : بحياة وجهِها ، بحياة عُنقِها ، بحياة كذا بحياة كذا حتى قال : بحياة سُرّتها . فقال الأمير وليس بَعد السُّرّة إلا الحرّة [٤] . أطلِقوهم .

وما أحسن قول كُشاجم يَرثي أُمه :

---

(١) الشريف الرضي واسمه محمد بن الحسين أبو الحسن ، أشعر الطالبيين ، نقيب الأشراف (ت ببغداد سنة ٤٠٦ هـ) اليتيمة ٢٩٧/٢ ــ ٣١٥ .

(٢) عن شرح نهج البلاغة ٤١/٥ قال الرضي يرثي امرأة :
إن لم تكن نصـلا فغمـد نصول غالتـه أحـداث الزمان بغـول
وفي الحاشية هناك « مطلع قصيدة يعزي فيها أبا سعد بن خلف عن أخته » .

(٣) شرح الديوان للبرقوقي ١٧٦/٣ من قصيدة قالها يرثي والدة سيف الدولة . أنشده إياها سنة ٣٣٧ هـ مطلعها :
نعـد المشرفيـة والعـوالي وتقتلنـا المنـون بـلا قتال

(٤) الحر مخفف وأصله حرح والجمع أحراح ، وقالوا : حرة بمعنى الفرج . قال الهذلي : جراهمة لها حِرة وثيل . انظر لسان العرب بولاق ٢٥٧/٣ (حرح) .

فأُقسِمُ لو أبصرتَني عنــدَ موتِها وجَفْني يَسِحُّ الدَّمعَ سَجْلاً على سَجْلِ
رثيتَ لنصلٍ يأخُذُ المـوتُ جفنَه وأُعجِبْتَ مِن فرعٍ ينوحُ على أصلِ (١)

وقـد تَحسُنُ هـذه الكنـاية من الشـريف الرَّضي في بـاب التهكّم وتكون نهاية في الحسن • وعلى الجملة فقبُح الكناية التي ذكرها ليس لذاتها بـل لأمر عرَض عليها على أنه قد أوردَ بعدَها قولَ الفرزدق يَرثي امرأته :

وجفنِ نصالٍ قد رُزِئتُ فلم أَنُحْ عليــه ولم أَبعَثْ عليه البَواكيا (٢)

وقال : « هذا حسن بديع في بابه ، وما كُني عن امرأة ماتت بجَمع أحسن مِن هذه الكناية ولا أفخم شأنا (٣) » •

فيُقال له : أي شيء حسن هذه وقبّح تلك ؟ (١٠٩/أ)

[حـول المغالطات المعنويـة]

قال في النوع العشرين في المغالطات المعنوية :

« فمنه ما كتبْتُه في فَصل مِن كتابٍ عند دخولي إلى بلاد الرُّوم أصِفُ فيه البرَد والثّلج :

ومن صفات هذا البرَد أنه يَعْقِد الدَرَّ في خلْفه ، والدَّمعَ في طَرْفه ، ولرُبَما تعدّى إلى قَليب الخاطِر فأَحقّه أن يجري بوَصْفه ، والأرضُ شهباءُ غيرَ أنّها حَولِية لم تُرَضْ ، ومسيلاتُ الجِبال أنهـارٌ غيرَ أنّها جامدة لم

(١) ديوان كشاجم ص ١٥٦ من مقطوعة قالها يرثي أمه . مطلعها :

أَبَعْدَ مُصابِ الأمّ آلَفُ مَضْجَعا وآوي إلى خفضٍ من العيشِ أو ظِلِ

وورد في الأول « وعيني تسح الدمعَ » .

(٢) غير موجود في ديوانه . وورد منسوبا إليه في الصناعتين ٢٠٦ وفيه « ولم أتعب عليه البواكيا » وفي الموازنة ٣٧ « لم أبعث » وكذلك في الذخيرة القسم الأول من المجلد الأول ١٢٧ وفي نهج البلاغة ٥/٤٠ . وفيها جميعا « وجفن سلاح ».

(٣) المثل السائر ٣/٧١ .

تُخض (١) » .

أقول : ثم إنه أخذ يصِف مكان الحسن في قوله : حولية ولم ترض . وأيُّ كبير حُسنٍ في هذا حتى يُدوّنه ويَستشهد به . ولكنه معذور إذا وقع في كلامه تَورية أن يخطُبَ لها ، فكيف به لو قال مِثْل القاضي الفاضل يصِف البَرْد :

« في ليلة جمد خمرُها ، وخمَد جمرُها ، إلى يومٍ تَودُّ البصَلة لو ازدادتْ إلى قُمُصِها ، والشمسُ لو جرّتِ النارَ إلى قُرصِها » .

وقد نظم هذا الجلالُ بن الصفّار (٢) فقال :

ويومِ قُرٍّ بردُ أنفاسِهِ تُمزقُ الأوجُهَ مِن قَرْصِها
يومٌ تودُّ الشمسُ من بَرْدِهِ لو جَرّتِ النارَ إلى قُرصِها (٣)

ومن كلام الفاضل في ليلة كثيرة البرد :

« في ليلة جَمد الماءُ في لبابيدِها حتى ثقُل متنُها ، وانعكسَتِ القاعدةُ في التَشبيه حتى صارَ كالجبال عِهنُها » .

وقال الصاحب جمالُ الدين ابن مَطروح :

انظُرْ تجِدْ وجهَ البسيطةِ أبيضاً لم تَبْدُ فيه شامةٌ سوداءُ
كَرُمَ السّحابُ فَعمَّ بالثلجِ الثّرى إنّ الكريمَ لهُ اليدُ البيضاءُ (٤)

---

(١) المثل السائر ٧٩/٣ « ... أصف فيه البرد والثلج فقلت .. وربما تعدى إلى قليب الخاطر فأجفته أن يجري بوصفه (فالشمس مأمورة والنار مقرورة) والأرض شهباء .. » .

(٢) جلال الدين ابن الصفار واسمه علي بن يوسف الماردیني . كاتب شاعر ، كتب الإنشاء لصاحب ماردين قتله التتار سنة ٦٥٨ هـ . انظر النجوم الزاهرة ٢٥٢/٧ .

(٣) بيتاه في فوات الوفيات ١٩٦/٢ وخزانة ابن حجة ص ٣٤٩ . وجاء في عجز الأول « تخمش » بدل تمزق .

(٤) البيتان ليسا في ديوانه .

[وقال] (١) : مجير الدين محمد بن تميم :

دنياكَ مذ وَعَدَتْ بأنك لم تزَلْ في نِعمةٍ وسعادةٍ لا تنقضي
كانَ الدليلُ على وفاها أنها أَضحتْ تقابلُنا بوجهٍ أبيضِ

وقال مجير الدين أيضا في البَرْد :

وليلةٍ قرةٍ قد هبَّ فيها نسيمٌ لا تقابلُه الصدورُ
نسيمٌ يقشَعِرُ الرَّوضُ منهُ إذا وافى ويَرتعِدُ الغَديرُ (١٠٩/ب)

ثم قال : ومن ذلك ما ذكرتُه في وصف كريم فقلت : « ولقد نزلتُ منه بمُهَلَّبيِّ (٢) الصنع ، أحنفيِّ (٣) الأخلاق ، ولقيتُه فكأنّي لم أُرَعْ بلوعة الفِراق ، ولا كرامة للأهلِ والوطنِ حتى أقول استبدلتُ به أهلاً ووطنا ، وعَهدي (١١٠/أ) بالأيام وهي من الإحسان فاطمةٌ فاستولَدَها بِجوارِه حَسَنا (٤) » ثم أخذ في الثَّناء على ذلك .

أقول : غاية ما ذكره أنه استعمل اسم فاطمة (٥) والحَسَن (٦) ــ رضي الله عنهما ــ تَورِية وليس هذا بعظيم .

---

(١) زيادة يقتضيها السياق .

(٢) مهلبي : لعلها نسبة الى المهلب بن أبي صفره وكان كريما ممدحا . انظر الإصابة ت ٨٦٣٥ .

(٣) أحنفي : نسبة إلى الأحنف بن قيس المشهور بالحلم وكرم الخلق . انظر طبقات ابن سعد ٦٦/٧ .

(٤) المثل السائر ٨٠/٣ « ... فكأني لم أرع ممن أحب بلوعة الفراق ... حتى أقول إني قد استبدلت به أهلا ووطنا .. فاستولدتها بجواره حسنا » .

(٥) فاطمة بنت الرسول عليه السلام تزوجها علي وولدت الحسن والحسين وأم كلثوم وزينب (ت ١١ هـ) انظر طبقات ابن سعد ١٩/٨ .

(٦) الحسن بن علي بن أبي طالب . بويع في العراق سنة ٤٠ وتنازل لمعاوية سنة ٤١ وتوفي مسموما . انظر مقاتل الطالبيين ص ٣١ .

وما أحسن ما استعمل القاضي الفاضل اسم الحسَن ، فقال يخاطب قوما أشرافاً :

« السعيدُ من أشبَه حديثُه قديمَه السعيد ، والشرفُ القديمُ مقطوع إن لم يصلْه الشرفُ الجديد ، والغُصنُ من الدَّوحة العَريقة وإن لم ينمُ كان مِن الحطب ، ومحمدٌ صلّى الله عليه وسلم كان عمُّه أبا لهب [1] ، وقبيحٌ أن يكون فعلُكم القبيحُ وجدُّكم الحسَنُ . وأن يكون أولكُم قاتَلَ حتى لا تكون فتنةٌ وتقاتلون حتى تكون الفِتَن » .

وما أحسَن قول أبي الحُسين الجَزّار يمدح سيفَ الدين عليَّ بن قليج من جملة قصيدة في ذكر الزمان :

وإني لَمعتادٌ لحَملِ خُطوبِهِ إذا كَلَّ أو أعيى مِن الهمِّ حاملُهُ
أقول لِفَقْري : مرْحبا لِتيقّنِي بأنّ علياً بالمكارمِ قاتِلُه [2]

كذا تكون التَّورِية ، وكذا يكون تحيُّل التَّخيُّل .

ومما اتفق لي نظمه :

أقول لشادٍ تَغنّى لنا وقَدْ قرَّح الدّمعُ أجفانَ عيني
أيا حَسَنَ الوجهِ رجِّعْ وخذ بصَوْتٍ عليٍّ لنا في حُسَيْني

ثم قال : « ومن هذا الأسلوب ما كتبتُه في فصل مِن كتاب إلى بعض الإخوان فقلت : وعهدُه بقَلمي وهو يَتحلّى مِن البَيان بأسمائه ، ويُبرِزُ أنوار المعاني مِن ظلمائه ، وقد أصبحَتْ يدي منه وهي حمّالةُ الحَطَب ، وأصبحَ خاطري

(١) ابو لهب عبد العُزّى بن عبد المطلب ، عم الرسول صلى الله عليه وسلم وبه نزلت الآية (ت سنة ٢ هـ) . انظر الكامل لابن الأثير ٢/٢٥ .

(٢) في الغيث المسجم ٢/١١٤ البيت الثاني فقط .

أبا جَهْل [١] (١١٠/ب) بعد أن كان أبا لهَب [٢] » .

أقول : قد استعمل القاضي الفاضل مِثل هذا كثيرا ، ولَهِج المتأخِّرون بمِثل هذا فأتوا فيه بالطَّمِّ والرَّمِّ [٣] . قال ابن النَّبيه [٤] :

لو لم تكنْ إبنةُ العُنقودِ ريقتَه ... لمَا غدا خدُّه القاني أبا لهَبِ

تبتْ يدا عاذِلي فيه وَوجنتُه ... حمالةُ الوردِ لا حمالةُ الحَطَبِ [٥]

وقال ابن سناء الملك في مُعَذَّر :

كنتَ مثلَ الظَّبْي ذا غَيَدٍ ... صرْتَ مثلَ الثَّورِ ذا غَبَبِ

وجْنَةٌ كانتْ أبا لهَبٍ ... رجعَتْ حمّالةَ الحطبِ [٦]

وقال :

وصفْتُك واللاّحِي يُعاندُ بالعَذْلِ ... فكنتُ أبا ذَرٍّ وكان أبا جَهْلِ

وقلت وأنا في رملِ مِصرَ عند العريش :

أتَيْنا عريشَ الرَّملِ في وقت حَرِّهِ ... فقلنا له تبَّتْ يداك أبا لهبْ

وكم أثْلَةٍ لا ظلَّ فيها ولا جَنًى ... تُقابلُنا منه بحمالةِ الحطَبْ

(١) أبو جهل واسمه عمرو بن هشام المخزومي . كان من قتلى المشركين في بدر سنة ٢ هـ انظر عيون الأخبار ١/٢٣٠ .

(٢) المثل السائر ٣/٨٠ « .. وعهدي بقلمي وهو يتحلى من البيان بأسمائه ، وتبرز أنوار المعاني ... » .

(٣) انظر المثل في المزهر : ٥٠٠ ، والفاخر ٢٤ ، واللسان (رمم ــ طمم) وأدب الكاتب (سنة ١٣٥٥) ص ٤٦ والمعنى عنده : البحر والثرى .

(٤) ابن النبيه واسمه علي بن محمد كمال الدين . شاعر منشىء من أهل مصر ، مدح الأيوبيين وتولى ديوان الإنشاء (ت في نصيبين سنة ٦١٩ هـ) . انظر فوات الوفيات ٢/١٤٣ .

(٥) بيتاه في خزانة ابن حجة ص ٢٧٥ .

(٦) ليسا في ديوانه .

ثم قال من فصل :

« ومِن آثَرِ مَساعيه أنّه حاز قُفْل المكارم ومِفتاحها ، وإذا سُئِل مَنقبةً كان منّاعَها وإذا سُئل موهبة كان مَنّاحها ، وأحسنُ أثراً مِن ذلك أنّه أخَذَ بأعنّةِ الصَّواب وألانَ جِماحَها ، وإذا شهِد حَوْمةَ حربٍ كان منصورها وإذا لقي مُهجة خطْبٍ كان سفّاحَها [1] » .

أقول : وهذا البابُ أعني أسماء الخُلفاء في الألقاب ، مما جسر الناسُ على دُخوله، وعبرَه كلُّ أحدٍ مِن المتأدبين وتصرّفَ في مَحصوله ، فإنّه سَلِسُ القِياد في التّورية إذا جُذِب وسريعُ الارتفاع إذا أُقيم أو نُصِب .

قال ابنُ سناء الملك :

بايَعَتْهُ يدُ السَّعادةِ والبَيْعةُ قد كُرِرتْ عليه اليمينُ
واصطفاه الرأيُ الرّشيدُ على العا .. لَمِ فهو الأمينُ والمأمونُ [2] (١١١/أ)

وقال سيف الدين المُشِد ابنُ قزل :

يا أهلَ وُدّي دعوةً مِن مُدْنَفٍ خفيَتْ شِكايتُه عن العُوّادِ
تاللهِ ما جَلَدي عليكم طائعٌ كلاّ ولا واللّهِ قلبي الهادي

وقال ابنُ سناء المُلك :

بأبي وأمّي مَن يكونُ المكتفي بجماله لجَماله كالمُقتَدي

(١) المثل السائر ٨١/٣ « ومن أبر مساعيه أنه حاز قفل المكرمات ومفتاحها ، فاذا سأل .. أخذ بأعنة الصعاب وألان جماحها ، فاذا شهد ... » .

(٢) ديوان ابن سناء الملك ص ٧٦٧ من قصيدة قالها يمدح القاضي الفاضل سنة ٥٧٥ مطلعها :

ما ثناياك لؤلؤ مكنونُ مثلُها لم تقعْ عليه العيونُ

مُستوحشٌ مُتفرِّدٌ في حُسنِهِ ... لا تَعجبَنَّ لوَحشةِ المُتفَرِّدِ [١]

وقال مجير الدين محمد بن تميم :

يا مُوثِراً قَصدي حماةَ وخِدمتي ... سلطانَها مِن بَعْدِ كُلِّ أَمِيرِ

أَنا واثقٌ برَشيدِ رأيِك طائعٌ ... لأمينِهِ الهادي إلى المَنصورِ

ثم قال من فصل : « وما أقولُ إلاّ أنّه شعر بتلك المَسرّة المَسروقة فأقام عليها القَطْع ، ورأى العيش فيها خَفْضا فأزالَه الرَفْعُ [٢] » .

أقول : وهذا الباب أيضا مِما تقدَّم ، وسُورُه مِمّا خربَ وتهدَّم ، قد دخل الناسُ فيه أفواجا ، وراقتْ لآلئهم فيه انفِرادا وازْدِواجا .

قال السّراج الورّاق يَرثي الجزّار :

رفعوكَ وانتصبوا قِياما خافضي الـ .... أَصواتِ إذ جزَمَ الرّدى منكَ العُرى

وغَدوْتَ في الأكفانِ عنهمْ مضمَرا ... وهمُ يرونك للجَلالةِ مُظهَرا

إنّ الصَّحيحَ اعتلَ مذ فارقتَنا ... وأَبيكَ والجمعَ الصَّحيحَ تكسَّرا

وقال أيضا :

نَصَبَ العَداوةَ حاسِدوكَ فأُعقبوا ... جَزْما لِأَلسَنِهم وخفضَ الشَّانِ

فمتى أراهمْ أدبروا ورؤوسُهم ... مَرفوعةٌ بعواملِ المُرّانِ (١١١/ب)

وقال شهاب الدين التَّلَّعْفَري :

وإذا الثَّنيّةَ أشرفَتْ وشَمَمْتَ من ... نَفَسِ الحِمى أَرَجاً كنشرِ عَبيرِ

(١) ديوان ابن سناء الملك ص ٢٦٥ من قصيدة قالها يمدح الصاحب صفي الدين : مطلعها :

كَحَلَ العيونَ بمِرْوَدٍ منعَسْجَدِ ... فيه الذوائبُ واللّمى كالإثمدِ

وقد ورد في عجز البيت الأول « لجماله بجماله » . وفي عجز الثاني «بوحشة» .

(٢) المثل السائر ٨١/٣ « ... فأقام عليها حدا لقطع ... فأزاله بعامل الرفع » .

سلْ هَضْبَها المنصوبَ أين حديثُها الـمرفوعُ عن ذيلِ الصَّبا المَجرورِ [١]

وهذا في غاية الحُسن مِن الصناعة ، فإنه أتى بالمنصوب في المنصوب ، وبالمَرفوع في المرفوع ، وبالمجرور في المجرور .

وله بيتان آخران في هذا المعنى ، ولكن هذين أحسنُ وأكمل [٢] .

وعلى الجملة ، فهذه الأشياء قد انتهَكَ المتَأخِرون حُرمتَها ، ومنعوا مِن الآباءِ عصمتها خُصوصا أسماء الخلفاء كما تقدَّم ، وألقابُ الإعراب وقد تقدَّم ، وأسماءُ سُوَرِ القُرآن . كما قال أبو الحسين الجزَّار يمدح فخر القضاة نصرَ الله ابن بُصاقَة [٣] :

وكم ليلةٍ قد بِتُّها مُعسِراً ولي ... بزُخْرف آمالي كنوزٌ مِن اليُسْرِ

أقولُ لِفَقْري كلما اشتقْتُ للغِنى ... إذا جاءَ نصرُ الله تبتْ يدُ الفقرِ

وكما قال أيضا وقد خُلِع على شاعرٍ أسودَ ولم يُخلع عليه يخاطب جمال الدين ابن رمضان :

غيرُ خافٍ عنك الذي نالَه الأسْوَدُ بالأمسِ من نَدى السُّلطانِ

وتمشِّيه بالعِمامَةِ والثَّوْبِ ومنديلِ الكُم والطَّيلسانِ

قلتُ إذ فُصِلتْ عليه أرى الزُّخْرفَ يُتلى بالنَّصِ فوق الدُّخانِ

---

(١) بيتا التلعفري في ديوانه ص ١٨ وفيه في أولهما « وشممت من أرجائها أرجا » وفي الثاني « أين حديثه » . وكذا وردا في فوات الوفيات ٥٤٧/٢ والغيث المسجم ٨٠/٢ .

(٢) اعلهما قوله :

تَتيهُ على عُشاقها كلما رأتْ ... حديثَ صفاتِ الحُسن عن وجهها يُروى

فتاةٌ لها في موقفِ العزِ حاكمٌ ... بقَتْلِ الورى أعطى لواحظَها فَتْوى

انظر ديوانه ص ٦ .

(٣) نصر الله بن هبة الله المعروف بابن بصاقة . كاتب مترسل من الشعراء ، ولي كتابة الإنشاء بمصر (ت بدمشق سنة ٦٥٠ هـ) انظر الطالع السعيد ص٣٨٦ ، والشذرات ٢٥٢/٥ .

وكما قال سيف الدين ابن قزل :

أقسِمُ مِن جفنيَ بالذّاريات ... ومن دموعِ العَين بالمُرسَلات

إني على الإخلاصِ في حُبِّكم ... حتى ترى روحي في النازعات

وكما قال الآخر :

أُناشدُه الرحمنَ في جَمْعِ شَمْلِنا ... فيُقسِمُ هذا لا يكونُ إلى الحَشْرِ

إذا ما غدا شِبْهَ الحديدِ فؤادُهُ ... فَوالعَصْرِ إنَّ العاشقينَ لفي خُسْرِ

(١١٢/أ)

وأسماءُ الكتب كما قال مِن أبيات :

يا سائلي مِن بَعدِهم عن حالتي ... تركُ الجوابِ جوابُ هذي المسألهْ

حالي إذا حَدثتُ لا جُمَلاً ولا ... لُمعاً لا يُضاحي لها مِن تكمِلهْ

عندي جوى يَذَرُ الفَصيحَ مُبَلَّدا ... فاترُكْ مُفصَّلهُ ودونَك مُجمَلَهْ

القلبُ ليس مِن الصِّحاحِ فيُرتجى ... إصلاحُه والعينُ سُحْبٌ مُثقَلَهْ

وقد ذَكَر في هذه الثلاثةِ عشرَةَ أسماء مِن تصانيف الأدب (١) .

كما قال ابن قَزِل في مليح يلعب بدلقانون :

تَرى ابنَ سيناءَ في يديْهِ ... أقلُّ ملعوبِهِ الغِناءُ

قانونُه المُرتضى نجاةٌ ... كلُّ إشاراتِهِ شِفاءُ

وقد ذَكَر في البيت الثاني على قِصَر بحره من مصنفات الرئيس أربعة كتب .

وكما قال أبو الحسين الجَزّار :

---

(١) هي الجُمل للزجاجي واللُّمع لابن جني والإيضاح للقزويني والتكملة للجواليقي. والفصيح لثعلب والمفصل للزمخشري والمُجمل لابن فارس والصحاح للجوهري وإصلاح المنطق لابن السِّكّيت والعَيْن للخليل بن أحمد .

يا مـالِكي ما شافِعي إليكَ إلاّ أدبي
حاشاكَ أن تَحتاجَ في التنبيهِ للمهذَّبِ

وأسماءُ مَشايخ العلوم كما قال أبو الحسين الجزار :

إنَّ فصلَ الشتاءِ منذ نحا جِسْمي أبدتْ بيانَه الأعضاءُ
فيهِ عَظمِيَ المبرّدُ إذ عنَّ الكِسائيُّ واحتمى الفرّاءُ

وكما قال ناصر الدين حسن بن النَّقيب :

يا مَن مقاماتُه في الجُودِ مُذهَبَةٌ ومن تشاريفه وَشيٌ وديباجُ
أعطيتَني جَسداً مُلقى وليسَ لهُ رَوحٌ وللبرد إقلاقٌ وإزعاجُ
وليس عن فروةٍ تَحتَ الحريرِ غنىً إنَّ الحَريريَّ للفرّاءِ محتاجُ

وكما قال مجير الدين محمد بن تميم :

وصادحةٍ تردِّدُ لي غِناها فتُطربُني وأجهلُ ما تقولُ
بلحنٍ حارَ إبراهيم فيهِ ووزنٍ ليس يعرفه الخَليلُ

(١١٢/ب)

وقد نظم شرف الدّين المَقدسي [١] ــ رحمه الله ــ قصيدة تُقارب الخمسين بيتا ، جمع فيها جُملة مِن كتب التّفسير والحديث والفقه والنّحو واللّغة وغيرَ ذلك ، وذكر مشايخ العلوم وغيرهم . وكلها غزَلٌ ، وأسماء البُروج الإثنى عشَر والمنازل . كما قال ابن قَزِل :

بَدرٌ جعلتُ القلبَ أخبيةً له كي لا يراهُ رقيبُه العوّاءُ

---

(١) شرف الدين المقدسي واسمه محمد بن موسى الكاتب ، كتب الإنشاء بمصر وكان حسن الأخلاق ، له شعر ونثر خمّس شذور الذهب (ت ٧١٢ هـ) انظر الدرر الكامنة ٢٦٩/٤ ، والشذرات ٣٢/٦ ، كما أورد صاحب فوات الوفيات ٥٢٨/٢ القصيدة التي يشير اليها الصفدي وهي تفصّ بما ذكره .

خلعَتْ عليه الشَّمسُ رونقَ حُسنِهِ ... وحَبَتْه رونقَ ثغرِهِ الجوزاءُ

وكما قال الآخر :

بتُّ وبدرُ الدُّجى ضَجيعي ... وهو مُواتٍ بلا امتناعِ
فقلتُ للحاسدينَ لمّا ... أشرقَتِ الشمسُ بالشُّعاعِ
القلبُ والطَّرْفُ منزلاهُ ... وهو إلى الآنَ في الذِّراعِ

وكما قال الآخر [1] في مليحٍ يَحرُث :

يا حارثاً ترْوِي مقاماتُ الهوى ... عن طَرْفه الفتّاكِ غيرَ مؤوَّله
أضحى يَشُقّ لحودَ مَن قتَلَ الهوى ... في حَرْثِه ليستْ خطوطاً مهمله
روحي الفداءُ لبدرِ تِمٍّ سائقٍ ... للثَّوْرِ ، ليس يرومُ غيرَ السُّنبله

وأسماءُ مشاهير العرب ، كما قال ابن سَناء المُلْك :

إنّي على ما كان شُغْلي بالهوى ... لم يشتغل وَبِطالتي لم تَبْطُلِ
أنا جَدُّ أنصارِ النّبيِّ لأنّني ... يا أشهلَ العينين عبدُ الأَشهَلِ [2]
(١١٣/أ)

وكما قال ابنُ قَزِل :

عُدتُ فيه جاهِليَّ الحُبِّ مِن غيرِ تَعدِّي

---

(١) الوافي ١١٧/١ وقد أورد الأبيات منسوبة للنور الإسْعَردي .

(٢) ديوان ابن سناء الملك ص ٦٢١ من قصيدة قالها يمدح الملك العادل . مطلعها :
رَجَعَ الغرامُ إلى الحبيبِ الأولِ ... فرجعْتُ بعد تعذُّلي لتغزلي
وجاء في صدر البيت الأول : « إني على ما كنتُ شغلي بالهوى » .
وجاء عجز الثاني : « بالأشهل العينين عبد الأشهل » .
والأشهل : ذو الشهل وهو قلة سواد الحدقة . وبنو عبد الأشهل حي من العرب ينسبون إلى صنم اسمه الأشهل فيقول الشاعر : إنه فتن بالأشهل العينين وصار عبده ، ثم أشار الى عبد الأشهل الذي كان جد الأنصار .

لحظُ عيني عَبدُ شَمسٍ   وفؤادي عبدُ وِدٍّ

وكما قال شمس الدين محمد بن التِلِمْساني :

وما كنتُ مجنونَ الهوى قبل أن يُرى   لقلبي مِن صدغَيكَ في الأَسْرِ عاقلُ
ولو أنَّ قُسّاً واصفٌ مِنكَ وَجْنَةً   لأعجَزَهُ نبتٌ بها وهو باقلُ (١)

وأسماءُ المدن ، وأسماءُ المِلَل والنِّحل ، وأسماء أبحُر العَروض ، وأسماءُ القُرّاء ، وأسماء أشكال الرَمْلَ وأسماء الشعراء ، وأسماءُ منازل العَرَب وأماكنِها وأشياءُ غير ذلك .

ولولا خوفُ الإطالة ، وأنّي لم أضَع هذه الأوراقَ لهذا ، لأتيت بالشَّواهد على ذلك . لِتعلمَ أيّها الواقف على كتابي هذا أنّ ابن الأثير ــ رحمه الله ــ ما أتى بطائِل ، ولا رقَّت بكلامه أنفاسُ الأسحار ولا بُرود الأصائل ، وأنّه لو تأخَّر وجودُه إلى هذا العصر علِم أنّ قوله ليس بحُجة ، وأنّ قَطْره يَغرَق في مثل هذه اللُّجة ، وأنّ الناس قد بلغوا مَحطَّ الرِّحال وهو إلى الآن في الدُّلْجة .

وما أحسن قول مجاهد الخيّاط (٢) يهجو أبا الحسين الجَزار :

أبا الحسينِ تَأدَّبْ   ما الفَخرُ بالشِّعرِ فخرُ
وما تَبلّلتَ منه   بقَطْرةٍ وهو بَحْرُ
وإن أتيتَ ببَيتٍ   وما لِبيتِكَ قَدْرُ
لم تَأْتِ بالبَيتِ إلاّ   عليهِ للنّاس حِكْرُ (٣)

وقد وضعتُ كتابا في التَّورية وسمته « فضُّ الخِتام عن التَّورية

---

(١) ديوان التلمساني ص ٦٠ من قصيدة مطلعها :

حللتَ بأحشاءٍ لها منك قاتلُ   فهل أنت فيها نازلٌ أم مُنازلُ

وقد جاء في صدر البيت الأول « قبل أن بدا » .

(٢) مجاهد بن سليمان المعروف بالخياط ، من أدباء العوام بمصر ، له شعر وظرف وأخبار (ت ٦٧٢ هـ) . انظر فوات الوفيات ٢/٢٩٨ ، والنجوم الزاهرة ٧/٢٤٢

(٣) وأبياته في فوات الوفيات ٢/٢٩٩ .

والاستخدام (١١٣/ب) [١] » فإنْ أردت أن تكشفَ عن ماهيةِ ذلك وتقفَ على محاسنه ، فقِف عليه ، لعلّه يكون فيه لك زُبدة ، أو تجد فيه على ما ترونه نجدة .

ثم قال من فصل يذكر فيه الحمّى :

« ولهذا صارت الأدوية في علاجِها ليست بأدوية ، وأصبحت أيامُ نحرِها في الناس غيرَ مبتدئةٍ بأيّام تروِية » .

أقول : ليس في السّجعة الأولى طائلٌ وهي كلامٌ فارغ . وأما الثانية فما فيها غيرُ التورية بيوم التّروية للنّحْر ، وليس في ذلك أمرٌ كبير .

وما أحسن قول الجزّار :

إني لَمِن مَعْشر سفكُ الدماءِ لهمْ ... دأْبٌ ، وسَلْ عنهمْ إنْ رُمتَ تصديقي

تُضيء بالدَّم إشراقاً عِراصُهُمُ ... فكلُّ أيامهِمْ أيامُ تشريقِ [٢]

وأما أبيات المتنبّي في الحمّى فما لأحدٍ مثلُها في حسنها . منها :

وزائرتي كأنَّ بها حياءً ... فليس تزورُ إلاّ في المنامِ

بذلْتُ لها المطارفَ والحشايا ... فعافَتْها وباتَتْ في عِظامي

يَضيق الجِلدُ عن نَفَسي وعَنها ... فتُوسِعُهُ بأنواعِ السّقامِ

إذا ما فارقَتْني غسّلَتْني ... كأنّا عاكفانِ على حَرامِ

كأنَّ الصّبحَ يطردُها فتَجري ... مدامعُها بأربعةٍ سِجامِ [٣]

---

(١) مخطوط .

(٢) في الغيث المسجم ١/٦٠ ، وخزانة ابن حجة ص ٢٤٨ .

(٤) شرح البرقوقي ٤/٣٤٩ من قصيدة قالها يذكر حمى كانت تغشاه بمصر ، ويعرض بالرحيل . مطلعها :

مَلومُكما يَجِلُّ عن الملام ... ووَقْعُ فعالِهِ فوقَ الكلامِ

وجاء عجز البيت الأول : « فليس تزور إلا في الظلام » .

وحذا السَّراج الوَرّاق حذوَه فقال :

وزائــرتي وليس بهــا احتِشــام ... تــزور ضُحىً وتطرُقُ في المَنــام
بهــا عَهَر وليس لهــا عَفــاف ... عَن الشَّيخ الكبــير ولا الغلامِ
(١١٤/أ)
إذا طــرقَتْ أعــاذَ اللهُ مِنهــا ... سلوْتُ عن الكرائم والكرامِ
لهــا في ظــاهــري حَرٌ وبَــردٌ ... بقلبي والفتــورُ ففــي العِظــامِ
تَلهْوجُ نارُهــــا لحمي طعــاماً ... وتشرَبُ مِن دمي صِرفَ المُدامِ
وأصواتُ الغِنــاءِ لهــا أَنينــي ... فمــا تَنفَكُّ مِن هــذا المَقــامِ
تُضاجعُني عــلى ضَعْفي وشيبي ... وقـــد أعييْتُ ربات الخِيــامِ
إذا مــا فــارقَتْني غسَّلَتْني ... لأني قــد وصلْتُ إلى حِمــامي

وما أحسن قول أَمهدوسْت الدَّيْلمي (١) :

وزائــرةٍ تزورُ بــلا رَقيب ... وتنــزلُ بالفتــى مِن غيرِ حُبِّهْ
تبيت ببــاطنِ الأحشــاءِ مِنــهُ ... فَيطلُبُ بُعدَها مِن عُظْمِ كَرْبه
وتَمنعُهُ لــذيــذَ العيش حــتّى ... تنغّصُه بمطعَمِــه وشُربِــهْ
أتتْ لزيارتي مِن غــير وعْدٍ ... وكم مِن زائــرٍ لا مرحبــاً بِــهْ

وقول ناصر الدين حسن بن النّقيب :

أقــولُ لنوبــةِ الحُمى اترُكيني ... ولا يكُ منكِ لي ما عشتُ أوبَهْ
فقالت : كيف يُمكن تركُ هــذا ... وهل يبقى الأميرُ بغــير نَوْبه (٢)

(١) هو أمهدوست بن محمد بن شيرويه الديلمي الشاعر . كان يهجو الصحابة والناس ، ثم تاب وحسنت توبته . انظر فوات الوفيات ١٥/١ . وأبياته في فوات الوفيات ص ١٦ وجاء عجز البيت الثالث « تبغضه لمأكله وشربه » .
(٢) بيتا ابن النقيب في فوات الوفيات ٢٣٣/١ وفي خزانة ابن حجة ص ٢٥٠ .

وقد ظرَّف مجيرُ الدين محمدُ بنُ تميمٍ في قوله ، وقد حُمَّ النُّورُ الإِسْعَرْدي(١):

أخفَوْا شماتَتهمْ لَديَّ وأقبلوا ... في زيِّ مَقروحِ الفؤادِ كَليمِ

قالوا بأنَّ النُّورَ حُمَّ فقلتُ لا ... يس حولَ النُّور مِن حَمِّ

(١١٤/ب)

هكذا تكون مقاصدُ أهل الأدب وتَورياتُهم وأوصافُهم ، ليس كما قال ابن الأثير « الأدويةُ في علاجها ليست أدوية » .

وأقوالُ الناس في المليح المحموم مشهورةٌ فلا حاجةَ إلى ذكرها . وكنتُ في وقتٍ قد كتبتُ إلى بعض الأصحاب كتاباً أشكو فيه الحُمّى . من ذلك :

« ويُنهي لا بل يشكو حالَه التي ليس له منها بَدَل ، وآلامَه التي كلَّمتْ أعضاءه فلا يُطيق جَلَدُه قطْعَ ذاكَ الجَدَل ، وحُمّاه التي يلدَغُه منها عقرَبٌ وترميه قوسٌ فليت جسمَه معَ ذلك حمَل ، واتّصالَ رشحِ عَرَقه الذي لا يُقال مع بحرِه سآوي مِن الصّبر الجَميل إلى جبَل ، فأين قولُهم لقيتُ منها عرق القِرْبَة ، مِمّن لقيَ مِنها غرَقَ الكُرْبة .

إذا ما فارقَتْني غسّلَتْني ... كأنّا عاكفانِ على حَرامِ(٢)

ويعجزُ المملوكُ عن وصف ما حصَل لرأسِه مِن الصُّداع ولجِسمه مِن الصُّدوع ، ولآماله المُعلَّقَة من القَطْع ولِحَظّه مِن القُطوع » .

ثم قال من فصل كتاب إلى ديوان الخلافة يتضمّن فُتوح بلدٍ مِن الكفار :

« والسائرُ بها فُلان ، وهو راوي أخبارَ نصرِها التي صححتها في تجريح الرِّجال ، وعوالي إسنادِها مأخوذةٌ مِن طرُق العَوال ، واللّيالي والأيامُ لها

(١) النور الإسْعَرْدي واسمه محمد بن محمد نور الدين . شاعر فيه مجانة وظرف كف بصره قبل موته (ت سنة ٦٥٦ هـ) . انظر الوافي ١٨٨/١ ، ونكت الهميان ص ٢٥٥ .

(٢) من قصيدة المتنبي السابقة في وصف الحمى ـ انظر شرح البرقوقي ٣٥٠/٤ .

رُواةٌ فما الظَّنُّ برواية الأيام والليّال [1] » .

أقول : هذا الفصل ختمَ به الكتاب الذي عارَض به القاضي الفاضل في فتح القُدس . وقد أوردَه هنا أيضا وادّعى فيه هذه الدّعوى ، وأذكَرني هنا بقول مجير الدين محمد بن تميم :

إني لأعجبُ في الوغى مِن فارسٍ حارتْ دقائقُ فِكرتي في كُنْهِهِ
أدّى الشَّهادةَ لي بأنّي فارسُ الـ ـهيجاءِ حين جَرحتُه في وجهِه [2]
(١١٥/أ)

وهو مأخوذ من قول ابن السّاعاتي :

وكائن سَقى جيشاً كؤوسَ حِمامِهِ دِهاقا وأطرافُ العوالي مجاديحُ
فياسيفَه حُزْتَ العَدالةَ في العِدى وما شاهِدٌ إلاّ له بِكَ تَجريحُ [3]

وما أحلى قول القاضي الفاضل :

« وعَرَفَ المملوكُ ركوبَ مولانا الملِك الأفضل [4] في القَلْب ولقد سَخا السُّلطان على القَلْب بِقلْبه ، وأبرزه حاسِرا لحَرْبه ، وهذا الموقف نصٌ صحيح على السَّلْطَنة ، وهو نصٌ مطلق كان السيفُ فيه القاضي والنّصرُ البينة ، عرّسَ به الإسلامُ وكان النِّثار دنانيرَ غُرر الصّواهِل ، والتّحايا رياحين أطرافِ الذّوابل ، فهو — أعزّ الله نَصْره — السّابقُ وِلاداً وجِهادا ، ولقد ولَدَ أبوه

(١) المثل السائر ٨٣/٣ « التي صحتها في تجريح الرجال .. » .
(٢) في خزانة ابن حجة ص ٢٦٢ .
(٣) ديوان ابن الساعاتي ٢٤٣/٢ من قصيدة قالها يمدح المعز ابن الملك الناصر سنة ٥٩٧ هـ مطلعها :

عيونَ المها قلبي بنَبْلِكِ مجروحُ ومعنى غرامي فيكِ بالدّمعِ مشروحُ

وجاء في صدر البيت الثاني « في العلا » بدل « في العدى » .
(٤) الملك الأفضل هو علي بن يوسف صلاح الدين . استقل بمملكة دمشق بعد وفاة أبيه سنة ٥٨٩ ووزر له ابن الأثير . (ت بسميساط سنة ٦٢٢ هـ) . انظر السلوك للمقريزي ٢١٦/١ ، ووفيات الأعيان ٣٧١/١ .

والـدأ وولَدَ الآباءُ أولادا ، والحمدُ لله الذي أنجد الإسلامَ مِنه ومِن سيفه بعليٍّ (١) وذي الفَقار (٢) وبعُمَر (٣) وفي يده سيفُ عمّار (٤) » .

الذي يتعلّق بهذا الموطن السَّجْعَتان الأُوليان ، ولكنّ القَلَم استلذّ هذا النَّغَم وقال : مَعذورٌ مَن امتلا ، وغَبَّ كؤوس الطّلا .

[الأحاجي والمغالطات في مقامات الحريري]

ثم قال في النوع الحادي والعشرين في الأحاجي :

« وكذلك فعَلَ الحريري في مقاماته ، فإنه ذكَر الأحاجي التي جعَلها على حُكم الفَتاوى كِناية ومُغالطةً ، وظنَّ أنّهما مِن الأحاجي المُلغَزة كقوله : أيحِلُّ للصّائم أن يأكل نهارا (٥) » . ثمّ إن ابن الأثير أخذ يَستدِل على أنّ ذلك من باب المُغالطات المَعنوية .

وأقول (١١٥/ب) على أنّي ما أدري ما أقول ، هـذا الرجل ــ رحمه الله تعالى ــ يتصوّر شيئا ويلزمُ الناسَ به ، ويرمِيهم بمساوئِه ولم يكونوا أرادوه ولا قالوه .

والمَقاماتُ فكتابٌ (٦) اشتهَر وحُفِظ ، ودُرِس وما اندَرس ، وهـذه المسائلُ التي أشار اليها قَد أَوْدَعها الحريري ــ رحمه الله تعالى ــ المقامة الثانية والثلاثين . وهي مائة فُتيا ، وسردَها مُرتبة على تَبويب الفِقه ، ولم يُسَمِّ ذلك أُحجِيّةً ولا لُغزا . بل قال عند ذكرها : « فصمَد له فتىً فَتيقُ اللِّسان ، جريءُ الجنان وقال : إنّي حاضرْتُ فُقهاء الدنيا ، وانتحَلْتُ مِنهم مائة فُتيا . فإن

---

(١) هو علي بن أبي طالب .

(٢) ذو الفقار هو سيف العاص بن منبه الذي قتل يوم بَدْر كافرا ، فصار سيفه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ثم إلى علي رضي الله عنه .

(٣) هو عمر بن الخطاب .

(٤) عمار بن ياسر القحطاني أبو اليقظان ، صحابي من الولاة الشجعان ذوي الرأي . قتل في صفين سنة ٣٧ هـ وله من العمر ٩٣ سنة . انظر الاصابة ت ٥٧٠٦ ، وحلية الأولياء ١/١٣٩ .

(٥) المثل السائر ٣/٨٤ « .. فانه ذكر في الأحاجي ... كناية ومغالطة معنوية .. »

(٦) أراد أما المقامات فكتاب .

كنتَ ممّن يرغب عن بنات غير ، ويرغب منّا في مَيْر (١) ، فاستمعْ وأجبْ ، لتقابلَ بما يَجِب • فقال : اللهُ أكبر ، إسيَبين المَخبَر ، وينكشِف المُضمر ، فاصدَع بما تؤمر •

« قال : ما تقول فيمن توضّأَ ثم لمَس ظَهْر نعْله ؟ قال : انتقَض وضوءُه بفعله (٢) » حتى فرَغ من ذلك ، ولم يقل أحجيّة ولا لغزا ولا كناية ولا مُغالطة •

وأمّا في مقدمة الكتاب فإنّه قال : « ورصّعْتُه فيها من الأمثال العربية ، واللّطائف الأدبية ، والأحاجي النّحوية ، والفتاوى اللّغوية (٣) » فذكَرَها في المُقدِّمة وفي المقامة التي اختصّتْ بها أنها فتاوى •

ولابن فارس كتاب سمّاه « فتاوى اللّغة (٤) » ومنه استمدّ الحَريري ، فأي حرج على الحريري إذا سمّى ذلك فتاوى •

[الفرق بين الإلغاز والوصف : أمثلة من وصف السفن]

قال : وعلى هذا الأسلوب ورَد قولُ أبي الطّيب في السّفُن :

وحَشاهُ عادِيةً بغيرِ قوائمٍ عُقْمَ البُطونِ حوالِكَ الأبدانِ
تأتي بما سَبَتِ الخيولُ كأنّها تحتَ الحِسانِ مرابضُ الغِزلانِ (٥)
(١١٦/أ)

---

(١) بنات غير : كناية عن الكذب . مير : رزق وصلة . انظر شرح الشريشي اللاحق.
(٢) شرح المقامات للشريشي ١٤٣/٣ « ... وقال : إني حاضرت فقهاء الدنيا ، حتى انتحلت منهم مائة فتيا ... » .
(٣) المصدر السابق ١٩/١ .
(٤) طبع باسم « فتيا فقيه العرب » بدمشق سنة ١٩٥٨ .
(٥) المثل السائر ٨٧/٣ .
والأبيات في شرح البرقوقي ٣٩٤/٤ من قصيدة مدح بها سيف الدولة سنة ٣٤٥ هـ مطلعها :
الرأيُ قبلَ شجاعةِ الشُجعانِ هو أول وهي المحلُ الثاني
وقد جاءت قافية البيت الأول « الألوان » .

أقول : قد عَدّ هذين مِن الإلغاز ، وليسا مِن ذلك في شيء ، بل هما مِن باب الأوصاف ، لأنّ اللّغز مِن شرطه أن لا يُذكر المُلغَزُ به صريحاً في الكلام ، وهذا يُخالِف ذلك لأنّ أبا الطيب قال قبلهما :

فَتَلَ الحبالَ مِن الغدائرِ فوقَهُ   وبنى السَّفينَ له مِن الصُّلبانِ [١]

وهذا تصريح • فهما من باب الأوصاف لا مِن باب الألغاز •

وانظر إلى قول السّراج الورَّاق يُلغِز في المركب :

وما هُو شيءٌ علينا كَبيرُ   ومقصودُنا مِنه شيءٌ يسيرُ

غدا واحداً وهو جَمْعٌ كما   أتانا بذاكَ الكتابُ المنيرُ

أمّا الأول ، فهو ظاهر على ما فيه من التَّورية • وأما الثاني ، فإنه قد نصَّ أئمةُ اللغة على أن الفُلْك لفظٌ يستوي فيه المُفرد والجمع •

وقد نظمتُ أنا لُغزاً في السَّفينة فقلت :

وجاريةٍ حَلَّ لي وَطْؤُها   ولم يكُ في ذاك ما يَمنعُ

ويا عجَباً ما أتَتْ ريبةً   وأُلزمُها أنّها تُقلِعُ

فقول السَّراج وقولي من باب اللّغز ، لأنا لم نصرح بلفظ المركب ولا السفينة ، وأما المُتنبي ، فإنّه صرَّح بذكر السّفين فخرج من هذا الباب ، وهو مِن باب الأوصاف •

وكذا قول مجير الدين محمد بن تميم : (١١٦/ب)

عَجِبتُ للبحرِ لمّا أنْ رأيتُ به   تلكَ الصَّواري وقد أرْبَتْ على الحُبُكِ

أظنُّها لم تطُلْ إلاّ وقد وَليَتْ   حَمل الرّسائلِ بين الفُلكِ والفَلَكِ

وقوله أيضا مضمّنا :

---

(١) البيت من القصيدة الآنفة الذكر .

ولما رَكبنا الفُلكَ والبحرُ قد طمى ... وهاجَ علينا موجه المتلاطمُ
تمشّتْ لنا في لجّةٍ ببُطونِها ... كما تتمشّى في الصَّعيدِ الأراقمُ

وابن قلاقِس الإسكندري مِمّن أجاد أوصافَ السُّفن في عِدّة قصائد . من ذلك قوله وقد ذكر البَحْر :

ترى المَواخرَ تجري في زَواخرِه ... فترتقي في أعاليه وتنحدِرُ
مِن كلِّ سوداءَ مثلِ الخالِ يحملُها ... بوَجنةٍ منه فيها للضُّحى خَفَرُ (١)

وقوله أيضا من قصيدة :

وقد رأيتُ بهِ الأشراطَ قائمةً ... لأن أمواجَه تَجري بأَطوادِ
تعلو فلولا كتابُ الله صَحَّ لنا ... أن السّماواتِ منها ذاتُ أعمادِ
ونحنُ في منزلٍ يَسري بساكنِه ... فاسمعْ حديثَ مُقيمٍ بيتُه غادِ
أبيتُ إن بتُّ ومنهُ في مُصَوَّرةٍ ... مِن ضيقِ لَحْدٍ ومن إظلام إلحادِ
لا يستقر لنا جنبٌ بمَضْجعِه ... كأنَّ حالاتِنا حالاتُ عُبّادِ (٢)

وله أشياء غيرُ هذه ، أضربْت عنها خوف الإطالة (١١٧/أ) .

وما أحلى قول أبي الحسين الجزّار :

كنتُ في كَلكةٍ تطيرُ بقَلعٍ ... وهي طوراً على المنايا تحومُ

---

(١) ديوان ابن قلاقس ٤٢ من قصيدة قالها يمدح أبا القاسم بن حجر واخوته مطلعها :

سفرْنَ فاعجبْ لروضٍ ماله زَهَرُ ... إلا المباسمُ والألحاظُ والطرُرُ

كما وردا في الخريدة ـ شعراء مصر ١٥٨/١ .

(٢) ديوانه ٣٢ وفي الخريدة ـ شعراء مصر ١٥٠/١ من قصيدة يصف فيها البحر . وقد قدّم لها بقوله وقد طال ركوبه للبحر : « وعجبت من حالي في حلي وترحالي ، فتشوقت الوطن والوطر ، وكلّفت الخاطر وصف ذلك الخطر » مطلعها :

لو لم يحرم على الأيامِ انجادي ... ما واصلتْ بين اتهامي وانجادي

أَنظُرُ الموجَ حولَها فإِخالُ الـ •••• جيمَ تاءً لِخيفتي وهي جيمُ
لم أجدْ لي فيها صديقاً حميماً غيرَ أنّي بالماء فيها حميمُ
وإذا ما دنتْ إلى البَرِّ أمسى عندنا منه مُقعِد ومقيمُ
يسجدُ الجَرْفُ كلما ركعَ المو •••• جُ فدأْبي هنالكَ التسليمُ
وقبيحٌ عليَّ أن أشتكي بَر •••• راً وبحراً وأنتَ بَرٌّ رحيمُ

وقال ابنُ السّاعاتي وإن كان فيه بعضُ قلق :

ولمّا توسَّطْنا مدى النيلِ غُدوةً ظننتُ وقلبُ اليوم بالمهوجَذلانُ
عُشاريَّةٌ انساناً له الماءُ مقْلةٌ وليسَ لها إلا المَجاذيفَ أجفانُ

وقد ذكر القاضي الفاضل ــ رحمه الله ــ المراكبَ في مَواطِن • منها قوله :

« ووافى الأسطولُ في خمسين غُراباً طائِراً مِن القَلوع بأجنِحته ، كاسراً بمخالبِ أسلحته ، فما وافى شَملاً إلاّ دَعاه إلى الحَيْن ، وحقّقَ ما يُغري إليه مِن البَين » •

وقوله : « فيملأُها عليهم جواري في البحر كالأعلام ، ومُدُناً في اللجّ سَوائرَ كأنّها الليالي مُقلِعات بالأيام ، وتطلّع علينا معاشِرَ الإسلام آمالا ، وتطلّع على الكفار آجالا ، مُسوَّمة تمدُّها ملائكةٌ مسوَّمة ، ومُعلَّمة تُقدِّم حيازيمُها إقدام حَيزوم تحت الحَزْمَة » •

قال : « وأحسن من ذلك وألطف قول بعضهم في الخَلْخَال :

ومَضروبٍ بلا جُرمٍ مَليحِ اللّونِ مَعشوقِ
لـه قَدٌّ الهلالِ على مَليحِ القَدّ مَمشوقِ
وأكثرُ ما يُرى أبَداً على الأمشاطِ في السّوقِ[(١)]

(١) المثل السائر ٣/٨٩ « وأحسن من ذلك كله وألطف وأحلى قول ... » .
ووردت الأبيات في الغيث المسجم ١/٣٥ .

أقول : كذا وجدته في النسخة « بالمثل» ووقفتُ عليه أيضا في كتاب : (١١٧/ب) « الإعجاز في الأحاجي والإلغاز » للحَظيري على هذه الصورة .

والأحسن أن يُقال فيه : له شِبهُ الهلال أو شكلُ الهلال أو طوقُ الهلال . فإنّ قَدَّ الهلال غيرُ مناسب . ولكن هذا من قوله فيما تقدَّم في التُّفاح « وعَظُم قَدُّه » .

وقلت أنا مُلغِزاً في الخلخال :

ما أصفرٌ دارَ على أبيضٍ لانَ ولكنْ قلبُهُ قاسِ
وربَّ ساقٍ غصٌّ منه وما أحسنَ هذا الوصفَ في النّاسِ [1]

وقلتُ فيه أيضا :

أيا عجباً من صابرٍ صامتٍ ولم يَفُهْ بكلامٍ قطُّ في ساعة الضَّربِ
أقامَ ولم يبرحْ مكاناً ثوى به على أنّه أضحى يدورُ على الكَعْبِ [2]

وإن كان الشيء يُذكّر بالشيء ، فما أحلى قول القائل مُلغِزا في دملَج :

إلى النساءِ يلتجي وعندَهنَّ يوجدُ
الجِسمُ منه فِضّةٌ والقلبُ منه جَلْمدُ [3]

[مناقشة الصفدي لابن الأثير في تعليقه على لغز في حمّام]

قال : « ووجدتُ لبعض الأُدباء لُغزا في حَمّام » : ثم إنه ذكره وقال بعد الفَراغ منه : « وهذا من فصيح الألغاز ، ولا يُقال في صاحبه إنّه في العمى ضائع

(١) في الغيث المسجم ١/٣٥ .
(٢) المصدر السابق ١/٣٥ .
(٣) المصدر السابق ٢/٤٠١ طبعة الإسكندرية .

العكاز [١] » .

أقول : ما السَّجعةُ الثانية مناسبة" للأولى في المدح والتَّقريظ ، وما كانت السَّجعةَ تريد إلاّ أن يقول بعدها : ولا أنّه في الحيوان معدود" مِن البهائم لأنّه انفرد بالنُّطق وامتاز . ! وما رأيتُ مَن قرَّظ أحداً بمثل هذا التَّقريظ ويكون المقامُ مقامَ استحسان وثناء ومدح فيُقال : ما هو في العمى ضائع العُكّاز . وأيُّ مدح في هذا وقد جعله أعمى بعُكّاز ، وهو أشدُّ (١١٨/أ) حالاً مِن الأعمى الذي يمشي بلا عُكاز . لأنّ الذي يعتمد مع عماه على عُكّازه ، يكون قد جمع بين عمى البَصيرة وعمى البَصَر . والظّاهر أنه أراد أن يذكر المُعمّى فما اتفق له ، والتزم بالزاي فما وجَدَ غير العُكاز . وآخر هذه السجعة عجُز بيت لأبي الطّيب . وهو :

. ويَرى أنّه البصيرُ بهذا وهو في العُمْي ضائعُ العُكّازِ [٢]

[من أقوالهم في الحمّام]

وعلى ذكر الحمّام فلا بأس بذِكْر شيء مِن كلام المتأخرين في هذا الموطن وإيراده .

كتب القاضي محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر ــ رحمه الله تعالى ــ يستدعي إلى حَمّام [٣] :

---

(١) المثل السائر ٣/٩٣ « ووُجد لبعض الأدباء لغز في حمام . . . ولا يقال إن صاحبه في العَمى صانع العكاز » وواضح أن العبارة الواردة في المثل مضطربة المعنى وأسلم منها عبارة الصفدي .

(٢) شرح البرقوقي ٢/٣٤٩ من قصيدة قالها بدمشق يمدح علي بن صالح الرّوذباري الكاتب . مطلعها :

كِفرِنْدي فِرِنْدُ سيفي الجُرازِ لذّةُ العينِ عُدّةُ للبرازِ

(٣) انظر رسالته هذه في فوات الوفيات (طبعة ١٩٥١) ١/٤٥٤ ــ ٤٥٦ .

« هل لك ــ أطال الله بقاءك إطالة تكرَعُ في منهل النَّعيم ، وتتملى بالسَّعادة تَملّي الزَهر بالوَسْمي والنَّظر بالحُسن الوسيم ــ في المشاركة في جمعٍ بين جَنّةٍ ونار ، وأنواء وأنوار ، وزُهْرٍ وأزهار ، قد زال فيه الاحتشام وكلٌّ عارٍ ولا عار .

نجومُ سمائِه لا يَعتريها أُفول ، وناجِمُ رُخامه لا يُغيّره ذُبول ، تنافَست العَناصِرُ على خدمة الحالِّ به ، تنافُسا أحسَنَ كلٌّ فيه التوصّل إلى بلوغ مآربه فأرسل البحرُ ما جسَّده حَسَدُه من زبَدِه ، لتقبيل يد أخمَصِه إذ قصَّرتْ هِمّتُه عن تقبيل يدِه ، ولم يرِ التُّرابُ له في هذه الخدمة مَدْخلا ، فتَطفَّل وجاء وما علِم أنّ التسريح لمن جاء مُتطفّلا ، والنارُ رأت أنّه عينُ مباشَرتِها وأنّها بفَرْض خِدمتِه لا تُخِلّ ولأنّ لها حُرمةَ هدايةِ الضَّيف في السُّرى ، وبها دفْعُ القُرّ ونفْعُ القِرى ، فأعلَمتْ ضدَها الماءَ فدخَل وهو حَرُّ الأنفاس ، وغلَتْ مراجِلُه فلأجل ذلك داخَلَه مِن صوت تَسْكابه الوَسواس ، ورأى الهواءُ أنّه قصَّر عن مُطاولة هذه المَبَارِّ ، فامسك مُتَهيّبا ينظرُ ولكنْ مِن وراء زُجاجة إلى تلك الدّار ، ثم إنّ الأشجار رأت أن لا شائبةَ لها في هذه الحظْوة (١١٨/ب) ولا مساهمة في تلك الخَلْوةِ ، فأرسلتْ مِن الأمشاط أَكُفّاً أحسنتْ بما تدعو إليه الفَرْق ، ومرّت في سواد العِذار الفاحِم كما يمر البرق ، وذلك بيَدِ قَيِّم قَيّم بحُقوق الخِدمة ، عارفٍ بما يُعامل به أهلُ النَّعيم أهلَ النّعمة ، خفيفِ اليد مع الأمانة ، موصوفٍ بالمَهابة عند أهل تلك المهانَة ، لطُفَ أخلاقا حتى كأنها عِتابٌ بين جَحْظَةَ [1] والزَّمان، وحسُنَ صنعةً فلا يُمسِك يداً إلاّ بمعروفٍ ولا يُسرِّح تسريحا إلا بإحسان ، أبداً يُرى مع طهارته وهو ذو صَلَف ، ويُشاهَد مُزيلاً لكلّ أذى حتى لو خدَمَ البدْرَ لأزال مِن وجهه الكَلَف ، بيدِه موسى كأنها صباحٌ ينسخُ ظلاماً،

(١) جحظة ، واسمه أحمد بن جعفر البرمكي أبو الحسن ، قبيح المنظر ومن ظرفاء عصره ، له شعر (ت سنة ٣٢٤ هـ) ومن تصانيفه كتاب « الطبيخ » و « الطنبوريين » ومن أبياته السائرة قوله :

ورقّ الجوُ حتى قيل : هذا عِتابٌ بين جَحْظَةَ والزمانِ

انظر وفيات الأعيان ٢٨٦/١ ، والديارات ص ٢٨١ ، ومعجم الأدباء ٢٤١/٢ .

أو نسيمٌ ينفضُ عن الزَّهر أكماما ، إذا أخذَ صابونَه أفهَمَ مَن يخدُمه بما يُمرِّه على جسَده أنه بحرٌ عجّاج ، وأنه يبدو منها زبَدُ الأعكان التي هي أحسنُ مِن الأمواج .

فهلُمّ إلى هذه اللّذة ، ولا تَعْدُ الحمّام دعوة أهل الحُراف فرُبّما كانت هذه من بين تلك الدّعَوات فذّه » .

وكتب أيضا في محضِر قَيّمٍ في حمّام الصّوَفة (١) :

« يقول العبدُ الفقير إلى الله تعالى عبد الله بن عبد الظاهر أنّ أبا الحجاج يوسف ما بَرِح لأهل الصلاح مُيَمِّما ، وله جَودةُ صِناعة استحقّ بها أن يُدعى قَيِّما ، كم له عند جسَدٍ مِن مَنٍّ جسيم ، وكم أقبلَ مُستعمِلوه تَعرفُ في وجوههم نضرةَ النّعيم ، وكم تجرّدَ مع شيخٍ صالح في خَلوة ، وكم قال وليُّ الله يا بُشراي لأتّه يوسفُ حين أدلى في حوضٍ دلوَه ، كم خدَم مِن العلماء والصُّلحاء إنسانا ، وكم ادّخر بركتَهم لدُنيا وأخرى فحصّل مِن كلٍّ منهم شفيعين مُؤْتَزِرا وعُريانا (٢) (١١٩/أ) ، كم حُرمةِ خدمةٍ له عند أكابر الناس ، وكم له يدٌ عند جسَد ومِنّة على راس ، كم شَكَرَته أبشارُ البَشَر ، وكم حكّ رِجْلَ رجُلٍ صالح فتحقّقَ هنالك أن السّعادة لتَلحَظ الحَجَر ، قد ميَّز بخِدمة الفُضلاء أهلَه وقبيلَه ، وشُكِر على ما يُعاب به غيرُه مِن طول الفَتيلة ، كم ختَم تَغسيل رجُل بإعطائه براءته يستعملُها ويخرج مِن حمّام حارّ ، فاستعملها وخرَج فكانتْ له براءةً وعِتقاً مِن النار ، كم أوضح فَرْقا ، وغسَل دَرَنا مع مَشيب فكان الذي أنقى فما أبقى ، تتمتّعُ الأجسادُ بتَطْييبه لحمّامه بظلٍّ مَمدود وماءٍ مَسكوب ، وتكادُ كثرةُ ما يخرجُه مِن المياه أن يكون كالرُّمح أنبوباً على أنبوب ، كم له بَيّنةُ حرٍّ على تكثير ماءٍ يزول به الاشتباه ، وكم

(١) انظر رسالته في فوات الوفيات (طبعة ١٩٥١) ١/٤٥٣ – ٤٥٤ .

(٢) من قول الفرزدق :

ليس الشفيع الذي يأتيك مؤتزراً مثل الشفيع الذي يأتيك عريانا

انظر القصة في الفاخر ٣١٠ – ٣١١ .

تجعّدت فباءت كالسّطور في كلّ حوض فقل هذا كتابُ الطّهارة بابُ المياه ، كم رأسٍ انشدَت موساهُ حين أخرجَت من تلاحق الإنبات خَضِرا :

ولو أنّ لي في كلّ مَنبتِ شَعرةٍ لساناً يبثُّ الشكر كنتُ مُقصِّرا

أقول : ليس يخفى ما في هذا الكلام من التّورية والاستخدام وحلّ الأبيات والحديث وغيره ، ولولا [خوف] (١) الإطالة لذكرتُ ذلك .

وما أحسن قول النّصير الحَمّامي وألطفه :

لي مَنزلٌ معروفُهُ ينهَلُّ غيثاً كالسُّحُبْ
أقبلُ ذا العُذْرَ بهِ وأُكرِمُ الجارَ الجُنُبْ (٢)
(١١٩/ب)

وقوله أيضا :

وكدَّرْت حمّامي بغيبتِك التي تكدَّر من لَذّاتها كلُّ مَشْرِبِ
فما كان صدرُ الحوضِ منشرحاً بها ولا كان قلب الماء فيها بطَيِّبِ

وكتب يستدعي إلى حمّامه :

مِن الرّأي عندي أن تُواصِل خَلْوَةً لها كَبِدٌ حرّى وفيضُ عُيونِ
تُراعي نُجوماً فيك من حَرِّ قلبها وتبكي بدمعَيْ فارحٍ وحزينِ
غدا قلبُها صَبّاً عليك وأنتَ إن تأخّرْتَ أضحى في حياضِ مَنُونِ

وللناس في مدح الحمّام وذمها أشياءُ مليحةٌ ليس هذا موضعُ ذِكرها خوفَ الإطالة .

---

(١) زيادة يقتضيها السياق .

(٢) في خزانة ابن حجة ص ٣٣ وقد بدأ عجز الثاني بـ « وأقبلُ » بدل وأكرم .

[أمثلة على الألغاز الحسان ومناقشة الفرق بين اللغز والتعريض]

قال : ومِمّا سمعته مِن الألغاز الحِسان التي تجري في المُحاورات ، ما يُحكى عن عُمر بن هُبيرة (١) وشَريك النُّمَيري . وذلك أنّ عمر كان سائرا على بِرْذونٍ له ، وإلى جانبه شَريك النُّميري ، فتقدَّمه شريك في المسير فصاح به عُمر : اغضض مِن لجامها . فقال : أصلح الله الأمير ، إنها مكتوبة . فتبسَّمَ عمر ثم قال له : ويحك لم أرِد هذا . فقال له شريك : ولا أنا أردْتُه .

وكان عمر أراد قولَ جرير :

فغُضَّ الطرْفَ إنّك مِن نُمَيْرٍ   فلا كَعْباً بلغْتَ ولا كِلابا (٢)

فأجابه شَريك بقول الآخر (٣) :

لا تأمنَنَّ فزارياً خَلوْتَ بهِ   على قَلوصِكَ واكتُبْها بأسْيارِ (٤)

---

(١) عمر بن هبيرة بن سعد الفزازي أمير من الشجعان تولى الجزيرة والعراق وخراسان في زمن الأمويين (ت نحو ١١٠ هـ) انظر الأعلام ٢٣٠/٥ ، وله اخبار في طبقات ابن سلام ٢٨٧ ، والبيان والتبيين ١٨٩ .

(٢) البيت من قصيدة يهجو فيها الراعي النميري عبيد بن حصين . مطلعها :

أقلّي اللومَ عاذلَ والعِتابا   وقولي ان أصبتُ لقد أصابا

وفيات الأعيان ١٤٨/٣ ، ونهج البلاغة ٢٩/٥ ، والعقد ٤٦٨/٢ ، وطبقات فحول الشعراء ص ٣٢٠ .

(٣) هو ابن دارة واسمه سالم بن مسافع الغطفاني . شاعر مخضرم نسبته إلى أمه ، كان هجاءاً (ت نحو ٣٠ هـ) انظر الإصابة ١٠٨/٢ .

وبيته في شرح نهج البلاغة ٢٦/٥ ، وخزانة البغدادي ٥٥٧/١ ، والعقد ٤٦٨/٢ وفي المثل السائر ٩٥/٣ ، قوله « لا تأمنن فزاريا نزلت به » والقصة في العقد الفريد ٤٦٨/٢ ، والكامل (ابو الفضل ابراهيم) ٨٦/٣ ، ونهاية الأرب ١٦١/٣ـ ١٦٢ ، وعيون الأخبار (١٩٢٥) ٢٠٢/٢ .

(٤) المثل السائر ٩٤/٣ « ... وذاك أن عمر بن هبيرة كان سائرا على برذون له والى جانبه شريك النميري على بغلة ... فتبسم عمر ثم قال ويحك لم أرد هذا .. » .

[الفرق بين اللغز والتعريض]

أقول : ليس هذا وأمثالُه مِن الإلغاز في شيءٍ ، لأن اللغز (١٢٠/أ) هو أن تذكر شيئا بصفات يُشاركه فيها غيرُه ، فيرجعُ الذّهن في ذلك إلى حَيرة لا يدري مصرِفَها إلى أي مُتَّصف منهما بتلك الصفات ، لكونها تصدُقُ مِن جهةٍ وتكذِبُ مِن أخرى . واشتقاقُه مِن اللُّغَيْزى ، وهي حفر يَحفرُها اليَربوعُ تحت الأرض، ويجعلها مُتشعّبة يَمنة ويَسرة ليُخفي أمرَه على مَن يقصِده ، فإذا طلبَه في واحد منها خرَج مِن آخر .

ألا ترى أنّ السامع إذا سمع قول القائل :

جاريةٌ جاءتْ مِن الهندِ ... يحثُّها السيرُ إلى القَصْدِ
لها بناتٌ لَسْنَ مِن جنسِها ... في حَدِّهِمْ جُزْنَ عن الحَدِ
لهمْ قُرونٌ ولها حافِرٌ ... وذاكَ مِن أغربِ ما أُبدي
وأَعجبُ الأشياءِ أولادُها ... يُكلّمونَ الناسَ في المَهْدِ

أخذ يقول في نفسه : في البيت الأول « جاريةٌ جاءت من الهند يحثّها السير ، ما في ذا شيء ، فإذا سمع الثاني : لها بنات لسْنَ مِن جنسها ، رجع في الحيرة وفكّر وقال : كيف يكنُ من غير جنس أُمّهن . فإذا سمع الثالث : لهم قرون ولها حافر ، زاد في حَيْرته وقال : لسن هؤلاء ولا أُمّهن مِن الأناسيّ . فإذا سَمِع الرابع : يكلّمون الناس في المهد ، تأكدت حيرتُه ، ثم رجع إلى أنهن مِن الأناسي لإثبات المهد والكلام ، وأخذ يُعمِل فكرتَه في موجود مُتَّصف بهذه الصفات . فإذا أُعيى مال إلى الألفاظ المُشتركة ، ونزَّله بقُوة فكرته وإصابة حَدْسه على أن ذلك لا يَصدُق إلا على الدّسْت الذي للقاصِد وريشِه (١٢٠/ب) وما أحلى ما استعمل هذا الشاعر ، السير والحافر والتكليم ، وهكذا يكون اللّغز .

وحكاية ثَعْلب ــ رحمه الله ــ مشهورة مع الأعرابي الذي وقف عليه وأنشده مُلغِزا بيتا بعد بيت وثعلب يقول : هذا كذا ، ثم ينتقل في الثاني إلى غير التفسير الأول ، حتى إذا فرغ الأعرابي من إنشاده قال ثعلب : هذا قلم .

وإذا ثبت هذا في اللّغز ، فليس الذي ساقه ابن الأثير مِن الألغاز ، وإنما ذلك

من باب التَّعريض والإشارة ، كأنّ المُتكلِم بمثل هذا يعرض للمُخاطب بما قيل ويشير له إلى واقعة وقعت . وما رأيت مَن عَدَّ مِثل هذا لُغزا غيرَ ابن الأثير ــ رحمه الله تعالى ــ على أنه قال في « المثل » في الكناية والتعريض :

« إنما سُمي التَّعريض بهذا لأنّ المعنى فيه يُفهم مِن عُرْض اللّفظ ، أي : مِن جانبه ، وعُرضُ كُلِّ شيء جانبه [1] » .

أقول : وكذا واقعة عُمر وشَريك ، كلٌ منهما فهم مقصود صاحبه مِن عُرض كلامه . فإن « غُضّ » جانب من قول الشاعر :

فغُضّ الطرف .... (البيت) .

وكذا « الكُتب » جانب من قوله : « واكتبها بأسيار » . فتعين أنّ التعريض غير اللُّغز . وهذا شَريك صاحبُ أجوبة حادّة . يقال : إن أهل الكوفة كانوا إذا تمنّى منهم أحد شيئا يقول : أتمنى أن يكون لي فِقهُ أبي حنيفة ، وحفظُ سُفيان [2] وورَع مِسعر بن كِدام [3] وجوابُ شريك .

ومثل حكاية عمر وشريك ، ما ذكرَه صاحبُ الأغاني . قال :

عَرَض معاوية على عبد الرحمن بن الحَكَم [4] خيْله ، فمرّ به فرَس فقال : كيف تراه ؟ قال : هذا سابُح . ثم عرَض عليه آخر . فقال : وهذا ذو عُلالة . ثم مرّ به آخر فقال : وهذا أجَشُّ هَزيم . فقال له معاوية : أبي تُعرِّض ؟ ! قد

---

(١) المثل السائر ٣/٥٧ « إنما سمي التعريض ، لأن المعنى يفهم من عرضه .. » .

(٢) هو سفيان الثوري ، كان آية في الحفظ . وقد سبقت ترجمته .

(٣) مسعر بن كِدام الهلالي ، أبو سَلمه . كوفي من ثقات أهل الحديث (ت١٥٢هـ) انظر تذكرة الحفاظ ١/١٨٨ .

(٤) عبد الرحمن بن الحكم هو أخو مروان بن الحكم الأموي . شاعر إسلامي كان يهاجي عبد الرحمن بن حسان بن ثابت . انظر الحماسة ٢/٣٠٩ .

علمتُ ما أردْتَ ، إنما عرّضتَ بقول النجاشي (١) :

ونَجّي ابنَ حربٍ سابحٌ ذوعُلالةٍ أجشُّ هزيمٌ والرِّماحُ دوانِ

اخرج فلستَ تساكِنني في بلد (١٢١/أ) .

فانظر إلى كلام معاوية ـ رضي الله عنه ـ كيف صرّح بلفظة التّعريض في الموضعين .

وقد ساق علماء الأدب من هذا الباب جُملَة في كتبهم . وأما أبو عبد الله محمدبن السّيِد البَطَليَوْسي (٢) فقد ساقَ واقعة شريك وعمر بن هبيرة هذه في شرح « أدب الكاتب (٣) » ، ثم قال بعد الفراغ منها : « عرَّض له ابنُ هبيرة بقول جرير، وعرّض له شريك بقول سالم بن دارَة . وساق أمثالَ هذه الواقعة ، وفي الكُلِّ يقول : عرَّض . وهذا صريحٌ مِن مثل هذا الرجل وهو إمام فيما يقوله وقوله حُجة.

وما أحسن قول مَن قال وما ألطفه :

إسقِني خمرةً كرِقّةِ ديني أو كعقلي ولا أقولُ كحالي

خيفةً مِن توهُّمِ النّاسِ أني قلتُ هذا في معرِضٍ للسؤالِ (٤)

---

(١) النجاشي واسمه قيس بن عمر من كهلان . شاعر هجاء مخضرم ، اشتهر في الجاهلية والإسلام (ت نحو ٤٠ هـ) . انظر الشعر والشعراء ص ٣٢٩ ، وخزانة البغدادي ١٠٥/٢ ـ ١٠٧ ، وسمط اللآلي ص ٨٩٠ ، وبيته في شرح نهج البلاغة ٢٤/٥ ، وفي العقد ٤٦٩/٢ ، وورد في صدر البيت « ونجى ابن هند » . والقصة في العقد الفريد ٤٦٩/٢ ، والأغاني (بولاق) ٧٦/١٢ .

(٢) عبد الله بن محمد بن السيد البَطليوسي . من العلماء باللغة والأدب (ت في بلنسية سنة ٥٢١ هـ) . من كتبه « الاقتضاب في شرح أدب الكتّاب » . انظر قلائد العقيان ص ١٩٣ والصلة ص ٢٨٢ .

(٣) انظر الاقتضاب في شرح أدب الكتاب للبطليوسي ص ٥٠ .

(٤) في الغيث المسجم ١٣٥/١ .

ومِن التَّعريض قول السّراج الورّاق يُعرِّض بطلب صابون :

بعثْتُ لك الكتابَ وقلَّ سَعيي ... على رأسي لِبابِك بالكِتابِ

وعُذري عنك في التأخيرِ أنّي ... تبددَتِ الدَّواةُ على ثيابي

ونقلْتُ مِن خطّ السَّراج الورّاق ـ رحمه الله ـ ما صورته :

كان أبو الحسين النَّحوي [1] يجلس عند شرابيّ ، فجاء يوما فوجد في موضعه قُمقُم ماوَرْد . فقال له الشَّرابي : يا سيدنا نَشيل القُمقم وتَجلس . فقال له : كيف وقد أمرتَني بالقيام مَرّتين بقولك : قمقم ؟ !

واتّفق أن أَهدى إليَّ شخص قُمقُماً فأنشدته :

إنْ كان ذلك قال : قُمْ قُمْ طارِداً ... لجليسِهِ بإشارةٍ في القُمقمِ

فأنا الذي قعَدَ الزمانُ بحظِهِ ... فأتى بذاك له ونادى : قُم قُم

(١٢١/ب)

[المبادىء والافتتاحات]

قال في النوع الثاني والعشرين في المبادىء والافتتاحات :

« ومن الحَذاقة في هذا الباب ، أن يُجعل الدُّعاء في أول المكاتبات السلطانيات والإخوانيات وغيرهما مُضمَّنا مِن المعنى ما بُني عليه ذلك الكتاب ، وهذا شيء انفردتُ بابتداعه ، وتراه كثيرا فيما انشأتُه [2] » . ثم قال : « ومِن ذلك ما ذكرتُه في الهناء بمولود وهو: جدَّدَ اللهمَسَراتِ المجلسِ الفلاني، ورسل صبوح هنائه بغبوقه، وأمتعَه بسليله المُبشر بطُروقه ، وأبقاه حتى يسضيء برأيه ويرمي عني فُوقه ، وسرَّ به أبكارَ المعالي حتى يخلق أعطافها بخُلوقه ، وجعله كزرعٍ أخرج شطأه

(١) أبو الحسين النحوي واسمه محمد بن الحسين . الإمام في النحو بعد خاله أبي علي الفارسي وعليه تتلمذ ، تنقل وأملى وتسنَّم الوزارة غير مرة وله شعر . انظر اليتيمة ٣٥٣/٤ .

(٢) المثل السائر ١١/٢ « .. ان يجعل الدعاء في أول المكاتبات ، الكتاب من السلطانيات والإخوانيات وغيرهما متضمنا من المعنى .. » .

فآزره فاستغلظ فاستوى على سُوقه [1] » .

أقول : هذا وقد عاب على الصّابي وعلى جماعة من الشعراء في الافتتاحات ، وادّعى (١٢٢/أ) هذه الدّعوى ، ثم أتى بمثل هذا الافتتاح في الهناء بمولود .

وليس في أول سَجْعة ما يدلُ على أنّ الهناء بمولود أو ختان أو عُرس أو فتح أو عيد أو بُرء من مرض أو غير ذلك من أنواع المَسارّ ، وانما دلّت على مُطلق الهناء .

واما قوله : وسَرَّ به أبكارَ المعالي حتى تخلق أعطافها بخَلوقه ، ما أدري مافي هذا من البلاغة .

وكتبتُ أنا في هناء بمولود : وزانَ أُفق السّعادة بنجمه الذي أصبح بازغا ، وبلّغه في صباه أعلى المفاخر حتى يكون قبل البُلوغ لِغايات المعالي بالغا ، وشَغَل به السِّيادة فإن قلبها إلاّ من هذا البيت لا يزالُ فارغا .

وكتبت أيضا : وحفِظَ على غابِ الممالك شِبلَه ، وجعله طليعةَ بُشرى لِما بعده كما جاء ساقةَ خَيْرٍ لِما قَبْله ، وأهّلَه لأَنْ يكون أمامَ صُفوف الحرب إماما ، كما جعل وجهَه للحُسن جامعا ويدَه للقُبَل قبلة .

وكتبتُ أيضا : وأقر عينَه بهذه القُرّة ، وبلّغه نهايات آماله فيه من السُّعود فإنها مترجمة في هذه الطُرّة ، وجعل الأصيل زعفرانَ هذا الخلُوق والشفق عَقيقة هذه الدُرّة .

وقد كتبتُ جوابا عن كتاب ورَدَ قرينَ تفاصيل قماش مُطاير . فقلت : يُقبِّل الباسِطَةَ لا زالت جُمَل جُودِها مشكورة التّفاصيل ، وتُحَفُ بِرّها المرقومة تَعمَل لوَليّه ما يشاء من مَحاريب وتَماثيل ، ونُقوشُ هداياها تَرمي نُفوسَ العِدى بالهلاكِ من طيورها الأبابيل .

---

(١) المثل السائر ١١٢/٣ « ... مسرات المجلس السامي الفلاني .. وأبقاه حتى يستضيء بنوره .. وسر به أبكار المعاني حتى تخلق أعطافها .. » .

وعلى ذِكر الهناءِ بالولد • فممّا جاء في كلام القاضي الفاضل ـ رحمه الله تعالى ـ (١٢٢/ب) « وهذا الوَلدُ المُبارك هو الموفي لاثنى عشَر ولدا ، بل لاثنى عشر نَجْما مُتقدا ، فقد زاده اللهُ في أنجُمه عن أنجُم يوسفَ نجْما ، ورآهم المولى يقَظةً ورأى تلك حُلْما ، ورآهم ساجِدين له ورأينا الخَلْق لهم سُجودا ، وهو قادِر أن يَزيد حُدود المولى إلى أن يراهم أباً وجدودا » •

ومِن كلامه أيضا : « ونُهي أنّ الله ـ وله الحمدُ ـ رَزَق الملِكَ العزيزَ ـ عزّ نصرُه ـ ولدا مُباركا عـليّا ، ذكَراً سَوِيا ، نقِيّا تَقِيّا ، مِن ذُرِّية بعضها مِن بعض ، ومِن بيت كادت ملوكُه تكون ملائكةً في السماء ومماليكُه ملوكاً في الأرض ، في غُرّة الهلال مِن جمادى فلهذه الليلة غُرّتا هلالين ، بَشّرتا بالأنواء صادقتَين • وأصدَر المملوك هذه الخِدمةَ مُبشِراً بأنّ الله تعالى لا يُخلي مولانا في كل وقت من زيادة أولادٍ يُمنَحُها ، أو زيادة بلاد يفتَحُها • فهو في كلّ يوم مُبشّر ، بما هو له مُيَسَّر ، والفَلَكُ بما نرجوه له جارٍ وله مُسَخَّر ، فيُطلعُ عليه نُجومَه نجماً نجماً ، وتستَهِلُّ سحُبُه عليه سَجْما سَجْما ، وقد ورَد في الأثر أنّ الولد ريحانُ الجنّة ، فالبيوت الكريمةُ على هذه بساتين ، والأولادُ البرَرة على هذه رياحين ، فلا عفا بُستانُنا ، ولا ذوى رَيْحانُنا ، وعلا جدُّ بني مولانا الذي هو جدُّهم وأبوهم وسُلطاننا » •

وقد ادّعى ابن الأثير أنه الذي انفرد بمناسبات المبادىء ، وهذا ما زال غالبُ الناس يُراعيه • وقد نصَّ على ذلك ابنُ خلف [١] في « المنثور البَهائي »(١٢٣/أ)

قال : « ومن ذلك مُفتَتَح كتابٍ إلى ديوان الخلافة ، وساقَ مُقدّمة الكتاب ، وفي آخرها : » وقد يُعبَّرُ عن الكتاب ونائله ، بالسَّحاب ووابله ، فإنْ صدَر عن يدٍ كيَدِ الديوان العَزيز فقد وقَع التّشبيه موقِعَ الصّواب ، وصدَق حينئذ قولُ القائل ، إنّ البَحْر عُنصر السحاب [٢] •

---

(١) مرّت ترجمة ابن خلف ، و « المنثور البهائي » كتاب صنعه لبهاء الدولة البويهي • وهو نثر كتاب « الحماسة » •

(٢) المثل السائر ٣/١١٢ •

أقول : ليس هذا مِن التَّحقيـق في شيء ، ومَن ادّعى أن السحاب مِن البَحر ، فليس عنده علم بحقيقةِ ذلك (١٢٣/ب) وكيف والبحر مِلحٌ أجاج ، والقطرُ المُنزَّل من السحب عذبٌ فرات ؟ .

وقد فُسِّر قوله تعالى : « وفي السماء رزقُكم وما تُوعدون [١] » أنّه السَّحاب التي تُمطِر ، ولو كان كما زعَمه ، لقال : وفي البحرِ رِزقُكم .

وقال الله تعالى : « الله الذي يُرسِل الرّياح فتُثير سَحابا [٢] » ، فجعل عِلّة مَنشأ السّحاب إرسالَ الرياحِ ، ولم يذكر البحرَ .

وما أحسن قول ابن زيدون :

الشفيعِ الغِناءُ والحَمدُ في صـو •••••بِ الحيا لِلرّياح لا لِلغيوم [٣]

إشارةً إلى معنى الآية الكريمة . وإن كان جاء في ذلك نقلٌ يُوثق بصِدقه ، يُرَدُّ بالتأويل إلى هذا .

وقد قال أبو العلاء المعري :

وقد يُجتدى فضلُ الغَمامِ وإنّما مِن البحرِ فيما يَزْعُمُ الناسُ تَجتدي [٤]

فاحترز بقوله : « فيما يزعم الناس » . يعني : في الظاهر . و وإن كان الأمر في الباطن بخلافِ ذلك .

---

(١) سورة الذاريات (٥١/٢٢) .

(٢) سورة الروم (٣٠/٤٨) .

(٣) ديوان ابن زيدون ــ كيلاني ص ٢٠ ، وديوانه ص ٢٨٣ من قصيدة قالها يمدح أبا الحزم بن جهور . مطلعها :
الهـوى في طلوع تلـك النجومِ والمُنى في هُبوب ذاك النسيمِ
ورواية الديوان « للشفيع الثناء » .

(٤) سقط الزند ص ٨٩ من قصيدة مطلعها :
إليك تناهى كلُ فخر وسوددِ فأبلِ الليالي والأنامَ وجـدّدِ

وما أحسن قول الحسين بن مطير [١] يصف مطرا :

لو كانَ مِن لُجَجِ السّواحلِ ماؤه   لم يبقَ في لُجَجِ السّواحلِ مـاءُ

وربما كابر بعضُ الجهال وقال : « إن السحـاب مِن البحر ولكن الرياح تَقصُره [٢] فيحلو • ومن هذا قول التّهامي :

كالبحرِ تُمطرُهُ السّحابُ ومالَها   فَضْلٌ عليه لأنّهُ مِن مائِـهِ [٣]
(١٢٤/أ)

وما يَليق بهذا المكان غيرُ التّنبيه على أنّ المطر ليس مِن البحر ، وأنّ البحر ليس بعنصر السحاب • وغيرُ ذلك يُؤخذ مِن كتب هذا الفن في الطّبيعيات •

وما أحلى قول القاضي الفاضل ـ رحمه الله تعالى :

« وصل كتابه وقد انقضى الربيع وعهدُه ، وصدَر واردُه وقوّض وَرْدُه ، فنابتْ سطوره فأَحسنت النّيابة ، وعرّفَ النـاسَ ما بينه وبين الرّبيع مِن القَرابة ، بل الأُخوّة فإنّ أُمهما السحابة » •

قال : « ومِن جُملة الكُتب المشار إليها ، مُفتَتح كتاب كتبتُه إلى بعض الإخوان ، وأرسلته إليه مِن الموصل [٤] » ثم ذكر الكتاب •

---

(١) الحسين بن مطير الأسدي ، شاعر متقدم من مخضرمي الدولتين ، وله أماديح في رجالهما (ت ١٦٩ هـ) . انظر فوات الوفيات ١/٢٨٤ ، وخزانة البغدادي ٢/٤٨٥ وبيته في الحماسة الصغرى ص ٢٨٠ والعقد ٣/٤٦٦ ، من قصيدة يصف فيها المطر مطلعها :

كثُرتْ لكثـرةِ ودْقِهِ أطبـاؤه   فاذا تحلب فاضتِ الأطبـاءُ

(٢) في اللسان ٦/٤١١ . ماء قاصر أي بارد . فهل قصد أنها تبرده فيحلو .

(٣) غير موجود في ديوان التهامي . ونسبه صاحب الفوات ٢/٦١٥ إلى هبة الله ابن الحسين المنعوت بالبديع الإصطرلابي الشاعر ، المتوفى ببغداد سنة ٥٣٤ هـ وجاء صدر البيت « كالبحر يمطره السحاب وماله » .

(٤) المثل السائر ٣/١١٣ .

ولما فرَغ منه ، بَخبَخ لنفسه (١٢٤/ب) وأثنى ، وساق كتُبا أُخَر في معنى الثَّناء على المراسلات الواردة ، ومنها مِن الحُسن بعضُ إحسان ، وإذا قرنْتَها بكلام الفاصل قلتَ فتى ولا كمالِكٍ (١) ومَرعىً ولا كالسَّعْدان (٢) .

[من المحاسن افتتاح الكتاب بآية أو حديث أو بيت شعر]

قال : « ومِن محاسن هذا الفن ، أن يُفتَتح الكتابُ بآيةٍ مِن آيات القرآن ، أو بخبرٍ مِن الأخبار النبوية ، أو بيتٍ مِن الشعر ، ثم يُبنى الكتاب عليه .

« فمِن ذلك ما كتبتُه في ابتداء كتاب يتضمّنُ البُشرى بفتح . وهو :

ومَنْ طلبَ الفتحَ الجليلَ فإنّما مفاتِحُهُ البيضُ الخِفافُ الصّوارمُ(٣)

وقد أَخذْنا بقول هذا الشاعر الحكيم ، وجعلنا السَّيْف وسيلة إلى استِنتاج المُلك العَقيم (٤) » .

أقول : مِن محاسن ما وجَدتُه مِن هذا النوع ، كتاب كتبه القاضي محيي الدين ابن عبد الظاهر رحمه الله تعالى ، جوابا إلى الأمير شمس الدين آقسُنْقُر ، عن كتاب وردَ منه بفتح بلاد النُّوبة (٥) ، استفتَحه بعدَ البَسمَلة بقوله تعالى : « وجعلنا الليل والنَّهار آيتين ، فمحونا آيةَ الليل وجعلنا آيةَ النهار مُبصِرة (٦) »

---

(١) انظر هذا المثل في فصل المقال ١٧١ ، ونهاية الأرب ٤٣/٣ ، وريحانه الألبا ٣٥٨/١ و ٣٤٥/٢ .

(٢) انظر فصل المقال ١٦٨ ونهاية الأرب ٥١/٣ ، والفاخر ٦٤ ، وريحانه الالبا ٣٤٥/٢ .

(٣) البيت للمتنبي في شرح البرقوقي ١٢٢/٤ من قصيدة قالها يمدح سيف الدولة ويذكر بناءه ثغر الحدث سنة ٣٤٣ هـ . مطلعها :
على قدْرِ أهلِ العزمِ تأتي العزائم وتأتي علـى قدْرِ الكرام المكارمُ
وقد ورد في عجز البيت « مفاتيحه » .

(٤) المثل السائر ١١٨/٣ « ومن محاسن هذا الباب ، أن يفتتح الكتاب بآية من القرآن الكريم ... أو ببيت من الشعر ... » .

(٥) انظر رسالته في فوات الوفيات (طبعة ١٩٥١) ٤٥١/١ وما بعدها .

(٦) سورة الإسراء ١٢/١٧ .

« أدام الله نِعمةَ المَجلس ، ولا زالت عَزائمُه مَرهوبة ، وغنائمُه مجلوبَة ومَجنوبة ، وسَطاهُ وخطاه هذه تكشفُ الثوبَ وهذه تكشفُ النَّوبَةَ ، ولا برحتْ وطأته على الكفار مُشتدّة ، وآماله لإهلاك الأعداء كرماحِه مُمتدة ، ولا عدمَت الدّولة بِيضَ سيوفِه التي ترى بها الذين كَذَبُوا على الله وجوهَهم مُسودّة .

« صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس تُثني على عزائمه التي واتتْ على كلّ أمر رشيد ، وأتت على كل جبّار عَنيد ، وحكمتْ بعَدْل السيفِ في كلّ عَبْد سُوءٍ (١٢٥/أ) « وما ربّك بظلاّمٍ لِلعبيد » . حيث شُكِرَت الضُّمَّر الجُرْدُ وحُمِدت العِيس ، واشتبه يومُ النّصر بأمسه بقيام حُروف العِلّة مقام بعضٍ فأصبح غزوُ كَنيسة سُوس كغَزاة سِيس .

« ونُنهِيه أنّا علمنا فضل الله بتطهير البلاد مِن رجْسها وإزاحة العِناد ، وحَسمِ مادّة مُعظمها الكافِر وقد كادَ وكادَ ، وتَعجيل عيدِ النّحْر بالأُضحية بكلّ كبش حَرَب يبرُكُ في سواد ، وينظرُ في سَواد ، ويمشي في سَواد . وتحققْنا النّصر الذي شفى النّفوس وأزال البُوس ، ومحا آيةَ الليل بخير الشُموس ، وخرّبَ دُنقُلَةَ بجريمة سُوس ، وكيف لا يَخربُ شيءٌ يكونُ فيه سوس .

« فالحمد لله على أن صبّحتهُم عزائمُ المجلس بالوَيل ، وعلى أن أَوْلج النهارَ مِن السّيف منهم في الليل ، وعلى أن ردّ حربَ حِرابهم إلى نُحورهم ، وجعل تَدميرَهم في تَدبيرِهم ، وبيّن خيطَ السّيف الأبيض مِن الخيط الأسود مِن فَجْر فُجورهم ، وأَطْلَعَ على مُغيّبات النّصر ذِهْنَ المجلسِ الحاضر ، وأورث سُليمان الزمانِ المؤمنَ مُلكَ داوود الكافِر ، وقرنَ النّصر بعزم المجلس الأنهَض ، وأهلَك العَدوّ الأسود بمَيمون طائرِ النّصر الأبيض ، وكيف لا وآقسُنقُر هو الطائرُ الأبيض . وأقرّ لأهل الصّعيد كلّ عين ، وجمع شملَهم فلا يرون مِن عَدوّهم بعدَها غرابَ بيْن ، ونَصَرذوي السّيوف على ذوي الحِراب ، وسهّل صَيْدَ ملِكهم على يدِ المجلس وكيف يَعسُر على السّنقُر صيدُ الغراب ؟ . » . والشُكرُ لِله على إذلال ملِكهم الذي لانَ وهانَ ، وأذاله

بِبأسِه الذي صرّح به شَرٌّ كلٍّ منهم في قتالِه فأمسى وهو عُريان ، وإزهاقِهم بالأَسِنّة التي غدا طعنُها كفَم الزِّق (١٢٥/ب) غدا والزِّقُ مَلآن ، ودقّ أقفيتَهم بالسَّيف الذي أنطقَ الله بفالِه أعجمَ الطّيرِ فقال : دُقّ قفا السُّودان .

« ورعى اللّه جِهاد المجلس الذي قوّمَ هذا الحادث المُتآد ، ولا عَدِم الإسلامُ في هذا الخَطْبِ سيفَه الذي قام خطيبا وكيف لا وقد ألبَسَه منهم السَّواد ، وشكرَ له عزمَه الذي استبشَر به وجهُ الزمن القَطوب ، وتحقّقت بلادُ الشِمال به صَلاحَ بلاد الجنوب ، وأصبحت به سِهامُ الغنائم في كلِّ جهة تَسْهَم ، ومُتونُ الفتوحات تَمتَطى فتارةً يَمتطِي السيف كلَّ سيس وتارةً كلَّ أدهَم ، وحمِد شجاعتَه التي ما وقف لصدمَتِها السّوادُ الأعظم .

« ولله المِنّة على أنْ جعل رُبوع العدو بعزائم المجلس حَصيدا كأن لم تَغْنَ بالأمس ، وأقام فُروض الجهاد بسيوفه المَسنونة وأنامِله الخَمْس ، وقرَن ثباتَه بتَوصيل الطّعْن لِنُحور الأعداء ووقْتُ النَّحر قيدَ رُمح مِن طلوع الشمس . ونرجو مِن كرَم الله إدراكَ داوودَ المَطلوب وردّه علَى السَّيف بعَيب هرَبه والعبدُ السوءُ إذا هرب يُرَدُّ لا محالةَ بعَيبِ الهُروب .

« والله يشكُر تفصيل مُكاتبات المجلس وجُملَها ، وآخرَ غَزواته وأولَها ، ونِزالَ مُرهفاتِه ونُزُلَها ، ويجعلُه إذا انسلخ نهارُ سَيْفه مِن ليل هذا العَدوّ يعود سالِما إلى مُستقرِّه والشمسُ تجري لمُستَقرٍّ لها » .

أثبتُّ هذا الكتاب بمجموعه لِما فيه من النُكت المُطربة ، والتَّوريات المُغرِبة . وللقاضي محيي الدين ــ رحمه الله تعالى ــ في هذه الواقعة بيتان ، وقيل لابن النَّقيب . وهما :

يا يومَ دُنقُلَةٍ وقَتلِ عبيدِها   في كلِّ ناحيةٍ وكلِّ مكانِ
مِن كلِّ نوبيٍّ يقولُ لأُمِّه   نُوحي فقد دَقوا قفا السُّودان[1]
(١٢٦/أ)

---

(١) البيتان لابن النَّقيب الفقيسي في فوات الوفيات ٤٥٣/١ وفيه في صدر البيت الثاني : « كم فيه زنجي يقول لأمه .. »

[في التخلص والاقتضاب]

قال في النوع الثالث والعشرين في التّخلّص والاقتضاب ، وقد أورد قول أبي تمام مِن جُملة أبيات :

لا والذي هو عالمٌ أنّ النوى أجَلٌ وأنّ أبا الحُسينِ كريمُ (1)

ثم قال : وهذا خروج مِن غزَل إلى مديح (2) .

أقول : المشهور في هذا البيت أنّ أبا تمام قاله :

لا والّذي هو عالمٌ أنّ النوى صَبِرٌ ....

وما رأيت مَن أورده كذا ، ولا وقفت عليه في ديوانٍ على كثرة النّسخ به إلاّ وهو مُثبت كما ذكرتُه . وأما أربابُ البلاغة ، فقد ذكروا البيت وعدّوه مِن العيوب ، لأنّه لا مُناسبة بين الصَّبِر والكرَم . ولو قيل : إنّ الزمان بخيل وأبا الحسين كريم ، أو يقول إن النّوى صَبِرٌ وإن الوِصال شَهْدٌ ، كان مُناسبا . وما ذكره أحدٌ فيما علمتُ إلاّ وعدّه عيْبا ، وهذا عدّه مِن المحاسن ومثّل به وغيّر لفظه . والعدالةُ غيرُ هذا ، وليته أصلحَه لمّا غيّره .

ولا بأس بإيراد نُبذٍ ممّا جاء للشّعراء في هذا النوع . من ذلك قول المعري أبي العلاء وقد ذكر النّوق :

سألْنَ فقلْتُ مقصِدُنا سَعيدٌ فكان اسمُ الأميرِ لهُنّ فَالا (3)

---

(1) ديوان أبي تمام بشرح التبريزي ٣/٢٩٠
من قصيدة قالها يمدح محمد بن الهيثم بن شُبانه . مطلعها :
أسقى طاولَهُمُ أجشُ هزيمُ وغدتْ عليهمْ نضرةٌ ونعيمُ
وجاء في عجز البيت « صبرٌ » بدل « أجل »
وكذلك جاء في البديع لابن المعتز ص ١١٠ .

(2) المثل السائر ٣/١٢٣ « وهذا خروج من غزل إلى مديح أغزل منه » .

(3) سقط الزند ص ٤٨ من قصيدة مطلعها :
أعَنْ وخْدِ القِلاصِ كشفْتِ حالي ومن عندِ الظلامِ طلبْتِ مالا

وقولُ مسلم بن الوليد :

يقول صَحبي وقد جدُّوا على عَجَلٍ   والخيلُ تَستنُّ بالرُّكبانِ في اللُّجُمِ
أَمطلِعَ الشَّمسِ تبغي أن تَؤُمَّ بنا   فقلتُ: كلاّ ولكنْ مَطلِعَ الكَرَمِ [١]

وقد أخذه أبو تمام أخذا وفلَذه فَلْذاً فقال :

أمَطلِعَ الشمسِ تَبغي أن تَؤُمَّ بنا   فقلت : كلاّ ولكن مَطلِعَ الجُودِ [٢]
(١٢٦/ب)

وأخذه الغَزّي أيضا ، وسبكه فَلبَكه اذ قال :

تقولُ إذا حثثْناها وظلَّتْ   تُناجينا بأَلسِنةِ الكَلالِ
إلى أُفُقِ الهِلالِ مسيرُ رَكبي   فقلْنا : بل إلى أُفُقِ النَّوالِ [٣]

وقول عليّ بن الجَهْم [٤] :

وليلةٍ كَحلَتْ بالنِقْسِ مُقلتَها   ألقتْ قِناعَ الدُّجى في كلِّ أُخدودِ

(١) ديوان مسلم ص ٣٤٠ .
(٢) ديوان أبي تمام – عزام ١٣٢/٢ – وهو ثاني بيتين قالهما في عبد الله بن طاهر وقد خرج إليه . مطلعها :
يقول في قَوْمَسٍ صحبي وقد أخذَتْ   منا السُّرى وخُطا المهريَّةِ القودِ
وجاء في صدر البيت « تنوي أن تؤم بنا » . وفي الأغاني ٣٩٥/١٦ « تبغي أن تؤم بنا » .
(٣) مخطوطة ديوان الغزي المصورة ورقة ١٦ ، وفي هبة الأيام ص ١٣٨ من قصيدة قالها يمدح الوزير مجد الدين أبا المعالي هبة الله بن المطلب ببغداد . مطلعها :
تجود الأخيليةُ بالخيالِ   وعِقدُ الجو منتظمُ اللآلي
وجاء في صدر البيت الأول : « فظلت » بالفاء .
(٤) علي بن الجهم أبو الحسن . شاعر من أهل بغداد معاصر لأبي تمام وبينهما مودة. قربه المتوكل ثم نفاه . قتله جماعة وهو في طريقه الى الغزو سنة ٢٤٩ هـ . أنظر الأغاني ٢٠٣/١٠ – ٢٣٤ ، ووفيات الأعيان ٣٤٩/١ ، وبيتاه في ديوانه ص ١٢٨ وقد جاء في صدر البيت الأول « وليلة كُحلت » وفي صدر البيت الثاني « قد كاد تغرقني » . كما وردا في الغيث المسجم ١٢١/١ .

تكاد تُغرقُني أمواجُ ظُلمتِها لولا اقتباسي سَناً مِن وجهِ داوودِ

وقول القائد أبي عبد الله السُنْبُسي[١] يمدح سيفَ الدولة صدَقةَ بنَ منصور[٢] :

ونرجسٍ خَضِلٍ تحكي نواظرُهُ أحداقَ تِبْرٍ على أجفانِ كافورِ
كأنَّما نَشْرُهُ في كلِّ باكرةٍ مِسكٌ تضوَّعَ أو ذِكْرُ ابنِ منصورِ[٣]

وقولُ ابن سناء المُلْك :

لا يَرجِعُ الكَلِفُ المَشوقُ عن الهوى أو يَرجِعَ المَلِكُ العزيزُ عن النَّدى[٤]

وقولُه أيضا :

فالوَجْدُ لي وحْدي دونَ الورى والمُلْكُ للهِ وللظَّاهِرِ[٥]

وقولُ ابن السَّاعاتي :

وَجْدي وإنْ كنتُ الذَّليلَ بِبَيْضِهِ وجْدُ العَزيزِ بكلِّ لَدْنٍ أسمَرِ[٦]

---

(١) أبو عبد الله السنبسي واسمه محمد بن خليفة ، شاعر قائد أقام بالحلة عند صدقة بن منصور (ت ٥١٥ هـ) انظر الوافي ٣/٤٨ ، والبابليات ١/١٤ .

(٢) صدقة بن منصور الأسدي سيف الدولة ، أمير بادية العراق وباني مدينة الحلة . شجاع طموح (ت سنة ٥٠١ هـ) . انظر وفيات الأعيان ١/٢٢٩ ، ومرآة الزمان ٨/٢٥ ، والكامل لابن الأثير ١٠/١٥٤ .

(٣) البيتان في فوات الوفيات ٢/٤٠٢ من مقطوعة مطلعها :

قم فاسقنيها على صوتِ النواعيرِ حمراءَ تَشْرقُ في ظلماءِ ديجورِ

وفي الغيث المسجم ١/١٢٧ وجاء في صدر البيت الأول « تحكي أزاهره » ، وفي البابليات ١/١٥ .

(٤) ديوان ابن سناء الملك ص ١٥٣ من قصيدة قالها يمدح الملك العزيز . مطلعها :

أما الغرام بها فعاد كما بدا وهلالُ وجنتها أضلّ كما هدى

وورد البيت في الغيث المسجم ١/١٢٢ وجاء فيه « الكلف الذليل » بدل المشوق .

(٥) ديوانه ص ٢٩٥ من قصيدة قالها يمدح الملك الظاهر غازي . مطلعها :

لهفي من العاذل والعاذرِ ذا ظالمي فيك وذا ضائري

وورد البيت في الغيث المسجم ١/١٢٢

(٦) في الغيث المسجم ١/١٢٢

وقوله أيضا :

كَمْ وَقفْنا فيها معَ الغيْثِ مِثْليـ •••• ـنِ جُفونـاً وكَآفـةً وغَمامـا

أثخنَتْـهُ ظُبى البُروقِ جِراحـاً مُنهَراتٍ سـالتْ عليـه رُكامـا

وكأنّ الغَمـامَ نقْعٌ وقـد جَـرّ •••• ردَ فيه المَلْكُ المُعِـزُّ حُساما[١]

(١٢٧/أ)

وأحسنُ مِن هذا كله قولُ الشيخ شرف الدين عبد العزيز شيخ الشّيوخ بحماة من غزلِ قصيدةٍ يمدح بها النّبي ـ صلى الله عليه وسلم :

فمَن رأى ذلـك الوِشـاح الصـ •••• ـائمَ صـلَّى عـلى مُحمَّـدْ

وقولُ أبي الحُسين الجزار يمدح جمال الدين موسى بن يَغمور [٢] :

جَسرْتُ على لثْمِ الشّقيقِ بخَدّها ورشْفِ رُضابٍ لم أزل مِنه في سُكْرِ

ولستُ أخافُ السِّحرَ مِن لَحَظاتِها لأنّي بموسى قد أمِنْتُ مِن السِحرِ

وقولُه أيضا يمدح فخرَ القضاة نصر الله بنَ بُصاقَة :

وكم ليلةٍ قـد بِتُّهـا معْسِرا ولي بزُخرفِ آمالي كنوزٌ مِن اليُسْرِ

أقـولُ لقلبي كلمـا اشتقْتُ للغِنى إذا جاء نصرُ الله تبتْ يدُ الفقـرِ [٣]

وعلى ذكر المخلَص ، فما أحلى قولَ السِّراج الوراق :

لئن خَفَّ صدري للقوافي ونَظمِهـا ففي مَنْ وظلُ الجودِ عني مُتقَلّصُ

وكم مَطْلَـعٍ حَبَّرتُه مِن قصيدةٍ يقولُ عسى لي أو عسى لكَ مَخْلصُ

---

(١) في الغيث المسجم ١/١٢٢ .

(٢) جاء في « تراجم القرنين » ص ٢٣٥ أن الأمير جمال الدين موسى بن يغمور توفي سنة ٦٦٣ هـ عند توجهه إلى ديار مصـر لما كان مع الظاهر بيبرس في محاصرة الفرنج .
والأبيات في الغيث المسجم ١/١٢٢ ، وفي خزانة ابن حجة ص ١٥٧ .

(٣) في الغيث المسجم ١/١٢٢ .

وظرُف مَن ذم التخلص في بيت واحد حيث قال :

بينا ذَوائِبُ مَــن يُحبُّ بكَفِّــهِ   حتى تعلَّــقَ لحيــةَ المَمــدوحِ [١]

[التخلص في القرآن الكريم]

قال : « وقال أبو العلاء محمد بن غانم المعروف بالغانمي : « إنّ كتاب الله خالٍ مِن التخلُّص[٢] . إنّما هو الخروج مِن كلام إلى كلام آخر بلطيفة تلائم بين الكلامين ، الذي خرَجَ منه ، والذي دخَلَ إليه » .

[حول أمثلة من ذلك أوردها ابن الأثير من القرآن الكريم]

ثم قال ابن الأثير : « وفي القرآن مواضع كثيرة . من ذلك » :

وأخذ يُورد ما أورده . كقوله تعالى : « واتلُ عليهم نبأَ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومِه ما تَعبدون [٣] ... » (١٢٧/ب) [٤] إلى آخر القصة ، وغير ذلك .

أقول : الذي ذكره ابن الأثير لا يخرج عمّا قاله الغانميّ ، فإن القرآن جميعه متعلّق بعضه ببعض ، كالخروج مِن الوعظ والتذكير إلى الإنذار أو إلى البِشارة ، أو إلى أمر أو نهي أو وَعد أو وَعيد ، إلاّ ما خفِي تعلّقه في الظاهر . والإمام فخر الدين راعى هذا في تفسيره ، وتكلّم على علاقة الآية بما بعدها .

وابن الأثير ما فهِمَ كلامَ الغانمي ولا علِم مُراده ، وهو أنه أراد التَخلُّص الذي اصطلح عليه الشعراء ، وهو أن يتخلص الشاعر في البيت الواحد ، مِن غزل أو عِتاب أو وَصف إلى مديح . ومِثل هذا لم أعلم أنّه ورَد في الآية الواحدة .

---

(١) في الغيث المسجم ١٢٩/١ .
(٢) هنا ينتهي كلام الغانمي ليبدأ بعده ردّ ابن الأثير .
(٣) سورة الشعراء ٦٩/٢٦ .
(٤) المثل السائر ١٢٨/٣ « وهذا القول فاسد لأن حقيقة التخلص إنما هي الخروج من كلام إلى كلام آخر غيره بلطيفة تلائم بين الكلام الذي خرج منه والكلام الذي خرج إليه ، وفي القرآن الكريم مواضع ... » .

وأما تَعلُّق الآية بما قبلها ، فما شَذَّ من هذا إلا اليسير وذلك في الظاهر ، وإلا متى تدبَّرَ الإنسان ذلك وتأمَّله حقَّ التأمل ، لم يجدْه مقطوعا إلا فيما هو معنومُ الاقتِضاب •

[نماذج من التخلص في إنشاء ابن الأثير]

قال : « وقد جاءني من التَّخلُّصات في الكلام المنثور أشياءُ كثيرة • فمن ذلك ما أوردتُه في كتاب إلى بعض الإخوان أصِفُ فيه الرّبيع ، ثم خرجتُ مِن ذلك إلى ذكر الأشواق • فقلت : « وكما أنّ هذه الأوصاف في شأنها بديعة ، فكذلك شوقي في شأنه بديع ، غيرَ أنَّه بِحَرِّه فصلُ مَصيف وهذا فصلْ ربيع[1] » •

أقول : قد أورد هذا الرجل مِن تَخلُّصات الشعراء ، كأبي تمام وأبي الطيب والبحتري وغيرهم أمثلة وما تنبَّه لِلتَّخلُّص وحُسنه • أترى مثل هذا يُعدّ مِن التَّخلُّصات ولو كان قال : وشقيق" شقَّ أكمامَه ، ورفع أعلامَه ، وملأ مِن المُدام جامَه ، وجلا خَدَّه الأحمر وفيه مِن السَّواد شامَه ، وأوْقَد(١٢٨/أ) نارَه فحكَت جمرَ أشواقي وضِرامه ، لعَدَّ الناسُ هذا تَخلُّصا • ثمّ ذكَر فصلا آخر في البَرْد ، وادّعى أنه تخلَّص إلى الشوق ، وهو من هذه النسبة • ثم ذكر فصلا آخر في الهدية ، تخلَّص منها إلى الشفاعة ، وهو مِن هذا الضَّرْب • ثم ذكر فصلا في ذِكْر المودّة ، وتخلَّص إلى طلب رُطَب • وهو من هذا القبيل •

[التناسب بين المعاني ومناقشة أمثلة من ذلك]

قال في النوع الرابع والعشرين في التناسب بين المعاني ، بعد أن أوْردَ أمثال قول الشاعر :

ألا يابْنَ الذينَ فَنُوا فماتُوا أمَا واللهِ ما ماتُوا لِتَبْقى

(٢) المثل السائر ١٣٢/٣ « ... غير انه لحره فصل صيف .. ».

ومالكَ فاعلمَنْ فيها مُقامٌ إذا استكملتَ آجالا ورِزْقا[١]

وأنكر عَدَمَ المُناسبة بين إفراد الرزق وجمع الأجَل ، وقبَّحه :

« كنتُ أرى هذا الضرب واجبا في الاستعمال ، وأنّه لا يَحسُن المَحيدُ عنه، حتى مرَّ بي في القرآن ما يُخالفه . كقوله تعالى : « أوَلم يَروا إلى ما خلَق اللهُ مِن شيءٍ يَتفيّأ ظِلالُه عَن اليَمين والشمائل »[٢] . وأورد قوله تعالى : « أولئك الذين طبَعَ اللهُ على قلوبهم وسمْعِهم وأبصارِهم[٣] » .

وقوله تعالى : « حتى إذا ما جاؤوها ، شَهِد عليهم سمعُهم وأبصارُهم وجلودُهم[٤] »[٥] .

أقول : لا مِرية في قول الشاعر : آجالا ورزقا ، أنّه مَعيب معدود في عدَم تناسب المعاني ، وقد ذكرَه علماءُ البلاغة ونصّوا عليه، ولو كان قال: أجلا وأرزاقا لكان أهون ، فإنّ الأجل واحد ، والرِّزقُ متعدّد، وصحة الذوق تأبى مِثلَ هذا.

وأما إيراده هذه الآيات، فإنه لم يَرِد الجمعُ مع الإفراد إلا لِحكمةٍ (١٢٨/ب) لم يَطّلع عليها ابنُ الأثير . وتلك الحِكمةُ أكبر وأعظم مِن مُراعاة المناسبة .

(١٢٨/ب)

ويضرب إلى جهة اليسار فهو واحد ، فإذا زالت الشمسُ وعادت إلى جهة الغَرب، انعكس الظّل وأخذ عن الشمال ثم صار شيئا فشيئا وتعددتْ زياداتُه وفُرِضتْ النّصبةُ . كذا لاستقبال القِبلة وشرف جهتها .

ودع ذا فإنّ لفظة « الشمائل » أعذبُ في الجمع من الإفراد وأحلى ، والعَرَبُ من عادتها مُراعاة خِفّة الألفاظ وعذوبتها معَ عدم تَناسب المعاني . وأنت قرَّرتَ

---

(١) البيتان لأبي نواس في ديوانه ، طبعة ١٨٩٨) ص ١٩٢ .
(٢) سورة النحل ٤٨/١٦ .
(٣) سورة النحل ١٠٨/١٦ .
(٤) سورة فصلت ٢٠/٤١ .
(٥) المثل السائر ١٥٨/٣ « وقد كنت أرى هذا الضرب من الكلام واجبا ... حتى مرّ بي في القرآن الكريم .. كقوله تعالى في سورة النحل : .. » .

أنّ مِن الألفاظ ما يثقُل مُفردا ويخِفُّ جَمْعا .

وأما السمعُ في الآيتين الكريمتين فإنما أُفرِد لأنّه مصدر ، والمصدر يصدُق على القليل والكثير ، فإذا انْدرَج بين جُموع كان له حكمُها ، وإذا اندَرج بين مُفردات ، كان في حكمها .

وعلى الجملة فالمصادِر جمعُها عِيّ ، لأنّ معنى الكثرة موجود فيها ، أو لأنّه بتقدير حذف مضافٍ لم يَحْسن في غيره ، كأنه تعالى قال : وعلى حواشي سمعهم ، ولا يستقيم مثله في الأبصار والقلوب .

أما الأبصار ، فلأنها غيرُ مَطبوع عليها ولكنها مُغشّاة . وأما القلوب ، فلأنها غيرُ مَحوية فيما له حواشٍ يقع الخَتْمُ عليها ، فكان الطّبعَ على القلوب نفسِها لا على حواشيها . ومِن هذا قوله تعالى : « وجعل الظّلماتِ والنّور[1] » لأنّ الظلمات مِن أجرام مُتكاثِفة ، والنّور مِن النار . فكذا اليمين والشمائل .

[مناقشة ابن الأثير في الاقتصاد والتفريط والإفراط]

قال في النوع الخامس والعشرين في الاقتصاد والتفريط والإفراط ، عند ذكر التفريط : (١٢٩/أ) «واعلم أنّ للمدح ألفاظا تخُصّه ، وللذّم ألفاظا تخصّه ، وقد تعمّق قومٌ في ذلك حتى قالوا : مِن الأدب أن لا يُخاطب المُلوك ومَن يقارِبُهم بكاف الخِطاب . وهذا غلَط باردٌ ، فإن الله الذي هو ملِك المُلوك ، قد خُوطب بالكاف في أول كتابه العزيز فقيل : « إياك نعبد وإياك نستعين[2] » . وقد وردُ أمثالٌ في مواضع مِن القرآن محصورة»[3] .

أقول : استشهادُه بهذا ليس مِما يَردُّ قولَ مَن ذهب إلى أنّ الأدب في

(١) سورة الأنعام ١/٦ .
(٢) سورة الفاتحة ١/٤ .
(٣) المثل السائر ١٨٧/٣ «... من الأدب أن لا تخاطب الملوك ... وقد ورد أمثال هذا في مواضع من القرآن غير محصورة » .

خطاب الملوك ومَن قاربهم أن لا يكون بالكاف ، لأنّ هـذه فاتحة الكتاب ومما يتلى في كل ركعة ، والقرآن الكريم إنما أُنزل على النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ ومن جملة فوائده تنزيهُ الله عزّ وجل عن الشريك والولد والزوجة . فلو قيل : إياكم نعبد وإياكم نستعين ، لكان فيه إشعار للمشركين والنصارى بما يقولونه من تعدّد الآلهة ، وكان شبهةً لمدّعي ذلك .

وقد وردَتْ رسالة من جزيرة قبرص على يد كليام الفرنجي التاجر في سنة عشرين وسبعمائة تقريبا ، ووقفتُ عليها بمدينة صفد ، فوجدت واضعَها قد استدلّ على صحة مذهب النصارى في القول بالثالوث ، بأشياء نقلية من القرآن العظيم . بمثل قوله تعالى : «قال ربِّ ارجعون[1]» « وكفى بنا حاسبين[2]» . وبمثل هذه الآيات ، وبأشياء أخر يُضحِك من الاستدلال بها .

ثم أخذ يستدل على الثالوث بقوله تعالى : « قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق[3] » فذكر ثلاثة . وهذا شيء يُضحِك منه .

على أنّ بعض الرافضة ، له في القول بصحّة الزواج بتسعة دليل من هذا النوع . وهو قوله تعالى : « فانكحوا ما طابَ لكُم من النِّساء مثنى وثلاث ورُباع[4] » (١٢٩/ب) وقال : هذه العِدّة مجموعها تسعة ، والنبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ مات عن تسع نسوة .

وأما هـذه الرسالة القبرسية ، أجاب عنها الشيخ تقي الدين بن تيمية[5] ــ رحمه الله ــ في مجلدين ، وعبث بها مدةً وأولع بها .

---

(١) سورة المؤمنون ٩٩/٢٣ .
(٢) سورة الأنبياء ٤٧/٢١ .
(٣) سورة البقرة ١٣٣/٢ .
(٤) سورة النساء ٣/٤ .
(٥) تقي الدين بن تيمية ، واسمه أحمد بن عبد الحليم الحنبلي ، شيخ الإسلام . نبغ واشتهر وساد الأئمة في عصره له أثر بارز في أحداث زمنه ، سجن غير مرة، كان كثير البحث والتفسير ، تزيد مؤلفاته على أربعة آلاف كراسه ، توفي معتقلا بقلعة دمشق سنة ٧٢٨ هـ . أنظر الدرر الكامنة ١٤٤/١ ، والنجوم ٢٧١/٩ .

فإن قلتَ بمثلِ قوله تعالى : « ربِّ ارجعون » « وكفى بنا حاسبين » يُشكِل عليك فيما قررْته في الفاتحة ، قلتُ : ثبَتَ لنا في القرآن مِن غير هذا ، وقامت الأدلة على الوحدانية بمثل قوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة إلا اللهُ لفسَدتا[1] » ، وإذا جاء مثل هذا علِمْنا أنَّه المُراد به التَّعظيم . وما أخَذ الناسُ خِطاب العظيم بلفظ الجَمع إلاّ مِن القرآن العظيم [2] .

والعِلَّة في أنّ المعظِّمَ نفسَه يقول : نحن فعلنا وأمرنا .. وما أشبه ذلك ، هو أنه لايقول هذا إلا مَن هو مُطاع معظَّم في قومه ، ولا يكون المُطاع إلا مَن له أتباع وخدَم يقولون بقوله ، ويرجعون إلى ما يقوله . كصاحب المذهب يقول : رأينا ، ومذهبنا . أي أنا ومَن يقول بهذا القول .

ولهذا ، الفُقهاء والنُّظار يقول الواحد منهم : لا نُسلِّم . ويكون واحداً لاغيرُ ، والمُراد أنّ هذا أمنعه أنا ومَن وافق قولي .

فلما كان المتكلم إذا كان عظيما قال : نحن فعلنا ، حُمِل على ذلك خِطابه فقيل له : أنتم فعلتم ليكون ذلك مُقابلة لِما يقوله .

وأما في هذا العصر ، فقد استراح الناسُ مِن خطاب الملوك في مكاتباتهم وغيرِ مكاتباتهم مِن الكاف ومِن ضمير الجمع . فإنه لا يقال إلاَ : المراسمُ الشريفة ، والآراءُ الشريفة ، والصَّدقاتُ الشريفة ، والأبوابُ الشريفة ، إلاَ ما كان يجِلُّ الشَّرف أن ينعَت به مثل : الاسطبل ، والمناخ والمطابخ وأشباه ذلك ، فإنه ينعتُ (١٣٠/أ) بالسعيدة .

وان كان المُتكلِّم بين يدي السُلطان قال : رأس مولانا السلطان ــ خلَّد اللهُ مُلكه ــ وكلُّ شيء يذكره ، أضافهُ إلى هذه الجُملة .

---

(١) سورة الأنبياء ٢١/٢٢ .

(٢) انظر ما جاء في أدب الكاتب (سنة ١٣٥٥) ص ١٨ .

[المفاضلة بين التسميتين : الإرصاد والتوشيح]

قال في النوع الثامن والعشرين في الإرصاد :

« ورأيت أبا هلال العسكري[1] قد سمَّى هذا النوع : التَّوشيح[2] . وليس كذلك ، بل تسميته بالإرصاد أولى[3] » .

أقول : هذا الإرصاد الذي ذهب إلى أنَّه أليَق مِن التوشيح بالمعنى الذي قرّره ، مثاله قول البحتري :

أحلَّتْ دمي يومَ الفِراقِ وحرَّمَتْ بلا سببٍ يومَ اللقاءِ كلامي
وليس الذي حَلَّلْتِه بمُحلَّلٍ وليس الذي حَرّمتِهِ بحَرامِ[4]

وهو أن الشاعر يأتي بنصف بيت يُفهَم منه النصفُ الثاني ، أو صدرٌ يُفهم منه العَجُز ، أو مِن البَعض يُفهَم الكلُّ ، وهو دليلُ التَّمكُّن وجَودةِ الطَّبْع .

ووجهُ المُناسبة بين هذا المعنى وبين التَّوشيح ، أن يُنزَّل أولُ الكلام وآخرُه منزلةَ العاتِق والكَشْح ، ويُنزَّل دلالةُ ما في أوله على آخره منزلة الوِشاح الجائِل عليهما . وهذا معنى لائق بهذا المُسمى ، ونَفْسُ اللفظ أعذَبُ في السمع من « الإرصاد » .

قال : « وقد سلَك قومٌ في منثور الكلام ومنظومه طرُقاً خارجةً عن موضوع عِلم البَيان وهي بنجوةٍ عنه ، لأنها في واد وعلمُ البيان في واد .

---

(١) أبو هلال العسكري واسمه الحسن بن عبد الله صاحب « الصناعتين » له ديوان شعر (ت بعد سنة ٣٩٥ هـ) . انظر خزانة البغدادي ١/١١٢ .

(٢) الصناعتين ص ٣٨٢ وفيه « ولو سُمي تبيينا لكان أقرب » .

(٣) المثل السائر ٣/٢٠٧ .

(٤) ديوان البحتري ١/١٥ من قصيدة قالها يمدح المتوكل . مطلعها :

ألا هلْ أتاها بالمغيبِ سلامي وهل خَبرَتْ وجدي بها وغرامي

وقد ورد في صدر البيت الأول : أحلت دمي من غير جرم ...

« فمِمَّن فعل ذلك الحريريُّ صاحب المقامات ، فإنّه ذكَر تلك الرسالة(١) التي هي كلمةٌ مُعجَمةٌ وكلمةٌ مُهمَلَةٌ ، والرسالة(٢) التي هي حَرفٌ مِن حروف ألفاظها معجَم والآخرُ غيرُ معجَم .

« ونظمَ غيرُه شِعرا ، آخرِ كلّ بيت منه ، أول البيت الذي يليه . وكلُّ هذا وإن تضمَّن مَشقّةً مِن الصناعة ، فإنه خارج عن باب الفَصاحة والبلاغة(٣) » .

(١٣٠/ب)

أقول : إنّ الحريري ـــ رحمه الله تعالى ـــ لم يأت بما أتى به من هذه الأنواع وادّعى أنّ هذا هو الفصاحة والبلاغة ، وإنما أتى بذلك ليستوعب أنواع الأدب ، ويُبيِّن للأديب ما يلزمه معرفتُه ، وكلُّ ذلك دليلٌ القدرة والتّمكُّن .

ولو أنّ الحريري فعل ذلك في المقامات كلِّها لكان غيرَ حسَن .

(١٣١/أ)

ومثلُ هذه الأشياء مِن اللّغز والأُحْجيّة والأغاليطُ ، والإتيان بالكلِمة المُعجَمة وبعدها المُهمَلة ، وبالحرف المُعجَم وبعده المُهمَل ، أو صَدْر بيت كذا وعَجُزه كذا .. كلُّ ذلك لائق بالمقامات . أما في التّرَسُّل والخُطَب ، فإنه يُكره ويُستَثقل . لأنّ الترسل ليس المُراد منه التّفقه في الأدب وإنما هو إما لهناءٍ أو عَزاء أو شُكْر أو مَدْح أو وَصف أو استعطاف أو عَتَب أو شَوْق أو غيرِ ذلك . ومثلُ هذه الأشياء لا يليق بها التّكَلُّف .

على أنه وإن كان هذه الأنواع في المقامات ، فينبغي أن يكون كاللّمع اليَسيرة،

(١) المقامة السادسة « المراغية » شرح الشريشي ١/١٢٣ .
وفي المقامة السادسة والأربعين « الحلبية » المصدر السابق ٤/١٩١ مقطوعة شعرية بهذه الصفة أيضا . مطلعها :

اسمحْ فبثُّ السماحِ زيْنٌ ولا تُخِبْ آمِلا تضيّفْ

(٢) شرح الشريشي ٣/٤٩ المقامة السادسة والعشرون .

(٣) المثل السائر ٣/٢١٠ « ... والرسالة التي حرف من حروف ألفاظها معجم ... آخر كل بيت منه أولُ للبيت الذي يليه ... » .

فإنها إذا كثُرت سَمُجَت • ألا ترى أنّ العِماد الكاتب ــ رحمه الله تعالى ــ لمّا جعَل كلامه مشحونا بالجِناس لا تكادُ كلمةً تخلو مِن ذلك، ثقُل على الأسماع والقُلوب ، ولم يكن له خِفَّةُ كلام القاضي الفاضل على القلوب •

وقد يكون الشاعر مُجيدا، فيأتي بنوع مِن التَّكلُّف وليس عليه أثرُ الكُلْفة• كقول ابن حمديس :

مُزَرْفَنُ الصّدغِ يسطو لحظُه عبَثا بالخَلقِ ،جذلانَ أنْ أشكُو الهوى ضَحِكا
لا تَعرضَنَّ لورْدٍ فوقَ وجنتِه فإنما نصبَتْه عينُه شَرَكا[1]

فالأول يجمع حُروف المعجم كلَّها على عدم تبين الكُلفة عليه •

وكذلك قولُ القائل[2] :

لَبِقٌ أقبلَ فيه هَيَفٌ كلُّ ما أملِكُ إنْ غَنَّى هِبَهْ

فإن كل كلمتين مِن هذا لا يتغيَّر معناهُما بالانعكاس إلا القافية فإنها في نفسها معلومة • وليس عليه أثرُ الكُلْفة •

ومثله أيضا :

أرضٌ خضرا فيها أهيفْ ساكب كاس[3]

وكذا قول القائل :

أرانا الإلهُ هلالًا أنارا [4]

وكذلك قولُ القائل :

---

(١) ديوان ابن حمديس ص ٥٥٦ ولم يرد فيه سوى البيت .
وقد ورد البيتان في الكشكول ص ٥٤ ومعاهد التنصيص ص ٤٩٢ .
(٢) هو الشاعر كمال الدين ابن النبيه . انظر الغيث المسجم ٢/٤٠٤ . كما ورد غير منسوب في خزانة ابن حجه ص ٤٠ .
(٣) في الغيث المسجم ــ طبعة الإسكندرية سنة ١٢٩٠ ــ ٢/٤٠٤ .
(٤) المصدر السابق ٢/٤٠٤ .

تقتلْ تأثمْ تجورُ تندمَ (١٣١/ب)

إذا عُكِس وصُحِّف كان :

مُذيبَ روحي متى نلتقي

ومثلُه قولُ القائل :

رقَّتْ شمائلُ قاتِلي فلذاك روحي لاتقرّ
رَدُّ الحبيبُ جوابَه فكأنَّه في اللفظ دُرّ[١]

أولُ كلّ بيت ، عكس الكلمة الأخيرة منه . وليس عليه كُلفة .

وأما ابن الأثير ، فكأنه يظُن أنّ الأدب عبارة عن التَّرسُّل فقط ، ولم يعلم أنَّه جزءُ منه وإن كان جزءا كبيراً ، ونوعاً جليلا .

وأقلُّ هذه التَّكَلُّفات استثقالا ما كان كلَّه مُهملا ، لا بل لايُعدّ في شيء مِن الاستثقال ، بل هو خفيف عذْبٌ في السمع والقلب . كقول الحريري :

أعدِدْ لحُسّادِكَ حدَّ السِّلاحْ وأورِدِ الآمِلَ وِرْدَ السَّماحْ[٢]

القصيدة كلّها في غاية الحُسن .

وقد وجدتُ للقاضي الفاضل ــ رحمه الله تعالى ــ خطبة وضعَها لدخُول العام الجديد ، وهي طويلة كلُّها عريٌ عن الإعجام ، وهي في غاية الحُسن . ولولا خوفُ الإطالة لأثبتُّها .

وقد وجدتُ الورّاق الحَظيري قد تكلَّفَ أشياء مِن هذه الأنواع ، مِن ذلك بيتان كُلُّ كلِمة منهما مهموزة . وهما :

بأبي أغيدٌ أذابَ فؤادي إذ تناءى وأظهرَ الإعراضا
رَشَأٌ يألفُ الجفاءَ فإن أقـ .... بلَ أبدى لآمليه انقباضا[٣]

---

(١) المصدر السابق ٤٠٤/٢ .
(٢) شرح الشريشي ١٨٦/٤ المقامة السادسة والأربعون . وهو مطلع لمقطوعة من بضعة أبيات .
(٣) في وفيات الأعيان ١٢٢/٦ .

وفي « انقباض » نظرٌ (١٣٢/أ) ؛ كذ قولُ أبي الطيب :

أُمّيّ أبا الفضلِ المُبرَّ أليّتي لأُيَمِّمَنَّ أجلَّ بحرٍ جَوهَرا[1]

يكون مِن هذا اللزوم ، وفيه مع تكرار الهمز تكرارُ الشدّات .

ومِن ذلك قطعة إذا قُرئت لاتتحرَّك فيها الشَّفتان . وهي :

ها أنذا عاري الجَلَدْ أسهرني الذي رَقَدْ
آهٍ لِعَينٍ نَظَرَتْ إلى غزالٍ ذي غَيَدْ
أريتَني يا ناظري صَيْدَ الغَزالِ للأسَدْ
إنّ الضَّنى لِهَجرِهِ يا عاذلي هَدَّ الجَسدْ
حشا حشايَ إذ نأى نارَ الغضا حينَ شَرَدْ
يا غادِراً غادرني على لَظى نارٍ تَقِدْ
ألاّ اصْطَنعْتَ ناحِلاً لا يشتكي إلى أحَدْ[2]

ومِن ذلك قطعة ، أنصافُها الأُوَلُ مُعجَمَة ، والثواني مُهمَلَة . منها :

بي شَغَفٌ شبَّ بين جنبَيْ دَواؤُهُ الوُدُّ والوِصالُ
يَبُثُّ بِثّي خَفِيَّ غَيْظٍ أحورُ موعودُهُ مُحالُ
زينَ بشيئينِ غنْجِ جَفْنٍ ومِلْحِ دَلٍّ لهُ كمالُ

قال : وعلى هذا الأسلوب ورد قولُ بعضِهم :

---

(١) شرح البرقوقي ٢/٣٢٣ من قصيدة قالها يمدح أبا الفضل محمد بن العميد . مطلعها :

باد هواك صبرت أم لم تصبرا وبكاك إن لم يجر دمعك أو جرى

(٢) في وفيات الأعيان ٦/١٢٢ وجاء صدر البيت الأول « ها أنذا عاري الجسد » . ورواية الصفدي أسلم للمعنى .

وفتىً مِن مازنٍ قد فاقَ أهلَ البَصِرَه
أمُّه مَعرِفةٌ وأبوه نكِرَه[1]

« وهل يُشكُّ في حُسن هذا المعنى ولطافته [2] » .

أقول : (١٣٢/ب) ما أولى هذين البيتين بالشك ، وأحقَ ناظمهما بالصَّك ، أيُّ حُسنٍ فيهما وأيُّ لُطف ، مع هذه الألفاظ المُستَثقلة في استعماله «البَصِرة» بتحريك الصَّاد ، وما فيهما مِن الزِّحاف وإن كان جائزا . وهل فيهما غيرُ ذكر المَعرفة والنكرة ؟ وأيُّ كبير أمرٍ في ذلك ! .

ولو شاء كتَّابُ هذا العصر أن يستعملوا[3] أبواب النحو وألقاب الإعراب مِن أول الفن إلى آخره في أي معنى أرادوا لفعلوه .

أما في النثر ، فقد وجدتُ للقاضي محيي الدين ابن عبد الظاهر ـ رحمه الله تعالى ـ رُقعة كتبها شفاعة على يد شخص إلى كبير . وهي :

« لا زال عَلَم عِلمه مرفوعا أبدا ، وبناءُ مجدِه منصوبا بخفض العدى ، ولا برِحتْ حُروف أقلامه لأفعال الشَّك جازمة ، ووفودُ السُّعود عن أعدائه متعدِّية ولأوليائه لازمة .

« ويُنهى أنَّ فلانا حضر وذكر أنَّ اسمه رُخِّم في غير النداء ، وجُزم والجزم لايدخل على الأسماء ، واستُثني من غير مُوجب بخفضٍ وليس الخفض مِن أدوات الاستثناء ، وادَّعى أنَّ العامل الذي دخل عليه منعَه مِن التَّصرُّف ولزمه لزوم البِناء ، ودخل معه في الشرط وأفردَه بالجزاء ، والمُؤثر ـ أيَّده الله ـ نصَبَ

---

(١) ورد البيتان في قصة وفيها أنهما نظما في المبرد نفسه . أنظر مقدمة البلاغة للمبرد صنعة الدكتور رمضان عبد التواب وأخبار النحويين البصريين ٩٩ ، وبغية الوعاة ١١٦ ، ووفيات الأعيان ٤٤٥/٣ .

(٢) المثل السائر ٢١٥/٣ .

(٣) في الأصل (يستعمل) وصوبتها .

محله على المَدح لا على الإغراء ، ورفع اسمه المُعرّى مِن العوامل على الابتداء ففيه مِن التمييز والظَّرف ما يُوجب له العطفَ ، ومِن العَدل والمعرفة ما يمنعه مِن الصرف . لا زال بابُ مولانا للعائد والصِلَة ، وحالُ مكانته شائعة غيرَ مُنتقِلة » .

فانظر إلى صناعة هذا المنشىء في هذه الرسالة (١٣٣/أ) ما ألطف ما أتى بهذا المصطلح النحوي في معنى الشفاعة والدُّعاء والثناء على مَن شفع له مِن أول كلامه وإلى آخره .

وأمَّا النَّظْم ، فإنه قد عَبث الشعراء به كثيرا ، وهو مشهور . وما أحلى قول البهاء زهير[1] :

لم يقضِ زيدُكُم مِن وصْلِكم وطَرَهْ ولا قضى ليلُه في هجركُم سحَرَه
تركتمُ خبري في الهجرِ مبتدأً وكلُّ معرفةٍ لي في الهوى نكِرَهْ

وما في البيتين اللذين أوردهما ابنُ الأثير غيرَ الكِناية عن المذكور أنَّه ولدُ زنا لا يُعرف أبوه . وما أحسن قول ابن عُنَين[2] يهجو ابن سَيِّده :

قل لابنَ سَيِّدةٍ وإن أضحى له خَوَلٌ تَدِلُّ بكثرةٍ وخيولُ
ما أنتَ إلاّ كالعُقاب فأمُّها مَعلومةٌ ولها أبٌ مجهولُ[3]

(١) البهاء زهير هو زهير بن محمد العتكي بهاء الدين الكاتب . شاعر من الكتاب ولد بمكة ونشأ بقوص (ت بمصر ٦٥٦ هـ) . أنظر وفيات الأعيان ٣٩/١ . وبيتاه في ديوانه ص ٣٨ وجاء في عجز الأول « من قربكم سحره » وفي صدر الثاني « جعلتم خبري » .

(٢) ابن عُنَين واسمه محمد بن نصر الحوراني الدمشقي ، كان هجاء قلّ من سلم من شره حتى السلطان صلاح الدين والعادل . له « مقراض الأعراض » قصيدة في نحو خمسمائة بيت . ترحل وتوفى في دمشق سنة ٦٣٠ هـ ، أنظر وفيات الأعيان ٢٥/٢ ، والنجوم ٢٩٣/٦ .

(٣) وبيتاه في ديوانه ص ٢٣٥ وفيه رواية البيت الثاني :

ما أنت الا كالعُقاب فأمُّهُ معروفةٌ وله أب مجهولُ

[حول السرقات الشعرية]

قال في النوع الثلاثين ، في السَّرِقات الشعرية بعدما أورد بيت ابن الخياط[١] :

أغــارُ إذا آنسْتُ في الحــي أنَّــةً حِــذاراً عليــه أن تكون لِحُبِّهِ[٢]

وبيت عُمارة[٣] :

وهــل دَرى البيتُ أنّي بعد فُرقتِـهِ ماسِرْتُ مِنحَرَمٍ إلاّ إلىحَرَمِ[٤]

إن هذين مسروقان من قول المتنبي :

لو قلتَ للدّنِفِ المَشوقِ فَديْتُهُ ممَّــا بــه لأغَرْتَــهُ بفِـدائِـهِ[٥]

ومن قول أبي تمام يمدح بعضَ الخُلفاء وقد حجَّ :

يا مَن رأَى حَرَماً يَسعى إلى حَرَمِ طُوبى لمُستَلِمٍ يأتي ومُلتزِمِ[٦][٧] »

(١) ابن الخياط واسمه احمد بن محمد التَغلبي الشاعر الدِمشقي الكاتب . ترحل وامتدح (ت ٥١٧ هـ) . انظر وفيات الأعيان ٣١٦/١ .

(٢) وبيته من قصيدة مطلعها :

خذا من صَبَــا نجــدٍ أماناً لقلبِه فقــد كادَ رَيَاها يطيرُ بلُبــه

كما ورد البيت له في خزانة ابن حجة ص ١٩٧ وجاء عجز البيت « حذارا وخوفا ان يكون لحبه » وورد البيت في الغيث المسجم ٢٣٤/١ و ١٨٦/٢ ، وكذلك في تشنيف السمع ص ٢٠ .

(٣) هو عمارة بن علي اليمني . أديب من اليمن ، مؤرخ ثقة وشاعر فقيه ، قرّبه الفاطميون بمصر ورثاهم بعد زوالهم . اتفق مع سبعة على الفتك بصلاح الدين فصلبوا بالقاهرة سنة ٦٩٥ هـ . انظر صبح الأعشى ٥٣٢/٣ ، ومفرج الكروب ٢١٢/١ – ٢١٦ .

(٤) ورد البيت في ريحانه الألبا ٣٨٠/١ بغير نسبة وفيه « وما درى » .

(٥) شرح البرقوقي ٥/١ من قصيدة قالها وقد طلب اليه سيف الدولة إجــازة أبيات لأبي ذرّ سهل بن محمد الكاتب . مطلعها :

القلبُ أعلمُ يا عذولُ بدائِـهِ وأحقُ منــكَ بجفنه وبمائهِ

وقد جــاء في صدر البيت « للدنف الحزين » .

(٦) البيت ليس في ديوان أبى تمــام . وجاء في صــدره في المثــل السائر ٢٢٥/٣ « يسري الى حرم » .

(٧) المثل السائر ٢٢٤/٣ .

وأخذ في الشَّناع على أهل الشام ومصر ، في كونهم خفِي عليهم مثلُ هـذا ، وزاد في التَّعَجُّب (١٣٣/ب) .

أقول : إن سبب خَفاء السرقة في هذين البيتين وغيرهما ، أنّ الأصل يكون ركيكاً غيرَ مُستعمل ولا دائرٍ على الألسنة في المكاتبات والمحاورات والأمثال ، فيأتي بعضُ الشعراء إلى ذلك المَعنى الخامِل، ويُبرزه في صورة حسناء ، ويَسبُكه في قالَب أرشق وألطف مِن الأول ، فيحلو ويعذُب ويتداولُه الناسُ ، ويعود الأول نسْياً مَنسِيا كأنْ لم يكن . كما إذا بدا النَّجْم ثم يبدو البدرُ مِن بعدِه ، فلا يَشتغِل البصرُ بالنجم ويدعُ البدر .

وما أحسن قول أبي تمام :

أعِندَكَ الشمسُ تَزهى في محاسنِها وأنت مُنشغل الأحشاء بالقَمَرِ(١)

ولا يُلتفتُ في الثاني إلاّ إلى حسنه مِن غير بحث عن أصله ، وهل هو مسروق أو مُبتدع . على أن الأديب لو أنَّه ما عسى أن يكون مِن النقل والاطلاع ، ليس في إمكانه استخراجُ كلّ معنى يَمرُّ به مِن غير روية ولا تَتبُّع لذلك . خصوصا فيما عذُب وساغ ، وبرز في صورة غيرِ صورته الأولى .

ولا شكَّ أنّ قول ابن الخياط أعذب مِن قول المتنبي ، ولهذا اشتهر . وكـذا قول عُمارة أحسن وأرق مِن قول أبي تمام ، ولهذا ساغ واشتهر ، واستُعمِل مثلاً على تأخُّر زمانه ، وتقدُّم زمان أبي تمام . خصوصا عجُز بيت عُمارة ، فإنه ذاع وضاع ، وملأ الأفواه والأسماع .

وإذا كان الشيء بالشيء يُذْكَر ، فما أحـلى قول عبد الحكم بـنِ الخطيب

---

(١) البيت في أخبار أبي تمام للصولي ص ١٩٥ وليس في ديوانه .
وجاءت رواية البيت عنده وكذلك في الأغاني ٣٩٧/١٦ كما يلي :

أعندك الشمس لم يحظ المغيب بهـا وأنت مضطرب الأحشاء بالقمر

وفي نسخة أخرى من أخبار أبي تمام ورد البيت :

أعندك الشمسُ قد راقتْ محاسنها وأنت مشتغل الأحشاء بالقمـر

العِراقي[1] في رجل وجَب عليه القتْل ، فرماه المُستوفي للقِصاص بسَهْم فأصاب كَبِدَه فقتَله مِن وقته :

أخرجْتَ من كَبِدِ القوسِ ابنَها فغدتْ تئِنُّ ، والأمُّ قد تَحنو على الولدِ
وما درَتْ أنَّه لما رَميْتَ به ما سار مِن كبدٍ إلاّ إلى كبدِ

وأمّا الغَيرة ، فمِن أبلغ ما جاء في ذلك قول ابن قَلاقس مِن أبيات :

وابلائي من مُخَدَّرةٍ دونَها سورٌ وجُدران
وأُسودٌ خافَ سَطوتَها كلُّ ما حازته خَفّانُ
ورقيبٌ لو يُلاحظُها لتَثنَّى وهو غَيْرانُ[2]

وقول علي بن عبد الله الجَعفري :

ربّما سرّني صدودُك عنّي في طِلابيك وامتناعُك منّي
حَذَراً أن أكونَ مفتاحَ غيري وإذا ما خلوتُ كنتَ التَّمَنّي

وبالغت حفصةُ المَغربيّة[3] في قولها :

أغارُ عليكَ مِن غيري ومِنّي ومنكَ ومِن مكانكَ والزّمانِ
ولو أنّي خبأتُكَ في جفوني إلى يومِ القيامةِ ما كفاني[4]

---

(١) الخطيب العراقي ، هو إبراهيم بن منصور شيخ الشافعية بمصر ، عاد من بغداد فقيل له « العراقي » (ت سنة ٥٩٦ هـ) .
انظر وفيات الأعيان ١/٥، والشذرات ٤/٣٢٣ .

(٢) الأبيات في الغيث المسجم ١/٢٣٤ وجاء في عجز الثاني « كل من حازته » .

(٣) حفصة بنت الحاج الركونية الاندلسية ، شاعرة تفوقت بالظرف والحسن وسرعة الخاطر بالشعر (ت بمراكش ٥٨٦ هـ) انظر معجم الأدباء ١٠/٢١٩ .

(٤) وبيتاها في معجم الأدباء ١٠/٢٢٧ مع بعض التغيير :
أغار عليكَ من عيني وقلبي ومنكَ ومن زمانك والمكانِ
ولو أني جعلتك في عيوني إلى يوم القيامة ما كفاني

وأخذ جمال الدين ابن مطروح بعض هذا وقال :

فلو أمسى على تَلَفي مُصِرا   لقلتُ : مُعذِّبي باللّه زِدْني

ولا تسمحْ بوصلِكَ لي فإني   أغارُ عليك مِنك،فكيف مِنّي

ومنه قول سعد الدين محمد بن عربي :

يا من أغارُ عليه منّي في الهوى   فأصدُّ عنه وقلبيَ المُشتاقُ

صُن حُسن َوجهِكَ عن لِحاظي إنّ لي   قلباً يرى ولناظِري إطراقُ

وما أحسن قول شهاب الدين ابن الخِيَمي [1] :

وعَذولٍ رابَني في نُصحِهِ   كلّما زدتُ هَوىً زادَ لِجاجا

ما عَذولي قطُّ إلا عاشِقٌ   سَتَرَ الغَيرةَ بالعَذْلِ وَدَجى [2]

وقد نظمت أنا في معنى قول ابن الخِيَمي :

تَدَاهى عَذولي في الغَرامِ ولم تكن   مقاصدُه تَخفى على عاشقٍ مِثلي

أَحَبَّ حبيبي ثم غارَ فخافَ أن   أفتحَهُ فيه فسابقَ بالعَذْلِ [3]

(١٣٤/ب)

على أنّ المتنبي في الأصل ، أخذ المعنى من العباس بن الأحنف حيث يقول :

لم ألقَ ذا شجنٍ يبوحْ بحبِهِ   إلا حسبتُك ذلك المحبوبا

حَذَرا عليك وإنني بك واثقٌ   أن لا ينال سوايَ منك نصيبا [4]

---

(١) شهاب الدين ابن الخيمي واسمه محمد بن عبد المنعم ، شاعر أديب يماني الأصل (ت بمصر سنة ٦٨٥ هـ) ، انظر فوات الوفيات ٢/٤٥٨ .

(٢) وبيتاه في الغيث المسجم ٢/٢١٢ وورد عجز الأول « كلما زدت إبا زاد لجاجا »

(٣) في الغيث المسجم ٢/٢١٢ .

(٤) ديوان العباس ص ٢١ وجاء في عجز الأول « إلا ظننتك » . وكذا في فوات الوفيات ٢/٢١٠ .

ومِن الغَيرة قولُ أبي تمام الطائي :

أغــارُ عليــك مِن قُبَلي   وإنْ أعطيتَنــي أمَلــي
وأشفِــقُ أن أرى خَــدَّيــ   ــك نُصْبَ مواقعِ القُبَلِ (١)

ومِن الغيرة قولُ القائل (٢) :

خلَص الهوى لك واصطفتك محبّتي   حتى أغارَ عليكَ مِن مَلَكَيْكــا
وأراك تَخطُر في محاسِنــكَ التــي   هي مِحْنَتي فأغارُ منكَ عليكــا
ولو استطعتُ جرحتُ لفظكَ غَيْرةً   إنّــي أراه مُقبِّــلا شَفَتَيْكــا

وما ألطف قول عبد المُحسن الصُّوري (٣) ، فإنه عكس هذا المَقصد لمّا قال :

تَعلّقتُه سكرانَ مِن خمرةِ الصبا   به غَفلــةٌ عن لَوْعَتــي ولَهيبي
يشاركُني في حُبّه كــلُّ أغيــدٍ   يُشاركُني في مُهجتي بنصيب
فلا تُلزموني غَيْرةً مــا ألِفْتُها   فإنّ حبيبي مَن أحبَّ حبيبــي (٤)

---

(١) ديوان أبي تمام د ــ يونس ص ٣٨٨ .

(٢) هو الخبز أرزي في الوساطة ص ٣٠٨ ، وشرح ديوان المتنبي للعكبري ١٩٤/٤ . وورد البيت الأول :

من لُطفِ اشفاقي ودقةِ غيْرتي   اني أغــار عليــك من ملكيكا

(٣) عبد المحسن بن محمد الصوري ويلقب بابن غلبون . شاعر من أهل صور في بلاد الشام (ت فيها سنة ٤١٩ هـ) انظر وفيات الأعيان ٣٠٨/١ ، واليتيمة ٢٢٥/١ ، والنجوم ٢٦٩/٤ .

(٤) وأبياته في مخطوطة ديوانه (ظــاهرية ١٢٠) وفي اليتيمة ٢٥٩/١ ، والغيث المسجم ٢٣٥/١ ، وجاء في صدر الثاني « وشاركني في مهجتي » وفي صــدر الثــالث : « غيرة ما عرفتها » وفي صدر الثاني في المخطوطة « كل أهيف » وفي الغيث « كل ماجد » .

[الاقتصاد في اللفظ]

قال : « قال بشار بن بُرد » :

مَن راقب الناسَ لم يَظفَرْ بحاجتِهِ   وفازَ بالطَّيِّباتِ الفاتِكُ اللَّهِجُ (١)

« أخذَه سَلْم الخاسِر (٢) ــ وكان تلميذَه ــ فقال :

مَن راقبَ الناسَ مات غمّاً   وفازَ ــ باللذّةِ الجَسورُ (٣)

« فبين البيتين لفظتان في التأليف .. » (٤)

أقول : ما أنصفَ سَلْمَ الخاسِرَ ، وما يقال في هذا : « بينهما لفظتان في التأليف » إذ اللّفظةُ تصدُقُ على الحرفين ، مثل : مَن وعن وما ... وغير ذلك . بل على الحرف الواحد كباء الجر ولامِه ، والأحسنُ في هذا أن يُقال : بينهما تسعةَ أحرف . فإن الأول أربعةٌ وأربعون حرْفا ، والثاني خمسة وثلاثون حرفا (١٣٥/أ) وكذا قول أبي العتاهيةِ :

وإني لمَعذورٌ على فَرْطِ حُبِّها   لِأَنَّ لها وجهاً يَدلُّ على عُذري (٥)

أخذه أبو تمام فقال :

---

(١) ديوان بشار ٧٥/٢ من قصيدة مطلعها :
خَبَّابَ هل لِمُحِبٍّ عندكمْ فَرَجُ   أولا فإني بحبلِ الموتِ معتلجُ

(٢) سلم الخاسر هو سالم بن عمرو . شاعر ماجن ، مدح المهدي والرشيد ، له آخبار مع بشار وأبي العتاهية (ت سنة ١٨٦ هـ) انظر وفيات الأعيان ١٩٨/١ . ٧٧/٦

(٣) وبيته في وفيات الأعيان ٨٧/٦ من قصيدة مطلعها :
بانَ شبابي فما يحورُ   وطالَ من ليلي القصيرُ
وورد البيت في تمام المتون للصفدي مخطوطة ورقة ٣٥ وفي الغيث المسجم ، ٢٤٤/١ وتشنيف السمع ص ٢١ .

(٤) المثل السائر ٢٥٨/٣ « فمن ذلك قول بشار بن برد ... » .

(٥) ديوان أبي العتاهية ص ٥٤٦ من مقطوعة هو مطلعها . وجاء في صدره « على طول حبها » .

لـــهُ وجـهٌ إذا أبصَرْ تَه ناجاكَ عَـن عُذري [١]

الأول أربعة وأربعون حرفا ، والثاني ستة وعشرون حرفا ، فبينهما ثمانية عشر حرفا . وسلِمَ الخاسرُ مِمّن له القُدرة على الاختصار . ألا ترى قوله :

أقبَلْن في رَأَدِ الضُّحى يستُرْنَ وجهَ الشَّمسِ بالشَّمسِ [٢]

وقولُ الآخر :

وإذا الغَزالة في السّمـاءِ تَعرّضتْ وبَدا النّهارُ لوقتِـهِ يترحّلُ
أبدتْ لعـينِ الشَّمسِ عيناً مِثلَها تلقى السَّماءَ بمِثل ما تَستقبلُ

وكذا قولـه أيضا :

سَقَتْني بعينيها الهوى وسقَيْتُها فدَبَّ دبيبَ الخَمْرِ في كلِّ مِفْصَلِ

وقول عبيد الله مِن شعراء الحماسة :

شققْتِ القَلبَ ثمّ ذررْتِ فيهِ هواكِ فِـليمَ والتأمَ الفُطـورُ
تَغَلْغَلَ حيثُ لم يبلغْ شَرابٌ ولا حُزْنٌ ولـم يبلغْ سرورُ [٣]

قال : « وعلى هذا ورد قول ابن الرومي :

كأني أستَدْني بك ابنَ حنِيّةٍ إذا النّزْعُ أدناهُ مِنَ الصّدْرِ أبعَدا [٤]

« أخذَه بعضُ شعراء الشام وهو ابن قسيم الحَموي » فقال (١٣٥/ب)

---

(١) ديوان أبي تمام د . يونس ص ٣٧٥ .

(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣١ والبيت عنده لبشار بن برد . وجاءت روايته:
أقبلْنَ في رأدِ الضَحـاءِ بهـا فستَرْنَ عينَ الشمسِ بالشمسِ
وبذا استقام وزن الشطر الأول .

(٣) الحماسة ـ خفاجي ١٩١/٢ والشاعر هو عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود . وقد ورد في عجز الأول « فالتأم » بالفاء وكذلك في شرح الحماسة للمرزوقي ١٣٥٤/٣ .

(٤) في الغيث المسجم ١٦٢/٢ وزهر الآداب ١١٢/٣ .

فهـو كالسَّهمِ كلّمـا زدْتَه منـ ـك دُنُوّاً بالنَّزْع زادَكَ بُعْدا (١)

أقول : وأخذَه أيضا الأرَّجاني فقال :

فلا تُنكروا حقَّ المَشوقِ فإننـا لنا وعليكمْ أنجُمُ اللَّيلِ تشهدُ
أرانا سهاماً في الهـوى ونـراكمُ حنايا فما تَدنونَ إلاّ لتَبعُدوا (٢)

وكرّره فقال :

قد قَوَّسَ القَدُّ تَوْديعاً وقرَّبَني سَهْماً فأَبْعَدَني مِن حيثُ أدناني (٣)

وكرَّره أيضاً فقـال :

كالسَّهـمِ راميـه يُقرِّبُـه ولأجـلِ بُعْـدٍ ذلك القُرْبُ (٤)

وقـال :

ما ضمَّني يـومَ الرَّحيـلِ هـوىً بـل كـان يُـدنيني ليُبْعِـدَني

وقـال :

والإلْفُ قـد عـانَقَنـي للنَّـوى فالتَفَّ خـدّايَ وخـدّاهُ
كأنـهُ رامَ إلـى غـايـةٍ تنـاولَ السَّهْـمَ بيُمنـاهُ

---

(١) المثل السائر ٣/٢٥٩ والبيت في الغيث المسجم ٢/١٦٣ .

(٢) ديوان الأرجاني ص ١٤٧ من قصيدة يمدح بها مؤيد الدولة كاتب الانشاء للمسترشد بالله . مطلعها :
أأحبابَنا قد شُقتمونا فأسعِدوا ولا تَجمعوا أن تَسهرونا وتَرْقُدوا
وجاء في صدر الأول « ولا تنكروا حق المشوق فانما » وفي صدر الثاني « في الهوى وأراكم » . وورد البيت الأول في الغيث المسجم ١/٢٠٩ .

(٣) ديوان الارجاني ص ٤١٥ من قصيدة مدح بها السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه . مطلعها :
ياموِدعَ السر سرا عند أجفاني ومتبعَ السرِ إيصاءً بكتمانِ

(٤) من قصيدة مدح بها القاضي ناصر الدين في ديوانه ص ٥٥ مطلعها :
عوجـوا عليهـا أيهـا الـركبُ لا عـارَ أن يتساعدَ الصَحْبُ

حتى إذا أدْنـــاهُ مِن صَــدْرِهِ أبعــدَهُ ســاعــةَ أدنــاهُ[١]

وأخذه كُشاجِم قبل الأرّجاني فقال :

أرى وِصالَــكِ لايَصفو لآملِــهِ والهَجرُ يتْبَعُهُ رَكْضاً على الأَثَرِ
كالقوسِ أقربُ سَهمَيْها إذا عطفَتْ عليه، أبعَدُها مِن مَنزِعِ الوَتَرِ[٢]

وكرّر ابنُ الرومي هذا المعنى في موضع آخر فقال :

رأيتُك بَيْنا أنتَ جارٌ وصاحبٌ إذا بك قد ولَّيْتَنَــا ثانياً عِطْفـا
وإنَّك إذ تَحنــو حُنُوَّكَ مُعقِبـاً بِعادا لمَن بادلْتَه الوُدَّ والعَطْفـا
لكالقَوسِ أحنىما تكونُ إذا حَنَتْ علىالسَّهْمِ أدنى ماتكونُ لهقَذْفا[٣]

وولّدَ ابنُ بابَك مِن هذا معنى آخر فقال :

أصبحْتُ في صولجـانِــهِ كُــرَةً يُبعِدُها قربُها مِن الضّــارِبِ[٤]
(١٣٦/أ)

وما أحسن قول ابن المُغلّس[٥] مُلغِزا فيها :

أراد دُنُوّهــا حتَّـى إذا مـا دَنَتْ منـهُ بكَـدٍّ أيِّ كَـدِّ
قـلاهـا ثُـمّ أَتْبَعَها بضَرْبٍ وبَدّلَ قربَهـا مِنه بِبُعْـدِ[٦]

---

(١) في الفيث المسجم ١٦٣/٢ .
(٢) ديوان كشاجم ص ٩٦ وجاء في عجز البيت الأول « **والهجر تتبعــه** » **وفي زهر** الآداب ١١٣/٣ .
(٣) في الفيث المسجم ١٦٢/٢ ، والثالث في زهر الآداب ١١٣/٣ .
(٤) الفيث المسجم ١٦٢/٢ .
(٥) ابن المفلس هو عبد العزيز بن احمد القيسي الأندلسي ، شاعر من أهــل العــلم باللغة والأدب (ت بمصر سنة ٤٢٧ هـ) أنظر وفيات الأعيان ٢٩٦/١ .
(٦) وبيتاه في الفيث المسجم ١٦٣/٢ .

[بين النثر والنظم]

قال في تفضيل النثر على النظم في آخر الكتاب :

« إن الشاعر إذا أراد أن يشرح أمورا متعددة ، ذوات معانٍ مختلفة في شعره ، واحتاج إلى الإطالة بأن ينظم مائتي بيت أو ثلاثمائة أو أكثر من ذلك ، فإنه لا يجيد في الجميع ولا في الكثير منه ، بل يجيد في جزء قليل ، والكثير من ذلك رديء غير مَرضي . والكاتب لا يؤتى من ذلك ، بل يطيل في الكتاب الواحد إطالة واسعة تبلغ عشر طبقات من القراطيس أو أكثر ، وتكون مشتملة على ثلاثمائة سَطْر أو أربعمائة أو خمسمائة . وهو مُجيد في ذلك كلّه .

« وهذا لا نزاعَ فيه ، لأننا رأيناه وقلناه . وعلى هذا فإني وجدتُ العَجَم يفضّلون العربَ في هذه النكتة المشار إليها . فإنّ شاعرهم يذكر كتابا مصنَّفا من أوّله إلى آخره شعراً ، وهو شرح قِصص وأحوال ، يكون مع ذلك في غاية الفَصاحة والبلاغة في لغة القوم ، كما فعل الفِردَوْسي في نظم الكتاب المعروف « شاه نامَه » وهو ستون ألف بيت من الشعر ، يشتمل على تاريخ الفُرس ، وهو قُرآن القوم ، وقد أجمع فصحاؤهم على أنّه ليس في لغتهم أفصح منه ، وهذا لا يُوجد في اللغة العربية على اتساعها وتشعّب فنونها وأغراضها ، وعلى أنه لغة العرب بالنسبة اليها كقطرة من بحر»[1] .

أقول : قد ختم ابن الأثير ــ رحمه الله تعالى ــ كتابه بهذه النكتة التي مال

(١) المثل السائر ١١/٤ « ... وهذا لانزاع فيه لأننا رأيناه وسمعناه وقلناه ... كما فعل الفردوسي في نظم الكتاب المعروف بشاهنامة ... وقد أجمع القوم وفصحاؤهم ... وعلى أن لغة العجم بالنسبة اليها كقطرة من بحر ».

فيها إلى الشعوبية[1] ، وما قال مَعمر بنُ المثنى[2] ولا سهل بن هارون[3] ، ولا ابن غَرسِيَّة[4] في رسالته مثل هذا . وقد وُجِد في أهل اللسان العربي مَن نَظَم الكثير أيضا ، وإن عَدّ هو الفِردوسي ، عددْتُ له مثل ذلك جماعة ، منهم مَن نظم تاريخ المَسعودي [5] نظما في غاية الحُسن ، ومنهم مَن نظم كتاب «كَليلة

(١) وهنا نقرأ للدكتور زغلول سلام أشياء غريبة في محاولة منه للدفاع عن ابن الأثير ، فيقول في الصفدي : « ويتهمه كذلك بأنه نصر النثر على الشعر وأن ذلك من الشعوبية (كذا) . وعجيب هذا التناقض ، فهو حين ينتصر للبيان العربي على بيان اليونان وفلسفتهم يقال إنه جاهل بالفلسفة (انظر حاشية ص ١١٦ من هذه المجلدة) وحين يفضل النثر على الشعر كما حاول كثير من العلماء غيره ولم يكن وحده ــ كما عرفنا ــ انتصارا للقرآن ، يقال إنه شعوبي . . » (تاريخ النقد العربي من القرن الخامس إلى العاشر الهجري للدكتور زغلول سلام ص ٣٣٠ ــ ٣٣١) . ثم يعود الدكتور سلام ثانية إلى هذه النقطة في كتابه عن ابن الأثير في نوابغ الفكر العربي ص ٦٩ ، فيتجاهل كلية سبب الاتهام بالشعوبية، ويحول الأمر إلى موقف طريف من ابن الأثير بقوله :
« ويعرض ضياء الدين لمقارنة طريفة بين الشعر العربي والشعر الفارسي فيقول: وعلى هذا فإني وجدت العجم يفضلون العرب من هذه الناحية المشار اليها أي التقيد بالوزن والقافية . . » .
ولا وجود لهذه العبارة التوضيحية المتعلقة بالوزن والقافية في كلام ابن الاثير، كما أن ابن الأثير نفسه لم يقصد بقوله سوى الكثرة مع الجودة عند العجم ، كما هو واضح في نصه في المثل السائر ٤/١١ .

(٢) معمر بن المثنى أبو عُبيدة النحوي البصري ، من أئمة العلم بالأدب واللغة ومن حفاظ الحديث ، قرأ عليه الرشيد أشياء من كتبه . صنف في مثالب العرب (ت بالبصرة سنة ٢٠٩ هـ) . انظر وفيات الأعيان ٢/١٠٥ ، وطبقات النحويين واللغويين ص ١٩٢ ــ ١٩٥ .

(٣) أنظر زهر الآداب ٢/٢٥٨ .

(٤) ابن غرسيه أبو عامر من أبناء نصارى البَشكَنس ، سُبي صغيرا وأدبه مولاه وتمكن بالعربية وكان شعوبيا ، كتب بذلك رسالة مشهورة (ت ٤٣٦ هـ) ، ورسالة مطبوعة في نوادر المخطوطات انظر المجلد الأول من الطبعة الأولى ٢٤٦ ــ ٢٥٤ .

(٥) المسعودي . واسمه علي بن الحسين من ذرية عبد الله بن مسعود . مؤرخ رحالة بحاثة من أهل بغداد وله مروج الذهب (ت بمصر ٣٤٦ هـ) . انظر الفهرست ٢٢٥ ، وفوات الوفيات ٢/٩٤ ، والنجوم ٣/٣١٥ .

ودِمْنة » في عشرة آلاف بيت (١٣٦/ب) ونظمها أبان اللاّحِقي [١] أيضاً .
وأخبرني الشيخ الإمام الحافظ شمسُ الدين أبو عبد الله محمد الذَّهبي [٢] أنَّ مكي ابن أبي محمد بن محمد بن أبيه الدمشقي [٣] عُرف بابن الدَّجاجية ، نظَم كتاب « المُهذَّب » قصيدة على رويّ الراء سماها « البديعة في أحكام الشريعة » انتهى.
قلت : والمهذَّب في أربع مجلدات .

وبعض المَغاربة امتدح سيدنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في قصيدة عِدّتها ثمانية عشر ألف بيت . ولابن الهَبَّارية [٤] كتاب « الصادِح والباغِم » في ألفي بيت ، كل بيت منها قَصرٌ مَشيد ، ونكته ما عليها في الحسن مزيد ، يشتمل على الحكايات والنوادر والأمثال والحِكَم ، وكلّها في غاية الفصاحة والبلاغة ليس فيها لو ولا ليت .

وأما مَن نَظم الألف وما دونه فكثيرٌ جدا لا يَبلغهم الحَصْرُ ، وأما الشاطبية وما اشتملت عليه مِن معرفة القراءات السبع واختلافها ، وتلك الرُّموز التي ظاهرُها الغزَل وباطنُها العلم ، فكتاب اشتهرَ وظهَر ، وخلب سحرُه الألباب وبهَر ، حتى قال القائل فيها :

---

(١) أبان بن عبد الحميد اللاحقي ، شاعر مكثر من أهل البصرة ، اتصل بالبرامكة ونظم لهم كليلة ودمنة وغيره ، ثم كان من شعراء الرشيد (ت سنة ٢٠٠ هـ) ، أنظر خزانة البغدادي ٤٥٨/٣ ، والنجوم الزاهرة ١٦٧/٢ .

(٢) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي . حافظ أتقن الحديث ورجاله وعرف تراجم الناس (ت سنة ٧٤٨ هـ) أنظر فوات الوفيات ٣٧٠/٢ ، والوافي ١٦٣/٢ ، والدرر الكامنة ٣٣٦/٣ .

(٣) هو محمد بن مكي بن محمد الدمشقي . يقال له ابن الدجاجية . أديب له شعر (ت سنة ٦٥٧ هـ) ، أنظر تراجم القرنين ص ٢٠١ ، وفوات الوفيات ٥٢٦/٢ .

(٤) ابن الهبارية واسمه محمد بن محمد العباسي ، شاعر هجاء ولد ببغداد وترحل (ت في كرمان سنة ٥٠٩ هـ) أنظر الوافي ١٣٠/١ ، والنجوم الزاهرة ٢١٠/٥ .

جـلا الرُّعينيُّ علينـا ضُحى عروسَه البكرَ ويَاما جَـلا
لو رامَها مُبتكِرٌ غيرُهُ قالتْ قوافيها لـه الكلُّ : لا

وأما أراجيز النَّحو والعروض والفقه ، كالذي نظَم الوجيز ومنظومة الحنَفية وغيرُ ذلك من الطب وغيره من العلوم ، فكثيرٌ جدا ، إلى الغاية التي لا يُحيط بها الوَصف .

وما سمِعنا بمَن اشتغل مِن العجم بالعربية إلا وفضل اللغة العربية ، بُرهان هذه الدعوى أنّ أبا علي الفارسي ، وبُندار[1] ، وأبا حاتم[2] والزّمخشري وغير هؤلاء ، لمّا اشتغلوا بالعربية وذاقوا حلاوتها ، هاموا بها وكلِفوا بمحاسنها ، وأفنوا الليالي والأيام في تحصيلها ، وأنفقوا مُـدّةَ العمر في تأليفها وتدوينها وتتبُّع محاسنها (١٣٧/أ) وقواعد أقيستها وغرائب فُنونها ، ومِن المستحيل أن يكون هؤلاء القوم اجتهدوا هذا الاجتهاد في العربية وأفنوا مُدّة العمر وهي مالا يُخلف في شيء هو دون غيره . والأولى بهم وبكل عاقل الاشتغال بالأحسن والأفصح والأبلغ والأحكم ، ولو علم هؤلاء القوم أنّ اللغة الأعجمية لها أفعل التفضيل ، ما عرّجوا على العربية إلاّ ريثما عرفوها ، ثم عاجوا إلى لغتهم .

ومِن الكلِم النّوابغ للزّمَخْشري : « فرقك بين الرطب والعجم ، فرق بين العرب والعجم » .

ومنها : « العرب نَبْعٌ صُلب المعاجم ، والغَرَب مثلٌ للأعاجم » .

فانظر إلى الزمخشري كيف جعل العرب رطبا والعجم عَجَما . والعجم بتحريك الجيم هو النّوى . وكيف جعل العرب مثل شجر النبع ، وهو صلب تُتخذ منه القِسيّ ، وجعل العجم مثل شجر الغَرَب ، وهو خوّار .

---

(١) بندار بن عبد الحميد الأصبهاني ويعرف بابن لرّة . كان متقدما في علم اللغة والنحو ورواية الشعر ، وكان المتوكل يجمع بينه وبين النحويين ، أنظر بغية الوعاة ٤٧٦/١ .

(٢) أبو حاتم السجستاني واسمه سهل بن محمد . من كبار العلماء باللغة والشعر، كان المبرد يلازم القراءة عليه ، له شعر (ت ٢٤٨ هـ) ، أنظر الفهرست ٥٨/١، وبغية الوعاة ٦٠٦/١ .

قال المتنبي :

فلا تَنَلْكَ الليالي إنّ أيديَها إذا ضربْنَ كسرْنَ النبعَ بالغَرَبِ (١)

فإن قلت : ما كان علماء العربية من العجم عالمين باللغة العجمية كما ينبغي ، قلت : أليس أنهم كانوا يعرفون العجمية ، ثم أنهم تمهّروا في العربية وبالغوا في إتقانها • ومن وصل في لغة من اللغات إلى ما وصل إليه أبو علي والزمخشري وغيرهما من معرفة الاشتقاق الأكبر والأصغر والأبنية والتصريف ، في الاسم والفعل الماضي والمضارع والأمر واسم الفاعل والمفعول وصارت له تلك المَلَكة ، كان عندَه من الأهليّة أن ينظُر في كل لغة عرَف لسانَها ، وأن يستخرج قواعدَها ويتتّبع أصولَها ، فيقع على غرائب حكمها ومحاسن قواعدها ، لاشتباك العلوم بعضها ببعض ، واجتماع شملها في الغاية التي أوجبت وضعها • ولا يضع اللغة إلا حكيم •

ألا ترى أنّ بعض النُّحاة رتّب اللغة التركية على القواعد النحوية ، وميَّزَ الاسم من الفعل ، والماضي من المضارع من الأمر ، وضميرَ المُتكلّم من المخاطب من الغائب ، والجمع من الإفراد ، وعلامةَ الجمع ، والمضاف من المضاف إليه (١٣٧/ب) إلى غير ذلك ، وهذا أمرٌ غيرُ خاف •

وأما قوله : إن كتاب شاهنامة ستون ألف بيت ، كلّها في غاية الحُسن من الفصاحة والبلاغة ، وما فيها ما يُعاب ، فإنّ هذه الدعوى لا تُسمَع مجردةً عن البُرهان الذي يؤيّدها •

ومَن يأتي بستين ألف كلمة ، أو بستة آلاف كلمة تكون في غاية الفصاحة في الألفاظ ، والبلاغة في المعنى حتى إنها لا تُعاب بوجه ؟! هذا ليس في قوى البشر في لغة من اللغات •

سلّمْنا أنّ ذلك ما يُعاب في تلك اللغة ، فمن أين لك أنّ جيّد شعر العجم

---

(١) شرح الديوان البرقوقي ١/١٠٩ من قصيدة قالها يرثي أخت سيف الدولة ، وكتبها إليه من الكوفة سنة ٣٥٢ هـ مطلعها :

يا أختَ خيرِ أخٍ يا بنتَ خيرِ أبٍ كنايةً بهما عن أشرفِ النسَبِ

في طبقة جودة شعر العرب . كما تقول : القمر أشدُّ نورا مِن النجوم ، والشمس أشدُّ نورا مِن النجوم ، فالشمس والقمر اشتركا في الفضيلة على النجوم ، ولكنهما في نفسيهما لا يستويان مثلا .

وكلٌّ لهُ فضلُـه والحُجُـو لُ يومَ التفاضُلِ دونَ الغُرَر(١)

فهل جيِّدُ العَجَم مِثل جيِّدِ العرب . كوصف امرىء القيس في الخيل ، والنابغة في الاعتذار ، وزهير(٢) في المدائح ، والأعشى في الخمر ؟ أو كجيِّدِ جرير والفرزدق والأخطل وبشار بن بُرد ومُسلم بن الوليد وأبي نُواس ودِيك الجِن(٣) والحُسين بن الضَّحّاك(٤) والمتنبي وأبي تمام والبُحتري وابن الرُّومي وابن المُعتز وأبي فِراس وغيرهم وإلى هـذا العصر ، وما بـين ذلك مِن الشعراء الذين تغرق قَطَرات العَجَم في لُججِهم ، حتى إنه يقول (١٣٨/أ) : إن ذلك كلَّه جيد لا يُعاب . هل يستويان مثلا في الجَودة من حيث هي :

ألم تر أنّ السيف ينقُصُ قيمةً إذا قلتَ إنّ السيفَ أمضى مِن العصا

وإنما قلَّ الجيِّدُ في الشعر ، لأن البلغاء وعلماء الأدب انتقوا الجيد العالي الذي يكون نهاية في الفصاحة والبلاغة ، وجعلوه أُنموذجا ومثالا يُحذى ، على ما قرَّروه بقُوةِ فكرِهم وصِحة انتقادِهم . فكان ذلك الجيدُ في الطبقة العُليا . ولاجرَم أنّ الساقط مِن الشِعر أكثرُ مِن العالي عند أئمة البلاغة ، وإلا فعلى الحقيقة ،

---

(١) في الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة القسم الأول ــ المجلد الأول ص ١٣٣ وقد ورد فيه غير منسوب .

(٢) هو زهير بن أبي سلمى الشاعر الجاهلي ، متعفف ، توفي قبل البعثة انظر الأغاني ٢٨٨/١ .

(٣) ديك الجن ، واسمه عبد السلام بن رغبان الكلبي الحمصي ، من شعراء العصر العباسي ، فيه مجون ، لم ينتجع بشعره (ت بحمص سنة ٢٣٥ هـ) أنظر وفيات الأعيان ٢٩٣/١ .

(٤) الحسين بن الضَّحّاك ، شاعر من ندماء الخلفاء ، ولد ونشأ بالبصرة وتوفي ببغداد سنة ٢٥٠ هـ أنظر الأغاني ١٦٥/٦ ــ ٢٠٥ ، وتاريخ بغداد ٥٤/٨ .

الذي يَعدّه أربابُ البلاغة من ساقط الشعر يكون جيدا عندَ غيرهم غيرَ مَعيب، إلاّ ما هو ساقط إلى الغاية . وهذه النكتة هي العلة في قِلّة الجيد من الشعر .

ومن أين في شِعر العَجم ما في شِعر العرَب مِن المجاز والاستعارة والكناية والتشبيه والتورية والاستخدام والجِناس ، على اختلاف كل نوع مِن هذه الأنواع وتشعّب أقسامه . الى غير ذلك من أنواع البديع وهو ما يقارب المائة نوع . هيهات ما بينَهما صيغة « أفعل » .

وذكر الحُصَري[1] في « زهر الآداب » أنّ أعرابياً قال لشاعر مِن أهل الفُرس : الشِعر للعرب ، وكلُّ مَن يقول الشعر منكم ، فإنما نَزا على أمّه رجلٌ مِنّا . انتهى[2] .

وقد أنصف ابنُ خَلَف في قوله : « وللعرب بيت وديوان ، وللعجم قصر وإيوان » وأمّا دعواه أنّ الشاعر لايُحسِن في الأكثر ، فالعُذر في ذلك ظاهر . لأنّه في ضائقتين شديدتين إلى الغاية . وهما : الوزن ، ولزوم الروي الواحد . والناثر غير مضطر إلى شيء منهما ، بل هو مُخلّىً ونفسَه ، إن شاء أتى بسجعتين على حرف واحد ، وإن شاء على أكثر ، وإن شاء أتى بالسجعة على عشرين كلمة ، أو على أقل إلى كلمتين . ولو أتى الكاتب برسالة مُطوّلة على حرف واحد في سجعِهِ ، وعددٍ مخصوص مِن كلماتِ السَّجع ، لكان حالُه حالَ الشاعر ، بل كان كلامُه أسمَج وأثقل على الأسماع والقلوب ، لأنّ الشِعر يُروِّجه الوزن ، ولا كذلك النثر . فحينئذ لا يصلُح هذا أن يكون فضيلة في النثر على النَّظْم .

(١) الحصري هو إبراهيم بن علي الأنصاري أبو إسحق . أديب نقاد من أهل القيروان ، صاحب كتاب « زهر الآداب » وله شعر (ت ٤٥٣ هـ) أنظر وفيات الأعيان ١/١٣ .

(٢) ... وزاد عليه جوابَ الرجل الفارسي : « وكذلك من لايقول الشعر منكم فانما نزا على أمه رجل منا ! » انظر زهر الآداب ٣/٥١ .

وكيف ولم يزل للشعرِ مــاءٌ يرِفُّ عليــه ريحــانُ القــلوب[1]
(١٣٨/ب)

وليكن هاهنا آخرُ ما أردتُه مِن الكلام على « المثل السائر » وقد سامحتُه في كثيرٍ سقطُهُ فيه ظاهرٌ .

على أنني لا أُنكِر ما له فيه من الإحسان ، والنُّكَت التي هي لعينِ هذا الفن إنسان فإنه لم يألُ جهدا في التَّوقيف الذي وقَّفه ، ولم يُقصِّر في التَّثقيف الذي ثقفه .

وقد نبَّه على مَحزَّات هذا الفن ، وأشار إلى اقتناص ما شرَد منه وما عنَّ . وإذا اتَّفق للكاتب أو الشاعر مراجعةُ « المثل السائر » و « الفلك الدائر » وهــذه الأوراق ، فلا مِرية في أنَّ ذلك يفيده فوائد جمَّة ، ويتنبَّهُ لموارد الخطأ فيجتنبُها، ويتيقظُ لمواقع الحُسن فينتجِعُها .

وقد أهديتُها لك وهي عنــدي على الأيــامِ من أزكى الهدايــا

ولله الحمدُ أولاً وآخراً ، والصلاةُ على سيدنا محمد وآله وصحبه الطَّيِّبين الطَّاهِرين والسَّلامُ .

---

(١) ذكر الجرجاني في الوساطة ٢٠ أن البيت لأبي تمام من قصيدة قالها في يوسف السراج شاعر مصر في وقته . وليس البيت في ديوانه .

« الفهارس »

* الموضوعات
* الآيات
* الأحاديث
* القوافي
* الأمثال
* الكتب
* القبائل
* البلدان والأمكنة
* الأعلام
* المصادر والمراجع

« فهرس الموضوعات »

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
الأحاجي والمغالطات في مقامات الحريري	٣٣٦
أمثلة على الألغاز الحسان ومناقشة حول ذلك	٣٣٧
الفرق بين الإلغاز والوصف : أمثلة من وصف السفن	٣٣٧
مناقشة الصفدي لابن الأثير في تعليقه على لغز في حمّام	٣٤١
من أقوالهم في الحمام	٣٤٢
أمثلة على الألغاز الحسان ومناقشة الفرق بين اللغز والتعريض	٣٤٦
الفرق بين اللغز والتعريض	٣٤٧
المبادىء والافتتاحات	٣٥٠
إفتتاحات الكتاب بآية أو حديث أو بيت شعر	٣٥٥
في التخلص والاقتضاب	٣٥٨
التخلص في القرآن الكريم	٣٦٢
نماذج من التخلص في إنشاء ابن الأثير	٣٦٣
التناسب بين المعاني ومناقشة أمثلة من ذلك	٣٦٣
مناقشة ابن الأثير في الاقتصاد والتفريط والإفراط	٣٦٥
المفاضلة بين التسميتين : الإرصاد والتوشيح	٣٦٨
حول السرقات الشعرية	٣٧٥
الاقتصاد في اللفظ	٣٨٠
بين النثر والنظم	٣٨٤

((فهرس الآيات))

((أ))

((الصفحة))

« الصفحة »

« و »

« ي »

« فهرس الأحاديث »

« فهرس القوافي »

« الهمزة »

((الباء))

((ب))

القافية		البحر	العدد	الشاعر	الصفحة
الا أن نهج المجد	مرهوبُ	الطويل	١٤	عز الدين ابن أبي الحديد	٤٨ ـ ٤٩
فان كان من در	لعجيب	الطويل	١	؟	٩٢
أشبب لكن بالمعالى	أنسب	الطويل	٢	الصاحب ابن عباد	١١٤
تذكرت عيشا مر	واهب	الطويل	٣	الصفدي	١٤٩
كأن اهازيج	محاريب	الطويل	١	أبو بكر ابن سعد البطليوسي	٢٠٢
خاف الملال	يحتجب	البسيط	٢	الخبز ارزي	٢٣٠
وقالوا انتبه	عجيب	الطويل	٢	الأرجاني	٢٣٣
وقالوا شباب المرء	ريبُ	الطويل	٢	؟	٢٣٧
وغانية لم تعد كالسهم رامية	القربُ	الطويل	٢	ابن سناء الملك	٢٤٩
يقربه	يحبه	السريع	١	الأرجاني	٣٨٢
وحقك لو ادخلتني	خطبُه	الطويل	٦	عزالدين بن أبي الحديد	٤٥
علمنا بهذا القول	صوابُ	الطويل	١١	الصفدي	٤٥ـ٤٦
أيا بومة قدعششت	غرابُها	الطويل	١	الشافعي	٢٣٤
محلقة دون السماء	سحابُها	الطويل	٣	كعب الأشقري	٢٧٠
كأن مثار النقع	كواكبُهْ	الطويل	١	بشار بن برد	١٨٧
وما مثله من الناس	يقاربُهْ	الطويل	١	الفرزدق	٣١٧
لست أعتد للفتى	نسبُهْ	المنسرح	١	البحتري	١٢٨
وقد خفقت راياته	تحاسبُه	الكامل	١	القاضي الفاضل	٢٢١
أساء فزادته	حبيبُ	الطويل	٢	ابو فراس	٢٤٨

« دِ »

((رِ))

((القافية))		((البحر))	((العدد))	((الشاعر))	((الصفحة))
وكاس بدا كسرى	الخمرِ	الطويل	٣	أبو تمام بن رباح	١٩٧
فردا يعنيه ذبان	أسوارِ	البسيط	١	الأخطل	٢٠٢
يا طائر الحسن	طائرِ	السريع	١	ابن سناء الملك	٢٢٣
وطائر حسن طار	طائرِ	الطويل	١	ابن سناء الملك	٢٢٣
ألف المياه مشاكلا	يصبرِ	الكامل	٣	التنوخي	٢٣١
صدت شرير وازمعت	الغدرِ	الكامل	٢	ابن المعتز	٢٣٤
ويجعل البرقمحا	للشعرِ	البسيط	٢	أبو الطروق	٢٤٠
ولما اقتحمت الوغى	بالمغفرِ	المتقارب	٢	المعتمد بن عباد	٢٧٧
يا مؤثرا قصدي حماه	أميرِ	الكامل	٢	مجير الدين محمد بن تميم	٣٢٦
وإذا الثنية أشرقت	عبيرِ	الكامل	٢	التلعفري	٣٢٦
وكم ليلة بتها معسرا	اليسرِ	الطويل	٢	أبو الحسين الجزار	٣٢٧
أناشده الرحمن	الحشرِ	الطويل	٢	؟	٣٢٨
لا تأمنن فزاريا خلوت	بأسيارِ	البسيط	١	سالم بن داره	٣٤٦
ونرجس خضل تحكى	كافورِ	البسيط	٢	أبو عبد الله السنبسي	٣٦٠
فالوجد لي وحدي	للظاهرِ	السريع	١	ابن سناء الملك	٣٦٠
وجدي وإن كنت	أسمرِ	الكامل	١	ابن الساعاتي	٣٦٠
جسرت على لثم	سكرِ	الطويل	٢	أبو الحسين الجزار	٣٦١
أعندك الشمس تزهى	بالقمرِ	البسيط	١	أبو تمام	٣٧٦

«القافية»		«البحر»	«العدد»	«الشاعر»	«الصفحة»
«س»					
«سُ»					
الا إن شراب المدام ورمل كأوراك	وسواس	الطويل	٢	ابن سناء الملك	١٩٨
العذارى	الحنادسُ	الطويل	١	ذو الرمة	٢٦٧
عرض للذي تحب	ابليسُ	الخفيف	١	أبو حفص الشطرنجي	٢٤٥
ودار ندامى عطلوها	دارسُ	الطويل	١	أبو نواس	٣١٥
أقمنا بها يوما ويوما	خامسُ	الطويل	١	أبو نواس	٢٩٦
رايت خضاب المرء	يلبسُ	الطويل	١	ابن الرومي	١٠٣
وغاب من الأكواس	فريسُها	الطويل	٢	ابن بطال البطليوسي	١٩٧
«سَ»					
اسقنيها بنت كرم	خمسا	مجزوء الرمل	٢	؟	٢٧٧
«سِ»					
وليس يعاب المرء	بالأمسِ	الطويل	١	أوس بن حجر	٥٧
إن انت اصبحت	باسِ	مخلع البسيط	٢	الصفدي	١٤٩
ساق يريني قلبه	قاسِ	السريع	١	الشاب الظريف	٢١١
افرغت في الزجاج	نفسِ	الخفيف	١	البحتري	٢٢٧
أبصرته والكأس	خمسِ	السريع	٢	ابن الرومي	٢٧٢
خدٌ متي قلت ان الورد	قسِ	البسيط	١	؟	٢٩٩
ما أصفر دار على أبيض	قاسِ	السريع	٢	الصفدي	٣٤١
اقبلن في رأد	بالشمسِ	مجزوء الرجز	١	سلم الخاسر	٣٨١

	((القافية))	((البحر))	((العدد))	((الشاعر))	((الصفحة))
يابأبي معـــاطف وأعين	نابلُ	الرجز	٢	عفيف الدين التلمساني	١٥٨
لا تطلبن بآلة لك	مفزلُ	الكامل	٢	المعري	١٤٨
وإنما يبلغ الإنسان	شملالُ	البسيط	٢	المتنبي	١٧٤
أقسم بالله والآية	مسؤول	السريع	٥	السيد الحميري	٢٢٩
ولما رأيت الشيب	واصلُ	الطويل	١	؟	٢٣٨
أعدلثقةلوأنواصل	واصلُ	الطويل	١	؟	٢٤٠
ما لنا كلنا جو يا رسول	المتبولُ	الخفيف	٣	المتنبي	٢٥٩
بتنا ونحن عـــلى الفرات	النيلُ	الكامل	٢	ابن ماضي مسيلة	٢٧٣
يا بدر يا بحر يا غمامة	رجلُ	المنسرح	١	المتنبي	٢٨٧
وكأن ضوءالشمس	خلاخلُ	الكامل	٢	محيي الدين ابن عبد الظاهر	٢٩٨
ونخلة قـــد علت سموا	الجبالُ	مخلع البسيط	٢	الشريف الناسخ	٣٠٢
وصادحة تردولي	تقولُ	الوافر	٢	مجيرالدينمحمدابنتميم	٣٢٩
وما كنت مجنون الهوى	عاقلُ	الطويل	٢	شمس الدين محمد ابن التلمسائي	٣٣١
بي شغف شب	الوصالُ	مخلع البسيط	٣	؟	٣٧٢
قل لابن سيدة	خيولُ	الكامل	٢	ابن عنين	٣٧٤
وإذا الغزالة في المساء	يترحلُ	الكامل	٢	؟	٣٨١
وإني لراض منك	بلابله	الطويل	٣	جميل بثينه ـ او لابن الدمنية	٢٥٣
وإني لمعتاد لحمل	حامله	الطويل	٢	أبو الحسين الجزار	٣٢٣

« فهرس الامثال »

« فهرس الكتب »

« فهرس القبائل »

« فهرس البلدان والأمكنة »

« فهرس الاعلام »

((الباء))

((الخاء))

((الزاء))

((السين))

((الشين))

((الصاد))

((الغين))

((الاسم))	((الصفحة))
محمد بن رضوان (الشريف الناسخ)	٣٠٢
محمد بن السري (أبو بكر ابن السراج)	٨٣
محمد بن سعيد (ابن شرف القيرواني)	١٨١ ، ٣٠٨
محمد بن سعد بن أبي وقاص	٧٤
محمد بن سعيد (أبو الوليد ابن الجنان)	٢٢٠
محمد بن السيد البطليوسي	٣٤٩
محمد بن طلحة بن عبيد الله	٧٤
محمد بن الطيب أبو بكر الباقلاني	٢٨٨
محمد بن العباس الخوارزمي	٢٢٤
محمد بن عبد الرحمن الخراساني المسعودي	٥٨ ، ٥٩
محمد بن عبد الرحمن بن عوف	٧٤
محمد بن عبد الله (المهدي)	٧٢ ، ٢٩٥
محمد بن عبد الله (جمال الدين ابن مالك)	٨٤ ، ١٢٣
محمد بن عبد الله السلامي	٢٠٣
محمد بن عبد الله (ابن الأبار)	١٢٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩
محمد بن عبد الله الخطيب	٢٠٦
محمد بن عبد الملك (ابن زهر الإشبيلي)	١١٢
محمد بن عبد الملك (ابن الزيات)	٢٢٥
محمد بن عبد المنعم (شهاب الدين ابن الخيمي)	٣٧٨
محمد بن عبد الواحد (أبو عمر الزاهد)	٢٢٩
محمد بن عبدون	٨٠
محمد بن عبيد الله (سبط التعاويذي)	١٠٥ ، ١١٤ ، ٢٦١ ، ٢٦٣
محمد بن علي بن أبي طالب (ابن الحنفية)	٧٤

« الاسم »	«الصفحة»
المغيرة بن عبد الله الأسدي	٢٠٢
أبو المقدام الخزاعي	١٠٢
مكي بن أبي محمد الدمشقي (ابن الدجاجية)	٣٨٦
الملك الناصر (يوسف بن أيوب)	
المنخّل بن مسعود اليشكري	١٩٩
المنذر بن أبي سبرة	٢٣٧
المهدي (محمد بن عبد الله)	
مهيار بن مروزيه الديلمي	٢١٠
أبو موسى الأشعري = عبد الله بن قيس	
موسى بن محمد (الهادي)	٧٢
موسى بن يغمور (جمال الدين)	٣٦١
ابن مولاهم المصري	٢٩٦
ابن ميمــون	٦٤
ميمون بن قيس الأعشى	٢٩٥

« النون »

النابغة = زياد بن معاوية	
النــاشىء	٢٠٠
ابن النقيب = حسن بن النقيب	
ابن النبيه = علي بن محمد	
النجاشي = قيس بن عمر	
نصر بن أحمد البصري (الخبز أرزي)	٢٣٠ ، ٣٧٩
نصر بن بصاقة	٣٦١

« الهاء »

« فهرس المراجع ومصادره »

الإحاطة في اخبار غرناطة ـ لسان الدين ابن الخطيب — تحقيق محمد عبد الله عنان ـ دار المعارف بمصر ١٣٧٥ ـ ١٩٥٥

أخبار أبي تمام للصولي — تحقيق خليل محمود عساكر ، ومحمد عبده عزام ، ونظير الإسلام الهندي . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٧ ـ ١٩٣٧

أخبار السيد الحميري ـ للمرزباني — تحقيق محمدهاديالأميني . النجف ١٩٦٥

أخبار النحويين البصريين للسيرافي — تحقيق فرتيس كرنكو بيروت ١٩٣٦

إرشاد الأريب لياقوت الحموي — تحقيق مرجليوت الطبعة الأولى . مطبعة هندية بالموسكي مصر سنة ١٩٢٥

أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير — بعناية مصطفى وهبي المطبعة الوهبية سنة ١٢٨٠ هـ

أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم للصولي — نشره ج. هيورث الطبعة الاولى ـ مطبعة الصاوي بالقاهرة سنة ١٣٥٥ ـ ١٩٢٦

الأشباه والنظائر للخالديين — تحقيق د. السيد محمد يوسف . مطبعة لجنة التأليف والترجمةوالنشر سنة١٩٥٨

الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني

الأصمعيات — تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون دار المعارف بمصر ـ الطبعة الثانية ١٩٦٤

الأعلام للزركلي	الطبعة الثانية
الأغـاني	نسخة مصورة عن مطبوعة دار الكتب المصرية
الإقناع للصاحب بن عباد	تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين ببغداد سنة ١٩٦٠
أمالي ابن الشجري	حيدر آباد سنة ١٣٤٩
أمالي الزجاجي	تحقيق عبد السلام هارون القاهرة سنة ١٣٨٢ هـ
كتاب الأمثال	لزيد بن رفاعة الطبعة الأولى ١٣٥١ هـ
انباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي	تحقيق ابو الفضل ابراهيم مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٧٤ ــ ١٩٥٥
البابليات لمحمد علي اليعقوبي	مطبعة الزهراء في النجف ١٣٧٠ ــ ١٩٥١
البداية والنهاية لابن كثير	مطبعة السعادة بمصر
البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع الشوكاني	مطبعة السعادة ــ الطبعة الأولى ١٣٤٨ هـ
البديع لابن المعتز	تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ــ مطبعة البابي الحلبي ١٣٦٤ ــ ١٤٩٥
بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس لابن عميرة الضبي	
بغية الوعاة للسيوطي	تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ــ البابي الحلبي
البلاغة للمبرد	تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب ، فصلة من حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس المجلد التاسع ١٩٦٤

البيان والتبيين للجاحظ — تحقيق عبد السلام هارون . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

تاريخ بغداد للخطيب البغدادي — بعناية محمدسعيد العرفي . مطبعةالسعادة بمصر الطبعة الأولى ١٣٤٩ ـ ١٩٣١

تاريخ أبي الفداء . الطبعة الأولى الحسينية سنة ١٣٢٥

تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان — مراجعة الدكتور حسين مؤنس .دارالهلال

تاريخ الحكماء للقفطي — ليبسك ١٣٢٠.

تاريخ الطبري — مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٣٥٨ـ١٩٣٩

تاريخ العرب مطول ـ لفيليب حتى ورفاقه — دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع الطبعة الثانية ١٩٥٣

تذكرة الحفاظ للذهبي — مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الهند ـ الطبعة الثالثة ١٩٥٦ .

تراجم رجال القرنين السادس والسابع لأبي شامة — تحقيق محمد زاهد الكوثري وعزت العطار الحسيني ـ الطبعة الأولى ١٩٤٧

تعريف القدماء بأبي العلاء — بإشراف د. طه حسين مطبعة دار الكتب القاهرة ١٣٦٣ ـ ١٩٤٤

تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني — مطبعة مجلس دائرة المعارف ـ حيدر آباد بالهند ـ الطبعة الأولى ١٣٢٦ هـ

التمثيل والمحاضرة للثعالبي — تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو . مطبعة البابي الحلبي ـ دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة ٣١٨١ ـ ١٩٦١

جامع الأصول من أحاديث الرسول (ص) لابن الأثير — تصحيح محمد حامد الفقي . إشراف الشيخ عبد المجيد سليم مطبعة السنة المحمدية . الطبعة الأولى ١٣٦٨ ـ ١٩٤٩

الجامع في أخبار أبي العلاء المعري وآثاره لمحمد سليم الجندي وعبد الهادي هاشم — مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٣٨٢ ـ ١٩٦٢

الجامع الصغير للسيوطي — دار القلم سنة ١٩٦٦

جمهرة العسكري ـ محمد ابو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش ١٩٦٤

جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري) الباب الحلبي — الطبعة الثانية ١٣٧٣ ـ ١٩٥٤

جامع كرامات الأولياء للنبهاني — مطبعة دار الكتب العربية الكبرى بمصر

جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس للحميري — تحقيق محمد بن تاويت الطنجي . مكتب نشر الثقافة الإسلامية عزت العطار الحسيني مطبعة السعادة بمصر ١٣٧٢ هـ

حماسة ابن الشجري — المطبعة العثمانية ـ حيدر آباد ١٣٤٥ هـ

حماسة أبي تمام — محمد عبد المنعم خفاجي . مطبعة محمد علي صبيح واولاده ١٣٧٤ هـ ـ ١٩٥٥

الحماسة البصرية ـ لصدر الدين البصري — تحقيق د. مختار الدين احمد ـ مطبعة مجلس المعارف العثمانية بحيدر آباد . الطبعة الأولى ١٣٨٣ ـ ١٩٦٤

حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للحافظ الاصبهاني — مطبعة السعادة بمصر الطبعة الأولى ١٣٥٢ ـ ١٩٣٣

خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الكاتب — قسم شعراء مصر . أحمد امين . د. شوقي ضيف د. إحسان عباس مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ج ١ ـ ١٩٥١ ج ٢ ـ ١٩٥٢

خريدة القصر للعماد ـ قسم شعراء الشام	د. شكري فيصل ـ المطبعة الهاشمية بدمشق ج١ ١٣٧٥ ـ ١٩٥٥ ج٢ ١٣٧٨ ـ ١٩٥٩
خزانة الأدب للبغدادي	المطبعة الأميرية ببولاق ـ الطبعة الأولى
الخصائص لابن جني	تحقيق محمد علي النجار ـ مطبعة دار الكتب بالقاهرة ١٣٧٤ ـ ١٩٥٥
خطط المقريزي (المواعظ والاعتبار)	مطبعة النيل بمصر ١٣٢٦ هـ
الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي الدمشقي	تحقيق جعفر الحسني . مطبعة الترقي بدمشق ١٩٥١
الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة لابن حجر العسقلاني	المطبعة العثمانية حيدر آباد الطبعة الأولى ١٣٤٩ هـ
دمية القصر للباخرزي	تحقيق محمد راغب الطباخ . المطبعة العلمية بحلب الطبعة الأولى ١٣٤٨ ـ ١٩٣٠
الديارات للشابشتي	تحقيق كوركيس عواد . مطبعة المعارف ببغداد ١٩٥١
ديوان الأرجاني	بإشراف أحمد الأزهري ـ مطبعة جريدة بيروت ١٣٠٧ هـ
ديوان امرىء القيس	تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ـ دار المعارف بمصر ١٣٧٧ ـ ١٩٥٨
ديوان أوس بن حجر	صنعة حسن السندوبي . المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٤٩ ـ ١٩٣٠
ديوان البحتري	كرم البستاني ـ دار صادر بيروت ١٣٨١ ـ ١٩٦٢

ديوان البحتري	تحقيق حسن كامل الصيرفي ـ دار المعارف سنة ١٩٦٣
ديوان بشار بن برد	محمد الظاهر عاشور ـ محمد رفعت فتح الله ـ محمد شوقي أمين ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٩ ـ ١٩٥٠
ديوان البهاء زهير	المطبعة الازهرية المصرية بإدارة محمد رمضان . الطبعة الأولى ١٣١١ هـ
ديوان أبي تمام بشرح التبريزي	تحقيق محمد عبده عزام ـ دار المعارف بمصر
ديوان أبي تمام	تقديم د. عبد الحميد يونس وعبد الفتاح مصطفى مكتبة صبيح وأولاده بمصر ١٣٦١ ـ ١٩٤٢
ديوان التلعفري ـ المطبعة الأدبية ببيروت ١٣١٠ هـ بمعرفة محمد سليم الأنسي	
ديوان جمال الدين ابن مطروح	مطبعة الجوائب بالقسطنطينية الطبعة الأولى ١٢٩٨ هـ
ديوان جميل بثينة	تحقيق د. حسين نصار ـ دار مصر للطباعة
ديوان أبي الحسن التهامي	مطبعة الأهرام بالإسكندرية ـ إدارة الأهرام ١٨٩٣ م
ديوان ابن أبي حصينة	بتحقيق محمد أسعد طلس ـ جزءان
ديوان ابن حمديس	صححه وقدم له د. إحسان عباس ـ دار صادر بيروت سنة ١٣٧٩ هـ ١٩٦٠ م
ديوان ابن خفاجة	كرم البستاني . دار صادر بيروت ١٣٨١ ـ ١٩٦١

ديوان ابن الدمينة	تحقيق احمد راتب النفاخ ـ مطبعة المدني ١٣٧٨ ـ ١٩٥٩ م
ديوان ذي الرمة	تحقيق كارليل هنري هين مكارتني ـ مطبعة كلية كمبردج ١٣٣٧ ـ ١٩١٩
ديوان ابن رشيق القيرواني	تحقيق د. عبد الرحمن ياغي ـ دار الثقافة بيروت
ديوان ابن الرومي	كامل كيلاني ـ تقديم عباس العقاد ـ مطبعة التوفيق الأدبية في (٣) أجزاء
ديوان ابن زيدون	شرح وتحقيق محمد سيد كيلاني ـ مطبعة البابي الحلبي ـ الطبعة الثانية ١٩٥٦ م
ديوان ابن زيدون ورسائله	تحقيق على عبد العظيم ـ مطبعة نهضة مصر بالفجالة سنة ١٩٥٧ م
ديوان ابن الساعاتي	تحقيق أنيس المقدسي ـ المطبعة الأميركانية بيروت ١٩٣٩ ـ جزءان
ديوان ابن سناء الملك	تحقيق د. محمد عبد الحق ـ مطبعة مجلس دائرة المعارف ـ حيدر آباد بالهند ـ الطبعة الأولى ١٣٧٧ هـ ـ ١٩٥٨ م
ديوان الشاب الظريف	المطبعة الأهلية ببيروت سنة ١٣٢٤ هـ برخصة مجلس معارف ولاية بيروت
ديوان الشافعي	تحقيق زهدي يكن ـ دار الثقافة بيروت سنة ١٩٦١ م
ديوان الشافعي	تحقيق وجمع عبد العزيز سيد الأهل ـ المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية ١٣٨٦ ـ ١٩٦٦ م
ديوان الصاحب بن عباد	تحقيق محمد حسن آل ياسين ـ مطبعة المعارف ببغداد ـ الطبعة الأولى ١٩٦٥ م

ديوان صردر	مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ـ الطبعة الأولى ١٣٥٣ ـ ١٩٣٤ م
ديوان طرفة بن العبد	تحقيق كرم البستاني ـ مكتبة صادر بيروت
ديوان العباس بن الأحنف	مطبعة الجوائب بالقسطنطينية ـ الطبعة الأولى ١٢٩٨ هـ
ديوان أبي العتاهية	تحقيق د. شكري فيصل ـ مطبعة جامعة دمشق ١٣٨٤ ـ ١٩٦٥ م
ديوان علي بن الجهم	تحقيق خليل مردم بك ـ المطبعة الهاشمية بدمشق ١٣٦٩ هـ ـ ١٩٤٩ م
ديوان ابن عنين	تحقيق خليل مردم بك مطبعة دمشق ١٩٦٥ ـ ١٩٤٦ م
ديوان الغزي	الكتب الظاهرية بدمشق ـ مصورة عن نسخة عمر بن محمد شبل العلوي ـ دار مخطوطة دار الكتب المصرية (١٠٩٩)
ديوان ابن الفارض	دار صادر بيروت ١٣٧٦ هـ ـ ١٩٥٧ م
ديوان أبي الفتح البستي	مطبعة جمعية الفنون ـ بيروت ١٢٩٤ هـ
ديوان أبي فراس	رواية ابن خالويه ـ دار صادر للطباعة والنشر بيروت ١٩٥٩ م
	دار صادر بيروت ١٣٨٠ هـ ١٩٦٠ م جزءان
ديوان القاضي الفاضل	تحقيق د. أحمد أحمد بدوي ـ مراجعة إبراهيم الأبياري ـ مطابع دار الكتاب العربي ـ الطبعة الأولى ١٩٦١ م
ديوان ابن قلاقس	مطبعة الجوائب بإشراف خليل مطران سنة ١٩٠٥ م
ديوان كشاجم	المطبعة الأنسية ـ بيروت سنة ١٣١٣ هـ

ديوان محمد سبط بن التعاويذي	تحقيق مرجليوث ـ مطبعة المقتطف١٩٠٣م
ديوان المعتمد بن عباد	تحقيق احمد أحمد بدوي وحامدعبدالمجيد بإشراف د. طه حسين . المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٣٧٠ ـ ١٩٥١ م
ديوان ابن المعتز	كرم البستاني ـ دار صادر بيروت ١٣٨١ ـ ١٩٦١ م
ديوان مهيار الديلمي	مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٣٤٤هـ ١٩٢٥ م
ديوان النابغة الذبياني	تحقيق كرم البستاني ـ دار صادر بيروت ١٩٥٣ م
ديوان أبى نواس	دار صادر بيروت ١٣٨١ ـ ١٩٦٢ م
ديوان ابن هانىء	تحقيق وشرح كرم البستاني ـ دار صادر بيروت سنة ١٩٥٢ م
الذخيرة لابن بسام	
ذيل مرآة الزمان لليونيني ـ حيدر آباد	الطبعة الأولى ١٣٧٤ ـ ١٩٥٤ م
الرسالة المستطرفة لابن جعفر الكتابي	الطبعة الأولى بيروت سنة ١٣٣٢ هـ
ابن رشيق لعبد العزيزالميمني الراجكوتي	المطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٤٣ هـ
رغبة الآمل من كتاب الكامل لسيد علي المرصفي	مطبعة النهضة بمصر ـ الطبعة الأولى ١٣٤٨ ـ ١٩٣٠
الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة	مطبعة وادي النيل ١٢٨٧ هـ
ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيالشهاب الدين الخفاجي	تحقيق عبد الفتاح الحلو ـ البابي الحلبي ١٣٨٦ ـ ١٩٦٧ م
زبدة الحلب من تاريخ حلب لابن العديم	تحقيق د. سامي الدهان . دمشق ١٣٧٠ ـ ١٩٥١ م

زهر الآداب وثمر الألباب للحصري القيرواني	تحقيق د. زكي مبارك ـ المطبعة الرحمانية
السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي	تحقيق محمد مصطفى زيادة ـ مطبعةلجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة الطبعة الثانية ١٩٥٦ م
سمط اللآلي للأويني	تحقيق عبد العزيز الميمني . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٤ـ ١٩٣٦م
شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي	عنيت بنشره مكتبة القدسي سنة ١٣٥١ هـ
شرح أدب الكاتب للجواليقي بالقاهرة سنة ١٣٥٠	نشر مكتبة القدس بتقديم الرافعي
شرح اشعار الهذليين صنعة أبي سعيد السكري	تحقيق عبد الستار فراج مطبعة دار العروبة بالقاهرة ١٩٦٥ م
شرح ديوان الحماسة للمرزوقي	تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . الطبعة الأولى ١٣٧١ ـ ١٩٥١ م
شرح ديوان صريع الفواني	تحقيق . سامي الدهان ـ طبع دارالمعارف بمصر
شرح ديوان كثير عزة	صنعة الشيخ هنري بيرس . مطبعة جول كربونل بالجزائر سنة ١٩٣٠ م جزءان
شرح ديوان المتنبي للبرقوقي	المطبعة التجارية الكبرى ـ الطبعة الثانية ١٩٣٨ م في أربعة أجزاء
شرح ديوان المتنبي للبرقوقي	مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٣٥٧ ـ ١٩٣٨
شرح ديواهد المغني للسيوطي	طبع في القاهرة ١٣٢٢ هـ
شرح المعلقات السبع للزوزني	المطبعة التجارية الكبرى بمصر ١٣٨٠ ـ ١٣٨٠ ـ ١٩٦١ م

شرح مقامات الحريري للشريشي — باشراف محمد عبد المنعم خفاجي ـ الطبعة الأولى ١٣٧٢ ـ ١٩٥٢ م

شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد — دار إحياء الكتب العربية . عيسى البابي الحلبي وشركاه . تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم الطبعة الأولى ١٣٧٩ ـ ١٩٥٩ م

شعراء الحلة للخاقاني — المطبعة الحيدرية في النجف ١٣٧٢ـ١٩٥٢ منشورات دار البيان

شعراء النصرانية بعد الإسلام — لويس شيخو اليسوعي

الشعر والشعراء لابن قتيبة — تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ـ دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٦ م

صبح الأعشى للقلقشندي — المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٣٣٣ ـ ١٩١٥ م

صفة جزيرة الأندلس للحميري — تحقيق بروفنسال . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٧ م

صفة الصفوة لابن الجوزي — دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد بالهند الطبعة الأولى سنة ١٣٥٥ هـ

الصلة لابن بشكوال — طبع بعناية عزت العطار الحسيني ١٣٧٤ـ ١٩٥٥ في جزأين

كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري — تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ـ الطبعة الاولى ١٣٧١ ـ ١٩٥٢ م

الطالع السعيد للأذفوي — المطبعة الجمالية بمصر سنة ١٣٣٢ـ١٩١٣م

طبقات الشافعية الكبرى للسبكي — المطبعة الحسينية المصرية

طبقات الشعراء لابن المعتز — تحقيق عبد الستار أحمد فراج ـ دار المعارف بمصر

طبقات فحول الشعراء لابن سلام — تحقيق وشرح محمود محمد شاكر ـ دار المعارف للطباعة والنشر ١٩٥٢ م

الطبقات الكبرى لابن سعد — دار صادر بيروت ١٣٧٧ ـ ١٩٥٨ م

طبقات المعتزلة لابن المرتضى — تحقيق سونسة ديفلد وفلزر . بيروت ١٣٨٠ ـ ١٩٦١

طبقات النحويين واللغويين للزبيدي — تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم . الطبعة الأولى ١٣٧٣ ـ ١٩٥٤ م

ظهر الإسلام لأحمد أمين — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦١ م

عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح لتقي الدين السبكي — المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق ـ الطبعة الأولى ١٣١٧ هـ

عصر الانحدار لمحمد اسعد طلس — دار الأندلس ببيروت

العقد الفريد لابن عبد ربه — تحقيق أحمد امين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

عيون الأخبار لابن قتيبة — نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب . وزارة الثقافة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر

عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي صبيعة — تحقيق د. نزار رضا . دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٥ م

الطبعة الأولى بالمطبعة الازهرية سنة ١٣٠٥ والطبعة الثانيةبالمطبعة الوطنيةبالإسكندرية سنة ١٢٩٠ هـ

الفاخر — تحقيق عبد العليم الطحاوي ـ ١٩٦٠

فصل المقال في شرح كتاب الأمثال لأبي عبيد البكري الاونبي — تحقيق د. عبد المجيد عابدين و د. إحسان عباس . الطبعة الأولى سنة ١٩٥٨

فصيح ثعلب والشروح التي عليه — تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ـ الطبعة الأولى ١٣٦٨ ـ ١٩٤٩ م

	المكتبة التجارية الكبرى ـ مطبعة الاستقامة بالقاهرة
الفهرست تاريخ الخلفاء للسيوطي	تحقيق إدارة المطبعة المنيرية سنة ١٣٥١ هـ
فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي	تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . مطبعة السعادة بمصر
القصائد السبع العلويات لابن أبي الحديد	مطبعة العرفان ـ صيدا سنة ١٣٤٠ هـ
قلائد العقيان لابن خاقان	بإشراف محمد صالح الحنفي تصحيح وتنقيح محمد الصباغ ١٢٨٣ هـ
الكامل في التاريخ لابن الأثير	مطبعة الاستقامة بالقاهرة
الكامل للمبرد	تحقيق أبي الفضل إبراهيم والسيد شحاته مطبعة نهضة مصر
كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لملا كاتب جلبي	الطبعة الأولى سنة ١٣١٠ هـ
الكشكول للعاملي	المطبعة البهية سنة ١٣٠٢ هـ
اللباب في تهذيب الأنساب لابن الأثير	طبع سنة ١٣٥٧ هـ
لزوم مالا يلزم	الطبعة الأولى سنة ١٣١٠ هـ
لسان العرب	طبعة بولاق سنة ١٣٠٠ هـ
مجمع الأمثال للميداني	منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت ١٩٦١ م
المثل السائر لان الأثير	تحقيق . د. أحمد الحوفي . و د. بدوي طبانة ١٩٥٩
مجمع البيان في تفسير القرآن لأبي علي الطبرسي	منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت ١٣٨٠ ـ ١٩٦١ م
مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي	مكتبة القدسي بالقاهرة سنة ١٣٥٢ هـ
المحاسن والأضداد للجاحظ	مكتبة الخانجي بمصر سنة ١٣٢٤ هـ

محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية الدولة العباسية ـ للخضري	الطبعة التاسعة ١٩٥٩ م
مرآة الزمان في تاريخ الأعيان لابن الجوزي	القسم الأول من الجزء الثامن . مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد بالهند الطبعة الأولى ١٣٧٠ ـ ١٩٥١ م
مروج الذهب للمسعودي	طبع بعناية محمد الصباغ سنة ١٢٨٣ هـ
المزهر للسيوطي	تحقيق محمد احمد جاد الله ـ محمد أبو الفضل إبراهيم ـ علي محمد البجاوي ـ دار احياء الكتب العربية ـ البابي الحلبي ١٣٧٨ ـ ١٩٥٨
مصارع العشاق لابن الحسين السراج	مطبعة الجوائب بالقسطنطينية ـ الطبعة الأولى سنة ١٣٠١ هـ
مطمع الأنفس لابن خاقان	مطبعة السعادة سنة ١٣٢٥ هـ
معاهد التنصيص لعبد الرحيم العباسي	تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . مطبعة السعادة بمصر ١٣٦٧ ـ ١٩٤٧ م
معجم الأدباء لياقوت الحموي	مطبوعات دار المأمون ـ البابي الحلبي وشركاه ـ الطبعة الأخيرة في ٢٠ جزءاً
معجم البلدان لياقوت	دار صادر بيروت ١٣٧٤ ـ ١٩٥٥
المعلقات العشر وأخبار شعرائها للشنقيطي	المكتبة التجارية الكبرى بمصر ١٣٨٠ ـ ١٩٦١ م
معجم الشعراء للمزرباني	تحقيق عبد الستار فراج ـ دار احياء الكتب العربية ـ البابي الحلبي وشركاه ١٣٧٩ ـ ١٩٦٠ م
معجم المؤلفين ـ عمر رضا كحالة	مطبعة الترقي بدمشق ١٣٨٠ ـ ١٩٦٠ م
المعيار للشنتريني	تحقيق د. محمد رضوان الداية دمشق ١٩٦٨
المغرب في حلى المغرب	تحقيق د. شوقي ضيف . دار المعارف بمصر ١٩٥٣ م

مفاتيح الغيب (تفسير الرازي) المشتهر بالتفسير الكبير	الطبعة الأولى بمصر ١٣٠٨ هـ
مفتاح السعادة . لطاش كبري زاده	مطبعة دار المعارف النظامية ـ حيدر اباد بالهند ـ الطبعة الأولى
مفتاح العلوم لأبي يعقوب السكاكي	المطبعة الميمنية البابي الحلبي بمصر سنة ١٣١٨
مفرج الكروب في أخبار بني أيوب لابن وصل	تحقيق د. جمال الدين الشيال . مطبعة جامعة فؤاد الأول ١٩٥٣ م
مقاتل الطالبيين لأبي الفرج الأصبهاني	المطبعة الحيدرية في النجف الأشرف ١٣٥٣هـ
مقامات الحريري	المطبعة الحسينية المصرية ١٣٤٣ هـ ـ ١٩٢٥ م
ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي	مطبعة السعادة بمصر ـ الطبعة الأولى ١٣٢٥ هـ
النجوم الزاهرة لابن تغري بردي	مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٦٩ـ ١٩٥٠ م
نفح الطيب للمقري	تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . مطبعة السعادة ـ الطبعة الأولى ١٣٦٧ ـ ١٩٤٩ م .
نكت الهميان للصفدي	طبعة ١٩١١
نهاية الأدب في فنون الأدب للنويري	مطبعة دار الكتب بالقاهرة ١٣٤٢ ـ ١٩٢٣م
نوادر المخطوطات ـ المجموعة الثالثة	تحقيق عبد السلام هارون . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . الطبعة الاولى ١٣٧٣ هـ ـ ١٩٥٤ م
نور القبس المختصر من المقتبس في أخبار النحاة والأدباء والشعراء والعلماء للحافظ اليغموري	تحقيق رودلف زلهايم دار النشر
هبة الأيام للبديعي	شرح وتعليق محمود مصطفى

هدية العارفين . أسماء المؤلفين وآثار المصنفين للبغدادي — استانبول ١٩٥١ – ١٩٥٥ م

الوحشيات لأبي تمام — تحقيق عبد العزيز الميمني وزاد في حواشيه محمود محمد شاكر . دار المعارف ١٩٦٣م

الورقة لابن الجراح — تحقيق د. عبد الوهاب عزام وعبد الستار فراج دار المعارف بمصر ١٩٥٣ م

الوزراء والكتاب للجهشياري — تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي . مطبعة البابي الحلبي – الطبعة الأولى ١٣٥٧ – ١٩٣٨ م

الوساطة للجرجاني — تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم – علي محمد البجاوي – دار إحياء الكتب العربية البابي الحلبي وشركاه – الطبعة الثالثة

وفيات الأعيان لابن خلكان — مطبوعات دار المأمون – البابي الحلبي وشركاه الطبعة الأخيرة

يتيمة الدهر للثعالبي — مطبعة الصاوي – الطبعة الأولى ١٣٥٢ – ١٩٣٤ م .



التصويبات

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
في المقدمـــة			
١٤	الأخير	انظر[سقط]	GAL II 33
١٥	١٨	في كتابه[سقط]	GAL II 33
في الكتاب			
٧٩	١٨	الكتابة	الكناية
٨٧	١٧	تاريخ الخلفاء[ ]	ص ٣
١٠٥	٣	عواً	علواً
١٠٧	٦	تصرف	تصرف تصرف
١٣٣	١٢	واويت القبا	وداويت القلب
١٦٠	١١	وجحيم	وجحم
١٦٢	١٣	التعديلات	التعليلات
١٧١	٢١	وخلدع	وأخدع
١٨٠	٧	المتنبي	المتنبيء
١٨٣	٨	لا الإنتظار	لا الانتظار
١٨٤	٤	عملت	علمت
١٨٥	١٠	تلك	في تلك
١٩٤	٢٢	ولا أعلم.. (السطر كله) مكرر	
٢٣٤	٣	وضعت	وصغت
٢٣٤	٧	وقلت نور بدا على قضبه	
		وقفت على رأسي به لأيام	
٢٣٤	١٧	وصغت	وصفت
٢٣٦	٥	ابعدت	إبْعَدْ بَعِدْتَ

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٣٩	١٣	الاعتزاز	الاعتزاء
٢٥٠	١٩	ومابي	ومابقي
٢٦٢	٥	رسالة لابن الأثير	
		رسالة لبعض كتاب العجم	
٢٧٣	١	أدلة	أداة
٢٧٢	آخر الصفحة		سقط (١)
٢٨٩	٧	اصطفيناه	اصطفينا
٣١١	٩	الصفح	الصور
٣١٤	١٥		سقط (٢)
٣١٧	١٦	العباس	العباسي
٣٣٢	٢	ماترونه	ماترومه
٣٣٢	الحاشية (٣)		سقط (٣)
٣٣٩	١٥	كلكة	كلّة
٣٤٥	١	فباءت	فباتت
٣٦٤	١٤		سقط (٤)
٣٨٥	٩	ص ١١٦	ص ١٨٧
في الفهارس			
٤٠٣	١١	القرب	صوابُ
٤٠٣	١٢	(سقط)	القربُ
٤١٧	٥	كدر	للقصور
٤١٧	٦	للقصور	كدر
٤٣٦	٢١	منيني حبنا	منيني حيناً

سقط (١) ما أعجب شأن هذا الشاعر ، ترك ما التزم به وتبرع بما لم يلزمه فانه صدّر التشبيه بقوله : وكأنها وكأن حامل كأسها .

ويلزمه تشبيه الخمرة والساقي فشبه (٨٨ / آ) الخمرة وأهمل الساقي وتبرع بتشبيه الحباب، وما هو إلا كمن فاتته صلاة الصبح فتركها وصلى الضحى ، أو أهمل صيام رمضان وصام الأيام البيض .

وشيخنا أثير الدين أبو حيان خالف الناس في قول بشار بن برد :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه [١]

وقال : ليس هذا من تشبيه اثنين باثنين .

سقط (٢) « . . لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ، قالوا تالله إنك لفي ضلالك . . » .

سقط (٣) ٣) المثل الثائر ٨٢/٣ « . وأصبحت أيام نحرها في الناس غير مبتدأة . . » .

سقط (٤) أما افراد اليمين وجمع الشمائل فلأن الظل يبدو عن اليمين من الشمس .

---

١) ديوان بشار بن برد ٣١٨/١ والبيت من قصيدة قالها يمدح مروان بن محمد بن مروان ويمدح قيس عيلان مطلعها :

جفا وده فازور أو مل صاحبه وأزرى به أن لايزال يعاتبه

وفيه : « فوق رؤوسهم » . وفي الوساطة ص ٣١٢ ورد كما هو عند الصفدي . وفي طبقات ابن المعتز ص ٢٦ ـ ٢٨ جاء في عجز البيت : « ليل تهاوت كواكبه » .